مقدمة

الحاجة إلى منهج للغة

اللغة أخطر الظواهر الاجتماعية الإنسانية على الإطلاق . وكل تقدم اجتماعى كتب له الكمال إنما تم لوجود اللغة . تصور طائفة من الناس مجتمعة على عمل معين لا يتم إلا بالتعاون بين أفراد هذه الطائفة ؛ فهذا التعاون يقتضى توزيعاً للعمل بحيث يكون لكل فرد دوره الخاص الذى يقوم به ، وبحيث يكون بعض الأفراد موجِّها ورئيساً وبعضهم موجَّهاً ومرءوسا . وبحيث يلزم أن يتم اتصال من نوع معين بين الرئيس والمرءوس لصالح العمل . ثم ابحث فى خيالك وسوف لا تجد وسيلة للاتصال أنجع فى هذا الباب من اللغة . وخير مثال لذلك العمل القائم الآن فى كهربة خزان أسوان والانسجام المطلق فى العمل بين عمال المصانع ، والتنظيم الدقيق للجهاز الحكومى ؛ فكل أولئك أمثلة تتجلى فيها أهمية اللغة كوسيلة من وسائل الإجماع، وكأداة من أدوات تنسيق الجهود الفردية ومزجها فى مجهود جمعى عام .

واللغة أخطر رابطة تاريخية تربط بين الأجيال المختلفة من الشعب الواحد رباطاً يجعل وحدة هذه الأجيال حقيقة ملموسة على رغم اختلاف العصور ، ذلك بأن اللغة وعاء التجارب الشعبية والعادات والتقاليد والعقائد التى تتوارثها الأجيال واحداً بعد الآخر ، فصفة الاستمرار لكل هذا لا تأتى إلا عن طريق اللغة ، تورث معها ، وتبقى ببقاء ما يدل عليها من المفردات والتراكيب . وإحساس الخلف بجهة شركة لغوية بينه وبين السلف كفيل بخلق إحساس بالوحدة الشعبية بينه وبينه . منذا الذى يستطيع الآن فى أى بلد عربى أن يقطع بعروبته الخالصة ؟ وهل يستطيع الكثيرون أن يقطعوا بأنهم عرب فى أنسابهم ودمائهم ؟ الواقع أن لبعض العرب الآن من العلم بتاريخ عائلته ما يدعوه إلى الجزم بأنه غير عربى النسب ، ولكنه مع ذلك يحس بعروبته كما يحس صريح العروبة أو أكثر . لماذا ؟ لأن العربية لسان

كما ورد فى الحديث ، ولأن رابطة اللغة أقوى من أى رابطة اجتماعية أخرى ، حتى إنها لتجعل المعاصرين من المصريين والعراقيين والسوريين والتونسيين يفخرون فى وقتنا هذا بمن غزا مصر والعراق وسوريا وتونس فى التاريخ العربى القديم ؛ لأنهم يشعرون أن هؤلاء الغزاة من أسلافهم وإن لم يكونوا كذلك من جهة النسب .

واللغة سلاح من أقوى الأسلحة النفسية للسيطرة على الأفكار والأشياء . وما أمر الدعاية بالخطب والإعلانات بالأمر الهين . وفى الانتخابات النيابية والمحاكم غالباً ما يكون الجانب الظافر أقدر الجانبين على استخدام سلاح اللغة . ويغشى المصلون من المساجد ما يتمتع بإمام مجيد لاستخدام هذا السلاح . وقد كانت القدرة على الخطابة فى بعض الأحيان سبباً من أسباب الاختيار لعضوية مجلس الوزراء . وليس السحر وأثره على النفوس والأشياء بما يمكن إغفاله فى هذا المقام ، وحسبنا أنه يفرق بين المرء وزوجه ، وأنه يجعل العصا حية تسعى . وكثيراً ما تكون الكلمة ملزمة كما لو كانت قوة مجبرة ، والهزل فى نظر الفقه يوقع الطلاق والعتق ، والتوقيع على ورقة قد يكون سبباً فى شقاء أو سعادة ، وقد يحوّل مستقبل شخص ما إلى طريق غير الذى كان يسير فيه . والدعاء يستنزل رحمة السماء أو غضبها ، ولقد كان السب فى الذات الملكية — وما هو إلا حركات من حركات اللسان — كافياً لإيداع الشاتم فى السجن مدة قد تطول أو تقصر . وما كان الشاتم ليبزل هذا المنزل الخشن لولا حركات لغوية مماثلة تجرى على لسان القاضى . ومن الناس من يشترى السلعة دون حاجة إليها لأن البائع قد نجح فى إقناعه بفائدة الصفقة . وتؤثر بلاغة اللغة وجودة الغناء بها فى نفوسنا ، حتى لنخرج عن المزاج المنقبض إلى المزاج المرح المنبسط . وقد نتصرف ونحن تحت هذا التأثير تصرفاً لا يسهل علينا لو لم نكن تحت تأثير اللغة .

وقديماً قالوا : الناس أعداء ما جهلوا . وإنك لترى الشخص الذى لا تعرفه وتجلس معه جنباً إلى جنب فى القطار فلا يهمك من أمره شىء . ولو لقى شدة وهو فى حاله هذه لما دفعك دافع على التضحية من أجله . ولكنه إذا كان قد سبق فقدم نفسه إليك ، وتحدث معك بعض الوقت ، فقد يكون ذلك سبباً كافياً من أسباب

اهتمامك له والبذل من أجله لتخلصه من هذه الشدة . وإنك لتقابل الشخص تعرفه وليس بينك وبينه صداقة ، فيتوقف استمرار الصلة على بضع كلمات آلية ترددانها مثل صباح الخير ، أو السلام عليكم ، أو كيف الحال ؟ تقولانها وأنتما لا تقصدان منها غير العمل على إنهاء الموقف دون إضرار بالمعرفة السابقة . وإذا كان الناس أعداء ما جهلوا ، فإن أكثر الأمم جلباً للاصدقاء هي تلك التي تعمل على تعريف الأمم الأخرى بها ، سواء في ماضيها أو في حاضرها أو في آمالها الطموحة إلى المستقبل . فإذا كانت اللغة خير وسيلة لهذا التعريف فما أخطر اللغة إذاً ! لأن الأمة تستطيع أن تكسب الأصدقاء لنفسها إذا عملت على أن يكثر عدد العالمين بلغتها من الأجانب . وكل أجنبي يتعلم لغتك مكسب لك ؛ لأنه يجد نفسه أكثر استعداداً للشعور كما تشعر والتفكير كما تفكر ويعطف على آمالك وآلامك التي تعلمها من قراءة لغتك والكلام بها .

فطن الأوربيون إلى ذلك منذ زمن بعيد ؛ فأنشأوا مدارس لهم في البلاد الأجنبية تعلم لغاتهم ؛ فكانت لغاتهم أول سلاح من أسلحة السيطرة على البلاد التي استعمروها ؛ لأن اللغة كانت القنطرة التي عبرت عليها المسيحية من عقل الأوربي إلى قلب الأفريقي والأسيوى ، كما كان الإسلام من قبل يسير جنباً إلى جنب مع اللغة العربية . ولعل المجلس البريطاني قد كسب لانجلترا من الأصدقاء ما لم تحلم به سفاراتها وبعثاتها السياسية .

فإذا كان للغة هذا الخطر على نفس المواطنين والأجانب فحرى بدراستها أن تكون محل عناية وموضع اهتمام . ولقد حاربنا المستعمرون قديماً بأن غرسوا في نفوسنا احتقار اللغة العربية ؛ فأفقدونا ثقتنا بأنفسنا وبتاريخنا ومستقبلنا ، وأصبح الكلام بلغتنا موضع تندر ، وتكلمت الأسرات العريقة إحدى اللغات الأجنبية تركية كانت أم فرنسية أم غير ذلك . وولغ الناس في سمعة مدرس اللغة العربية كما يعتدون على سمعة كل طائفة قليلة الدخل ، ولحقت عدوى احتقار اللغة طائفة المحامين في مبدأ نشأتها ، ولا تزال تلحق طائفة المسرحيين من الممثلين في بعض الأوساط . ولكن وزارة المعارف قد عملت في ربع قرن على أن تداوى بعض

هذه الأدواء، وعلى رفع مستوى اللغة العربية من الناحية النفسية ففخر الناس بها، وتكلموها، وأعطوها حظاً أكبر من العناية. ولكن وزارة المعارف — رغم رفعها مستوى اللغة العربية من الناحية النفسية — خضعت للظروف السياسية فهبطت بمستوى اللغة من الناحية الدراسية، ونتج عن ذلك أن انخفض المستوى التعليمي العام؛ لأن اللغة وهى أكبر وسيلة من وسائل التعليم ترتفع بمستوى التعليم إذا ارتفع مستواها وتنخفض به إذا انخفض مستواها.

وعلى هذه الدعوى الأخيرة أريد أن أبنى دعوى أخرى هى أن خير التلميذين تقبلا للعلم أكثرهما معرفة باللغة التى يتعلم بها؛ وأكثر اللغتين جلباً لأصدقاء الأمة من الأجانب تلك التى تسهل دراستها وتقوم على منهج مقبول.

ولقد منيت الدراسات اللغوية العربية مدة طويلة بسمعة الصعوبة وأحياناً بسمعة التعقيد. يشهد بذلك تلاميذ المدارس من جهة؛ وهؤلاء الذين لم يتخصصوا فى اللغة من جهة أخرى، والأجانب المستشرقون من جهة ثالثة. ولعل نعت الدراسات العربية هذه النعوت إنما جاءها لعدم التجديد فى منهجها؛ فما ورثناه عن آبائنا من خلط فى التفكير اللغوى لايزال كما هو لسببين: أولهما الاعتقاد بأن الأوائل قد أتوا بما لا يمكن أن يزيد عليه الأواخر (وتلك نظرة جعلت الأتراك فى مرحلة من المراحل يقفلون باب الاجتهاد أو بعبارة أخرى يحرمون البحث العلمى تحريماً تاماً)، والسبب الثانى ضيق النظرة إلى اللغة العربية، واعتبارها مرتبطة بالقرآن احتراماً أو امتهاناً وقد أدى ذلك إلى قطع الصلة بينها وبين اللهجات العربية الأخرى القديمة والمعاصرة، وإلى تحريم الترخيص بالإضافة إلى محصولها حتى إن بعضهم ليلزم استعمال ما جاء فى المعاجم فحسب، ولايسمح للوليد من الكلمات أن يدخل حظيرة الاستعمال اللغوى.

ولم يعدم العالم العربى فى مختلف العصور من يدعو إلى التجديد فى منهج الدراسات اللغوية؛ ولعل أول محاولة لها خطرها فى هذا الباب هى محاولة ابن مضاء الأندلسى الظاهرى المذهب الذى دعا إلى اعتبار ماهو مستعمل فحسب من صيغ اللغة، دون الحاجة إلى التقدير والتعليل. وقد كثرت هذه المحاولات فى العصر الحديث؛

حتى إن بعض هذه المحاولات جاءت، من أكثر الهيئات الثقافية محافظة على القديم وغيرة عليه، ألا وهى الأزهر. على أن هـذه المحاولات قامت دائماً على الذكاء والاجتهاد الشخصيين ولم تقم على فلسفة لها عمقها فى فهم اللغة. ولست أدعى لنفسى قسطا من الذكاء الشخصى أكبر من حظ هؤلاء الذين قاموا بهذه المحاولات، بل إننى لا أسمح لنفسى – وهم أساتذتى الأجلاء – أن أساوى ذكائى بذكائهم الذى أشهد لهم به. ولـكننى لا أستطيع أن أغمط حق النظرية التى بنيت عليها هذه الدراسة وهى نظرية جاءت نتيجة تجارب القرون فى الغرب. فهيكلها غربى وتطبيقها على اللغة العربية هو القسط الذى أنا مسئول عنه فى هذا الـكتاب.

ولقد جئت فى هذا الـكتاب بشرح مناهج الفروع الرئيسية فى الدراسات اللغوية وكم كنت أود أن يتسع الزمان والمـكان لدراسة فصول ثلاثة أخرى هى: – ١ – التركيب والتحليل فى اللغـة، – ٢ – المستوى الصوابى والمجتمع اللغوى، – ٣ – الأبجـدية (وظيفتها وتاريخها واصلاحها). ولعل المستقبل كفيل بأن أخصص لهذه الفصول الثلاثة مجلدا مستقلا أقوم فيه على شرحها.

ويقوم تطبيق النظرية فى هذا الـكتاب على اللغة العربية الفصحى أولا وقبل كل شىء؛ وحين يقضى المقام بالتمثيل من اللهجات العامية؛ يجد القارىء أن معظم الأمثلة قد جاءت من لهجة الـكرنك بمديرية قنا، وقد درستها لرسالتى التى حصلت بها على الماجستير من جامعة لندن، ولهجة عدن فى جنوب بلاد العرب، وقد حصلت بدراستها على الدكتوراه من نفس الجامعة. فأما ماعدا ذلك من ذكر لهجات أخرى فأمثلته مقتبسة من بطون المراجع أو من ذاكرتى السمعية.

وتبدو الحاجة ملحة فى أيامنا هذه إلى بناء الدراسات اللغوية على منهج له فلسفته وتجاربه إرضاء للروح العلمية الخالصة من جهة، وتوفيرا لجهود عشاق اللغة من جهة أخرى. فقارىء اللغة العربية فى الوقت الحاضر يجد نفسه أمام أمشاج من الأفكار غير المتناسبة يأتى بعضها من المنطق، وبعضها الآخر من الميتافيزيقا، وبعض ثالث من الأساطير، ورابع من الدين وهلم جرا. ومن هنا كانت الرغبة ملحة إلى تخليص منهج اللغة من هذه العدوى، حتى يسلم لقارىء اللغة نص فى اللغة وللغة فحسب، غير

معتمد على أسس من خارجها . تلك هي الرغبة التي أملت هذا الكتاب ، وستملي غيره إن شاء الله . وكم أود أن يمنح المجمع اللغوى هذا النوع من الدراسات قسطا من العناية بعد أن بدأت الجامعات في الاحتفال به . وكم أود أيضاً أن يتسع صدر الجامعة وكيسها لإنشاء معامل لهذه الدراسة فى كلية دار العلوم وغيرها ؛ وسوف لا يكلفها ذلك كثيراً من المال . وفى دار العلوم الآن نواة لهذا المعمل لا ننتفع بها لعدم وجود أجزاء أخرى متكاملة معها . والله سبحانه وتعالى أسأل أن ينفع بهذا الكتاب ؛ وأن يوفقنا إلى أن نتبعه ما وعدنا به من فصول أخرى عن اللغة . إنه سميع مجيب .

المؤلف

*

تعريف بالرموز المستعملة فى هذا الكتاب

لا تكفى رموز الأبجدية العربية بنفسها للقيام بدراسة أصواتية لا للغة العربية الفصحى، ولا لأى لهجة من اللهجات العامية . ذلك لأن رموز هذه الأبجدية قاصرة قصورا عظيما من وجهة نظر العلل وقصورا أقل شأنا من وجهة نظر الصحاح . أما من جهة العلل فلم تعن الأبجدية العربية بها لا من الناحية الأصواتيــة ولا من الناحية التشكيلية ؛ بل جعلت لها رموزا إضافية تابعة لرموز الصحاح ، وتدل على الحرف أكثر مما تدل على الصوت . وحسبنا أن نعلم أن الفتحة القصيرة مثلا ذات أصوات ثلاثة فى العربية الفصحى أحدها مفخم، وثانيها أقل تفخيما ، وثالثها مرقق. ومع ذلك لم يعن واضعوا الرموز العربية بهذا؛ بل وضعوا لكل أولئك خطا يوضع فوق رمز الحرف الصحيح قلما يستعمل فى أيامنا هذه إلا فى ظروف خاصة ومواقف معينة . ولكن رموز الأبجدية العربية للصحاح إن قصرت عن غرض هذا الكتاب وهو الدراسة المفصلة للقيم الأصواتية فى الحرف الواحد ، فلن تقصر عن الأغراض العملية التى خلقت من أجلها ؛ بل إن المرء ليستطيع أن يدعى أن الأبجدية العربية ربما كانت من أوفى النظم الكتابية فى العالم بالغرض الذى وضعت له . ذلك بأنها تضع لكل حرف من حروفها رمزاً كتابياً خاصاً ، وهو أمر لا يستطيع كثير من لغات العالم أن يفاخر به .

فرق إذا بين أن نضع رموزاً للأصوات وأن نضع رموزا للحروف فالأصوات فى كل لغة من لغات العالم أكثر من الحروف ، ومن هنا يتحتم أن تكون رموز الأولى أكثر من رموز الثانية . وإذا كانت رموز الحروف ثابتة العدد لأن عــدد الحروف لا يزيد ولا ينقص فإن رموز الأصوات ليست كذلك . وليس تغيير عدد رموز الأصوات نتيجة لتغير عدد الأصوات نفسها كما قد يبدوا من سياق الكلام ، فعدد الأصوات ثابت أيضاً . ولكن الزيادة والنقص فى هــذه الرموز إنما تأتى من إرادة واضعها أن يمثل الكثير من صفاتها، فيضع له الكثير من الرموز، أو أن يكتفى

بالصفات الهامة فحسب ، فيضع لها رموزا أقل . فأقل مايدل عليه الرمز المنفصل هو الاختلاف فى المخرج ، أو فى الشدة والرخاوة والتركيب والتوسط أو فى الجهر والهمس؛ ولكن الباحث قد يريد أو يبين أمورا إضافيــة فى النطق كالتفخيم والترقيق ، وكالإجهار والإهماس ، وكالتحليق والإطباق والتغوير وكالهمز، وكالشدة الأنفية، فيضيف إلى الرمز مايوضح هذه اللامح الإضافية فيه . ومن هنا تكثر رموز الأصوات بحسب هذه الإضافة .

ووضع الرموز إصطلاح لا أكثر ولا أقل . أى أن العلاقة بين الرمز ومدلوله علاقة اعتباطية ، لامنطقية ولاطبيعية . ووضع الرمز ككل نواحى الاصطلاح بحاجة إلى الإيضاح قبل الاستعمال ؛ فيوضح صاحب الاصطلاح معناه وقيمته حتى لا يوجد حيرة القارىء فى تطبيقه واستعماله . يقول شوخارت[1] : « للحيرة فى تطبيق الإصطلاح من الأثر على البحث العلمى ما للضباب على الملاحة، بل هى أكثر خطراً ، لأن الناس قلما يحسون بوجودها » . ومن هنا أرى لزاما علىّ — وعلى كل من يستعمل الإصطلاحات الجديدة على القارىء — أن نقدم بين يدى القارىء تعريفاً بها وتحديدا لها . وإنما اكتفيت فى هذا المقام بتحديد الرموز لأننى قد أتيت مع الاصطلاحات الأخرى بتحديد جاء فى عرض القول . وفيما يأتى إيضاح للرموز الأصواتية المستعملة فى هذا الكتاب .

رموز الأصوات

(b) : يدل هذا الرمز على صوت شفوى شديد مجهور هو صوت الباء . وقد يرد للباء أكثر من صوت واحد من جهة التفخيم والترقيق ، والإجهار والاهماس فى اللهجات العامية ، ولكننا اكتفينا بهذا الرمز ليدل على كل هذه الاحتمالات ، لعدم تأثيرها تأثيراً ذا خطر على المعنى .

(ḍ) : أما هذا الرمز فلصوت الضاد . وللضاد أصوات تختلف بين القديم والحديث،

---

(1) Ulman. P. 4.

وبين لهجة حديثة وأخرى ، ولكننا نؤثر أن ندل على كل أولئك برمز واحد ، مع التنبيه فى عرض القول فى الكتاب على هذا الاختلاف فى القيم تنبيهاً يجعل للرمز قيمة خاصة حين الكلام عن كل لهجة

(d) : وهذا رمز على صوت الدال . وتعدد أشكال نطق الدال وتراوحها بين الشدة والرخاوة فى اللهجات العامية لا يقف دون جعل هذا الرمز لكل دال عربية ، ويختلف مدلوله باختلاف اللهجة مثل (ḍ) .

(ṭ) : ونرمز بهذا إلى صوت الطاء . وتختلف الطاء القديمة نطقاً عن بعض الطاءات الحديثة ، وهذا رمز نطلقه على الجميع ؛ وتأتى محدودية قيمته بحسب اللهجة كما شرحنا فى عرض القول فى الكتاب .

(t) : ولكن هذ الرمز لصوت التاء . والخلافات طفيفة بين أصوات التاء فى اللهجات العربية الحديثة بصفة عامة ، ولكن بعض اللهجات فى الوجه البحرى (فى مركز شربين مثلا) تنطق تاء ودالا من اللثة فحسب ، ولا تنطقها من الأسنان واللثة معاً .

(g) : وأما هذا الرمز فيدل على صوت طبقى شديد مجهور يوجد فى اللهجات العامية ولا يوجد فى العربية الفصحى . وهو فى اللهجات العامية لا ينتمى إلى حرف واحد ؛ وإنما يختلف حرفه باختلاف اللهجة . ففى الصعيد يعتبر هذا الصوت من حرف القاف ، وفى القاهرة وعدن من حرف الجيم .

(K) : ونرمز هذا إلى صوت الكاف ويختلف k ، g كلاهما بين الطبقية والطبقية المفوّرة ، بحسب بيئتهما فى النطق ، وبحسب اللهجة التى يردان فيها .

(q) : ويدل هذا الرمز على صوت القاف العربية الفصحى وتسمع هذه القاف فى بعض اللهجات العامية أيضاً . وتكتب القاف القاهرية هكذا (ʔ) .

(ʔ) : ونرمز بهذا إلى صوت الهمزة أو ما يسمونه الوقفة الحنجرية . أما همزة الوصل فيستحسن حين احتمال اللبس أن تكتب هكذا (ʔ̆) .

(v) : وهذا الصوت من صوتى الفاء ؛ يرد قبل (z) ، (ẓ) ، (ɣ) وبعض الأصوات المجهورة الأخرى .

(f) : وهذا رمز الصوت الآخر من صوتى الفاء . وهذان الصوتان يتقاسمان حالات ورود حرف الفاء فى السياق ؛ أى أن بينهما تخارجا .

(ẓ) : أما هذا الرمز فلصوت الظاء الفصحى . وللظاءات العامية رمز آخر هو الذى يدل على القابل المفخم لصوت z .

(ð) : ويرمز بهذا إلى صوت الذال العربية الفصحى . وهو صوت لا يوجد فى اللهجات العامية فى الوقت الحاضر .

(θ) : وأما هذا الرمز فهو لصوت الثاء العربية الفصحى، وهو كصوت الذال قاصر على العربية الفصحى .

(z) : ويدل هذا الرمز على صوت الزين العربية .

(ṣ) : وهذا رمز لصوت الصاد .

(s) : ويرمز هذا إلى صوت السين العربية .

(j) : وأما هذا الرمز فيدل على صوت غارى رخو مجهور لا يوجد فى العربية الفصحى . ولكن اللهجة السورية تجعله صوتاً لحرف الجيم ، على حين نجده فى لهجة القاهرة وعدن يتقاسم صوت الشين مع (ʃ) مع ملاحظة التخارج بينهما ؛ فيرد هذا الصوت قبل (ɣ) ، (g) ونحوها ، ويرد صوت (ʃ) فى المواضع الأخرى حيث لا يتلوه صوت مجهور .

(ʃ) : وهذ رمز لصوت الشين العربية الذى ورد ذكره فى الكلام عن الرمز السابق .

(ɣ) : ويرمز بهذا إلى صوت طبقى رخو مجهور هو صوت الغين العربية .

(x) : وهذا الرمز لصوت الخاء .

(ʕ) : وأما هذا فرمز لصوت العين العربية .

(ħ) : ويرمز بهذا إلى صوت الحاء .

(h) : وأما هذا الرمز فهو لصوت الهاء على اختلافها بين الإجهار والإهماس .

(J) : وهذا رمز على صوت الجيم العربية الفصحى التى تختلف عن الجيمات العامية

(r) : ويرمز هذا إلى صوت الراء على اختلافها ترقيقاً وتفخيما .

(l) : وهذا رمز لصوت اللام على اختلاف قيمتها الصوتية كذلك .

(m) : وأما هذا الرمز فيدل على صوت الميم المظهرة .

(ɱ) : ولكن هذا الرمز يدل على مايسميه علماء التجويد إدغاما بغنه ومن ثم كان الصوت الذى يدل عليه صالحاً لأن ينتمى إلى حرف الميم كما فى « هم فيها خالدون » أو إلى حرف النون كما فى « قبل أن تنفذ كلمات ربى » .

(n̪) : ويدل هذا الرمز على صوت من أصوات النون يخرج اللسان فى نطقه ؛ حيث يقع قبل الظاء أو الذال أو الثاء مباشرة .

(ŋ̪) : ويدل هذا على صوت آخر من أصوات النون أسنانى لثوى يقع مباشرة قبل الأصوات الأسنانية اللثوية .

(n) : وهذا رمز عل صوت آخر من أصوات النون لثوى ، يعتبر الرئيسى بين أصواتها ؛ يقع بين حرفى علة كما فى أنا ، كما يقع فى أول الكلام وفى المواقع التى لا ينص عليها مع الرموز الأخرى للنون .

(ɲ) : وأما هذا الرمز فيدل على صوت النون قبل الجيم والشين والياء .

(ŋ) : كما يدل الرمز القابل على صوتها قبل k ، g ، x — فى اللهجات العامية ، وقبل k فقط فى العربية الفصحى .

(N) : ويرمز هذا على صوت النون التى تتلوها القاف مباشرة .

(w) : وهذا رمز على صوت الواو .

(y) : كما يدل هذا الرمز على صوت الياء .

(I) : ويدل هــذا الرمز على صوت حركة الـكسرة المجاورة لأحد الأصوات المفخمة ، كما يدل (II) على صوت ياء المد فى نفس الموقع .

(*i*) : وهذا رمز على صوت حركة الـكسرة المجاورة لأحد الأصوات الطبقية الثلاثة (x) ، (γ) ، (q) ، وأما ياء المد فى هذا الموقع فيرمز إليها برمز (*i i*) .

(i) : ويرمز بهذا إلى صوت الـكسرة فى المواقع التى غير ما سبق ، وبالرمز (ii) إلى ياء المد فى نفس المواقع .

(*ɑ*) : وبهذا الرمز يرمز إلى صوت الفتحة المجاورة لأحد الأصوات المفخمة ، وأما ألف المد فى نفس الموقع فرمزها (*ɑ ɑ*) .

(a) : وهذا رمز على الفتحة المجاورة لأحد الأصوات الطبقية ، وأما رمز ألف المد فى هذا الموقع فهو (aa) .

(æ) : ويرمز بهذا إلى صوت الفتحة فى الأماكن التى غيرما سبق وبالرمز (æ æ) إلى الألف اللينة فى نفس المواقع .

(ü) : وهذا رمز على صوت الضمة المجاورة للأصوات المفخمة، وأما واو المد فرمزها فى نفس الموقع (ü ü) .

(u) : ويدل هذا الرمز على الضمة فى مجاورة أحد الأصوات الطبقية المذكورة ؛ كما يدل (uu) على واو المد فى نفس الموقع .

(*u*) : أما الضمة فى موقع عدا ما سبق فيرمز لصوتها بهذا الرمز ، وأما واو المد فرمزها هنا (*u u*) .

(ə) : وهذا الرمز يدل على صوت القلقلة الذى لا ينتمى إلى حرف معين، ويعتبر من الأصوات المركزية .

(o) : ووضع هذه الدائرة تحت أى رمز يدل على أن الصوت المقصود لحقه الأهماس .

رموز الحروف

سنكتفى هنا بوضع الرمز والاسم الذى يدل عليه مراعاة لعدم الإطالة .

الحرف	الرمز
الهمزة	ʔ
البـاء	b
التـاء	t
الثـاء	θ
الجيم	j
الحـاء	ħ
الخـاء	x
الدال	d
الذال	δ
الراء	r
الزين	z
السين	s
الشين	ʃ
الصـاد	ṣ
الضـاد	ḍ
الطـاء	ṭ
الظـاء	δ̣
العين	ʕ
الغين	γ
الفـاء	f
القاف	q
الـكاف	k
اللام	l
الميم	m
النون	n
الهـاء	h
الواو	w
الياء	y

	قصيرة	طويلة
الـكسرة	i	i i
الفتحة	a	a a
الضمة	u	u u
الخفضة	—	e e
الرفعة	—	o o

استقلال المنهج اللغوى

سوف يرى من يتتبع تاريخ الدراسات اللغوية أن هذه الدراسات كانت جزءاً لا يتجزأ من التفكير الفلسفى القديم، وسوف يرى قارىء الفلسفة اليونانية أن هذه الفلسفة قد افترضت اللغة اليونانية مقياساً للغات العالم، وبنت على ذلك اعتقاداً تخطئه الدراسات اللغوية الحديثة هو أن دراسة اللغة اليونانية فى تراكيبها وطرقها صادقة على كل لغات العالم؛ إذ أن هذه اللغات تجرى على مقياس اليونانية[1]. وهذه الدراسات اللغويه القديمة تختلط إلى حد كبير جداً بالنظريات المنطقية والميتافيزيقية، ولقد اعتبر كتاب اللغة من الإغريق الجملة حكماً منطقياً، واعتبروا طرفى الإسناد النحوى بنفس الطريقة التى اعتبروا بها الموضوع والمحمول فى المنطق. وإن من من يقرأ ما كتبه أرسطو فى المقولات والعبارة والتحليلات الأولى والثانية ليجدها مليئة بالنظرات التى تخلط بين التفكير اللغوى والفلسفى. خذ مثلا من كلامه فى مقولة الكم: «ويقال نفس الشىء عن الكلام. فمن الواضح أن الكلام ذو كمية لأنه يقاس بالمقاطع الطوال والقصار. وأقصد بذلك الكلام المنطوق[2]» ويقول: فى الفصل العاشر من المقولات: «إن الأزواج المتقابلة التى تنضوى تحت مقولة الإضافة تتضح بنسبة كل فرد منها إلى الآخر؛ وهذه النسبة تدل عليها علامة الإضافة أو أى حرف آخر». ويقول أيضاً: «إن العبارات المتقابلة من جهة الإثبات والنفى تقع بوضوح فى نطاق قسم آخر متميز لأنه من الضرورى فى هذه الحالة وهذه الحالة فحسب أن يكون أحد المتقابلين صحيحاً والآخر خطأ». ويقول: «والكلمات التى تقع فى عبارات متقابلة يقع بعضها فى نفس الوقت عكساً للبعض الآخر، وتختص الكلمات بهذا أكثر مما تختص به أى مجموعة من الأمور المتقابلة».

ويعرف أرسطو الاسم بأنه اللفظ الذى لا يدخل الزمن فى مدلوله، ولا يدل

---

(1) Bloomfield, Language, p. 5

(2) The Works of Aristotle translated into English Categorae Ch. 6.

جزء منه مستقلا عن الأجزاء الأخرى[1] . وهو يقول إن الاسم لا يوصف بالصدق أو الكذب إلا إذا أسند ويضرب لذلك مثلا بكلمة «وعل» ، فهى لا توصف بأى الصفتين إلا إذا أضيف اليها فعل . وواضح أن الصدق والكذب ليس من الدراسات اللغوية ؛ وإنما هو من الدراسات المنطقية . فالنحوى يحلل العبارة الكاذبة كما يحلل العبارة الصادقة ، ولا يهمه منها إلا التحليل اللغوى ولا يهم النحوى من قول الشاعر

يزيد جمال وجهـــك كل يوم

إن كانت هذه الشطرة صادقة أم كاذبة ، وإنما يعنيه منها أن يحللها تحليلا لغوياً لا أكثر ولا أقل . وتعريف الأداة فى نظر أرسطو هو تعريف الاسم ، إلا أنها حين يضاف إليها الفعل لا يدل معها على إسناد . والفعل ما كان الزمن من مدلولاته ولا يدل جزء منه بمفرده . أما الجملة فهى الكلام المفيد الذى لبعض أجزائه معان مستقلة باعتبارها ألفاظاً لا اعتبارها أحكاماً إيجابية »[2] فالجملة فى نظر أرسطو إذا حكم منطق ، ولكنها فى نظر الدراسات اللغوية الحديثة ليست كذلك . ثم يتكلم عن التقرير والنفى لا باعتبارهما من الأبواب النحوية ، وإنما ينظر إليهما نظره إلى قضايا المنطق . ويقول : « وكل قضية لابد أن تحتوى فعلا أو تعبيراً عن معنى الزمن فى الفعل »[3] . ويدخل بعد ذلك فى الكلام عن القضايا مستغنياً به عن دراسة الجمل . فالدراسات الإغريقية على سعتها وعمقها لم تخلق للدراسات اللغوية منهجها الخاص ، ولم تفكر فى اللغة إلا فى ظل المنطق والميتافيزيقا . يقول يسبرسن[4] «أما بالنسبة للعقول المتأملة التى كانت لفلاسفة الإغريق فإن المسألة التى بدت أشد ما تكون جاذبية كانت عامة وتجريدية : هل الكلمات تعبيرات طبيعية عن الأفكار التى تدل عليها ، أو هى علامات عرفية اعتباطية على أفكار يمكن أن يدل عليها بأصوات أخرى دلالة لا تقل شأناً ؟ وهذه ولا شك أفكار متيافيزيقية مجردة طرحتها الدراسات اللغوية الحديثة لهذا ولأن هذه المسألة لم تعد موضع نقاش فى العصر الحديث ؛ إذ هى من بديهيات الدراسات اللغوية .

---

(1) Interpretatione, Ch. 2
(2) Interpretatione, Ch. 4.
(3) ibid, Ch. 5.
(4) Language, p. 19.

وجاء الإسلام وله كتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فكان حرص المسلمين على حفظ هذا الكتاب من أن يغير أو يبدل فيه حرصاً مصحوباً بالغيرة والرغبة فى العمل . ولقد كان هذا الحرص وتلك الغيرة وما صحبهما من رغبة من الدوافع التى دفعت المسلمين والعرب إلى خلق طائفة من الدراسات اللغوية كالنحو والصرف والمعجم والتجويد وهلم جرا ، جعلت العرب يلمعون فى أفق العصور الوسطى ، ويبدون بحق فى مظهر القادة الفكريين فى العالم . فهل خلّص العرب الدراسات اللغوية من شوائب التفكير غير اللغوى بصفة عامة والتفكير الفلسفى بصفة خاصة ؟ وهل استطاعوا أن يجعلوا للمنهج اللغوى استقلالة عن مناهج العلوم الأخرى ؟ ذلك سؤال سنحاول الإجابة عليه فى الصفحات التالية :

لقد عاصرت نشأة الدراسات اللغوية العربية نشاطاً علمياً ضخماً فى البلاد الإسلامية ، شمل التدوين والسفر لطلب الروايات والترجمة من اللغات الأجنبية ترجمة تناولت فروع المعرفة التى تخدم الثقافة العربية . فترجموا الفلك والرياضات من الهندية ، كما ترجموا عن البهلوية والسريانية واليونانية . ونشأت المدارس التى احترفت الترجمة احترافا فى حران والرها وغيرهما من بلاد الخلافة ؛ وأصبحت العقلية العربية لأول مرة فى احتكاك مباشر بالأمم والديانات الأخرى ذات الثقافات المكتوبة[1] . وكان لا بد والحالة هذه أن يتتلمذ العرب على هذه الأمم ، وأن تتأثر عقولهم بعقولها ، وأن ينهجوا فى نشاطهم العلمى نهجاً تظهر فيه سمات اطلاعهم على تراث هذه الأمم .

ولعل العرب لم يترجموا عن أمة كما ترجموا عن اليونانية ، إما مباشرة أو عن طريق السريانية[1] . ومن المعلوم أن أرسطو كان له نصيب الأسد فى الكتب المترجمة إلى اللغة العربية وأن منطقه أصبح شهيراً فى البلاد الإسلامية فى العصر العباسى .

ولم يكن الاحتكاك بين العرب وبين العقلية الإغريقية فى ذلك العصر مقصوراً على الترجمة فحسب ، بل إن الصلة بين علماء المسلمين وبين رجال الدين من المسيحيين ظلت قائمة وثيقة فى هذا العهد ، كما كانت من قبل ، وكما استمرت من بعد كذلك . وقد

(1) Read O'Leary, How Greek Science Passed to the Arabs, pp. 155 — 75.

كان رجال الدين من المسيحيين كما نعلم يعرفون من اللغات ماكتبت به الأناجيل ، ولذلك كانوا يعرفون أكثر من لغة واحدة . وقد جمع الكثير منهم بين العربية ، لغة الدولة التى يدينون لها بالطاعة ، وبين الإغريقية ، لغة الدولة التى يدينون لها بالعطف والولاء . وقد كانت الإغريقية فى ذلك العصر لغة الكنيسة الأرثوذكسية التى كان أكثر المسيحيين فى الدولة [١] الإسلامية تابعاً لها . وكم دارت المناظرات بين هؤلاء المسيحيين وبين علماء الإسلام فى قصور الخلفاء وفى خارجها ، وكم دون المسلمون من الحجج على النصارى [٢] ، وكم دون النصارى من الحجج على المسلمين . ولقد كانت هذه المناظرات فى بدايتها من الدوافع التى حفزت المسلمين على خلق علم الكلام ، وكانت الأدلة فى كل هذه المناقشات تصاغ على مثال الأقيسة الأرسطوطاليسية ، وكان منطق أرسطو عند الفريقين مرجعاً نافذ الحكم والقضاء .

كان لابد والحالة على ماذكرنا أن يظهر أثر الأفكار الأجنبية فى الدراسات اللغوية عند العرب ، وأن تنتقل عدوى التفكير الأرسطوطاليسى الذى يخلط بين الدراسات اللغوية والدراسات المنطقية والميتافيزيقية إلى اللغة العربية ودراساتها وبالأخص دراسات أصل اللغة والدراسات النحوية .

يقول ابن جنى فى باب القول على اللغة وماهى [٣] : « أما حدها فهى أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، هذا حدها ، وأما اختلافها ، فلما نذكره فى باب القول عليها أمواضعة هى أم إلهام .. ؟ » فالمواضعة أو التعارف والإلهام أو التوقيف كانا عند العرب أساسين تتراوح الأفكار بينهما فى الكلام عن أصل اللغة . ولقد كانت العلاقة بين الكلمة وبين مدلولها (وهى دراسة ميتافيزيقة كالكلام فى أصل اللغة) من نصيب دراسة الفلسفة الإسلامية أكثر مما كانت من نصيب اللغويين .

أما النحو العربى فإن أثر المنطق فيه يبدو من جانبين اثنين ؛ أولهما جانب المقولات وتطبيقها فى التفكير النحوى العام ، وثانيهما الأقيسة والتعليلات فى المسائل النحوية

---

(1) O'Leary,36-46.

(٢) للجاحظ فى الفصول المختارة رسالة فى الرد على النصارى يصلح مثالا لذلك

(٣) الخصائص ص ٣١ .

الخاصة مع ما يساير ذلك من محاكاة التقسيمات اللغوية التى جاء بها أرسطو فى دراساته ، والتى ذكرنا أنه خلط فيها بين النحو وبين المنطق ويعلم القارىء أن المقولات عشر هى الجوهر والكم والكيف والزمان والمكان والإضافة والوضع والملك والفاعلية والقابلية (أو كما تسميها المتون العربية : أن يفعل وأن ينفعل [١]). ويعلم القارىء أيضاً أن هذه المقولات عليا الأجناس؛ أى أن الأجناس فيما عداها أخص منها وتندرج تحتها ولا يعلو على هذه المقولات جنس واحد منها . ثم هى كذلك أسس تفهم الأشياء مبنية عليها . فللشىء جوهر وكم وكيف وهو فى زمان ومكان، ثم هو يفهم بالإضافة إلى شىء آخر، ويدرك فى وضع معين ، وقد يكون مالكا أو مملوكا وفاعلا أو قابلا .

نظر النحاة إلى اللغة نظرتهم إلى الأشياء والمحسوسات ، فجعلوا للكلمة جوهراً كما جعلوه للمادة ، ورأوا أن جوهر الكلمة لا يتغير إلا بإعلال أو إبدال . فالأصل أو الجوهر فى « قال » « قَوَلَ » وفى فعل الأمر من « وَفَى » « إوْف » وفى كلمة «نهى» « نَهَىَ» وفى «قاض» قاضى الخ . ويذهب النحاة فى ذلك مذاهب لا تخلو من التعسف الظاهر ؛ يقول ابن جنى [٢] تحت عنوان (باب فى قلب لفظ إلى لفظ بالصنعة والتلطف لا بالإقدام والتعجرف) : وذلك كأن يقول لك قائل : كيف تحيل لفظ وأيت إلى لفظ أويت فطريقه أن تبنى من (وأيت) فوعلا فيصير بك التقدير فيه إلى (وَوْأَىُ) فتقلب اللام ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فيصير (وَوْأ آ) ثم تقلب الأولى همزة ، لاجتماع الواوين فى أول الكلمة ، فيصير (أوأ آ) ثم تخفف الهمزة فتحذفها وتلقى حركتها على الواو قبلها ، فيصير (أوا) اسما كان أو فعلا ، فقد رأيت كيف استحال لفظ (و أ ى) إلى لفظ (أ وا) من غير تعجرف ولا تهكم على الحروف ، وكذلك لو بنيت مثل فوعال لصرت إلى (ووأ آى) ثم إلى (أو أى) ثم (أوْ آ إ) ثم تخفف فيصير إلى (أوَ آء) فيشبه حينئذ لفظ (أ آ ة) أو أويت . . . . » .

---

(١) حاشية العطار على شرح مقولات السجاعى .

(٢) الخصائص ص ٤٨٣ .

ونحن نجد الجوهر اللغوى فى هذه العبارة يبدو فى صورة متعددة ، والتشكل غير غريب على الجوهر الفلسفى المنطقى أيضاً . والذى أحب أن أشير إليه هنا هو أن ابن جنى لا يرى فى كل هذا التمجرف تمجرفاً ، ولا فى كل هذا التهكم على الحروف تهكما ، وإنما يراه صنعة وتلطفاً كما رآه النحاة من قبل ومن بعد .

ولم يمن النحاة بجوهر الكلمة فحسب ، بل انساقوا أيضاً إلى التفكير فى جوهر الجملة ، فاخترعوا فكرة تقدير ما غاب من هذا الجوهر . والتقدير بلية فلسفية ميتافيزيقية ومنطقية ابتلى بها النحو العربى ولازال يبتلى . ومن الطلائع الذين هاجموا الكثير من الأفكار التقليدية فى النحو العربى ومنها التقدير ابن مضاء القرطبى . ومن كلامه فى ذلك[1] : « فإن قيل : فما تقول فى مثل (زيد قام) إذ قالوا : إن فى قام ضميراً فاعلا ؟ وليس داع يدعو إلى ذلك إلا قول النحويين : الفاعل لا يتقدم ولابد للفعل من فاعل . وقولهم هذا لا يخلو من أن يكون مقطوعا به أو مظنونا ، فإن كان مظنونا فأمره أمر الضمير المدعى فى اسم الفاعل ، وإن كان مقطوعا به صح هذا الإضمار . ولابد أن يتقدم قبل الكلام فى هذا الموضع مقدمات تعين الناظر فيه على ما قصد تبيينه ، وهى أن الدلالة على ضربين : دلالة لفظية مقصودة للواضع كدلالة الاسم على مسماه ، ودلالة الفعل على الحدث والزمان ، ودلالة لزوم ، كدلالة السقف على الحائط ، ودلالة الفعل المتعدى على المفعول به وعلى المكان . ودلالته على الفاعل فيها خلاف بين الناس ، منهم من يجعل دلالته عليه كدلالته على الحدث والزمان ، ومنهم من يجعل دلالته عليه كدلالته على المفعول به ، فإذا قيل (زيد قام) ودل لفظ (قام) على الفاعل دلالة قصد فلا يحتاج إلى أن يضمر شىء لأنه زيادة لا فائدة فيها » ، ولا شك أن ابن مضاء مصيب فيما يقول ، وإن كنت آخذ عليه أنه لم يسلم من قيود المنطق حين تكلم عن الدلالة اللفظية ودلالة اللزوم ، والدراسات اللغوية لا تعترف بدلالة اللزوم وإنما تعتبر دلالات الألفاظ بذواتها ، وتأخذ الفعل الماضى (قام) على أنه صورة دلت على المفرد الغائب

---

(١) كتاب الرد على النحاة نشره وحققه الدكتور شوقى ضيف ص ١٠٢ .

بشكلهما كما دلت على الحدث والزمان . هذا مايمكن أن يقال فى مدى تطبيق النحاة لمقولة الجوهر فى تفكيرهم اللغوى .

وأما الكم فواضح أن النحاة والقراء ربما عرفوا أن المدة (duration) التى يستغرقها نطق صوت من الأصوات لاتتناسب طردا ولاعكساً مع كميته الطولية (Quantity) ومع هذا أصروا على خلق وحدات طولية فكرية فى دراسة الأصوات العربية . فالحرف المشدّد بحرفين وأن قصرت مدته عن مدة الحرف المفرد فى بعض النطق ، والفتحة نصف الألف اللينة فى نظرهم إذا كانت كتلك القصيرة المدة التى فى آخر « منى » من قولنا « منى النفس [١] » . والتفكير المنطقى هنا واضح كل الوضوح ، وعلى الأخص إذا عرفنا أن بعض التجارب الآلية التى قمت بها على لهجة عدن قد برهنت إلى درجة تعزز ملاحظتى الخاصة تعزيزاً كاملا على أن الصوت لامفرد الأخير الساكن فى الكلام أطول من نظيره المشدد فى الوسط من جهة المدة وإن كان أقصر منه من جهة الكم .

وخطر هذا التقسيم يتضح فى الصرف بصفة خاصة حيث تقوم الكمية فى الحروف بدور القيمة الخلافية التى تفرق بين معانى الكلمات كما يبدو ذلك فى التفريق من جهة المعنى بين « عَبَدَ » و « عَبَّدَ » و « ضرب » و « ضربا » ومأأشبهها من الموازنات . ولست بذلك أريد أن أهجن الاعتماد على الكمية فى دراسة الحروف كما يعتمد على المدة فى دراسة الأصوات ، على العكس ، إن النظرة اللغوية الحديثة تحتم اعتبار الكمية فى الفو نولوجيا (التشكيل الصوتى) كما تحتم اعتبار المدة الفوناتيك (الأصوات) . ولكن أريد أن أنبه إلى الصلة بين مقولة الكم وبين التفكير فى كمية الحرف كما فهمها النحاة والقراء القدماء .

ويتضح تطبيق مقولة الكيف من نسبة كيفيات استعدادية لبعض الأفعال الثلاثية ولبعض الأسماء وفى تسمية بعض الحروف . فمن أسماء أنواع الأفعال

---

(١) راجع دراسة الكمية والمدة فى منهج التشكيل الصوتى .

الثلاثية المقصور والأجوف والناقص ، وهناك المؤنث المقصور كحبلى ، والألف اللينة ومن ذلك أيضاً التقسيم إلى مفرد ومثنى وجمع واتصاله بفكرة الكيفيات الكمية.

وأما تطبيق مقولة الزمان على دراسة اللغة بلا تفريق بين الزمان الفلسفى والزمن النحوى فواضح فى تقسيم الفعل دون نظر إلى استعمالاته . فالفعل إما ماض أو مضارع أو أمر ، والماضى ما دل على حدث مضى قبل زمن التكلم ، والمضارع ما دل على حدث فى الحال أو الاستقبال الخ . ويضطر النحاة بعد هذا التقسيم المنطقى أن يعتذروا كلما خذلهم الاستعمال النحوى . فهم يعتذرون عن الفعل المضارع الدال على المضى حين يقترن بلم ويعتذرون عنه فى تعبير مثل « إن تكن عاد قد بادت فما بادت خصالها » وعنه فى قوله تعالى : « قد يعلم الله المعوقين منكم » وعن الماضى فى قوله تعالى : « وكان الله غفوراً رحيما » وفى قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح » الخ كل ذلك لخلطهم فى التفكير بين الزمان الفلسفى والزمن النحوى . ولو أعطوا للزمن النحوى وظيفة التفريق بين الصيغ لا الدلالة على المضى والحضور والاستقبال لكان ذلك أشبه بالدراسة النحوية .

والتفكير فى مقولة المكان يبدو بالتضامن مع مقولة الكيف مسئولا عن تقدير الحركات على أواخر الكلمات . ففى قوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى » كسرة مقدرة على الألف الأخيرة منع من ظهورها تعذر اجتماع النطق بالألف والنطق بالكسرة فى وقت معا ، وفى قوله تعالى : « فانتظر يوم يدعو الداعى » ضمتان مقدرتان إحداهما مقدرة على واو الفعل والأخرى على ياء الاسم المنقوص . وهذه المقولة أيضاً مسئولة عن فكرتى الإعلال والإبدال فالإعلال تغيير شكل فى مكان معين والإبدال إنما يتم بوضع شيء مكان شيء آخر . ومن ذلك أيضاً أن الفاعل يجب أن يتأخر عن فعله . وهكذا يمكن إيجاد أكثر من مثال آخر فى النحو العربى ينم عن نفوذ هذه المقولة على تفكير النحاة .

ثم هناك مقولة الإضافة ، وقد فهم النحاة العرب كل فعل بالاضافة إلى فاعله . فإذا لم يكن للفعل فاعل مذكور فى الجملة فلا أقل من أن يقدره النحاة ليكون تفكيرهم متمشيا مع منطق المقولات . وهنا نعود مرة أخرى إلى مثال ابن مضاء

(زيد قام) لنقول إن زيدا برغم كونه موجوداً فى الجملة لم يصلح فاعلا لتحكيم فكرة المكان ، فالفاعل يأتى بعد الفعل لا قبله وإذا لم يصلح فاعلا فلا بد لنا أن نقدر فاعلا فى الجملة ، برغم أن صيغة الفعل الماضى تدل هنا بشكلها ودون الحاجة إلى تقدير على أن الفاعل مذكر غائب، ولو كان غير ذلك لتغيرت صيغة الفعل . ومقولة الإضافة أيضاً مسئولة عن فكرة الإمالة فالاسم المهال إنما اعتبر ممالا بالإضافة إلى اسم آخر ألفه صريحة بقطع النظر عن أن كلا منهما أصل فى لهجته الخاصة به . ولو درسنا اللهجة التى فيها الإمالة بمفردها ما احتجنا إلى التفكير فى هذا الباب على الإطلاق ، ولكن النحاة العرب أبوا إلا أن يدرسوا مجموعة من اللهجات فى نحو واحد ومن هنا جاءت شدة الاضطرار إلى التقسيم إلى شاذ ومطرد .

وأما الخضوع لفكرة مقولة الوضع فمثاله أن الجملة برغم عدم إمكان ظهور حركة إعرابية عليها جعل لها وضع إعرابى معين ؛ فقد تكون فى محل نصب مقول القول أوصفة المنصوب ، وقد تكون فى محل جزم جوابا لشرط ، وقد تكون فى محل رفع خبرا ، وقد تكون فى محل جر صفة وما إلى ذلك .

وهل يستطيع أحد أن ينكر أن مقولة الملك مسئولة إلى حد كبير عن الأهمية الثانوية التى منيت بها الحركات فى الدراسات العربية والسامية ؟ فالمحل الأول والاهتمام الأول للحرف الصحيح . وهذا الحرف الصحيح إما أن يكون منصوباً أو مجروراً أو مرفوعاً فالحركة إذاً وصف للحرف الصحيح وملك يمين له كما رأى ذلك النحاة . وفى كل لغات العالم الأخرى تكتب الحروف والحركات جنباً إلى جنب فى روح من المساواة ، ولكن اللغة العربية قد جعلت من حركاتها فى الخط علامات كتابية ، وفى النحو علامات إعرابية فهى علامات لاحروف فى الحالتين . على أن العروضيين — والشعر موسيقى كما نعلم — قد قلبوا الوضع فى رمزهم إلى مقاطع الشعر بالخطوط والدوائر فجعلوا الاهتمام الأول بالحركة لقيمتها الموسيقية وأهملوا الحرف أن يرمز إليه ؛ فكانت الشرطة علامة على حرف متحرك (والشرطة حركة فقط فى الكتابة) وجعلوا السكون علامة على حرف ساكن أو مدّ . وكلا النظرتين تقع تحت النقد الشديد .

والمقولتان الأخيرتان مسئولتان إلى حد كبير عن أهمية أساس من أسس النحو العربى ألا وهو نظرية العامل [١]. فإذا كان الشيء إما فاعلا وإما قابلا فلماذا لا تكون الكلمات كذلك؟ ولماذا لا يكون بعض الكلمات عاملا فى بعضها الآخر؟ حتى المعانى جوز النحاة لها أن تعمل الرفع. وابن مضاء أيضاً ممن هاجموا نظرية العامل فأبانوا فسادها إلى أقصى حدود الإبانة. يقول [٢]: « قصدى فى هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه.

فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لايكون إلا بعامل لفظى، وأن الرفع منها يكون بعامل لفظى وبعامل معنوى، وعبروا عن ذلك بعبارات توهم فى قولنا (ضرب زيد عمرا) أن الرفع الذى فى زيد والنصب الذى فى عمرو إنما أحدثه ضرب». ثم يستطرد فيقول: « وأما القول بأن الألفاظ يحدث بعضها بعضاً فباطل عقلا وشرعا، لايقول به أحد من العقلاء لمعان يطول ذكرها فيما المقصد إيجازه: منها أن شرط الفاعل أن يكون موجودا حينما يفعل فعله، ولا يحدث الإعراب فيما يحدث فيه إلا بعد عدم العامل، فلا ينصب زيد بعد إن فى قولنا (إن زيدا) إلا بعد عدم إن ».

وواضح أن ابن مضاء يعالج المسألة علاجا منطقياً أيضاً وإن كان قد بين فساد وجهة نظر النحاة. وقد تورط فى كتابه فى دعوى لايمكن السماح بها وهى أن العامل النحوى هو المتكلم. فهو إن كان قد ألغى عاملا فقد فرض عاملا آخر لاتجيزه الدراسات اللغوية الحديثة، لأن المتكلم لا يرفع ولا ينصب بنفسه وإنما بحسب القواعد.

نرجو فى هذا الموضع أن نكون قد بينا للقارىء مدى تأثر النحاة بالمقولات العشر فى تفكيرهم اللغوى ونود بعد ذلك أن نعرض لنوع آخر من تأثرهم بالمنطق

---

(١) راجع الخصائص ص ١١٥ فى الكلام عن العامل.
(٢) الرد على النحاة ص ٥٨

وبما كتبه أرسطو نخلط فيه بين الدراسات اللغوية والدراسات الفلسفية . وأوضح مثال لذلك هو العلل والأقيسة فى النحو . « ومما يجب أن يسقط من النحو العلل الثوانى والثوالث ، وذلك مثل سؤال السائل عن (زيد) من قولنا (قام زيد) لم رفع ؟ فيقال لأنه فاعل ، وكل فاعل مرفوع ، فيقول ولم رفع الفاعل ؟ فالصواب أن يقال له : كذا نطقت به العرب . ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام المتواتر . ولا فرق بين ذلك وبين من عرف أن شيئا ما حرام بالنص ، ولا يحتاج فيه إلى استنباط علة ، لينقل حكمه إلى غيره ، فسأل لم حرم ؟ فإن الجواب على ذلك غير واجب على الفقيه[١] » . وقد قسم ابن مضاء العلل إلى ثلاثة أقسام :قسم مقطوع به وقسم فيه إقناع وقسم مقطوع بفساده .

والفرق عنده بين العلل الأول والثوانى أن الأول تؤدى إلى المعرفة بنطق العرب ولا كذلك الثوانى فهى لا تفيدنا إلا أن العرب أمة حكيمة . وهذا كلام صريح من ابن مضاء فى اتهام النحاة بالميل إلى المنطق ميلا يخرج بالدراسات النحوية عن طبيعتها . ويقول ابن جنى[٢] : « اعلم أن علل جل النحويين وأعنى بذلك حذاقهم المتقنين لا ألفافهم المستضعفين أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين وذلك أنها إنما هى أعلام وأمارات لوقوع الأحكام ووجود الحكمة فيها خفية عنا غير بادية الصفحة لنا » .

« والعرب أمة حكيمة ، فكيف تشبه شيئاً بشىء ، وتحكم عليه بحكمه، وعلة حكم الأصل غير موجودة فى الفرع . وإذا فعل واحد من النحويين ذلك جُهّل ولم يقبل قوله ، فلم ينسبون إلى العرب ما يجهل به بعضهم بعضا ؟ وذلك : أنهم لايقيسون الشىء ويحكمون عليه بحكمه ، إلا إذا كانت علة حكم الأصل موجودة فى الفرع ! وقد فعلوا ذلك فى تشبيه الاسم بالفعل فى العمل ، وتشبيههم إن وأخواتها بالأفعال المتعدية فى العمل »[٣] . نعم لقد قاس النحاة بعض الأحكام على بعض كما يفعل الفقهاء وأدى بهم ذلك إلى تصحيح ما لم يرد سماعه عن العرب فجعلوا

(١) الرد على النحاة ص ١٥١
(٢) الخصائص ص ٤٦
(٣) الرد على النحاة ص ٦ — ١٥٧

ذلك عربياً كالذى ورد به النص والذى يقرأ ما كتبه ابن مضاء عن القياس فى صور التنازع يرى أسوأ مثل من أمثلة تحكيم المنطق فى النحو . « واعلم أن من قوة القياس عندهم اعتقاد النحويين أن ماقيس على كلام العرب فهو عندهم من كلام العرب نحو قولك فى قوله كيف تبنى من ضرب مثل جعفر ضَرْبَبْ هذا من كلام العرب ولو بنيت مثله ضيرب أو ضورب أو ضروب أو نحو ذلك لم يعتقد من كلام العرب لأنه قياس على الأقل استعمالا والأضعف قياساً »[1] .

والمعلوم أن المنطق القياسى غير صالح للدراسات العلمية، لأنه يوجد القاعدة أولا ثم يفكر فى ما يمكن أن يدخل تحتها من مفردات . ومع أن البحث العلمى يستخدم المنطق الاستقرائى الذى يستقصى المفردات أولا فيوجد جهة الشركة بينها ليتخذها نتيجة البحث أو قاعدته ، ومع أن الرواة العرب قد ضربوا الأمثلة للنحاة بسفرهم إلى الصحراء لجمع مادتهم التى تستقرأ ، ومع أن شيئاً من الاستقراء قد تم فعلا فى ظروف غير علمية جعلته فى الكثير الغالب استقراء ناقصاً إلى حد كبير لم يستطع النحاة العرب أن يتخلصوا من قبضة أرسطو السحرية ، ولا من نفوذ منطقه القياسى الذى لم تصطبغ به دراساتهم اللغوية فحسب ، بل اصطبغ به الفقه الإسلامى وعلم الكلام كذلك ، كما افتتن قوم إلى جانب المنطق بالسفسطة فى الكلام عن العقائد وأوضح مثال للسوفسطائية العربية هو أبو عثمان الجاحظ . فالعلل والأقيسة إذاً جهتان من جهات النفوذ الأغريقى على دراساتنا اللغوية العربية.

لعلنا بذلك قد أجبنا على السؤالين اللذين طرحناهما فى مبدإ هذا الفصل : هل خلص العرب الدراسات اللغوية من عدوى التفكير غير اللغوى بصفة عامة ومن التفكير الفلسفى بصفة خاصة ؟ وهل استطاعوا أن يخلقوا للمنهج اللغوى استقلالا عن مناهج العلوم الأخرى ؟ .

ثم هبت فى أوربا ريح جديدة على الدراسات اللغوية بعد الكشف عن اللغة السنسكريتية لغة الهنود القدماء . هذه الحركة التجديدية اللغوية فتحت آفاقا

(١) الخصائص ص ١١٩

واسعة للدراسات اللغوية من وجهة النظر التاريخية فى المبدإ ثم من الوجهة الوصفية بعدئذ . وبدأت هذه الدراسات خاضعة لعديد من المناهج ولكنها كانت دائما تتقدم إلى هدفها النهائى الذى هو استقلال اللغة بمنهج خاص بها . « هؤلاء الذين تشغلهم البحوث اللغوية لم يبدأوا فى ادعاء مرتبة العلم ولقبه لدراساتهم إلا من زمن قصير . وقد كان تطور علم اللغة باعتباره علما من ثمرات هذا القرن[١] ولو أن أصول هذا التطور ترجع إلى عهود أقدم . ولقد كان لهذا العلم تاريخ لا يختلف فى الحقيقة عن تاريخ بقية العلوم التى تقوم على الملاحظة والاستنباط كالجيولوجيا والكيمياء والفلك والطبيعة التى بناها النشاط العقلى فى العصر الحديث على الملاحظات الضئيلة والاستنباط البدائى الذى تم فى العصور الماضية »[٢] .

وهكذا بعد أن كانت الدراسات اللغوية فى الماضى جزءاً لايتجزأ من التفكير الفلسفى بدأت تنفصل فى القرون الأخيرة باعتبارها فرعا خاصا من فروع المعرفة . حقاً إن علم اللغة لايستطيع الاستغناء عن بقية الدراسات العلمية والفلسفية ، ولهذا رأينا فروع المعارف الحديثة تتسرب إلى علم اللغة إلى جانب المنطق الإغريقى القديم ، فأصبحت الاصطلاحات النفسية والطبيعية والرياضية والموسيقية والتشريحية وهلم جرا تتردد فى الكلام عن اللغة كما ترددت من قبل أفكار الفلسفة واللاهوت والأساطير . وهذه العدوى التى وفدت إلى علم اللغة من الدراسات الأخرى مسئولة عن الاختلاف فى طريقة التناول لمشا كله اختلافا يشمل من الطرق مالا يمكن بحال أن يسمى منهجاً لغوياً . ولكن هذا الخلط ما كان ليدوم ، وما كانت النظرة الحديثة الفاحصة لتتخطاه غير فطنة إليه ، ومن ثم جهد العلماء فى تحديد منهج اللغة وتخليصه من الشوائب التى تعلق به وافدة من فروع المعارف الأخرى . « ولأسباب تاريخية يسهل فهمها كانت الدراسات العلمية اللغوية فى طريق تحديد مجالاتها وطرقها واستحقاق مكانها الخاص بين العلوم منذ بدء عصر مابعد نابليون فى أوربا الغربية . ولكن المجهودات الأولى فى هذا السبيل تأثرت بالأجواء العقلية التى لونت ذلك العصر »[٣]

---

(١) أى القرن التاسع عشر

(2) W. D. Whitney, Language and the Study of Language, London 1880 p. 1.

(3) Margaret Schlauch, Early Behaviourist Psychology & Contemporary Linguistics. Word, Vol. 2. 1946. pp. 25 — 36.

يمكن القول إذاً إن علم اللغة الحديث نتيجة من نتائج القرن الثامن عشر وما تلاه من القرون . ولقد اصطبغ هذا العلم فى كل قرن من هذه القرون الثلاثة الأخيرة بصبغة خاصة معينــة مختلفة عن صبغته فى القرنين الآخرين . ففى القرن الثامن عشر عنى العلماء اللغويون بالدراسات الإنسانية وبدراسة فيلولوجيا اللغتين القديمتين اللاتينية والإغريقية دراسة يصحبها اتســاع تدريجى فى الأفق اللغوى ، وانهماس فى التأمل فى أصل اللغة ، وتقويم اللغات بعضها بالنسبة للبعض الآخر من جهات نظر مختلفة كالبنية والغنى والجمال والتراث الأدبى وهلم جرا . وهذه التأملات والمقارنات لا تدخل فى نطاق علم اللغة الحديث إما لأنها ميتافيزيقية وإما لأنها ذاتية غير موضوعية ولا علميــة . ولقد كان الـكشف عن اللغة السنسكريتية فى هذا القرن أهم حادث يمكن اعتباره نقطة البداية لعلم اللغة الحديث ، وكان الـكشف عن هذه اللغة من حظ السير وليام جونز الذى كان حينئذ يقيم بالهند ، وقد كتب إلى الجمعية الآسيوية يخبرها عن كشفه هذا . « ولقد بدأ علم اللغة الحديث يشق طريقه باعتباره حقلا خاصاً مستقلا عن الحقل الأدبى بعد كتاب السير جونز بسنوات . وكان على طلاب هــذا العلم فى القرون التى تلت أن يخلقوا لأنفسهم حدود مادته وطريقته »[1] : وانحصرت المادة والطريقة فى القرن التاسع عشر فى دراسة وجهة النظر التاريخية فى اللغة . «هؤلاء الذين يعرفون مؤلفات أوتويسبرسن الذائعة الصيت سيذكرون كيف يعلن بقوة أن علم اللغة تاريخى . وهؤلاء الذين يلاحظون أغلفة مجلدات القاموس الإنجليزى الحديث المعروف عموماً باسم قاموس أكسفورد ، سيذكرون الضمان المعطى عن النظرة التاريخية فيه وهذا يوضح الحرف (N) من مختصر اسمه N.E.D.[2] » . هذه الناحية التاريخية ومايتصل بها من فـكرة التطور بالإضافة إلى الاهتمام الـكبير بالمذهب الميكانيكى الفلسفى فى ذلك العهد لم تجعل علم اللغة فى انسجام مع العلوم الطبيعية فحسب ، بل جعلته فى حمايتها أيضاً وعلى الأخص علم الحياة من بين هذه العلوم . ولم ينعكس هذا الوضع على تقسيم اللغات واستعمال

---

(1) M. M. Lewis, Language in Society, p. 232.
(2) Firth, Personality and Language in Society - Sociological Review, Vol. II Sect. two. 1950 p. 37.

اصطلاحات مثل « عائلة » و « اللغة الأم » و « اللغة الأخت » فحسب ، بل ظهر كذلك فى تناول أى لغة تناولا دراسياً باعتبارها كائنا عضوياً نامياً أو منحلا كالذى نجده فى كتابات ماكس مولر مثلا وكالذى نجده فى الاقتباس التالى من درمستاتير[١] « من الحقائق المسلم بها فى أيامنا هذه أن اللغات ذات حياة عضوية لا تقل بكون اللغة عقلية محضة عن حياة النبات أو الحيوان بل يمكن أن تقارن بهما » . ولم يكن ذلك شأن العلوم الطبيعية فحسب بل كان للعلوم الاجتماعية تأثير مشابه على الدراسات اللغوية كعلمى النفس والاجتماع . لقد جرف التيار الثقافى فى القرن التاسع عشر طلاب اللغة فاسترشدوا فى دراسة اللغة بجمع من الطرق المنهجية غير المتناسقة ؛ فاعتقد بعضهم أن خير طريق لمعرفة طبيعة اللغة إنما يوجد فى علم النفس ؛ فلكى نفهم الكيفية التى تؤدى اللغة بها عملها يجب أن ندرس عقلية المتكلم . واعتقد آخرون أن اللغة ما دامت ظاهرة اجتماعية فلا يمكن أن تستقل عن علم الاجتماع . فاللغة سلوك معين ينمو بمحاولة المرء أن يسد مطالبه فى المجتمع . وما كان هذا الاتجاه من علماء اللغة لينتج دراسة لغوية مستقلة هدفها اللغة ولا شىء سواها . ومع هذا فان القرن التاسع عشر مسئول عن التقدم بهذا العلم بخطوات واسعة موفقة . فقد شهد كثيراً من المجهودات الخالقة المبدعة التى نتجت عنها نتائج نهائية الصبغة مثل تقسيم اللغات والقوانين الصوتية والصياغة القياسية وأفكار أخرى لا تقل عن ذلك فى أهميتها ؛ كل أولئك من نتائج القرن التاسع عشر . وحل الاستقراء كذلك محل القياس باعتباره أساساً من أسس المنهج فى تناول المادة اللغوية وافتضحت بعض خرافات الماضى وطرحت . « ولقد كون اللغويون الذين درسوا اللغات الهندية الأوربية لأنفسهم بالتدريج منهجاً قد يكون أكثر قربا من الكمال من منهج أى علم آخر يتناول النظم الانسانية » [٢] .

وإذا اصطبغ القرن التاسع عشر بالصبغة التاريخية فإن القرن العشرين إنما يصطبغ بالصبغة الوصفية . « ويزداد استحقاق علم اللغة الوصفى لمكانته باعتباره

---

(1) A. Dermestater, La Vie des Mots, p. 3.
(2) Sapir, Selected Writings, p. 160.

مجموعة مستقلة من المواد المترابطـة كالأصوات والتشكيل والجراماطيقا والمعجم والدلالات وما يمكن أن يسمى علم الاجتماع اللغوى »[1] .

وكان نفوذ المذهب الميكانيكى لا يزال يحس فى بداية هذا القرن فبدت صورة منه أمريكية فى شكل مذهب نفسى هو مذهب السلوكيين الذى لوّن الدراسات اللغوية الأمريكية بلونه تماما كما يمكن أن يرى ذلك بوضوح فى كتابات Bloomfield. وفى نفس الوقت جرت محاولات لتخليص طرق الدراسات اللغوية من النفوذ الخارجى وأشهر هـذه محاولة De Saussure خلق منهج شـكلى يطلق عليـه علماء اللغة من الشيوعيين static mechanical structuralism على سبيل العيب .

وكما كان بلومفيلد تابعا لمذهب وايس السلوكى كان دى سوسور تابعاً لمذهب دوركايم الاجتماعى التركيبى ، وفى كلتا الحالتين تستعير اللغة طريقتها من منهج غريب عنها مع التضحية باستقلالها فى المنهج . فيرى أولهما أن اللغة مجموعة من ردود الأفعال المشروطة، ويراها الثانى بنية مركبة يمكن أن توصف باستعمال كلمتى رأسى وأفقى . يفعل ذلك حين يشرح اصطلاحية diachronique و Synchronique .

وإذا نظرنا إلى اللغة باعتبارها مجموعة من النظم الوضعية الاجتماعيـة ذات أقسام من الأنماط والعلامات وجدنا أن من الممكن أن نستقل بمنهجها عن مناهج العلوم . ويأخذ منهجها فى اعتباره الشكل والوظيفة باعتبارهما أساسين من أسس بنائه يطبقان فى كل فرع من فروع الدراسات اللغوية . هذه الدراسات ليست إلا مجموعة متناسقة متكاتفة متلاحمة من المناهج الفرعية لتناول الأحداث اللغوية منطوقة أو مكتوبة . ولقد وضعت هذه المجموعة من المناهج لتصل بنا إلى علاج اللغة علاجا منظما امبركالياً تحليلياً مستقلا بمعنى أنه لا يتخذ نقطة بداية له فى أى علم غير علم اللغة . نستطيع أن نسمى هذا المنهج شكلياً أو وظيفياً ، ووجهة النظر الوظيفية لم تختر اعتباطا وإنما جاءت من أن اللغة تستخدم وسيلة « من وسائل الاجتماع وأداة ذات غرض محدد » كما يقول مارتينيه[2] .

---

(1) Firth, Personality & Language.

(2) Phonology as Functional Phonetics, Publications of the Philological Society XV, p. 5, London, 1949.

اللغـــة والـكلام

كثيراً ما نستعمل تعبيرات مثـل « اللغة العربية » أو « اللغة التركية » أو « اللغة الفارسية » وكثيراً أيضاً ما نقول « كلمته فى الأمر » و « تكلم إلىّ فى المسألة » و « خـــير الـكلام ما كان لحنا » . فما المقصود باللغة وما المقصود بالـكلام ؟

أما فى الاستعمال الشائع فـكلنا يعطى الـكلمة الأولى طائفة من المعانى المتباعدة التى ربما نجد معنى الـكلام واحداً منها . ويتضح ذلك إذا قارنت الجمل الآتية :

١ — لغة القرآن . ٢ — لغة العيون . ٣ — لغة الطيور .
٤ — لغة الصعيد (فى مقابل لغة الوجه البحرى) . ٥ — لغة أولاد البلد
٦ — لغة الجزّارين ٧ — لغة قذرة . ٨ — هذا التعبير غيرمستعمل فى لغتى الخاصة أو لغة العائلة . ٩ — اللغة السامية الأولى .

١٠ — محاضرات اللغة .

سيرى القارىء أن المثال الأول قد استعمل كلمة « لغة » بمعنى أسلوب وأن الثانى والثالث قد استعملاها بمعنى غير لغوى تقليدى وأن الرابع قد استعملها بمعنى لهجة أو مجموعة من اللهجات المتناسبة وأن الخامس والسادس قد استعملاها بمعنى اللهجات الخاصة المهنية أو الطائفية ، وأن السابع والثامن قد استعملاها بمعنى الـكلام تقريباً وعبر التاسع والعاشر بها عن فـكرة دراسية فحسب .

ولاستعمالات الـكلام شيوع أيضاً ربما اتضح فى الأمثلة الآتية :

١ — القرآن كلام الله . ٢ — كلام فى كلام . ٣ — كلام فارغ .
٤ — علم الـكلام . ٥ — كلام الراديو . ٦ — كلام جرائد .
٧ — كلام نسوان . ٨ — كلام الإنجليز . ٩ — كلام برابرة .

ومعانى ذلك على التعاقب : ١ — إيحاء الله . ٢ — شىء لايوثق بصحته ٣ — هراء . ٤ — جدل . ٤ — أصوات صادرة عن الجهاز مبدؤها

كلام فى مكان آخر وربما كان فى وقت آخر أيضاً . ٦ — مقالة مكتوبة فى الجريدة من النوع الذى يقصد به الدعاية . ٧ — تفكير غير متزن . ٨ — لغة الإنجليز . ٩ — أصوات مختلطة .

ففى الاستعمال الشائع العادى اتساع تسمح به طبيعة التخاطب بين النـاس وهى طبيعة تميل إلى عدم التحديد المضبوط الذى نلاحظه فى الاصطلاح العلمى ، وتميل أيضاً إلى استعمال الأساليب البلاغية التى تقابل الحقيقة كالمجاز والاستعارة والـكناية ، ثم هى أخيراً طبيعة محكومة بمستوى ثقافى عام لا يرقى بحال إلى مستوى المتخصصين الذين ينظرون إلى التفريق بين الـكلام وبين اللغة نظرتهم إلى وسيلة من وسائل فهم كليهما . فما اللغة وما الـكلام من وجهة النظر الدراسية ؟

قلنا إن دى سوسور قد خلق للغة منهجاً شكلياً تركيبياً مبنياً على وجهة نظر دوركايم إلى علم الاجتماع . وفى هذا المنهج يفرق دى سوسور بين اصطلاحات ثلاثة :

١ — اللغة (بالمعنى الأعم أى بمعنى الظاهرة الاجتماعية) Le Langage

٢ — اللغة المعينة (وهى التى تتخذ موضوعاً للدراسة كالعربية) La Langne

٣ — الـكلام (وهو النشاط العضلى الصوتى الفردى) La Parale

واللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية تقع فى مجال علم الاجتماع كما تقع فى مجال علم اللغة . ولها جانبان من جوانب الدراسة أحدهما اللغة المعينة وثانيهما الـكلام . يقول دى سوسور[1] . «تشتمل دراسة اللغة على ناحيتين إحداهما جوهرية موضوعها اللغة المعينة التى هى اجتماعية فى جوهرها ومستقلة عن الفرد وهذه الناحية نفسية فحسب ، أما الأخرى فتتناول الدور الفردى للغة باعتباره موضوعاً لها أو بعبارة أخرى الـكلام المـكون من أصوات وهذه نفسية وعضوية معاً » .

واللغة المعينة فى نظره جزء من الوعى الجمعى (أو العقل الجمعى كما يسميه بعض الباحثين) Conscience Collective . وهذا العقل الجمعى إنما يوصف به الـكائن الاجتماعى الذى قال به دوركايم ، وهذا الـكائن الاجتماعى هو ملخص للمجتمع .

(1) Cours de Linguistique Generale, P. 37.

هذه اللغة المعينة ضرورية لفهم الكلام كما أن الكلام ضروري لفهمها . وهي مجموعة من العلامات المختزنة في العقل الجمعي ، ولا تنطق لأنها ليست فردية . ويشبه دي سوسور هذه الصورة بالقاموس الذي توجد فيه الكلمات صامتة غير منطوقة صالحة للنطق والاستعمال ، وإنما تستخرج منه فرادى بحسب الحاجة إليها أو بحسب الاختيار . وليست اللغة المعينة في عقل أي فرد أو وعيه ؛ وإنما هي شركة بين الفرد وبين بقية أفراد المجتمع اللغوي الذي يعيش فيه . فهي توجد في حاصل جمع عقولهم جميعاً . فإذا استطعنا كما يقول دي سوسور أن نستخرج الصور الكلامية المختزنة في عقول جميع الأفراد في مجتمع لغوي واحد فإننا سنلمس تلك الرابطة الاجتماعية التي تربطهم جميعاً وهي ما يسميه دي سوسور اللغة المعينة . ذلك الكنز المختزن يقوم على حراسته الكلام العملي للأفراد الذين تربط بينهم هذه الرابطة . فاللغة المعينة إذاً نظام جراماطيقي يوجد تقريباً في جميع العقول، أو لنعبر عن ذلك بدقة يحسن أن نقول في عقل مجموع الأفراد ؛ أو كما سميناه الوعي الجمعي . وذلك لأن اللغة المعينة لا يمكن أن تكون كاملة في ذهن أي فرد بعينه ؛ بل لا تكتمل إلا في الوعي العام . ويعبر دي سوسور عن هذه المعادلة الاجتماعية بما يأتي :

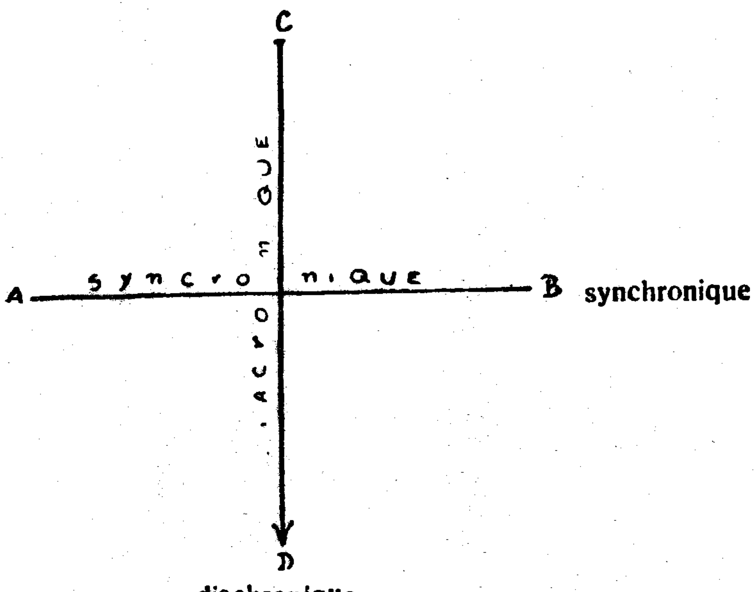
١ + ١ + ١ + ١ = **١** (وهذا الواحد الأخير يشمل جميع الآحاد قبله) .

ويرى دي سوسور أن هذا الوعي الجمعي ربما كان له وجود نفسي .

ولدراسة اللغة المعينة من وجهة النظر الزمنية ناحيتان : فهي إما أن ينظر إليها نظرة تاريخية تأخذ في اعتبارها التطور والتحول على مر العصور . فهذه النظرة يسميها دي سوسور diachronique . وإما أن تؤخذ منها مرحلة تاريخية بعينها état de langue لتدرس فيها نظمها الجراماطيقية أو الدلالية دون نظر إلى التطور والتحول . وهذا ما يسميه هو synchronique . ولقد وضح دي سوسور هاتين الفكرتين بالاتجاهين الرأسي والأفقي على الترتيب هكذا[1] :

---

(١) أنظر ص ١١٥ من كتابه .



وقصد بذلك أن نقطة البداية فى التطور فى قمة الخط الرأسى ، ثم يتجه خط التطور إلى أسفل متقدماً مع الزمن ، حتى يصل إلى أقرب مرحلة إلى وقتنا الحاضر تدخل فى نطاق بحثنا الذى نرمه فى هذا التطور . وكل شىء فى هذه الدراسة التاريخية متحول متطور لا يمكن أن يدرس باعتباره مستقراً ، ويستطيع المرء أن يقسم هذا الخط الرأسى بخطوط أفقية متعددة تماثل الخط الأفقى الذى تراه فى الشكل ، وترمز بما بين كل خطين من هذه الخطوط إلى etat de langue تدرس من الناحية السنكرونية . ولعل القارىء قد لاحظ أن الخط الأفقى غير ذى سهم فى طرفه ، حيث اصطلحنا على أن السهم دليل على قصد التنبيه إلى وجود حركة ، وفى أى مرحلة لغوية تؤخذ لتدرس سنكرونيا لا توجد حركة ولا تطور ولا تحول بل تعرض الحالة ثابتة ثباتاً تاماً تمشياً مع هدف الدراسة : واللغة المعينة فى رأى دى سوسور « نتاج اجتماعى لملكة اللغة ومجموع حالات عرفية ضرورية يكيفها المجتمع ليسمح لهذه الملكات الفردية بالعمل »[١] . فاللغة إذاً ملكة أو طاقة أو استعداد أو سمها ماشئت ، ولكن اللغة المعينة نتاج جمعى لهذه الملكة ، ومجموعة من حالات التعارف الضرورية مكيفة اجتماعياً لتسمح بالعمل للملكات الفردية .

(٢) ص ٢٥

ويقول فى التفريق بين اللغة المعينة وبين الملكة « وبهذه الطريقة من طرق التقسيم يستطيع المرء أن يقول إن اللغة تنبنى على ملكة فى طبيعتنا ، على حين نجد اللغة المعينة شيئا مكتسباً متعارفا عليه يمكن أن يخضع للغريزة الطبيعية بدل أن يتقدم عليها[1] » .

ومن المؤكد أن اللغة المعينة لابد أن تكون صامتة غير منطوقة . وقد سبق أن سقنا تشبيه دى سوسور لها بالقاموس الذى يحتوى بين جلدتيه على محصول لغوى غير منطوق ، ولكنه صالح للنطق والاستعمال بالإرادة وفى الوقت المناسب . ثم هى مجموعة من النظم والعلامات التى تدخل فى هذه النظم فيستخدمها الفرد فى الكلام .

وهذا التعدد فى النظم هو الذى برر وصف اللغة المعينة بأنها Polysystemic (أى متعددة النظم) ، بمعنى أن فيها نظاما أصواتيا إلى جانب نظام صرفى وآخر نحوى وهلم جرا . وهذه النظم المتعددة متماسكة متضافرة تتعاون جميعاً فى خلق هذه المنظمة الاجتماعية الكبرى — اللغة المعينة .

ويمكن أن ندرس اللغة المعينة مع قطع النظر عن دراسة الكلام بها ، وكلنا يدرك إمكان دراسة اللغات الميتة برغم أنها لم تعد تنطق ولا تحيا على ألسنة المتكلمين ، كالسنسكريتية والإغريقية واللاتينية ، بل دعنا نجرؤ على التمثيل باللغة العربية الفصحى أيضا . ويدرس طلبة الجامعة الآن لغات قديمة متعددة كالتى ذكرناها، وكالعبرية والسريانية والمصرية القديمة والقبطية ، وقد يحسن بعضهم العلم ببعضها مع أنها لغات لا يتكلمها الآن شعب من شعوب الأرض .

وبينا نجد «اللغة» تصدق على لغات مختلفة غير متجانسة نجد « اللغة المعينة» على العكس من ذلك منسجمة فى تجانسها ؛ فهى نظام من العلامات التى ترتبط بمعانيها ارتباطا اعتباطيا وتعبر هى ومعانيها على التساوى عن مدركات نفسية .

فإذا نظرنا مثلا إلى عملية إنتاج الأصوات الضرورية للكلام فإننا سنجد

---

(١) ص ٢٥ .

الأوتار الصوتيه حارجة حروجا تاما عن مفهوم اللغة المعينة ، كخروج الجهاز الـكهربائى الذى يستخدم فى نقل رسائل التلغراف عن الأبجدية الرمزية للبرقيات التى تتكون من نقط وخطوط . فاللغة المعينة كالسيمفونية ، تستقل حقيقتها استقلالا تاما عن حركات العزف التى يقوم بها اللاعب على الآلة . فإذا ارتكب العازف خطأ فى العزف فإن ذلك لا يطعن فى قيمة السيمفونية ولا فى حقيقتها .

وما يقال عن عملية إنتاج الأصوات لابد أن يقال عن بقية مكونات الـكلام . فنشاط المتكلم sujet parlant يجب أن يدرس باعتباره مجموعة من التدريبات التى يدخلها الباحث فى علم اللغة لعلاقتها باللغة المعينة . ولـكن كيف يتصل الـكلام باللغة المعينة ؟ إنه حاصل جمع ما يقوله المرء ويشتمل على (١) مجموعات صوتية شخصية تتوقف على رغبة المتكلم (٢) أعمال تطوعية لإنتاج الأصوات ضرورية لإحداث هذه المجموعات .

فليس فى الـكلام ماهو جمعى، وكل مافيه شخصى توّى ، وهو ابس أ كثر من مجموعة من الخصائص يمكن التعبير عنها بما يأتى :

(١ + ١' + '' + ١'''......)

ولهذه الأسباب مجتمعة يجب أن يفرق بين الـكلام وبين اللغة المعينة . فاللغة المعينة نظام والـكلام أداء نشاطى طبقا لصورة صوتية ذهنية ، وهى مجرد تشويش للهواء ؛ وتدرس هى عن طريق مناهج متعددة للدلالة والأسلوب والمعجم والنحو والصرف والتشـكيل الصوتى ، ويدرس هو عن طريق منهج الأصوات . واللغة المعينة مكتوبة مسجلة أو مفهومة صالحة للتطبيق الـكلامى ، أما الـكلام فهو هذا التطبيق الصوتى والمجهود العضوى الحركى الذى تنتج عنه أصوات لغوية معينة .

واللغة المعينة توجد فى المجتمع الناطق masse parlante وأما الـكلام فهو وظيفة الفرد المتكلم sujet parlant واللغة جهاز من الحروف والـكلمات والصيغ والعلاقات النحوية فى مجتمع ما ، ويتعلمها الفرد اكتسابا فيدخل بذلك فى زمالة اجتماعية ، وأما الـكلام فهو التنفيذ الفردى والاستخدام الشخصى لهذا الجهاز . وهى حقيقة اجتماعية ، وهو عمل فردى يشمل ماينطقه أو ما يكتبه الفرد .

وواضح أن هذه نظرة خاصة تمام الخصوص لأفكار دوركايم في دراسة الاجتماع ، وأنها إن صلحت للتفريق بينهما لغرض دراسي فهي غير صالحة لشرح حقيقتهما شرحا صحيحا ومعلوم أن بعض التعبيرات اللغوية تأتي أولا عن طريق الأفراد ، ثم يرضاها المجتمع فيستعملها ، فكيف نحرم اللغة إذاً من عنصرها الفردي حرمانا تاما ؟ لاحظ مثلا الاستعمالات الآتية :

غير ذات موضوع — استنفدت أغراضها .

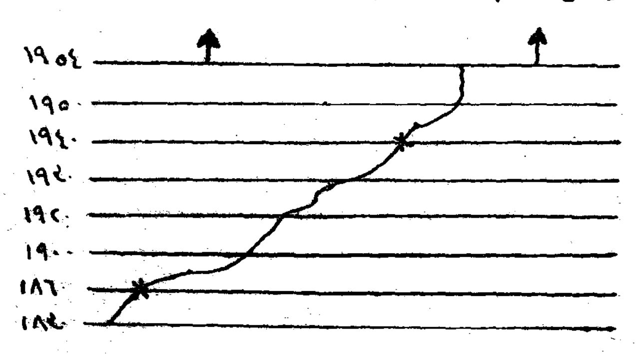
التأميم

ترشيد الصناعة

اللامركزية إلخ

كل أولئك بدأ تعبيراً فرديا ثم أصبح في فسحة الاستعمال العام .

زد على ذلك أن دراسة سير التطور من حالة إلى حالة متعذر جدا ، أما الممكن حقيقة فهو دراسة الاختلاف بين مرحلتين من مراحل اللغة المعينة ، وهذا الاختلاف يمثل طرفي مرحلة التطور لا وسطها . أما النظرة إلى اللغة المعينة باعتبارها ذات وظيفة جمعية فتتنافى بعض التنافي مع فكرة اختيار متكلم بلهجة ما ليتخذ موضوعا لدراسة هذه اللهجة . كما أن الفكرة القائلة بالاعتراف بفرد متكلم غير معين sujet parlant تتنافى مع الاعتراف بشخصية الفرد . ولنوضح اصطلاحي دي سوسور الدياكرونية والسنكرونية نسوق إلى القارىء الشكل الآتي الذي تبدو فيه المراحل أحدثها فوق أقدمها :



رسم بياني لخط سير تطور اللهجة القاهرية (على المثال الفرضي)
من أيام محمد علي إلى اليوم

فإذا أردنا دراسة هذا الخط باستقصاء كل دقائق أزمنته المتتابعة فذلك قطعا فى نهاية التعذر؛ أما إذا أردنا أن نختار نقطتين نعينهما عليه كما هو واضح على الرسم فتلك دراسة دياكرونية تاريخية. أما إذا اخترنا نقطة واحدة كحالة اللهجة القاهرية فى سنة ١٨٦٠ مثلا أو فى سنة ١٩٤٠ فهذه دراسة سنكرونية أفقية لارأسية.

هذا عرض سريع لفهم دى سوسور للفرق بين اللغة والكلام، وهو فهم وإن أخذ عليه بعض المآخذ فإنه يعين طالب اللغة على تناول جهاتها الدراسية دون خلط بينها، ودون تأرجح فى التفكير وفى استعمال الاصطلاحات.

ويرى شارل بالى أحد تلاميذ دى سوسور أن أستاذه قد بالغ فى إعطاء اللغة كل هذه الصبغة الذهنية بجعلها نتيجة الحكمة الجمعية. ويضغط هو على فكرة اللغة العاطفية أو كما يسميها le langage affectif وفى رأيه أن هناك صراعا دائما بين كلام الأفراد وبين النظام اللغوى الذى لايمكن أن يرضى الجميع. فاللغة المنظمة العادية الثقافية تكفى الرغبة فى نقل الأفكار وفهمها؛ ولكن الكلام من ناحية أخرى يقف فى خدمة الحياة العملية؛ فاما ما يعبر الكلام عنه فهو الإحساس والرغبة والعمل، وإنتاج الكلام عاطفى ذاتى فى الغالب. وفى هذه الحرب الحصارية بين الكلام واللغة ينجح الكلام دائماً فى إدخال بعض جنوده فى القلعة المحاصرة؛ هذه الجنود هى الكلمات أو الصيغ المتحدثة بالعاطفة.

وممن فرق بين اللغة والكلام من علماء اللغة «السير ألان جاردنر»[1] عضو الأكاديمية البريطانية الذى يقول إن عقل الإنسان فى ساعات يقظته لا يستريح بل يفكر دائماً، ولكن الإنسان لايتكلم دائماً بل يفكر وحيداً وربما فكر دون كلام وهو فى جماعة. وفى الكلام العادى لا بد من وجود شخص آخر على الأقل ولا يستلزم حدوث الكلام وجود الآخرين. وقد يحدث الكلام فى الوحدة على طريقة المونولوج الذى يقوله الإنسان بينه وبين نفسه. ويتوقف حدوث الكلام فى العادة على وجود شرطين: أولا إدراك شىء من الأهمية بدرجة تثير نشاطاً، وثانياً وجود رغبة فى إدخال آخر فى الشركة فى هذا الإدراك. وأشهر الدوافع التى تثير الكلام هى الرغبة فى إخبار شخص عن شىء. وبعبارة أخرى: بينا لا يتطلب

(1) Speech & Language. Oxford 1951.

التفكير إلا عنصرين هما المفكر والموضوع ، يتطلب الكلام عناصر ثلاثة بجانب الكلمات ؛ هى المتكلم والسامع وموضوع الكلام .

وهذه الحقيقة توضح أن الكلام عمل اجتماعى لأنه يتطلب شخصين أو أكثر على الأقل ويجب أن نفرق هنا بين العمل الاجتماعى والعمل الجمعى(١) . فكل نشاط كلامى فردى لأنه ينبع من شخص واحد ، ولكننا نعتبر النشاط الكلامى عملا اجتماعياً لأنه يتطلب سامعاً له نشاطه السماعى الخاص . والأساس الأول من أسس الكلام فى نظره أن الأفكار والمشاعر الفردية لا ينفصل أحدها عن الآخر ؛ فلا يستطيع إنسان أن يفكر بعقل الآخر ولا أن يدرك بحواسه . ولا يستطيع إنسان أن ينقل سروره من منظر ما نقلا مباشراً إلى ذهن صاحبه ؛ فانعزال الحياة الداخلية للإنسان عن العالم عقوبة من عقوبات فرديته ، كعدم إمكان المشاركة فى الإحساس والإدراك ، والعطف والفهم ممكنان ، ولكن لايستطيع عقل أن يتغلغل فى عقل آخر . ولهذا كان لابد من وجود عوض طبيعى عن هذا النقص كلما أريد نقل شىء عقلى وعاطفى ، وهذا العوض يسمى العلامات ، وهى مشروطة بما يأتى : (١) أن يكون لها معنى سبق وضعه والتواضع عليه (٢) وأن تكون موضوعات إدراكية فى المتناول يمكن نقلها بالإرادة . وكل منظمة مستقلة من هذه العلامات تسمى « لغة » كلغة الكلام ولغة الكتابة ولغة الإشارة ولغة التلغراف إلخ .

ومن الواضح أن منظمة العلامات التى يفضل النوع الإنسانى أن يختارها دون بقية المنظمات إنما هى العلامات الصوتية التى نسميها الكلمات . وما دام يجب أن تكون هذه العلامات عرضة للإنتاج السريع بحسب الإرادة ، فقد كان من المحتمل أن تستغل فيها الحركات الطبيعية التى لها صلة بردود الأفعال كتعبيرات الوجه وحركات اليد والصيحات العاطفية ، إلى جانب الأصوات نصف الإرادية والضحك . وقد بقى كل أولئك فى صورة عوامل مساعدة للكلام ، ومما هو بعيد عن الدقة أن يطلق لفظ « كلمة » على ما يحدث بين المتكلم والسامع من أصوات

---

(١) الجمعى من النشاط ماصدر عن جماعة والاجتماعى ماصدر عن المجتمع أو نسب إليه ، والفرق بينهما هو الفرق بين group activity و Social activity .

خاصة . ولنوضح ذلك بأسلوب مجازى نقول إن الأصوات الكلامية ليست طيارات اخترعت لنقل الأفكار باعتبارها ركاباً بين شخص وآخر . فيجب أن نكرر أن النشاط الطبيعى لا يمكن أن يستبعد من فكرة الكلام واستحالة نقل الأفكار لا بد أن تظل مطلقة لا يمكن التغلب عليها . وإنما يستطيع السامع بالاستنتاج من أفكاره الخاصة فحسب أن يقرر بفهمه أن المتكلم كان يقصد الشىء الفلانى ؛ وأما ما يجرى بين المتكلم والسامع فهو مجرد عن كل معنى .

فالكلام إذاً نشاط إنسانى تثيره عوامل من الخارج ، هذه العوامل هى نواة الشىء المقصود ويمكن إطلاقه على عمليات النطق التى يقوم بها المتكلم منظوراً إليها من زاوية شبيهة بزاوية السامع . وخصائص الكلام بهذا المعنى تتلخص فى أنه يتصل بظروف خاصة وسامع وشىء مقصود ، وأنه نتيجة لإرادة المتكلم الذى تبدى أعماله النطقية علامات الكلمات المستعملة وتمنحها حيوية لم تكن لها فى الظروف الأخرى .

أما اللغة فاصطلاح جمعى تضم فى دائرتهـا وحدات ذهنية يستطيع المتكلم بمساعدتها أن يستعمل علامات الكلمات ؛ ولكن المعرفة بهذه الوحدات الذهنية ليست بنت اليوم أو الأمس ، بل ترجع إلى أيام الطفولة فمحصولنا من الكلمات يتزايد يوماً بعد يوم ، ويزداد معنى بعض الكلمات سعة عما كان .

ومن العدل أن نعتبر الكلمات وهى أهم مكونات اللغة وحدات . مع أنه يجب ألا يغيب عن الخاطر أن قواعد الجمع بين هذه الكلمات فى السياق وأنواع التنغيم فى الكلام بهذه الكلمات وحدات لغوية أيضاً . ويمكن أن يقال باختصار إن الجملة وحدة الكلام وإن الكلمة وحدة اللغة .

سيرى القارىء من هذا أن الكلام نوع من الدراما التى تحتاج على الأقل إلى اثنين من الممثلين ، وإلى منظر أو موقف خاص ، وإلى عقدة أو شىء مقصود وإلى كلمات مرتجلة . ويرى « جاردنر » أن مما هو قريب من المعجزات أن واضعى نظرية اللغة لم يفكروا فى وصف أى واحد من هؤلاء فنرى العقدة تذكر من حين إلى آخر ؛ والكلمات مذكورة بكثرة ، ونسمع هنا وهناك عن واحد من الممثلين أو كليهما . وقليل من الكتاب من أصر على ذكر الموقف أو المنظر . ويجب أن ننبه

هنا إلى أن مايسميه النحاة أقسام الكلام وهم يقصدون الاسم والفعل والحرف ليس فى الواقع إلا أقسام اللغة (فقول صاحب الألفية الكلام وما يتألف منه يجب أن يصير إلى اللغة وما تتألف منه) .

والكتابة فى نظر « جاردنر » كلام ثانوى . ولقد جاءت الكتابة وهى ابنة فن التصوير وسيلة من وسائل ترجمة الكلام المسموع إلى وسط مرئى مستقل نسبياً عن الزمن والمسافة . وإذا كانت النظرية اللغوية تدعى أنها صحيحة فيجب أن تطلق اصطلاح الكلام على المسموع والمكتوب كليهما . ويدعو عامل الدوام فى الكتابة وعامل عدم المواجهة إلى تدقيق الكاتب فى اختيار تعبيراته أكثر مما يدقق المتكلم . ويقوم الترقيم فى الكتابة مقام التنغيم وحركات اليد والوجه فى الكلام ؛ ولكنه يقصر عنها غالباً . ومن الأشكال الأخرى للكلام الثانوى كتابة العميان البارزة وإشارات التلغراف واسطوانات الجراموفون .

واللغة نتيجة فى نظره من نتائج الكلام ، والكلمات ملخصات لتجارب سابقة لاتشتمل على التجربة الحاضرة ، ولكن فى نفس الوقت الذى تخطر فيه أى كلمة فى النطق مطبقة على شىء مقصود يحدث خلط يترك أثراً على هذا البند الخاص فى محصول المتكلم من الكلمات . فإذا استعملت الكلمة فى اتفاق تام مع تقاليد استعمالها فإن الأثر هنا أن تؤكد الملامح المركزية فى المنطقة المقبولة للمعنى . وكل استعمال خاطىء لهذه الكلمة ولو اتضح المقصود فى هذا الظرف الخاص باستعمالها خطأ ليس له نفوذ عليها فى المستقبل . فما يؤثر فى مستقبل الكلمات ليس الاستعمال الخاطىء وإنما الاستعمال الذى يحود بها قليلا جداً عن تقاليدها .

وأما يسبرسن[1] فيرى أن أعظم تقدم قد تم فى الإدراك النظرى لطبيعة اللغة منذ بدأت دراسة اللغة دراسة جادة هو أننا لم نعد نفعل ما كان يفعل غالبا فى الأزمنة الماضية من النظر إلى اللغة باعتبارها مادة أو شيئا يوجد بنفسه أو (إذا استعملنا التعبير الذى استعملوه كثيرا) كائنا عضويا يحيا ويموت كالكائنات

(1) Mankind, Nation & the individual, London, 1946.

العضوية الأخرى ، ولكننا تعلمنا أن نرى اللغة فى جوهرها نشاطا إنسانيا ومجهودا فرديا للشخص الذى يفهم بها أو يتصل بشخص آخر على الأقل .

ومع هذا وكنتيجة له نجد أننا نلقى ضغطا على الشخص كعامل ينتج ويستطيع أن ينتج فى أى لحظة جملا أو كلمات ، وقد ساعدنا اعترافنا بذلك على فهم كثير من الظواهر اللغوية فى ما يتصل بمرحلة خاصة من مراحلها ، أو التغير الذى يطرأ عليها من مرحلة إلى أخرى ؛ أى من الناحيتين السنكرونية والديا كرونية أو الاستاتيكية والديناميكية أو بعبارة أبسط كموضوع للوصف أو للبحث التاريخى .

ومادمنا ننظر إلى اللغة باعتبارها العقلى أى كوسيلة من وسائل الاتصال ونقل الأفكار فسوف لاندنو أبدا من الفهم التام لطبيعتها . ونستطيع هنا أن نستحضر إلى الذهن عبارات ثلاث متقابلة بعض التقابل : أولاها أن اللغة توجد لتعبر عن أفكار الشخص، وثانيها عبارة تاليران الشهيرة أن اللغة توجد لتخفى أفكار المرء ، وثالثها عبارة كير كجارد أن اللغة إنما يستعملها كثير من الناس ليخفى وراءها فقره إلى الأفكار .

وربما يتوقع المرء من المناطقة أن يعطوا عناية خاصة لاستخدام اللغة فى التعبير عن الأفكار، وهكذا نرى عبارة چيڤونز[١] تقول : إن اللغة تخدم ثلاثة أغراض :

(١) كوسيلة للاتصال (٢) كمساعد ميكانيكى للفكرة (٣) كوسيلة للتسجيل والرجوع إليها ، ولكنه لايفطن إلى أن العنصر الثالث فرع للعنصر الأول ؛ لأن الإنسان إذا سجل شيئا للرجوع إليه وعاد به فى المستقبل إلى أفكاره القديمة فإن هذا لايختلف كثيرا عن مفهوم العنصر الأول ، وهو نقل أفكار شخص إلى شخص آخر ، حين يقرأ مذكراته الخاصة .

أما من ناحية أنها مساعد ميكانيكى للتفكير فمن المؤكد أن معرفة اللغة

---

(١) عالم إنجليزى فى المنطق والاقتصاد عاش فى القرن التاسع عشر .

تساعد التفكير مساعدة جوهرية جدا . ومن ناحية أخرى يجب ألا ننسى أن بعض عميقى المفكرين شكوا من أن اللغة التقليدية قد عوقتهم أحيانا من الغوص على الأفكار : فهى بمفرداتها وصيغتها الثابتة ترغم الفكر على أن يسير على السبل المطروقة وأن يفكر كما فكر الآخرون من قبل .

ولا يستطيع يسبرسن بحال أن يتبع چيڤونز فى قوله إن اللغة فى أصلها الأول قد استعملت غالبا للغرض الأول لا على سبيل نفى الأغراض الأخرى ، أو فى جمله هذه الأهداف الفكرية الثلاثة هى الأهداف الوحيدة التى تستخدم اللغة من أجلها ؛ فهى تنطبق على المفكرين فحسب ، وعليهم فى أعمق حالاتهم الدراسية فقط .

ثم يدعو القارىء إلى أن يفكر معه فيما قالته مدام دى ستايل[1] عن الهدف من اللغة حين تكلمت عن اللغة الفرنسية : «أنها ليست فقط وسيلة لنقل الأفكار والمواطف والشئون ، ولكنها أداة يهدف المرء إلى أن يلعب بها فيحيى الأرواح ، كالموسيقى لبعض الناس ، وكالمشروبات القوية للبعض الآخر» . يرى يسبرسن أن هذا يثير الإعجاب ، والغلطة الوحيدة التى يجدها فى هذه العبارة أنها تبدو كما لو كانت قد سيقت لشىء يوجد فى فرنسا فقط .

وفى كل مكان وزمان يمكن أن نجد من الناس من تسكره شهوة التكلم ويتلذذون لسماع أصوات أنفسهم . ومن الناس من يتكلم إلى الخيل والكلاب والحيوانات المستأنسة ، ومنهم من يتكلم إلى نفسه . ويجب ألا ننسى أن الأوتار الصوتية بجانب استعمالها فى نقل الأفكار وقبل أن يبدأ فى استعمالها فى هذا الغرض ، هى أكثر اللعب الإنسانية حباً إلى الإنسان ، وأن الأطفال والرجال كليهما فى المجتمعات البدائية والمتمدنة على السواء يجدون سروراً عظيما فى ترك أوتارهم الصوتية ، وألسنتهم وشفاههم ، تؤدى أنواعاً مختلفة من اللعب .

وهكذا نصل إلى الجانب الاجتماعى للكلام ، ويمكن أن يقال فيه نفس الشىء . ففى الاختلاط الاجتماعى لا تنطق الكلمات فى معظم الحالات لتقرر شيئاً

---

(١) كاتبة فرنسية من واضعى أسس المذهب الرومانتيكى فى الأدب .

أو تنقل فكرة أو توضح غامضاً ، ونادراً ما تعبر عن شعور مشترك ، ولكن لتخلق استكفاء للرغبة الاجتماعية .

وهذا الجانب من الموضوع قد أكده مالينوفسكي فى الماضى القريب فى ملحق لكتاب فى الإپستيمولوچيا. The Meaning of Meaning لأوجدن وريتشارد. وقد أجرى مالينوفسكي ملاحظاته فى جزر تروبرياند بقرب غينيا الجديدة ، حيث رأى كيف يسلك هؤلاء البدائيون فيما يختص باستعمال اللغة . يرى مالينوفسكي أن اللغة فى أشكالها البدائية يمكن أن تدرس فى ظل فهم أنواع النشاط الإنسانى الأخرى ، فتعتبر كإحدى طرق السلوك الإنسانى فى موقف عملى معين . وأهم ما فى الأمر أن المرء يتصل بالآخر عن طريق الكلام . وكل إنسان يحب أن يلتقى مع أبناء جنسه وهنا هو حيث تساعد اللغة المرء . وليس أكثر إيذاء لأحد الرجلين لا ثالث لهما من سكوت الآخر . فالرجل الصامت مخلوق رهيب والغريب الذى لا يتكلم لغة البلاد يعتبر عدواً فى كل بلاد العالم . وأنواع التحية المختلفة كأنواع الأسئلة العرضية مثل « كيف حالك ؟ » أو « جاى من فين ؟ » كل ذلك لا يقصد به نقل الأفكار ، وإنما المقصود به إنشاء علاقة اجتماعية بين شخصين التقيا .

ويرى يسبرسن على عكس دى سوسور أن أكثر الكلام فردية لابد أن يكون مشروطاً من الناحية الاجتماعية ، وفى كل نطق كلامى عنصر اجتماعى إلا فى حالة الطفل الذى يناغى نفسه فى المهد ، أو فى حالة الوحيد الذى يسلى نفسه بالغناء أو الكلام المحرف . وإلا فكل متكلم لابد أن يطابق فى كلامه مقياسا اجتماعيا فيتكلم كما يتكلم الآخرون . والسبب الوحيد الذى يدفعنا إلى الكلام هو الرغبة فى التأثير فى الآخرين ، فلا بد لنا لهذا السبب أن نراعى ميولهم وما يرضيهم .

وكل شخص لهذا يفرض عليه مقياس من الخارج يقيس كلامه عليه ، ويتعلم الشخص بملاحظته لكلام الآخرين . فاللغة إذا فى نظر يسبرسن حاصل جمع بالنسبة للكلام ؛ فكل الألسنة المختلفة تكون معا اللغة الشعبية . هذا صحيح فيما يختص بمجموع المفردات المستعملة من جميع الأفراد على الأقل ، أما فيما يختص بالجوانب الأخرى للغة بما فيها النطق فيمكن القول بأن اللغة الشعبية تعتبر متوسط الألسنة

الفردية لاحاصل جمعها . هنا نشتق من جميع الأفراد مدركا كليا كالمدرك الكلى الذى نسميه حصانا والذى لايتفق معه حصان واحد فى أى ناحيةلو نظرنا إليه بدقة. ولهذا يرى يسبرسن أن يقسم المسألة لا إلى كلام ولغة كما فعل دى سوسور بل إلى لغة فردية ولغة جماعية .

وكما أن دى سوسور يتكلم عن صورة صوتية ذهنية ينسج المتكلم على منوالها يقول يسبرسن بفكرة التقسيم إلى كلام بالفعل وكلام بالقوة ؛ فالكلمة المنطوقة فعلية والكلمة التى تبقى فى الذهن غير منطوقة أو تبقى فى القاموس غير مستعملة كلمة بالقوة ، وكلاهما مشروطا اجتماعيا والفرق بين دى سوسور وبين يسبرسن كما يراه الأخير أن المرء إذا قال كلمة لامعنى لها فهى كلام عند دى سوسور لأنها عمل فردى فحسب وهى هراء عند يسبرسن لأن الكلام عنده مشروط من الناحية الاجتماعية بمطابقة مستوى صوابى معين .

ويقول هارولد بالمر[١] إن هذا الشىء المركب غير المتجانس الذى نسميه اللغة يشتمل فى الحقيقة على ناحيتين : أولا حاصل جمع أحوال النشاط الذهنى والعضوى الذى يقوم به شخص حين ينقل لشخص آخر (بالاشارة أو النطق أو الكتابة) إدرا كا ما (فكرة أو رأيا أو عاطفة) وهذا هو الكلام ، ثانيا حاصل جمع أوضاع متعارف عليها منظمة ومقبولة من الجمهرة الاجتماعية التى تستعمل الناحية الأولى لتضمن الوضوح المتبادل بين أفراد هذه الجمهرة وهذه هى اللغة . فالناحية الأولى طائفة من النشاطات الشخصية والثانية طائفة من أوضاع التعارف . والكود التجارى يختلف عن الأعمال التى يستلزمها إرسال الرسائل به ومنظمة الإشارات البحرية غير الأعمال التى تستلزمها الإشارة بالأعلام ، والكود الموسيقى من النغمات والسكتات يختلف عن حركات العزف التى يؤديها الموسيقى ، والكود الذى تجده

---

(١) ملخص من كتاب يسبرسن **Mankind, Nation & the Individual** ص ١٤

فى جدول سير القطارات غير السفر بهذه القطارات . وبالاختصار يمكن القول إن كل كود يختلف عن الأعمال التى تتم بحسبه مطابقة لمقتضياته .

ولا ينطبق هذان الجانبان على النظر والعمل لأن فى كلامنا نظرا وعملا ، وفى لغتنا كذلك. ونظرية الكلام من دراسة علم النفس وتطبيقه من عمل المتكلم، ونظرية اللغة من دراسة علم اللغة وتطبيق اللغة يقوم به هؤلاء الذين يعلمون ويدرسون كودها بأنفسهم . وكلما نجحنا فى نقل مدركاتنا فنحن نطبق الكلام ، وكلما حللنا طريقة تعبيرية بنجاح أو شرحناها أو كونا جملة أجنبية بالطريقة التركيبية الخالصة فنحن نطبق اللغة .

ويرى بلومفيلد[1] ، وهو أحد تلاميذ وايس ومن أتباع مذهب السلوكيين، أن أشق خطوة فى دراسة اللغة هى الخطوة الأولى ، لأن هذه الخطوة إذا كانت غير مضبوطة أو كانت على الطريق الخاطىء فإنها ستقود المرء دائما فى هذا الطريق الخاطىء . ولذلك يرى أن يبدأ دراسته بحدث كلامى بسيط يفترضه بين فتى وفتاة يسيران فى الطريق ؛ فيرتب خطوات هذا الحادث كما يأتى : —

١ — تشعر الفتاة بالجوع .

٢ — ترى تفاحة على شجرة

٣ — تحدث أصواتا بتكييف حنجرتها ولسانها وشفتيها .

٤ — يقفز الفتى على السور ويتسلق الشجرة ، ويأخذ تفاحة ويحضرها إليها فيضعها فى يدها .

٥ — تأخذ الفتاة التفاحة فتأكلها .

يمكن أن يدرس هذا النسق من الحوادث بطرق مختلفة . ولكن الذين يدرسون اللغة سيفرقون بين الكلام والحوادث الأخرى التى نسميها أحداثا عملية.

---

(1) Language, p. 22.

فإذا نظرنا إلى هذه الحادثة بتلك الطريقة نجدها تتكون من ثلاث مراحل بحسب الترتيب الزمني .

(أ) أحداث عملية سابقة للحدث الكلامي (الشعور بالجوع ورؤية التفاحة)

(ب) كلام (إحداث الأصوات المذكورة) .

(ح) أحداث عملية تالية للحدث الكلامي (القفز وإحضار التفاحة والأكل)

فإذا بحثنا الأحداث العملية التي قبل الكلام والتي بعده فسنجد أن ما قبل الكلام يتعلق بالفتاة ؛ فهي جائعة بمعنى أن بعض عضلاتها كانت في حالة تقلص، في حين أن بعض السوائل كانت تفرز وعلى الأخص في المعدة ، وربما كانت عطشى أيضاً بمعنى أن حلقها ولسانها كانا في حالة جفاف . وقد وصلت الأشعة الضوئية المنعكسة من التفاحة الحمراء إلى عينيها ، ورأت الفتى بجانبها فدخلت تجاربها الماضية مع الفتى في الصورة . دعنا نفترض أن هذه التجارب ليست إلا علاقة عاديةمثل تلك التي بين الأخ وأخته أو بين الزوج وزوجته ؛ فكل ما يسبق الكلام ويتعلق بالفتاة يمكن أن تسميه مثير المتكلم .

ثم نعود بعد ذلك إلى الأحداث العملية التي تلت الكلام ، وسنجدها تتعلق بالفتى الذي هو السامع . تلك الأحداث هي إحضار التفاحة وإعطاؤها للفتاة . فالأحداث العملية التي تتلو الكلام وتتعلق بالسامع يمكن أن تسمى استجابة السامع. والحوادث التي تتلو الكلام تتعلق أيضاً بالفتاة بطريقة هامة جداً ؛ فهي تحصل على التفاحة في قبضتها ثم تأكلها .

فإذا كانت الفتاة وحدها فربما حصلت على التفاحة بنفسها إذا استطاعت ، أو ظلت جائعة إن عجزت ، وكذلك إذا كانت علاقتها سيئة بالفتى. فالشعور بالجوع مثير يرمز له بالحرف S والحركة في سبيل الحصول عليه رد فعل يرمز له بالحرف R . وتتلخص الحالة حين وحدتها أو سوء علاقتها بالفتى في :

$$S \longrightarrow R$$

ولكن الفتاة في القصة الأولى بدل أن تذهب بنفسها إلى التفاحة ، استبدلت

بذلك كلاماً جعل الفتى يقوم برد الفعل بدلا منها، فاللغة إذا قد تجعل الإنسان يصدر منه رد فعل أو استجابة R حين يكون المثير مثيراً لإنسان آخر S .

وفى الحالات المثالية يتساوى الناس فى المقدرة الخاصة والقوة ولكنهم يختلفون عمليا ، والواقع أنه كلما اتسع مدى اختلافهم فى ذلك اتسع مدى القوة الخاصة التى يتحكم فيها كل إنسان ، فلا يحتاج المجموع إلا إلى صائد واحد وطباخ واحد وخياط واحد ؛ وهذا هو المقصود بتقسيم العمل . وتقسيم العمل ككل شىء فى المجتمع الإنسانى إنما يرجع إلى وجود اللغة .

يقول بلومفيلد : ولكننا لم نتكلم عن الكلام إلى الآن مع أنه هو الجزء الذى يهمنا من القصة باعتبارنا من طلاب علم اللغة . فأما الحوادث العملية قبل الكلام وبعده فإنما نهتم بها لصلتها بالكلام . إن المتكلم يحرك أوتاره الصوتية وفكه الأسفل ولسانه وهلم جرا بطريقة ترغم الهواء على أن يأخذ شكل موجات صوتية . فحركات المتكلم هذه رد فعل أو استجابة للمثير S . وبدل أن يقوم المتكلم برد الفعل R بنفسه يستبدل بهذه الاستجابة تحريك جهازه النطقى بطريقة خاصة . ويمكن أن يرمز لهذا التبديل بالحرف r . وبالاختصار يستطيع المتكلم أن يستعمل إحدى طريقتين للاستجابة ورد الفعل الذى يسببه مثير ما هما :

$$S \longrightarrow R$$

أو

$$S \longrightarrow r$$

وفى حالة اختيار الكلام يكون المرء قد اختار الطريقة الثانية .

وتؤثر الموجات الصوتية التى فى فم الفتاة فى الهواء الخارجى فتحدث به حركة موجية مماثلة . وهذه الموجات التى فى الهواء الخارجى تصطدم بطبلة أذن الفتى فتحدث بها ذبذبة تؤثر على أعصابه تأثيراً خاصا وهنا يكون الفتى قد سمع الكلام. فسماع الكلام مثير بالنسبة للفتى جعله يجرى ويحضر التفاحة كما لو كان هو جائعا . ورد الفعل أو الاستجابة الذى قام به فى هذه الحالة قد يكون مسبباً عن مثير له هو

نفسه S أو عن بديل كلامى من الفتاة ويرمز لهذا بالحرف s . وتتمثل الطريقتان فيما يأتى :

$$S \longrightarrow R$$

$$s \longrightarrow R$$

وإذا نظر إلى القصة جميعها على هذا الأساس وجدنا تجرى على النسق التالى :

$$S \longrightarrow r \qquad s \longrightarrow R$$

وحرف s فى هذا النسق هو الكلام وحرف r هو السماع . فإذا كان الشخص العادى يهتم بالمرحلتين S⟶R فإن الباحث اللغوى إنما يهتم بما بينهما r⟶s لأن هذا غايته أن يشرح لنا المعانى المشمولة فى S⟶R التى تهمنا كأشخاص عاديين .

ولكن كلمة المجتمع ليست مجازاً . فأى مجموعة إنسانية لابد أن تكون وحدة أعلا من الحيوان الفرد ، كما أن الحيوان ذا الخلايا المتعددة يعتبر وحدة أعلا من وحيد الخلية . وتتعاون الخلايا فى الحيوان المتعدد الخلايا بطريق الجهاز العصبى ويتعاون الأفراد فى المجتمع بطريق الموجات الصوتية .

وتختلف الأصوات الخاصة التى يستعملها مجتمع ما من المجتمعات عن الأصوات التى يستعملها مجتمع آخر . وهكذا يتكلم بنو الإنسان لغات مختلفة . وكل طائفة من الناس تستعمل نظاماً واحداً للعلامات الكلامية تسمى مجتمعاً لغوياً . ومن الواضح أن قيمة أية لغة إنما تعتمد على من يستعملونها بنفس الطريقة ، فكل عضو من الجماعة ينطق الأصوات المضبوطة فى مناسباتها المضبوطة أو بعبارة أخرى يستجيب استجابة مضبوطة .

وكل طفل يولد فى جماعة يكتسب عاداتها الكلامية واستجاباتها فى السنين الأولى من حياته . وإذا ذهبنا إلى بلاد غريبة فإن علينا كذلك أن نتعلم نظما عرفية ثابتة فى هذه البلاد لا نعرفها كنظام العملة والمقاييس والمكاييل والأطوال والمرور وعادات السلوك وساعات الأكل وهلم جرا . ولا يجمع المسافر الإحصاءات عن هذه

الأشياء وإنما تضعه ملاحظاته الأولى على الطريق ، حتى تعززها ملاحظات أخرى أو تعدلها . واللغوى محظوظ من هذه الناحية ، فإن نشاط الجماعة لا يبدو مضبوطا فى أى حالة من الحالات كما يبدو فى اللغة . فهناك مجموعات ضخمة من الناس تبنى الجمل التى تتكلمها من نفس المفردات والتراكيب ، ولذلك يستطيع اللغوى ذو الملاحظة أن يصف العادات اللغوية لأى مجتمع دون الحاجة إلى إحصاء . ولا نحتاج إلى القول إنه إذا أراد دراسة اللغة فإنه يجب أن يعمل جاهداً، وأن يسجل كل صيغة يجدها وألا يعذر نفسه بالاعتماد على عقلية القارىء ، أو على تراكيب لغة أخرى ، أو على نظرية من نظريات علم النفس . ويجب فوق كل شيء ألا يختار بعض الحقائق أو يشوهها طبقاً لنظرته الخاصة إلى ما يجب أن يقوله المتكلم .

ولعل القارىء يرى أن بلومفيلد قد جند نفسه لشرح نظرية الكلام دون أن يعنى بنظرية اللغة . وهو فى شرحه لنظرية الكلام ، يقرب إلى الدراسات الطبيعية قرب السلوكيين منها ، ويوضح الحقائق الكلامية فى ظل فهمهم للنفس الإنسانية ؛ وهو مع ذلك يحذر الباحث من الاعتماد على نظرية من نظريات علم النفس. ولا يعنى بلومفيلد كثيراً فى كتابه بالضغط على التقابل بين الفكرتين اللغوية والكلامية ؛ وإنما يلمح إلى النظم العرفية تلميحاً حين يتكلم عن اللغات الأجنبية .

ويرى فندريس[1] أن من الحق الآن أن يقال : إن الإنسان كائن اجتماعى . وإحدى الخصال التى تشهد بفصاحة على الخاصية الاجتماعية فى الإنسان تكمن لاشك فى الغريزة التى تدفع الأفراد الذين يعيشون فى مجتمعات أن يجعلوا لأنفسهم مصلحة مشتركة فيما يتعلق بظروفهم ، وخصائصهم المتشابهة ، ليتميزوا عن هؤلاء الذين لا تتحقق فيهم هذه الخصائص إلى نفس المدى .

وكل فرد فى الجماعة يشعر بأنه يتكلم لغة تختلف عن لغة الجماعة المجاورة ، ولهذا فإن للغة وجوداً حقيقياً فى الإحساس المشترك بين هؤلاء الذين يتكلمونها ، وهذا التحديد ، وإن بدا لأول وهلة صريحاً فى ذاتيته ، ينبنى على حقيقة هى إضافة

---

(1) Language. p. 239,

وعى المتكلم بالإحساس بمثل لغوى أعلى معين يحاول كل فرد أن يحقق به الشعور بالشركة فى اللغة .

ويوجد تفاهم واضح بين الأفراد فى نفس الجماعة لتبقى اللغة مطابقة لقواعدها ، ولكن العادة ليست اعتباطية بل إنها على العكس تحددها دائماً مصلحة الجماعة ؛ وهذه المصلحة هنا هى أن يفهم كل فرد منها الفرد الآخر ، ولهذا يعارض كل فرد منها خلق أى شىء اعتباطاً ، ومن السهل أن تُتَتَبَّع المخالفة الفردية للعادة ويهزأ بها ، ويُعاقب المخالف حتى لاتبقى له أية رغبة فى ارتكاب مخالفة أخرى . ولايمكن لمخالفة ما أن تصبح قاعدة إلا إذا كان كل فرد فى الجماعة ميالا إلى ارتكابها أو بعبارة أخرى يجب أن ينظر إليها باعتبارها قاعدة لا خرقاً لقاعدة .

وللناس فكرة دقيقة عن لغاتهم ؛ فهم يحسون بمنتهى الدقة بأقل خروج على اللغة ، ولذلك فإن خير من يستشار فى أمور الاستعمال اللغوى هم العامة ، أما المجامع اللغوية فإنها يحق لها أن تبحث ما إذا كان الأتوموبيل مذكراً أو مؤنثاً ، أو بعبارة أخرى أن تبحث فى المسائل النظرية .

هذه الرغبة فى توخى الصواب وضمان ثبات العادة هما اللذان يخلقان اللغة فى أى مجتمع ؛ ولكننا إذا بحثنا عن التحقق التام للغة فى فرد فسوف لا نجده ؛ وكثير هؤلاء الذين يتكلمون الفرنسية ، ولكن ليس هناك متكلم واحد بالفرنسية يستطيع أن يؤدى وظيفة القاعدة والمثال للآخرين . ومن هنا نقول إن اللغة الفرنسية لا توجد فى اللغة التى يتكلمها أى كائن إنسانى بمفرده . ويمكن أن يقال باختصار إن اللغة شكل لغوى مثالى يفرض على الأفراد فى الجماعة الواحدة « وأعم تعريف للغة هو أنها نظام من العلامات[1] » ويقصد بالعلامات هذه الرموز التى تستخدم فى خلق اتصال بين شخص وآخر ، وما دامت أنواع هذه الرموز متعددة فمن الواضح أن هناك لغات متعددة ، فكل حاسة يمكن أن تستخدم فى خلق لغة ما ، فهناك لغة للشم ولغة للمس وأخرى للسمع وأخيرة للبصر ، ولكن

(1) p. 7.

أهم لغة هى لغة السمع التى ربما تساعدها أحياناً لغة بصرية هى الإشارات باليد والوجه ، وأغلب اللغات البصرية المستعملة الآن مشتقة من اللغة السمعية ، وهذا يصدق على الكتابة ، ونظم الإشارة المختلفة . ولا تصبح اللغة حقيقة اجتماعية إلا إذا كان العقل الإنسانى نامياً ليستخدمها . وأصل اللغة من الناحية النفسية يتلخص فى خلق قيمة للرموز ، وهذا ما يفرق بين لغة الإنسان ولغة الحيوان .

والعلم الذى يدرس الكلام فى اللغة (علم الأصوات) يمكن أن يدرس ثلاث جهات من نشاطه ، عملية إنتاج الصوت ، ثم انتقاله بين المتكلم والسامع ، ثم سماعه . والإنتاج والسماع متساويان من ناحية الأهمية للغة ، لأن اللغة إذا قدر لها أن توجد فلا بد لها له من شخصين متصلين على الأقل . ولا بد أن يقصد بالكلمة أن تكون مسموعة ، ويلعب السماع دوراً هاماً فى تغيرات اللغة ، وبواسطة الأذن يحصل كل متكلم على عاداته النطقية ، ولكن من الناحية النظرية لا نستطيع أن نعطى السماع مكاناً هاماً فى الدراسات اللغوية . ومن ثم أصبح علم الأصوات مقصوراً زمناً طويلا على إنتاج الكلام .

ولا يضيف فندريس كثيراً إلى نظرية الكلام ، وإنما يشرح الوسائل والأجهزة التى تساعد على إنتاجه ، وأما نظرته إلى اللغة فهى فى نطاق نظرة المدرسة الفرنسية التى على رأسها دى سوسور ، وهو يتبع بالى فى التفريق بين اللغة العقلية واللغة العاطفية .

فعنده أن « الفرق الأساسى بين اللغة العاطفية واللغة العقلية إنما يتضح فى تركيب الجملة ؛ وهذا الفرق يبدو جلياً حين نقارن لغة الكتابة بلغة الكلام[1] » . وإنما يكون الفرق فى تركيب الجملة فى نظره فى اختيار المفردات ، وفى طريقة ترتيب الكلمات فى الجملة أو ما يسميه البلاغيون « التقديم والتأخير » .

أما لويس[2] فإنه يعقد فصلا لعلاقة اللغة بالعقل الجمعى فيقول : إنه يقصد بالعقل الاتجاه النزوعى Conative للسلوك إلى إدراك Cognition البيئة عملياً أو نظرياً

---

(1) Language, p. 145.

(2) Language in Society. p 92.

إدراكا قد يقتضى استجابة وجدانية affective للبيئة . والخاصية الجوهرية لهذا السلوك العقلى أنه يستعمل الرموز سواء أكانت شفوية أم تصويرية . وربما يكون الشخص فى أية لحظة واعياً ببعض سلوكه العقلى وأقل وعياً ببعضه الآخر ، وغير واع بالكثير منه . فالعقل الواعى Conscious mind يميل إلى استعمال الرموز الشفوية ، ولكن العقل تحت الواعى subconscious والعقل غير الواعى unconscious يميلان إلى أن يرمز لهما بالصور والتحولات الصورية للغة .

ولكل شخص عقد دائمة من الأفكار والإحساسات والرغبات يبدو أثرها فى سلوكه الظاهر ، ولكنه هو يميل إلى أن يظل غير واع بها ، ويسمح لها بالظهور فى العقل الواعى إذا كانت بصورة مقنعة فحسب . فكل السلوك العقلى إذاً يستعمل الرموز سواء كانت من هذا النوع أو من ذاك ، وتختلف الرموز باختلاف نوع النشاط العقلى ، أى ما إذا كان إدراكياً أو نزوعياً أو وجدانياً ، والمدى الذى يسمح فيه للوعى أن يشمله . فيمكن القول إذاً بأن العقل سلوك فى وسط من الرموز .

ومما يرجع إلى اهتمامنا باللغة ووظائفها فى المجتمع أن يصبح من الضرورى أن نعترف بأن سلوك الجماعة الإنسانية تصبح له خصائص معينة كلما وجد الرمز الاجتماعى أى التفاهم ؛ وهذا النوع من النشاط الذى يشتمل على رمزية يؤدى فى المجتمع نفس الوظيفة التى يؤديها النشاط العقلى فى الفرد .

فالتذمر الجمعى والوضع الجمعى للخطط والإحساس الجمعى والإرادة الجمعية كل أولئك يتعدل بوجود أشكال رمزية للتفاهم فى الجماعة . هذه الرموز الجمعية هى التى تمكن الجماعة من أن تباشر نشاطها وتمكنها اللغة من أن تباشر هذا النشاط بإتقان أعظم . وتجعل اللغة فى قدرة الجماعة أن تمنح الرمز لعقلها الجمعى فتعطيه القوة التى يصبح بها عقلا جمعياً واعياً .

والاعتراف بكل أولئك هام جداً لفهم وظيفة اللغة فى المجتمعات الحديثة . وطبيعة العقل الجماعى لا تحس إلا إذا اعترفنا بأنه شكل من أشكال السلوك الجماعى . وكما أن علم النفس يرى العقل الفردى جزءاً جوهرياً من مجموع سلوك

الفرد فيجب أن نرى العقل الجماعى أهم وسيلة تستخدمها الجماعة فى نشاطها . فالسلوك الجماعى كما قلنا مختلف تمام الاختلاف عن السلوك الفردى ، وأنواع النشاط التى يقوم بها الأشخاص وهم فى المجموع ذات أنماط تختلف عن أنواع النشاط التى يقوم بها أفراد فى وحدة وعزلة .

والسلوك الجمعى الإنسانى كما نعرفه الآن يظهر غالباً أو دائماً فى وسط من رموز تفاهمية ، وتلك هى الوسيلة التى تستطيع الجماعة بها أن تنظم بقية سلوكها بالتأجيل والتوجيه فى ضوء ذكرياتها عن الماضى . وبعبارة أخرى تصبح رموز التفاهم الوسيلة التى ينسي المجموع بها سلوكه ، والوسيلة التى ينمى بها المجموع عقله الجماعى . فإذا كان هذا حقاً فقد يكون هناك تطور أعظم فى بعض الجماعات منه فى الجماعات الأخرى طبقاً لمدى استخدام الرموز التفاهمية ، ولمظهرها المركب ، ولربما تنغمس جماعة أحياناً فى سلوك جماعى ليس له رموز تفاهمية فى داخل الجماعة ، وهذا هو السلوك الجماعى غير الواعى » أو السلوك الذى لا تعيه الجماعة كجماعة برغم أن الأفراد فى هذا المجموع ربما كانوا على وعى به . أما طبقاً للمدى والمظهر المركب للرمزية الجماعية فى السلوك الإجتماعى ، فلا بد أن يكون هناك اختلاف من جهة التوسع والتدرج فى الوعى الجماعى بالسلوك الاجتماعى .

وللغة مكان فريد بين الأنواع المختلفة من الرمزية التفاهمية لأنها الوسيلة التى يصبح بها العقل الجمعى عقلا جمعياً واعياً . فالسلوى الجماعى إذاً على ثلاث درجات : بلا رموز جماعية ، وبرموز جماعية غير شفوية ، وبلغة . وفى الحقيقة أن السلوك الجماعى الإنسانى نادراً ما يكون من الصنف الأول ، أو بعبارة أخرى يوجه العقل الجماعى دائماً السلوك الجماعى الإنسانى مهما كان هذا العقل بدائياً أو ناقص الوعى ، وحينما يسيطر المجتمع على اللغة بدرجة عظيمة يوجد العقل الجماعى الواعى وعياً تاماً .

يقول سابير[1] إن الكلام ظاهرة عادية جداً فى الحياة اليومية حتى إننا لا نقف

---

(1) Language p. 1.

لنفكر فى تعريفه ، وإنه ليبدو طبيعياً للإنسان كما يبدو المشى ـ وهو أقل فى طبيعيته من التنفس فحسب ـ ومع ذلك فلا نحتاج إلا إلى لحظة من التأمل لنقتنع بأن الإحساس بالمظهر الطبيعى فى الكلام ليس إلا إحساساً خادعاً . فعملية اكتساب الكلام فى الحقيقة تختلف عن تعلم المشى . وفى حالة المشى لا تظهر الثقافة على المسرح فللطفل عوامل مركبة تسمى الوراثة العضوية هى كل ما يحتاجه فى التكييفات العضوية والعصبية التى نسميها المشى . والحقيقة أن الانسان الطبيعى مقدر له أن يمشى لا لأن الكبار سيساعدونه على أن يتعلم المشى ولكن لأن أعضاءه قد أعدت لذلك .

ولكن اللغة ليست كذلك . وباعتبار معنى خاص يمكن القول بأن الإنسان مقدر له كذلك أن يتكلم ، ولكن هذا يتوقف تماما على الظروف التى يولد فيها لا من ناحية الطبيعة فحسب ، ولكن من ناحية المجتمع الذى سيقوده فى طريق التقاليد العامة . فإذا نفينا المجتمع من الصورة فسوف يتعلم الإنسان المشى ، إن عاش ، ولكنه سوف لا يتعلم الكلام أبداً . فإذا أخذت المولود من مجتمعه إلى مجتمع آخر فسوف يتعلم المشى ، كما كان سيتعلم فى مجتمعه الأول ، ولكنه سيتكلم لغة المجتمع الثانى الذى نشأ فيه . فالكلام نشاط إنسانى يختلف إلى غير حد بحسب انتقالنا من مجتمع إلى مجتمع ، لأنه وراثة تاريخية للجماعة ، ونتيجة من نتائج الاستعمال الجماعى المستمر فى العصور الطويلة . وهو يختلف كما تختلف كل المجهودات الخالقة ، وربما لا يكون ذلك بنفس الدرجة من الوعى ، ولكن على أى حال بنفس الدرجة من الحقيقة ، كما فى الأديان والمعتقدات والعادات والفنون فى الشعوب المختلفة . وإذا كان المشى وظيفة عضوية غرزية للشخص فإن الكلام وظيفة مكتسبة ثقافية غير غرزية .

وهناك حقيقة كثيراً ما دعت إلى أن تمنع الاعتراف باللغة باعتبارها نظاما عرفياً من العلامات ، وغررت بالعقل العام فجعلته ينسب إليها أسساً غرزية ليست لها ؛ تلك هى الملاحظة الشهيرة التى تقول إنه تحت ضغط العاطفة كالألم والفرح مثلا ، ننطق بحالة غير إرادية ببعض الأصوات التى يأخذها السامع دلالة على العاطفة نفسها .

ولـكن هناك بونا شاسعاً بين هذا االتعبير غير الإرادى عن الشعور ، وبين النوع العادى للتفاهم ، وهو الكلام . فالنوع الأول غرزى غير رمزى ، لأنه لا يدل على نوع العاطفة ، ولـكنه فيضان آلى لطاقة العاطفة ، وهو جزء من العاطفة نفسها ؛ ثم هو لا ينقل فـكرة على أى حال ، فهو كالنباح والصهيل وما إلى ذلك . أما اللغة فهى طريقة إنسانية غير غرزية لنقل الأفـكار والعواطف والرغبات بواسطة نظام من الرموز التى تستعمل بحسب الإرادة . هذه الرموز سمعية مبدئياً ، وهى تنتج عما يسمى عادة أعضاء النطق . وربما جر الكلام عن أعضاء النطق إلى الظن بأن الكلام غرزى . ولـكن هذه الأعضاء فى حقيقتها ليست وظيفتها النطق وإنما تقوم بوظائف حيوية تساعد على جعل استمرار الحياة أمراً ممكنا .

وجوهر اللغة يتلخص فى أنها تخصص رموزاً صوتية للعناصر المختلفة للتجارب.

وهذه الرموز يجب أن تـكون مخصصة بحسب التعارف ، لا بحسب الطبيعة ولا المنطق ، أى أن العلاقة بين الـكلمة وبين مدلولها علاقة اعتباطية غير مسببة .

وللسيوطى[1] كلام وجيز يفرق بين اللغة والكلام ، ولست أدرى إن كان السيوطى واعياً بهذا التفريق أولا ، حيث يقول : « فإن قال قائل ، فقد يقع البيان بغير اللسان العربى ، لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين . قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان ، لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلما فضلا عن أن يسمى بيناً بليغاً » .

وهنا نقطتان هامتان من التفريق . أولاهما أن المتكلم إنما يتكلم على شرط لغة معينة بمعنى أنه يأتى بكلامه مصوغا بحسب النظم الصوتية والصرفية والنحوية من مفردات هذه اللغة ومادتها . فالكلام كما يبدو فى نظره نشاط عضلى مصوغ من رموز معينة موضوعة بحسب قواعد معينة هى اللغة . وثانيتها أن الذى يستعمل الإشارة يستعمل اللغة لا الكلام .

---

(١) المزهر ص ١٨٧ .

وأما رأى ابن جنى[1] فى اللغة فهو أنهـا أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . وهذا فى الواقع تعريف للكلام ، لا للغة . ويقول فى مكان آخر[2] : غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، لا وحى ولا توقيف إلا أن أبا على رحمه الله قال لى يوما هى من عند الله واحتج بقوله سبحانه وعلم آدم الأسماء كلها ، وهذا لايتناول موضع الخلاف ، وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله أقدر آدم على أن وَاضَـعَ عليها . وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة . فإن كان ذلك محتملا غير مستنكر سقط الاستدلال به .

ثم يشرح ابن جنى[3] طريقة المواضعة بقوله : «ثم لنعد فلنقل فى الاعتلال لمن قال بأن اللغة لا تـكون وحياً ، وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة . قالوا وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً ، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات ، فيصفوا لـكل واحد سمة ولفظاً ، إذا ذكر عرف به ما مُسَـمَّـاهُ ليمتاز من غيره ، وليغنى بذكره عن إحضاره إلى مَرْآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تـكلف إحضاره كبلوغ الغرض فى إبانة حاله » .

ثم يعود فيذكر نظرية أخرى عن أصل اللغة[4] هى أن منبع اللغة الأصوات الطبيعية والصيحات البدائية التى كان الانسان الأول يؤديها كتعبيرات طبيعية عن انفعالاته (راجع ماقاله سابير ص٥٤ـ٥٥) فيقول : «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبى ونحو ذلك . ثم وُلّـدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح متقبّـل » .

ثم يعود ابن جنى فى نفس الصفحة إلى القول بأنها من عند الله عز وجل ويقوى فى نفسه اعتقاد كونها توقيفاً من الله سبحانه ، وأنها وحى .

---

(١) الخصائص ص ٣١ .
(٢) ص ٣٩ .
(٣) ص ٤٢ .
(٤) ص ٤٤ .

منهج الدراسات اللغـــوية

تعدد الأنظمة فى اللغة الواحدة

إننا نسمى كل مجموعة من الكلمات أيا كان عددها ما دامت تقع بين سكتتين وتستغرق مرة واحدة من مرات التنفس « مجموعة كلامية » سواء كانت جملة مفيدة أو جزءاً من جملة أو كانت كلمة واحـدة . والمجموعة الكلامية نسق من من الأصوات أو سلسلة منها ، وهى بهذا مادة للوصف من الناحية الأصواتية . وتتم دراستها من الناحية الأصواتية عن طريق وصف مخارج أصواتها وطرق النطق بها وصفاتها فيقال مثلا إن الصوت الفلانى من أصوات هذه الـكلمة يخرج من المخرج الفلانى ، وهو شديد أو رخو أو مركب أو متوسط وهو مهموس أو مجهور ، مطبق أو مغور أو محلق . ويتم ذلك الوصف بعد ملاحظة وتجارب سنتكلم عنها فى مكان آخر من هذا الـكتاب . فإذا تناولنا العلاقة بين أصوات هذه المجموعة الكلامية بأن قلنا إن هذا الصوت واحـد من المجموعة الأصواتية التى نسميها « حرف كذا » ، وإن موقعه قبل الصوت الفلانى الملاصق له قد حتم أن يبدو هو فى شكله الحاضر ، وإن الحرف الذى هو أحد أصواته يبدو بصورة أخرى فى الواقع الأخرى، كالنون مثلا تـكون مفردة فى شكل معين ، فإذا تلاها قاف تغير صوتها ، وكذلك إذا تلتها جيم أو شين أو صاد أو ذال أو ظاء ، وهلم جرا ، أقول إذا تناولنا هذا كنا ندرس التشكيل الصوتى ، لا الأصوات ، وكذلك إذا درسنا مواقع النبر فى الكلام ونظام المقاطع فيه وطرق تنغيمه وسلوك الأصوات فى المفاصل بين الـكلمات وفى نهاية المجموعة الكلامية أو بدايتها ، كما هو الحال فى همزة الوصل وفى الوقف . كل أولئك دراسة للتشكيل الصوتى لا للأصوات . ولعل الفرق بين الناحيتين واضح . فالأصوات حركات عضوية نشأت عنها قيم صوتية فى نشاط حركى ذو نتيجة سمعية يدرس كلاهما من الناحية الطبيعية ؛ وأما العلاقات فهى ليست حركات طبيعية ولا تشريحية خاصة بوظائف الأعضاء ، ولـكنها ارتباطات من نوع معين بين الأصوات المتخارجة فى الورود فى الموقع الواحد ، إذا كانت من

حرف واحد وغير المتخارجة إذا كانت من حرفين أو حروف مختلفة . هذه الارتباطات أفكار مدركة لا أشياء ملموسة ، ووسائل للتناول الدراسى للغة لا أجزاء من سلسلة الأصوات فى المجموعة الكلامية .

ويمكن دراسة المادة اللغوية لامن هاتين الناحيتين فحسب ، بل من نواح أخرى متعددة عن طريق مجموعة من الطرق المتساندة والتكنيكات المترابطة . والأنظمة اللغوية كالنظام الأصواتى والتشكيلى والصرفى والنحوى وهلم جرا ، تخترع ولا تكتشف . والواقع أن الخليل وسيبويه لم يكتشفا النحو العربى وإنما اخترعاه اختراعاً ، ويريد بعض المحدثين وقد لمس نواحى النقص فى هذا الاختراع أن يحسن النظام المخترع حتى يكون أداة أقدر على تفهيم النصوص العربية ، وكل باحث فى اللغة يجب أن يكون قادراً على استعمال مقدرته الاختراعية . فكما اخترع النحاة جهاز النحو العربى اخترع القراء الجهاز الأصواتى الصالح لتقرير حقائق القراءات واخترع الصرفيون الصيغ الصرفية المتنوعة من فاعل ومنفعل ومستفعل ، واخترع كل أولئك الأصول الثلاثة للكلمة وجعلوها مادتها التى يدل عليها بها . وكل ذلك مجال مفتوح للبحث والتنقيب يتطلب الوعى الدراسى الصحيح ، ولم يقفل فيه باب الاجتهاد .

فاللغة إذاً متعددة الأنظمة . فلها نظامها الأصواتى الموزع توزيعاً لا يتعارض فيه صوت مع صوت ولها نظامها التشكيلى الذى لا يتعارض فيه موقع مع موقع ، ولها نظامها الصرفى الذى لا تتعارض فيه صيغة مع صيغة ، ولها نظامها النحوى الذى لا يتعارض فيه باب مع باب ، ولها بعد ذلك نظام للمقاطع ونظام للنبر ونظام للتنغيم فهى « منظمة من النظم » على حد تعبير بعضهم ، ويؤدى كل نظام منها وظيفته بالتعاون مع النظم الأخرى .

وهمنا بعد ذلك أن نتكلم عن المناهج التى تقوم عليها دراسة هذه النظم ، ونشرح بقدر الإمكان طريقة التناول فى كل فرع من فروع الدراسات اللغوية .

منهج الأصوات ـ الفوناتيك

الصوت

يجب أن نبدأ هنا بتحديد اصطلاحات ثلاثة نود أن نستعين باستخدامها استخداماً خاصاً على الشرح ، ومن المهم إلى أقصى حد أن نفرق بين مفهوماتها . تلك هي :

١ — الجرس ونقصد به ما يقصد بالكلمة الإنجليزية Noise

٢ — الحس ونقصد به معنى الكلمة الانجليزية Voice وقد استعرنا كلمة حس من الكلام العامى فى نحو (فلان حسه جميل) .

٣ — الصوت والمراد به معنى الاصطلاح الإنجليزى Sound .

فالجرس أى أثر سمعى غير ذى ذبذبة مستمرة مطردة كالنقرة على الخشب أو الطبلة ، وكالاصطدام وضجيج حركة المرور ومايسمع نتيجة سقوط جسم على آخر وحك جسم بجسم وهلم جرا .

والحس مانطقه جهاز صوتى حى وبخاصة الجهاز النطقى الإنسانى ؛ فمعناه إذاً ضيق محدود لا يشتمل فى دلالته على معنى الصوت اللغوى لأن الحركات العضوية التى تدخل فى مفهوم الصوت اللغوى لا تدخل فى دلالة هذا الاصطلاح .

وأما الصوت بالمعنى العام (الذى يشمل اللغوى وغير اللغوى) فهو الأثر السمعي الذى به ذبذبة مستمرة مطردة حتى ولو لم يكن مصدره جهازاً صوتيا حيا . فما نسمعه من الآلات الموسيقية النفخية أو الوترية أصوات وكذلك الحس الإنسانى صوت . ويتوقف فهم الصوت بهذا المعنى العام على اصطلاحات ثلاثة يجب التفريق بينها أيضاً . هذه الاصطلاحات هى :

١ — درجة الصوت Pitch

٢ — علو الصوت Loudness

٣ — قيمة الصوت Quality or timbre

فدرجة الصوت سمكه أو دقته (ودعنا نختر هاتين الصفتين من صفات الأحجام فنستعملها استعمالا مجازياً) ويتوقف السمك والدقة على عدد الذبذبات فى وقت معين يحدد عادة بالثانية فإذا كثر عدد الذبذبات فى الثانية كان الصوت دقيقاً وإذا قل كان الصوت سميكا . وإذا توقفت الدرجة على عدد الذبذبات فإن عدد الذبذبات بدوره يتوقف على :

ا — سمك مصدر الذبذبة كالوتر مثلا فالوتر السميك ينتج صوتاً سميكا وبالعكس .

ب — طول هذا المصدر فالوتر الطويل ينتج صوتاً سميكا وبالعكس .

ج — قوة التوتر فالوتر المشدود ينتج صوتاً أدق من ذلك الذى ينتجه الوتر المسترخى .

د — شكل المصدر وهو ما يتوقف عليه ما إذا كان الصوت طبيعياً أو مصطنعاً falsetto

والأوتار الصوتية فى الرجل أسمك وأطول من الأوتار الصوتية فى المرأة ولهذا صار صوت الرجل أسمك من صوت المرأة بصفة عامة وكلاهما أسمك من صوت الطفل.

ويتوقف علو الصوت على المدى الذى يصل إليه مصدر الذبذبة فى التراوح بين نقطتى غاية ابتعاده من نقطة الصفر . ومعنى ذلك أنه إذا كان الوتر الصوتى الإنسانى فى حالة صمت سواء كان مقفلا أو مفتوحاً فهو فى النقطة الذبذبية صفر ؛ أى أنه غير منتقل . فإذا بدأ فى الذبذبة تحرك إلى أعلى وأسفل بمدى يتساوى فيه ما بين نقطة الصفر وغاية الصعود بما بين نقطة الصفر وغاية الهبوط . فإذا اتسع ذلك المدى كان الصوت عالياً ، وإذا ضاق كان الصوت منخفضاً . وهذا المدى بدوره يتوقف اتساعه وضيقه على كمية الهواء الخارج من الرئتين المار بين الأوتار الصوتية ؛ فإذا زادت كمية الهواء اتسع المدى وبالعكس ، أما فى البيانو مثلا فيتوقف على قوة الضرب على المفتاح ، وفى العود والكمان على قوة ضرب الوتر أو الضغط عليه .

وبالاختصار يتوقف العلو على الإثارة فى جميع ذلك .

وأما قيمة الصوت فهى أثره السار أو المنفر فى الأذن ومن المعروف أن أى صوت يمكن تحليله إلى نغمة أساسية ونغمات أخرى فرعية وأن النغمة الأساسية (أو نغمة درجة الصوت كما يسمونها) هى أعلى هذه النغمات ، وأن النغمات الفرعية نتيجة ذبذبات تكون مضاعفات حسابية مع عدد الذبذبة فى النغمة الأساسية . ولإيضاح ذلك نقول إننا إذا اخترنا مثلا وتراً من أوتار العود أو الكمان فسنجد أنه حين يضرب يتذبذب ككل من أجل النغمة الأساسية ، ثم تتذبذب أجزاؤه مرتعشة فى نفس الوقت من أجل النغمات الفرعية . فإذا تذبذب الوتر ككل ٢٠٠ مرة فى الثانية مثلا فسنجد أن من أجزائه ما يتذبذب ٤٠٠ مرة ومنها ما يتذبذب ٦٠٠ ، ٨٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٢٠٠ وهكذا . وإذا أخذنا عموداً من الهواء فى آلات النفخ فإننا نجده ينقسم إلى هذه الأجزاء التى بينها علاقة حسابية أيضاً فيكون منه ما هو نغمة أصلية ومنه ما هو نغمات فرعية .

وتسمع النغمات الفرعية فى نفس الوقت مع النغمة الأساسية مكونة معها كلا هو الصوت ولكن هذه النغمات الفرعية لا تسمع بمفردها . وتتوقف قيمة الصوت على هذا النسق الرنينى الخاص من النغمات الفرعية فكما أن العود فى تصميم بنائه قد صنع ليختلف فى القيمة الصوتية عن الكمان ، أى أنك تستطيع أن تقرر بالسماع دون أن ترى الآلة ما إذا كان المعزوف عوداً أو غيره ، كذلك تستطيع أن تقرر بالسماع ما إذا كان صوت العلة المنطوق هو هذا الصوت أو ذاك ، وتنسبه إلى الفتحة أو الكسرة أو الضمة . فاختلاف شكل العود عن شكل الكمان كاختلاف شكل الفم فى نطق أحد الأصوات عنه فى نطق الآخر يغير شكل الموجة الصوتية بإيضاح النغمات الفرعية الخاصة بهذا الوضع وإعطائها أهمية فى السمع وإن اتحد طول الموجة فى الحالتين . واختلاف شكل الموجة هو اختلاف القيمة وذلك ما تميزه الأذن بسهولة .

وهذه القيمة الصوتية تجعلك تميز صوت صديقك فى التليفون من أصوات الآخرين ولو يشبهونه فى الدرجة والعلو . وتتوقف النغمات الفرعية على نسيج الأوتار

الصوتية نفسها . بقى بعـــد ذلك أن نرى كيف يحدث الصوت الإنسانى أو ما اصطلحنا على تسميته « الحس » .

إن الهواء الخارج من الرئتين إما أن يجد الأوتار الصوتية مفتوحة فتحاً تاماً بحيث لا تعترض طريقه فيمر منها دون أن يحدث بها ذبذبة أواحتكاكا ، وإما أن يجدها متقاربة قرباً يمكن الهواء من أن يحتك بها دون أن يحدث بها ذبذبة ، وإما أن يجدها قريبة جداً بحيث لايمر بها دون أن يحدث بها ذبذبة . والوتران الصوتيان فى ذلك كالشفتين يستطيع الإنسان أن يفتحهما فى طريق الهواء الخارج من الفم ، ويستطيع كذلك أن يقربهما للنفخ بهما ، ويستطيع أن يقربهما بدرجة أكبر ليحدث بهما صوتاً مسموعاً .

أما الأوتار الصوتية فإنهـا حين تتباعد مع مرور الهواء بينها تسمح بحدوث ما يسمى بالتنفس العادى غير المصحوب باحتـكاك الهواء بهذه الأوتار . فإذا تقاربت لدرجة تحتم احتـكاك الهواء بها حدث مانسميه الهمس وهى حالة تغاير تماما تلك التى اصطلحنا على أن نسميها حالة إنتاج الحس التى لابد لها من وجود ذبذبة فى الأوتار الصوتية .

بقى بعد ذلك أن نشرح هذه الحالة الأخيرة « حالة الحس » . إن الذبذبة التى تحدث فى الأوتار الصوتية ليست كل شيء فيما يتعلق بإنتاج الحس ، وكل ماينتج عن هذه الذبذبة هو ما اصطلحنا على تسميته « الجرس » . أما كيف يتحول هذا الجرس إلى حس له درجة وعلو وقيمة على نحو ما شرحناه سابقاً فذلك سيتوقف على عوامل مساعدة يمكن تسميتها حجرات الرنين .

نحن نعلم أن وتر العود من غير جسم العود لا يؤدى نفس الغرض الذى يؤديه وهو مركب على هذا الجسم ، وأن الضرب عليه وهو خارج العود سيؤدى إلى جرس قصير الأمد قد لا يتجاوز الثانية ، وآية ذلك أنك تستطيع أن تأخذ أحد أوتار العود فتفصله ثم تحـكم شده بين شيئين ثم تضرب عليه بنفس الريشة المستعملة فى العزف على العود ، ولست أشك إن فعلت فى أنك ستدرك الفرق بين حالتى الوتر مشدوداً على العود ومشدوداً خارجه .

ويقال ذلك عن أوتار كل آلة موسيقية وترية كما يقال فى الأوتار الصوتية الإنسانية . فالذى يحدث إذا من الأوتار الصوتية من غير اعتبار العوامل المساعدة ليس إلا جرسا كالذى يحدث من وتر مشدود فى غير آلة موسيقية .

ونحن نعلم أيضاً أن وظيفة الصندوق فى العود إنما هى إيجاد الرنين الضرورى لإحداث صوته ، وهذا الرنين أشبه ما يكون بأصداء لجرس الوتر تتشابك فى صندوق العود ويكمل بعضها بعضا . وإذا كان للعود صندوق واحد يؤدى هذه المهمة ففى الانسان صناديق كثيرة ؛ فالتجويف الصدرى والحلق وتجويف الفم كله حجرات رنين من أنواع ممتازة ، ولهذا كان الجهاز الصوتى الانسانى أكثر الآلات الصوتية كمالا وإيفاء للغرض .

يخرج الهواء إذا من الرئتين فيجد الوترين الصوتيين متقاربين قربا شديداً ولكنهما غير مقفلين ، فيمر بينهما فيتذبذبان ويكون لذلك جرس يتردد صداه فى حجرات الرنين التى ذكرناها فوق هذا الكلام ، ويتكون من مجموع الجرس والأصداء الرنينية حس سمعى له مقوماته الخاصة من درجة وعلو وقيمة ، وسنرى فيما بعد أن النشاط اللغوى الإنسانى يحسن استخدام العلو والقيمة إلى أقصى غايات الإحسان فيستخدم الأول فى التنغيم[1] وفى التفريق بين الصحاح والعلل ويستخدم الثانية فى التفريق بين أفراد كل نوع من الصحاح والعلل من ناحية صفاته .

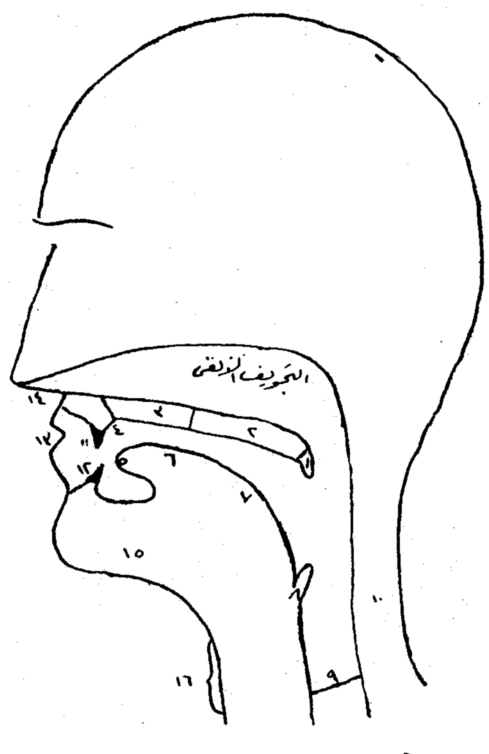
الصوت اللغوى

حين يتكلم المتكلم نلاحظ أنه يقوم بحركات خاصة بفكه الأسفل وشفتيه ولسانه ، ونلاحظ كذلك أن أثراً سمعياً معيناً يصل إلى آذاننا فنفهم أنه مرتبط بهذه الحركات التى فى فم المتكلم .

هذا الأثر السمعى لا يبدو فى مظهر ذبذبة مستمرة طويلة غير معدّلة ، كالتى نسمعها من صفارة الإنذار أو من صفارة القطار ، وإنما هى معدلة بمقدار مايصاحبها من حركات الفم التى ذكرناها فى البداية . هذه الحركات النطقية ملونة بألوانها الصوتية الخاصة هى ما اصطلح العلماء على تسميته بالأصوات اللغوية . فالصوت

(١) سيأتى فصل خاص لشرح هذا الاصطلاح (التنغيم) .

اللغوى إذاً ذو جانبين أحدهما عضوى والآخر صوتى ؛ أو بعبارة أخرى أحدهما حركى والثانى تنفسى ؛ أو بعبارة ثالثة أحدهما يتصل بعملية النطق والثانى يتصل بصفته . وعملية النطق هذه تحدث فى أية نقطة مما بين الشفتين والأوتار الصوتية فى الجهاز النطقى الإنسانى .



الجهاز النطقى

١- اللهاة ٢- الطبق ٣- الغار ٤- اللثة ٥- طرف اللسان ٦- مقدم اللسان ٧- مؤخر اللسان ٨- لسان المزمار ٩- الأوتار الصوتية ١٠- الجدار الخلفى للحلق ١١- ١٢- الأسنان العليا والسفلى ١٣- الشفتان ١٤- فتحة الأنف ١٥- الفك الأسفل ١٦- منطقة الحنجرة فى أمام الرقبة

ويجب أن نشير هنا إلى حقيقة هامة تتصل بحركات هذا الجهاز هى أن بعض أعضائه ثابت والبعض الآخر متحرك فالأجزاء الثابتة هى الأسنان واللثة والغار والجدار الخلفى للحلق ؛ والأجزاء المتحركة هى الشفتان واللسان من طرفه إلى ما يشمل لسان المزمار ، والفك الأسفل والطبق بما فيه اللهاة والحنجرة والأوتار

الصوتية والرئتان، أضف إلى ذلك الحجاب الحاجز وبعض العضلات البطنية، وهذان الأخيران سوف لا يدخلان فى دراستنا هذه .

وهناك حقيقة أخرى لا بد من الإشارة إليها هى أن الوظيفة الأساسية لهذا الجهاز ليست متصلة بالنطق اللغوى ، وإنما تؤدى وظيفة حيوية بالعمل على جعل استمرار الحياة أمراً ممكناً . فالشفتان صمام لحفظ الطعام من الانتثار أثناء المضغ ، وتستعملان كذلك فى المص والبصق؛ والأسنان والأضراس لتقطيع الطعام ومضغه، واللسان ، وهو عضلة فى نهاية التعقيد من ناحية تركيبه وحركته ، يساعد على خلط الطعام فى الفم . ويفصل سقف الفم بين تجويفين يختلفان فى الوظيفة ، هما تجويف الفم وتجويف الأنف . والتجويف الأنفى حجرة لتكييف الهواء قبل هبوطه إلى الرئتين، والحلق ممر الهواء ، وهو ينتهى بالأوتار الصوتية التى هى جزء من الحنجرة ، وهذه الأوتار صمام لحفظ الرئتين من الأجسام الغريبة ولحبس الهواء فيهما لأغراض مختلفة ، منها السعال وحمل الأحمال الثقيلة ، والرئتان تكرران الهواء وترسلانه إلى القلب ، ويتم هذا التكرير عن طريق التنفس .

ولكن الضرورة الاجتماعية مضافة إلى الذكاء الإنسانى خلقا وظيفة ثانوية لهذا الجهاز الحيوى، هى وظيفة النطق اللغوى . ويستطيع الإنسان بتحريك الأجزاء القادرة على الحركة من هذا الجهاز وتقريبها من أجزائه الأخرى أن يحدث تضييقاً فى مجرى هواء ، كما يستطيع بإلصاق الأجزاء القادرة على الحركة أيضاً بالأجزاء الأخرى منه أن يقفل مجرى الهواء إقفالا تاماً ؛ وبهذا التضييق وذلك الإقفال أو عدمهما يستطيع المرء أن يحدث من الأصوات ما لا حصر له ، ولعل عدد الأصوات المستخدمة فى جميع اللغات الإنسانية فى كوكبنا هذا لم تستنفد كل الإمكانيات الصوتية فى الجهاز النطقى الإنسانى . ولكن هذه الجمهرة الضخمة من الإمكانيات النطقية لا تستخدم كلها فى لغة واحدة ، وإنما تختار كل لغة منها طائفة قليلة متباينة ، يختلف بعضها عن بعض ؛ إما من ناحية مكان التضييق أو الإقفال الذى هو المخرج ، وإما من ناحية الأثر الصوتى المسموع جهراً كان أو همساً ، وإما من ناحية الطريقة التى يخرج بها الهواء عبر المخرج ، سواء كانت هذه الطريقة انفجاراً

أو احتكاكا أو خروجا حرّاً ، وإما من ناحيتين أو أكثر من هذه النواحى .

ويحس المتكلم العادى دائماً ، إذا كان واعياً بالأصوات التى يتكلمها ، أن هذه الأصوات لا تعدو بحال عدد الرموز الكتابية فى لغته ، ولكن هذا الإحساس خاطىء بالطبع ، وربما لا يكون من بين المتكلمين بلهجة القاهرة من يدرك بلا إرشاد أن اللام فى طلب ، من الناحية الصوتية ، غير اللام فى ثلاثة ، وأن التاء فى يتعلّم غير التاء فى يتصرّف ، لأن من عادته أن يعامل الصوتين فى كل حالة معاملة الحرف الواحد . فإذا كانت اللامات والتاءات تختلف فى اللهجة الواحدة فلا شك أن فى لغات العالم عددا ضخما من اللامات والتاءات التى يختلف كل منها عن الآخر مخرجا جهرا أو همساً أو طريقة أو درجة ، أو رنيناً أو تفخيما أو ترقيقاً .

فلا يغرنك إذاً أن تسمع المتكلم الأجنبى يأتى فى كلامه بأصوات تذكرك بأصوات لغتك ، فتظن بادىء ذى بدء أن هذا هو عين الصوت الذى تتكلم به أنت . فأنت إذا دققت السمع وجدت فرق ما بين السماء والأرض بين صوتك الذى فى كلامك وصوته الذى فى كلامه ، وذلك فرق يبدو بدقة الملاحظة ، كما يبدو بالوسائل الميكانيكية التى تستخدم فى البحث فى معمل الأصوات اللغوية ، تلك الوسائل التى سنشرحها بعد قليل . وهذا الفرق من ناحية أخرى يرجع إلى اختلاف نوع التكييف العضلى الذى يصحبه ، وهذا التكييف أمر فردى فى طابعه ، حتى ليختلف الأخوان فى طريقة النطق ويختلف الشخص مع نفسه من نطق إلى نطق ، بحسب ظروفه العضلية والنفسية .

ولكن لاجدال فى أن التاء ، إن اختلفت من فرد إلى فرد ومن لهجة إلى لهجة ومن لغة إلى لغة ، فهى فى مجموعها نوع نطقى معين تشترك اللغات فيه وتختلف فى أفراده . وهذا هو الذى يبرر كتابة أسماء الأعلام فى اللغات الأجنبية بمقابلات رمزية عربية . لاحظ التاء مثلا فى الكلمات الآتية :

ستالين — تورين — تفليس — سان استيفانو — مارجريت — كلكتا .

وإنك لتجد رموزا عربية أخرى فى هذه الكلمات إلى جانب التاء يمكن أن

يقال فيها ما يقال فى التاء . وهذا أيضاً هو المبرر الوحيد لخلق أبجدية أصواتية عالمية محدودة عدد الرموز . فكل رمز فى هــذه الأبجدية نوعى (Typological) ، يدل على طائفة من حالات النطق تشترك فى سلوك عضلى وسمعى معــين ، وتختلف فى تفاصيل نطقها وسماعها . ففى العربية تاء وفى الانجليزية أخرى وفى الهندستانية ثالثة ، ولــكن العربية أسنانية مهموسة ، والانجليزية لثوية مهموسة ، والهندوســتانية انقلابية retroflex أقل همساً من كليتهما ؛ ومع ذلك فإن الــكلمة الإنجليزية التى بها تاء مثل (توماس) إذا نقلت إلى العربية ابتدأت بالتاء أيضا .

ولــكننا ضربنا مثلا بالتاء فحسب ، مع أن الواقع أن ذلك يقال عن كل ما فى اللغة من رموز أصواتية . ولقد سبق أن قلنا إن فى اللغة العربيــة حرفا يضم اسمه فى مفهومه طائفة من الأصوات التى تختلف فى مخارجها من الأسنان فى الأمام إلى اللهاة فى الخلف . لاحظ نفسك وأنت تنطق النون فى قولك « من ظـلم » (مع ملاحظة أن اللسان لابد أن يخرج مع الظاء) ، وستجد أن النون صوت يخرج اللسان معه كما يخرج مع الثاء والذال والظاء . ثم لاحظ نفســك أيضاً وأنت تنطق النون فى « من شاء » ، « من جاء » ، « من خرج » ، « من غاب » ، « من قعد » ، « من بات » ، « من يكون » ، ثم فى قولك « أنا » ، وســتجد — لا محالة — أن بعض هذه الأصوات يختلف عن بعض ، ولــكنهــا كلها تلتقى تحت مفهوم حرف النون . ولاحظ كذلك أننا قد قابلنا النون الأجنبية بنون عربية فى ثلاث من الأمثلة التى جئنا بها من قبل وهى :

ستالين — تورين — سان استفانو .

ولست أريد هنا أن أدخل فى مسألة نقل الأعلام الأجنبية بحروفها إلى اللغة العربية ، واستعارة الــكلمات الأجنبية بحروفها كذلك ؛ فلهــذا النقل نظام خاص من المقابلات لا أحب أن أخوض فيه فى هــذا الــكتاب . ولــكن الذى أحب أن أقوله هنا هو أن لدراسة الأصوات منهجاً خاصا بها تبحث على أساســه . وما دام إنتاج الصوت عملا فرديا — وقد سبق أن قلنا إن الأخوين لاينطقان نطقاً متشابهاً

تماماً — فإن دراسة الأصوات إنما تقوم على أساس فردى لاجمعى ؛ وذلك أنك تختار من اللهجة التى تريد أن تدرسها من الناحية الأصواتية متكلما من متكلمى هذه اللهجة نشأ عليها من طفولته ، مع تفضيل المتكلم الذى لم يغادر المنطقة اللغوية التى تتكلم اللهجة فيها طول حياته ؛ فهذا خير من يمثلها تمثيلا صحيحاً . والأفضل فى ذلك أيضاً أن يكون ذلك المتكلم (ولنسمه بعد ذلك مساعد البحث) أميا لايعرف القراءة والكتابة ، لأن للقراءة والكتابة تقاليدها التى لاتتمشى دائماً مع المنهج الصحيح . فإذا كان المساعد قارئاً كاتبا تدخلت معرفته بذلك فى مجرى البحث ، وضيعت كثيراً من الفائدة على طالب البحث .

لقد حدث حين درست لهجتى الخاصة (لهجة الكرنك مركز أبى طشت بمديرية قنا) لدرجة الماجستير فى جامعة لندن أن اتخذت نفسى مساعدا لنفسى ، حيث كنت طالب البحث . فلما سجلت رسالتى للدكتوراه فى دراسة أصوات لهجة عدن وتشكيلها الصوتى ، حدث أن اتخذت مساعدا لى عدنيا كان يدرس القانون فى لندن . وقد كان أول عملى معه أن استمليه بعض القصص والحكايات باللهجة العدنية ، وأن أسجل بعض ذلك على اسطوانات فى معمل الأصوات بمعهد اللغات الشرقية فى لندن .

وكنت إذا تم التسجيل أدرت هذه الاسطوانات جملة جملة ، وربما كررت إدارة الاسطوانة للجملة الواحدة عشرين إلى ثلاثين مرة أو أكثر ، حتى أحصل منها على الأثر الصوتى المرضى ، فأسجله بكتابة أصواتية مضبوطة محددة الرموز . ويتم ذلك عادة بحضور المساعد ، حتى يصحح لسمعى ماقد تدغمه الاسطوانة حين سماعها . فإذا وجدت كلمة غامضة فى سماعها من الاسطوانة طلبت إلى المساعد أن يكررها ؛ فلا يزال يكررها حتى أطلب إليه أن يكف ، ثم أدير هذه الكلمة بخصوصها على الاسطوانة ، وأقارن بين السماعين حتى يتضح ما فى الاسطوانة لأذنى . ومع أن لهجة عدن ولهجتى الخاصة بينهما وضوح متبادل — لأنهما ، كما يعلم القارىء ، ينتميان إلى لغة واحدة هى اللغة العربية — لم يكن من السهل علىّ فى بعض الحالات أن أحدد مفاصل الكلمات ، فأعلم أين تبدأ الكلمة وأين تنتهى . ذلك لأن تحديد

الـكلمات فى أية لهجة غير معتادة بالنسبة للباحث إنما يقوم على أسس معقـدة أصواتية وتشـكيلية وصرفية ونحوية ، وعلى عوامل أخرى سنذكرها حين الـكلام عن تعريف الـكلمة .

الملاحظة

هذا الذى أشرت إليه فى الـكلمات الماضية هو ما يسمى فى منهج الأصـوات بطريقة الملاحظة . ولن تـكون طريقة الملاحظة وافيـة بالغرض منها دون أن تصحبها ملاحظة ذاتية من جانب طالب البحث . وذلك بأن يقلد الطالب مساعده فى نقطة على مسمع من المساعد ، ويسأله وهو يفعل ذلك أن يدله على مواطن الغلط فى التقليد ، ولا يزال به يسأله ويستفهمه حتى يقول المساعد إنه يرضى نطق الطالب للمثال باعتباره ممثلا لنطق اللهجة ، أو أقرب مايكون منه . ويجب على الطالب إذا أراد أن يستوثق من أمانة المساعد أو من انتباهه أن يخادعه أحيانا ، لأن المساعد قد يرضى فى بعض الأحيان بنطق غير صحيح ، ويدعى صحته ، إما تأدباً منه مع الطالب ، أو لتعبه ، أو عدم انتباهه . فإذا علم أن الطالب يخادعه أحيانا بتعمد الخطأ فى النطق ، كان ذلك حافزاً له على الجد والانتباه ، والتدقيق فى قبول نطق الطالب .

ومن المهم جداً أن تتخذ لنفسك طريقة لوضع الأسئلة التى تسأل بها المساعد ، لأن السؤال الذى يسوء اختيار طريقته إما أن يجاب عنه جواباً يقود إلى طريق خاطىء فى الاستنتاج ، وإما أن يُحيّر المساعد فلا يستطيع الإجابة عليه . فليس من المفيد أبدا أن تستعمل فى أسئلتك اصطلاحات فنية يجهل المساعد معناها ، لأن هذه الاصطلاحات هراء بالنسبة له ولست أتصور طالباً مثلا يسأل مساعده ، على علم منه بجهله ، أن ينطق له جملة باللحن التنغيمى الأول ، ولا أن يسأله أن يقدم له قائمة من الـكلمات التى تبدأ بالمقطع القصير (ص ع) . والطالب الذى يفعل ذلك يعوّق عمله بقدر ما يحير مساعده بلاشك ، ويدرك أنه أبعد مايكون عن مراعاة مقتضى الحال .

ومما يساوى ماتقدم فى الأهمية ألا تدع مساعدك ، وقد تعود على سماع الاصطلاحات منك ، يعرف الهدف الذى ترمى إليه من اختيار الأمثلة واختبارها ،

فلا تدعه يعرف السبب الذى من أجله تطلب إليه أن ينطق هذا المثال أو ذاك . ولا تقل له إننى أريد أن أرى من نطقك التى طلبته منك أن أرى ما إذا كان الصوت الفلانى مفخماً أو مرققاً فى هذا المثال ، لان ذلك يجعله يضطرب فى تحديد القيمة الصوتية الصحيحة لهذا الصوت ، فإما أن يبالغ فى التفخيم ، وإما أن يبالغ فى الترقيق ، وإما أن يتوسط بينهما على حساب القيمة الصحيحة للصوت . وبعبارة أخرى سيقوده هذا إلى الوعى بنطقه ؛ والوعى بالنطق أول مراحل التلجلج .

وليس من المفيد أيضاً أن تواجهه بالاستفهام عن أحد احتمالين لا ثالث لهما ؛ كأن تقول له أفى هذا الموضع حركة أم سكون فربما كان هذا موضعا من مواضع القلقلة التى لا هى بالحركة ولا بالسكون . وخير ما يفعل فى هذا الحالة — إذا أمكن — أن تكتب الكلمة بالأبجدية التى تكتب بها اللهجة ، وتسأل مساعدك أن ينطقها لك ، وأنت تلاحظ بعد ذلك كيف ينطق . فإن كان غير كاتب ولا قارىء ، أو لم تكن للهجته أبجدية تكتب بها ، فاسأله عن الكلمة التى يطلقها على المعنى الفلانى ، على أن تكون هذه هى الكلمة التى تبحث عنها . فجوابه لك حينئذ يكون بنطق الكلمة نطقاً صحيحاً ، تستطيع — إذا أردت — أن تطلب إليه أن يعيده قدر ما تشاء .

والميزة التى تمتاز بها الملاحظة على الطرق الميكانيكية فى البحث تكمن فى أن الاذن الإنسانية أكثر الآلات ضبطاً للاستخدام فى الأغراض اللغوية . زد على ذلك أن المادة التى تبحث بالأذن إنما هى الكلام الحىّ نفسه ، فى مقابل ما يدرس على الحنك الصناعى وهو بصمة اللسان ، وما يدرس على الكيموغراف وهو التعريجات الكتابية ، وما يدرس بالأشعة فوق البنفسجية وهو صورة الجهاز النطقى فى وضع ثابت معين .

واستخراج الحقائق من الملاحظة استخراج مباشر ، ومن الآلات غير مباشر . ولعل طريقة واحدة من طرق الملاحظة قد نجحت فى التغلب على عامل التوقيت بخلق دوام من نوع معين للنطق ، تلك هى طريقة تسجيل الصوت تسجيلا يجعله فى المتناول كلما أريد سماعه . فهو يسمع حينذاك بكل خصائصه التى فيه دون أن يتأثر القرص بالعوامل الخارجية عضلية كانت أو نفسية كما يتأثر المتكلم .

تسجيـــل الصوت

يعتبر التسجيل، كما أشرنا من قبل، توسيعاً لمدى الملاحظة بإدخال عنصر الدوام على النطق. وهذا الدّوام استمرار بالقوة[1] للنطق حتى تبدأ إدارة الإسطوانة فيصير استمراراً بالفعل. وذلك لأن الاسطوانة باقية دائماً ومدارة أحيانا. ومثل ذلك يقال عن الشريط ووسائل التسجيل الأخرى. وتمكن الإعادة غير المحدودة العدد، لنطق خاص على الاسطوانة برفع ذراع الإبرة عن المكان الذى ينتهى فيه النطق ووضعها ثانيـة فى المكان الذى بدأ فيه. ويستطيع الطالب أن يتقن هذه العملية إتقاناً لا حد له. وتعتبر الاسطوانة، من بين وسائل التسجيل الأخرى، أحسن وسط لحفظ أكبر عدد ممكن من ملامح الصوت المختلفة، وإعطائها لأذن السامع. ولكن التسجيل بصفة عامة لا يمكن أن يقارن بالصوت الحقيقى الصادر عن الجهاز الإنسانى، ولا سيما إذا كان المقام مقام بحث أصواتى لغوى. وذلك لسببين: أولهما أن الصوت الإنسانى الحىّ أوضح فى قيمته من تسجيله الذى على الاسطوانة، وأن هذا التسجيل ليس إلا تقليداً غير مطابق تماماً للأصل، وثانيهما أن التسجيل المسموع يعطى الطالب فرصة السماع فحسب، وأما الصوت الحى فللأذن فيه فرصة السماع، وللعين فرصة الرؤية، إذ يلاحظ الباحث حركات شفتى المساعد ولسانه وفكه الأسفل، وكل ما تصل إليه عينه من أعضاء نطق المساعد.

وإن عدم ملاحظة هـــذه الحركات فى الاسطوانة المسموعة يجعلها أحط بكثير من الصوت الطبيعى. ومما يؤخذ على التسجيل إذا قارناه بالصوت الحىّ أن الطالب إذا سجل على اسطوانته أصواتاً غير واضحة — وكثير ما هى — فإنه لا يستطيع أن يحصل من الاسطوانة على توضيح كاف لهذا الغموض، حتى ولو أدار هذا النطق على الاسطوانة آلاف المرات. أما إذا جاءك مساعدك أحياناً بصوت غير واضح، فإنك ستستوضحه. وسيوضح لك ما غمض فى نطقه الأول.

---

(١) أى لا بالفعل.

والتسجيلات هى الوسائل الوحيدة (تقريباً) التى يمكن أن تختبر بها دقة نتائج الملاحظة أو عدمها فى نواح كثيرة فى علم الأصوات اللغوية ، مثل قيم الأصوات العلية ، والتنغيم ، والنبر ، وهلم جرا . ففى غياب مساعد البحث لا يمكن استقصاء هذه الملامح اللغوية بواسطة أية وسيلة آلية إلا وسيلة التسجيل . وهذا ما يعطى التسجيل قيمة بين وسائل البحث الآلية لا تشاركه فيها وسيلة أخرى .

ومن المهم جداً أن يكون الطالب حذراً فى اختيار المادة التى يسجلها على الاسطوانات لأغراض البحث اللغوى ، لأن المفروض فى هذه المادة أن تخدم أغراضاً معينة فى العمل . و يتطلب موضوع ما فى دراسته مادة تختلف عما يتطلبه موضوع آخر . فطالب الأنثروبولوجيا مثلا قد يسجل من مادة اللغة ما يسجله طالب الأصوات ، أو طالب التشكيل الصوتى ، أوطالب النحو أو الصرف ، ولكن هذا ليس ضرورياً ، لأن طالب الأنثروبولوجيا لا تهمه قوائم الكلمات ، ولا جداول التصريف ، كما تهم الطلاب الآخرين المذكورين ؛ بل يهتم فى الغالب بالفقرات ، والقطع الكاملة التى تتضح بها ظاهرة أنثروبولوجية معينة .

أما مادة التسجيل لطالب الأصوات ، فإنها تشتمل على ما يأتى :

١ — قوائم معدّة من الكلمات التى تشرح المقارنة بينها ظاهرة نطقية معينة .

٢ — قصص معدّة قبل التسجيل .

٣ — قصص مرتجلة وسيصادف الطالب كثيراً من هذه فى منطقة اللهجة .

٤ — محادثات وديالوجات وما أشبه ذلك من أنواع الحوار . وما يُعدّه الطالب من هذه المادة قبل التسجيل يتطلب مقدرة خاصة على الاختيار ، ونفوذ النظرة فى العمل ، وفى التنبؤ بالأمثلة التى سيختارها حين كتابة مؤلفه عن اللهجة المدروسة .

«البلاتوغرافيا»

أو تكنيك الحنك الصناعى

يقول فيرث « لقد استعملت البلاتوغرافيا منذ طليعة التجارب التى قام بها روسيلو »[(١)] . ومع أن هذه الطريقة من طرق البحث قد بدأت باستعمال بصمات أصوات ثم نطقها منفردة خارج بيئة الكلمة ، إلا أن هذه البصمات لا ينظر إليها نظرة ثقة فى الوقت الحاضر ، لأن اللغة إنما تنبنى من النطق الكامل ، لا من نطق الأصوات المستخرجة من بيئتها الطبيعية . ومن نتائج هذه النظرة إلى البلاتوغرافيا أن أصبح طالب اللغة الآن يقوم بالتجارب على بصمات للأصوات فى الكلمات التامة ، أو فى الجملة ، حين توجد الجملة المناسبة . وهذه البصمات على نوعين :

١ — أمثلة تختار بحيث يكون واحد فحسب من أصواتها المكونة لها صالحاً لإنتاج بصمة على الحنك الصناعى ، ويمكن أن نسمى هذا النوع : وحيد البصمة (انظر البصمات من ١ إلى ٦) .

٢ — أمثلة تختار بحيث يكون أكثر من واحد من أصواتها صالحا لمثل هذا بشرط ألا تتداخل مناطق البصمات للأصوات المختلفة فى المثال . ويمكن أن نحصل من هذا النوع على أمثلة ذات بصمات ثلاث لا يتداخل بعضها مع بعض . ومن ذلك المثال المدنى ضَرُوكْ . فى هذا المثال تقع بصمة الضاد المدنية على ما يقابل أطراف الثنايا من الحنك الصناعى (dental articulation) لأن الضاد المدنية يخرج فيها اللسان . وأما الراء التى تجاور صوت علة متأخر ضيق (أحد أصوات الضمة أو واو المد) ، فإن بصمة اللسان على الحنك الصناعى معها إنما تقع فى منطقة مقدم الغار ومؤخر اللثة (Post-alveolar) ، وأما بصمة الكاف فى هذا المثال وقد

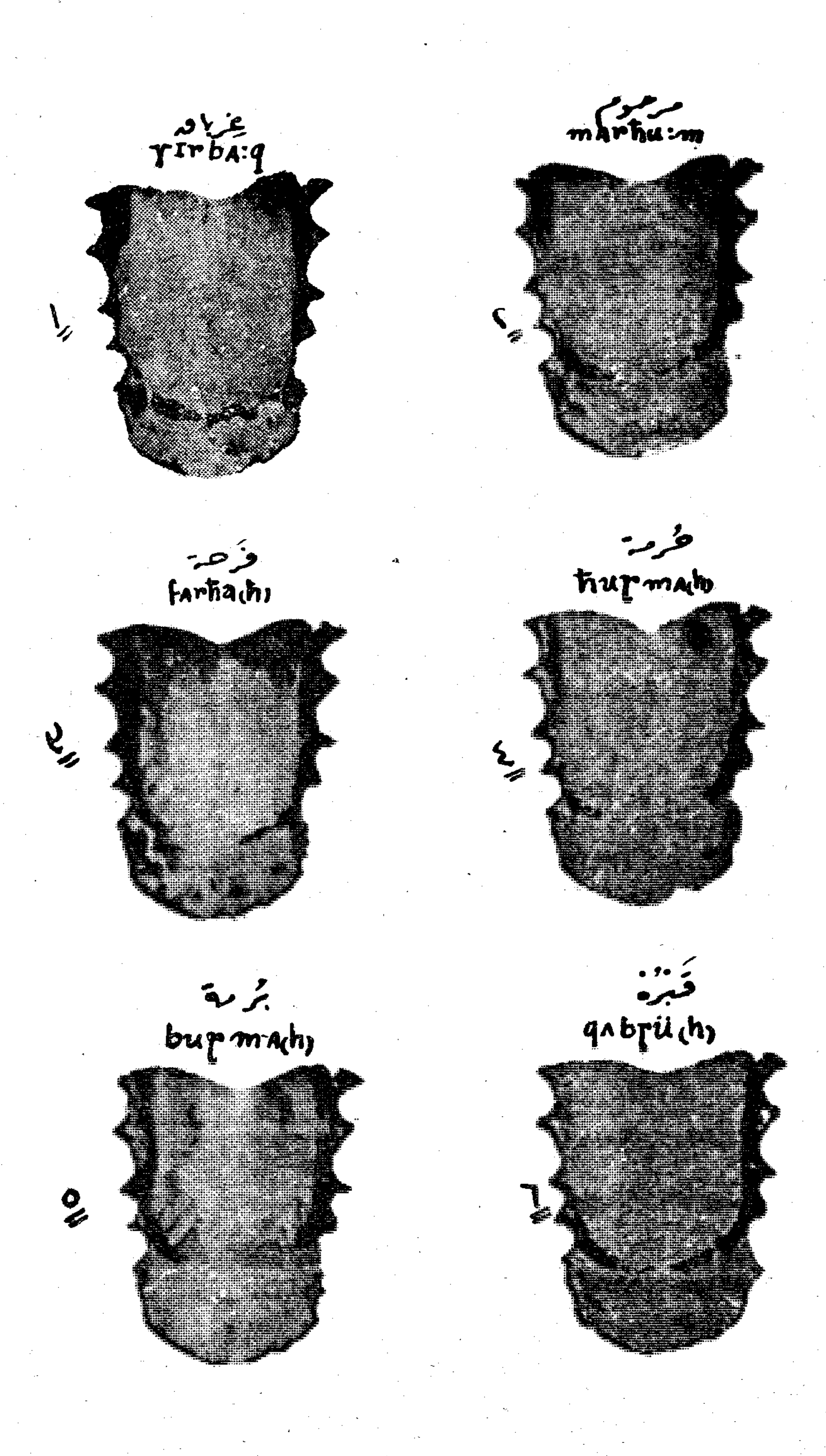
---

(1) Words — Palatograms and articulation, Bulletin of the S.O.A.S. - Vol XII, Parts 3 & 4. 1948. pp. 857 — 64.

سبقها صوت العلة المذكور ، فإنها تقع فى الزوايا الخلفية التى فى نهاية الحنك (Post - Palatal) . ويسمى هذا النوع متعدد البصمة ، (انظر البصمات من ٧ إلى ١٢) .

واختيار النوع الأول من هذه الأمثلة أسهل بكثير من اختيار النوع الثانى ؛ وهذا النوع الأول يوجد بكثرة ضخمة فى الكلمات العربية . فلاختيار أى مثال من هذا النوع ينظر الطالب فى الكلمة ؛ فإذا وجد فيها أكثر من صوت واحد ينطق باللسان ، فليدعها ، فإن وجد فيها صوتاً واحداً مما يتحرك اللسان فى نطقه فليخترها . ومن هذا النوع عرب ، حلف ، شم ، مزح ، مرح ، مسح ، أولم ، أوفد ، أبرع ، أبأس ، أحفر ، عمر ، رحمة ، ملام ، وهلم جرا .

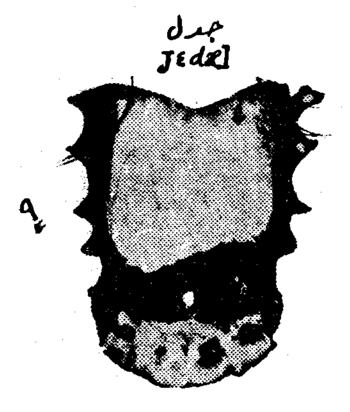
بعد أن يجمع الطالب الأمثلة التى سيجرى بها تجارب البلاتوغرافيا ، ويكون قد جمعها طبقاً للمسألة التى يريد بحثها بواسطة هذه الأمثلة ، يأتى بالمساعد ويمد له الحنك الصناعى فيلصقه بسقف فمه مثبتاً من أطرافه فى أسنانه العليا ، بعد أن يكون قد نظفه بالزيت ، ورش عليه الطباشير الفرنسى ، ثم نفض فائضه عنه . حينئذ ينطق المساعد الكلمة وحيدة البصمة مثلا ، فلا يتصل لسانه بالحنك الصناعى إلا فى صوت واحد من أصواتها . وحينما يتصل اللسان بالحنك الصناعى ، يترك عليه بصمة يتلاشى الطباشير بها ، ويظهر سواد الحنك الصناعى بدل بياض الطباشير . ثم يُخرج الحنك الصناعى من الفم بحذر ، دون أن يسمح للأصابع أن تترك به بصمات، وسيرى الطالب حينئذ موقع اللسان على الحنك الصناعى ، فيستطيع أن يعلق على النطق فى هذا المثال ، أو على نطق الصوت فى الموقع المذكور . ولذكر حدود البصمات مضبوطة ، رأى القائمون بهذه التجارب ، أن يقسموا الحنك الصناعى إلى مناطق كما هو موضح بالرسم المصاحب ليستطيع الطالب أن يصف البصمة باستعمال أسماء هذه المناطق لمن لم ير البصمة نفسها .

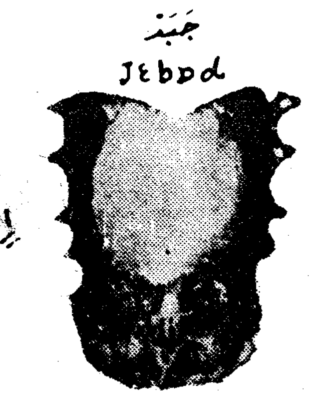


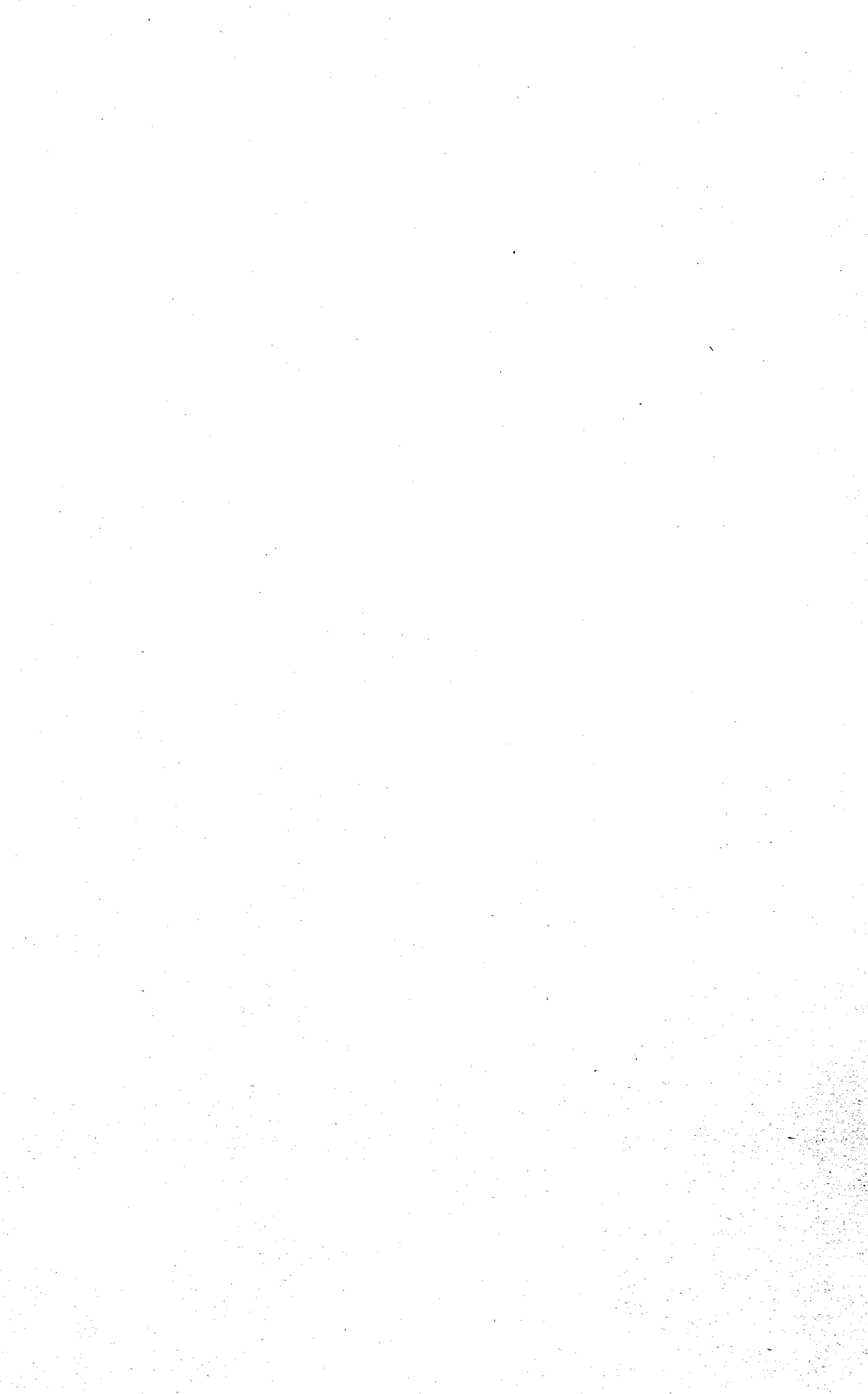
مرحوم
فرحة
برمة
قبرة

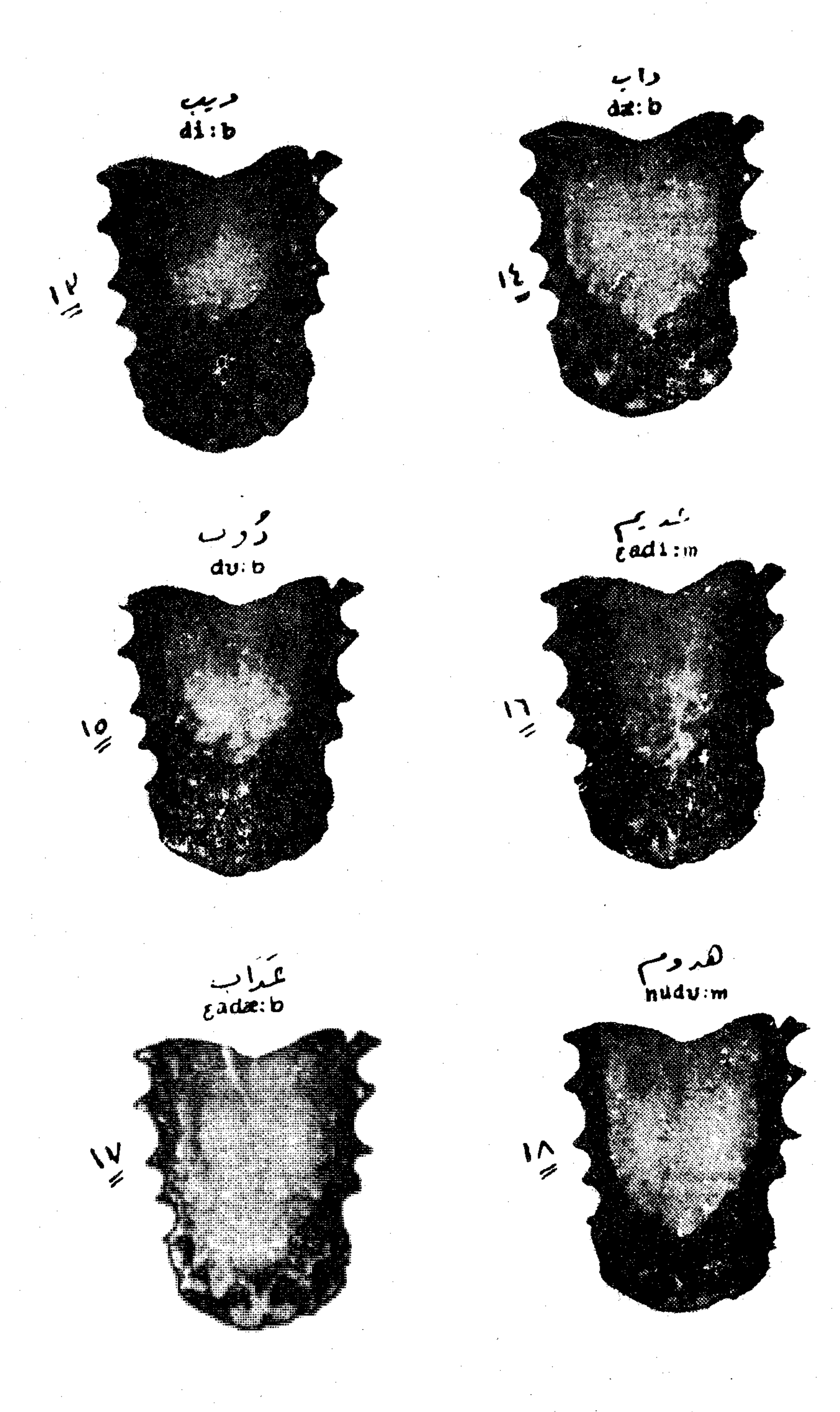






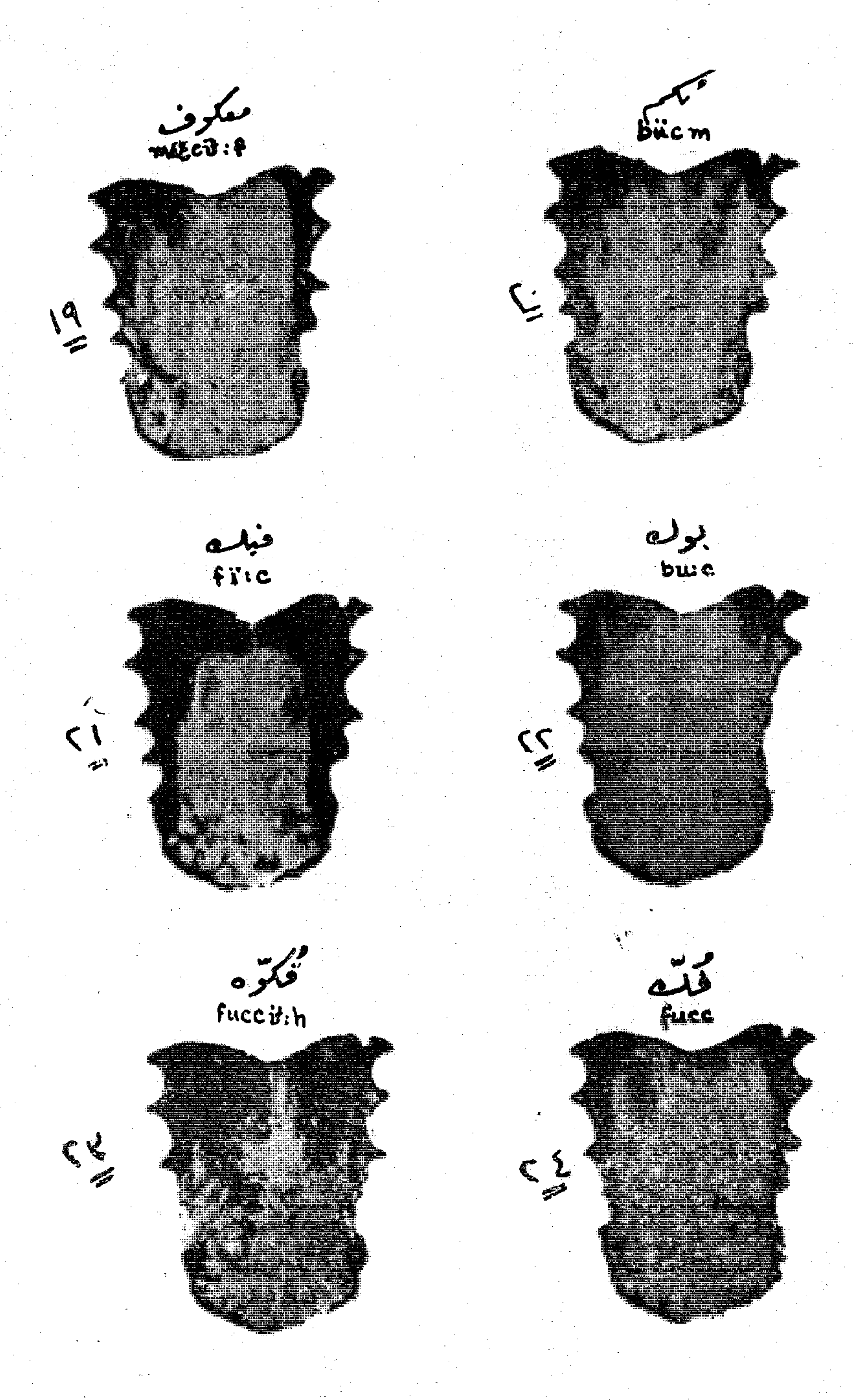


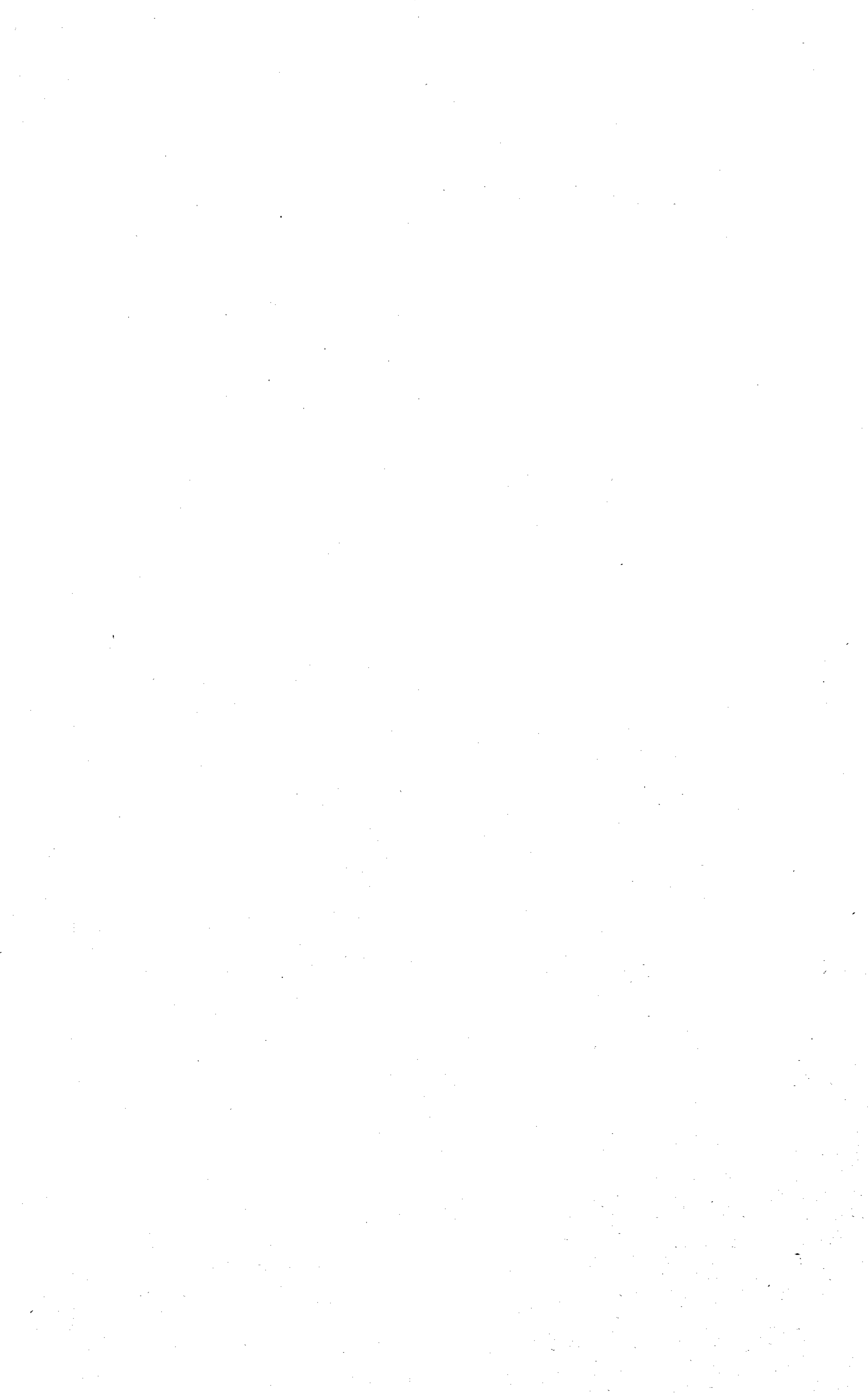


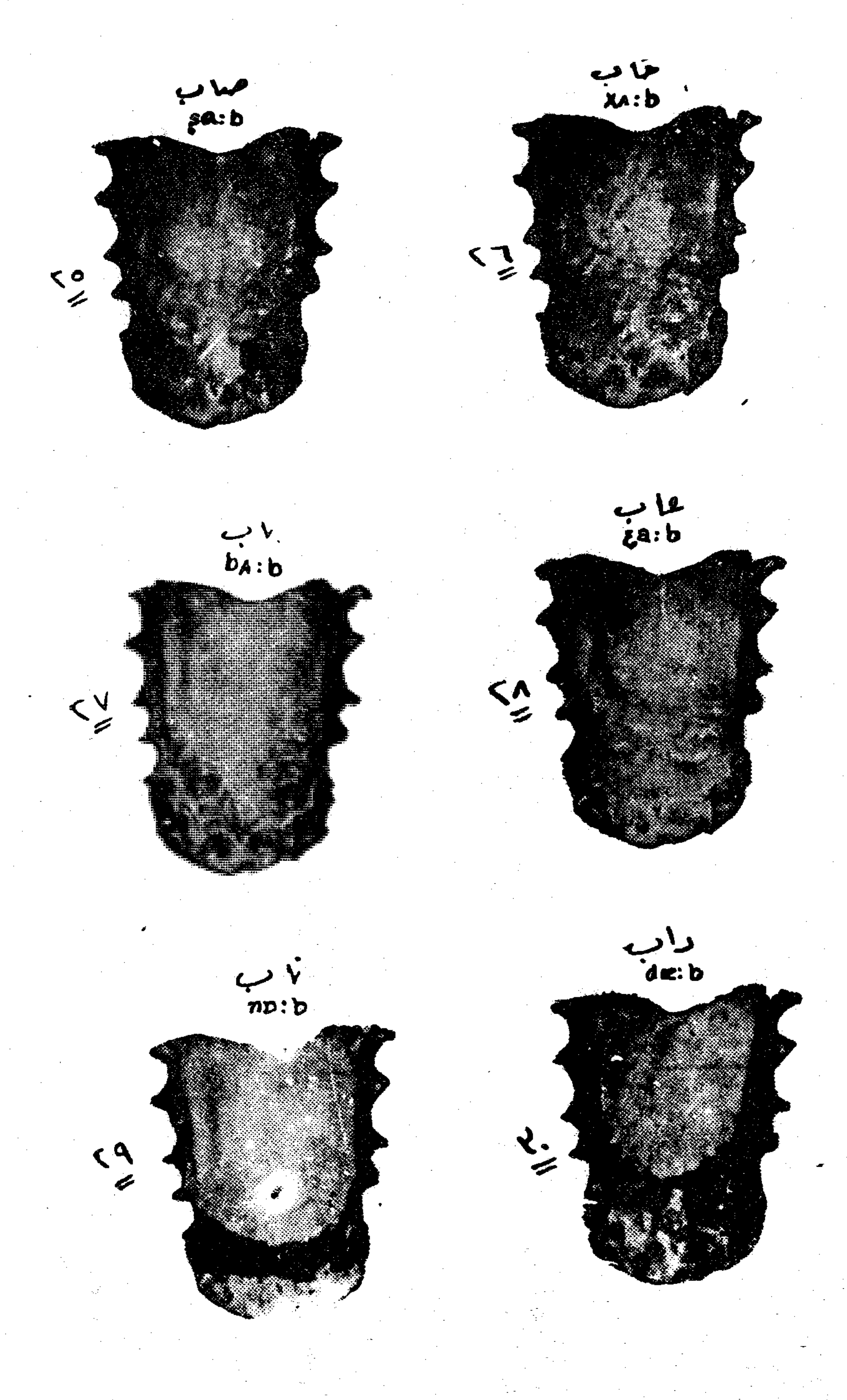
دیب
di:b
١٣
داب
dæ:b
١٤
دوب
du:b
١٥
عديم
εadi:m
١٦
عذاب
εadæ:b
١٧
هدوم
hudu:m
١٨





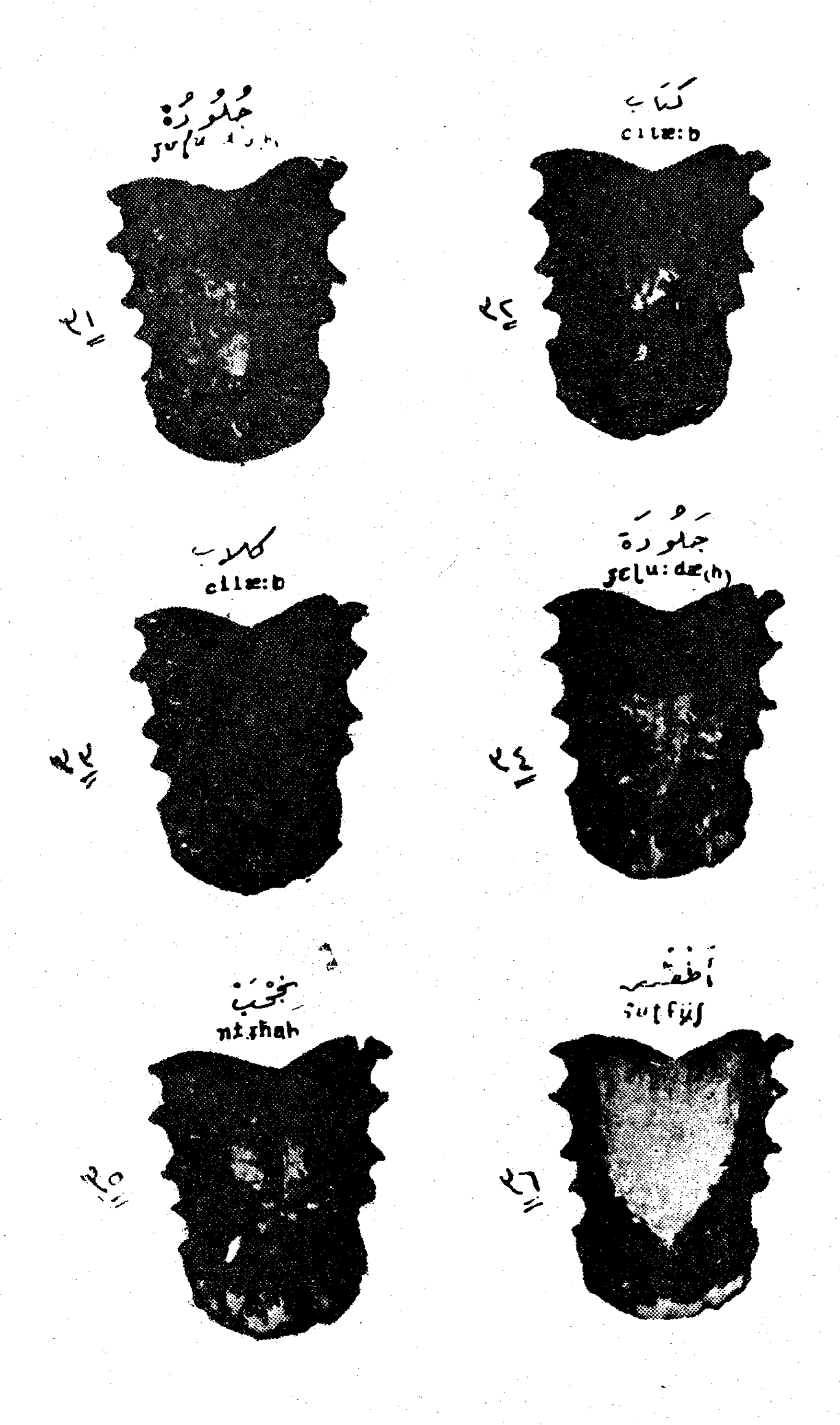
معكوف
mecu:f
١٩
بكم
bücm
٢٠
فيله
fi:c
٢١
بوك
bu:c
٢٢
فكوه
fuccu:h
٢٣
فكه
fucc
٢٤

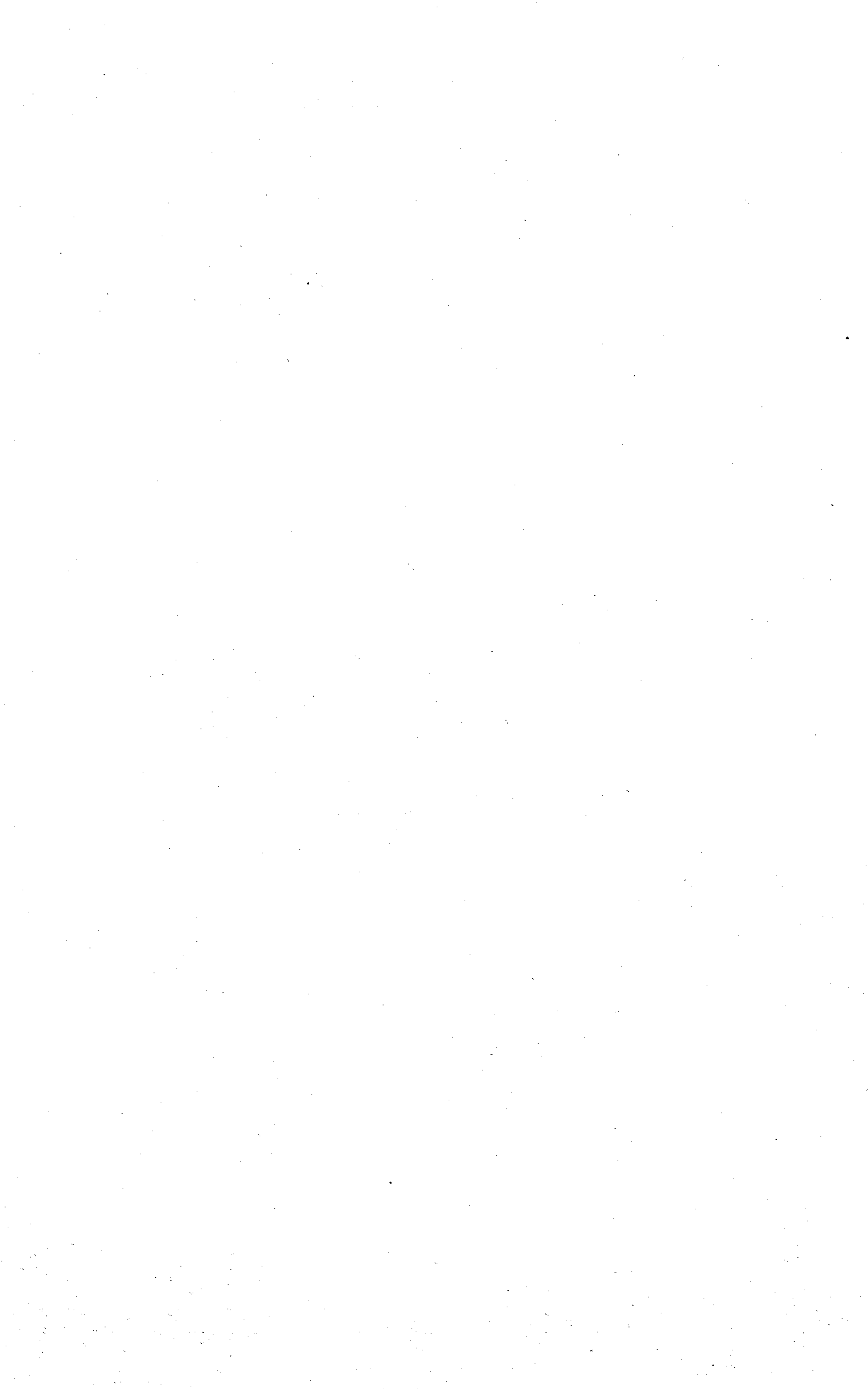




صاب
ṣa:b
٢٥
خاب
xa:b
٢٦
باب
bA:b
٢٧
عاب
ʕa:b
٢٨
ناب
nɒ:b
٢٩
داب
dæ:b
٣٠







The Palatogram Figure

Zones

Left | Right

4th Molar Line .... 7 ...2nd Molar
3rd Molar Line ....
2nd Molar Line .... 6 ....1st Molar
1st Molar Line .... 5 .....2nd Pre-Molar
Canine Line .... 4 ......1st Pre-Molar
Lateral Incisor Line .... 3 ......Canine
Incisor Line .... 2 ....Lateral Incisor
1 ....Frontal Incisor

The Horizontal Lines	The Zones	The Grouped Zones
1. Incisor Line	Dental	Dental
2. Lateral Incisor Line	Denti-Alveolar	
3. Canine Line	Alveolar	Alveolar
4. First Molar Line	Post-Alveolar	
5. Second Molar Line	Pre-Palatal	Palatal
6. Third Molar Line	Mid-Palatal	
7. Fourth Molar Line	Post-Palatal	

The Vertical Lines	The Vertical Zones
The Median Line	Right and Left zones: to speaker's right and left of the median line.
The Right Line	Right Alveolar zone: to the right of the right line.
The Left Line	Left Alveolar zone: to the left of the left line.

ولا يجب أن ننسي حصر المواقع الممكنة فى الكلمة العربية هنا ، وإن كان ذلك من دراسة التشكيل الصوتى لا من دراسة الأصوات . هذه المواقع هى :

١ — البداية ، كموقع الكاف من كتبْ .

٢ — ما كان بين علتين ، كموقع التاء من كتبْ .

٣ — المشدد فى الوسط ، كموقع اللام المشددة من علّمْ .

٤ — ما كان ساكناً فى الوسط ، كموقع العين من معلومْ .

٥ — ما كان متحركا فى الوسط ، كموقع اللام من معلومْ .

٦ — ما كان قبل الأخر فى المجموعة الكلامية ، كموقع الجيم من استخرجتْ

٧ — الساكن المفرد فى الآخر ، كموقع الباء من اضربْ .

٨ — الساكن المشدد فى الآخر ، كموقع اللام المشددة من استقلّ .

فلكل موقع من هذه المواقع بصمته الخاصة ، وجهره الخاص ، ومدته النطقية الخاصة ، (بقطع النظر عن الكمية التى هى اصطلاح تشكيلى لاأصواتى) .

ويجب أن يعلم الطالب تمام العلم مدى توضيح البلاتوغرافيا لمشكلات النطق ؛ فلا يتطلب منها ما لا تستطيع البصمة أن تجيب عليه . فإذا أراد الطالب أن يحتفظ بهذه البصمة لمقارنتها بغيرها فى المستقبل ، فلذلك إحدى طريقتين ؛ أولاهما أن أن يصورها صورة شمسية ، وثانيتهما أن يضعها فى عاكس ضوئى يعكس صورتها على لوح زجاجى ، فيستطيع الطالب حينئذ أن يضع على الصورة المعكوسة شريطاً من الورق الشفاف بعرض طول الصورة ، ويشف الصورة على مبدأ هذا الشريط ، ويكتب التاريخ وهجاء الكلمة بالكتابة الأصواتية تحت الصورة ثم يعيد التجربة على نفس المثال فى تاريخ آخر ، ويشف الصورة الثانية على نفس الشريط بجانب الأولى ، فاعلا معها ما فعل بالأولى . ويكرر ذلك ، ثم يقارن الصّور كلها فى تاريخ لاحق ، ليستنتج منها ما يستحق الملاحظة والتسجيل . وكل بصمة من هذه البصمات يجب أن تفهم باعتبارها نوعية فحسب (Typological) . والسبب الذى يدعونا إلى القول بنوعيتها هو أننا لانجد بصمتين لنطق واحد تتفقان فى كل التفاصيل ، فقد تكونان متشابهتين بقرب ، فتوضعان فى قسم نوعى معين ، ولكنهما كما قلنا لا تتفقان تمام الاتفاق .

فإذا أخذنا بصمات لصوت فى بيئته الكلامية غير منعزل ولا مأخوذ على حدة ، وبحثنا سلوكه فى المواقع المختلفة ، لكل موقع مثاله ، وكررنا البصمات لكل مثال معين ، فقد رأينا صورة لها بعض الوضوح عن بلاتوغرافيا هذا الصوت المعين . وقد تكون البصمتان للصوت الواحد مختلفتين من الناحية النوعية إذا

كانت كل منهما خاصة بموقع من المواقع الثمانيـة المذكورة غير موقع البصمة الأخرى ، لأن المواقع كما قلنا تؤثر فى النطق آثارا مختلفة .

لعل القارئ قد أخذ فـكرة واضحة عن وظيفة هذه البصمات فى البحث ، فهى تستعمل فى المقارنات النطقية بين الأصوات المختلفة ، ومن المواقع المختلفة للصوت الواحد أيضا ، وهى تستعمل كذلك لبيان الخطأ الذى يقع فيه بعض الباحثين ، كأن يفهموا من القول بأن الصوت الفلانى مخرجه كذا أن هذا المخرج ثابت فى كل الحالات والظروف ؛ فلـكل نطق صفاته الخاصة التى يمكن إدراكها من شكل البصمة وحجمها . ويجب أن تـكون الأمثلة المقارنة مما تجوز مقارنته وشروط المقارنة بين شيئين أن يتفقا فى الـكثير ويختلفا فى القليل من صفاتهما ؛ أيا كان هذان الشيئان .

فإذا أردت أن تقارن المواقع المختلفة للصوت الواحد ، فقارن بصماتها المأخوذة فى نفس التاريخ . مثال ذلك بصمة التاء فى تاب ، وكتب وبات . وأما إذا أردت أن تقارن البصمات المأخوذة لمثال من هذه بعينه ، فقارن ما أخذ له من بصمات فى تواريخ مختلفة . مثال ذلك أن تقارن بصمات التاء فى تاب فى أيام مختلفة .

فاختلاف المثال لا يتعارض مع وحدة الحالة العضوية والنفسية المفهومة من وحدة الزمن الذى تنطق فيه الأمثلة ، ولـكن المثال حين يتحد يتطلب اختلاف هـــذه الحالة بالمخالفة بين أزمنة نطقه ليظهر الخلاف فى البصمات ، إذا كان هناك خلاف .

وخير الأمثلة التى تختار لهذه التجارب كما رأيت فى بحوثى هى تلك الأمثلة ذات أصوات العلة الواسعة (أى التى يتسع الفم فى نطقها كأصوات الفتحة) ، لأن الاتصال الجانبي بين اللسان وبين الحنك الصناعى فى نطق هذه الأصوات أقل بكثير منه مع أصوات العلة الضيقة (أى التى يضيق الفم فى نطقها كأصوات الـكسرة والضمة) . ومن ثم كانت البصمة الجانبية للنوع الأول غير متدخلة فى تحديد بصمة الصوت الصحيح ، بعكس البصمة الجانبية للنوع الثانى . (قارن البصمات من ١٣ إلى ١٨) .

وقوة النطق وضعفه مما تمكن دراسته عن طريق البلاتوغرافيا . وخير ما تفهم القوة والضعف إنما يكون فى الحركات العضوية للنطق. وقوة اللسان (أو قل ضغطه) فى نطق أى صوت على الحنك الصناعى ستظهر فى شكل بصمة واسعة بالنسبة لبصمة النطق الضعيف .

وفى الحق أن اختلاف القوة يظهر فى اختلاف سمة البصمة الجانبية ، كما يظهر فى بصمة المخرج التى تظهر على خط الوسط (راجع The Palatogram Figure ص ٧٥) ، وهذه البصمة الجانبيةُ هى السبب الذى من أجله وصفنا أصوات العلة الضعيفة بالتدخل فى بصمة الصوت الصحيح ، لأن أصوات العلة الضيقة ذات بصمة جانبية لا يمكن تجاهلها فى دراسة البلاتوغرافيا ، وإن بصماتها لتبدو واسعة بقدر كاف حتى فى النطق الضعيف (قارن بصمات الكاف العدنية مع أصوات العلة المختلفة فى البصمات من ١٩ إلى ٢٤)

ولقد حاولت حين دراستى للهجة عدن أن أدرس عن طريق البلاتوغرافيا ظاهرة السعة والضيق فى أصوات حرف العلة الواحد ، كالفتحة والكسرة والضمة والحرفين الآخرين اللذين أطلقت عليهما الرفعة والخفضة وهما يكتبان فى الكتابة الأصواتية بالرمزين o ، e على التعاقب .

ولقد اخترت الأمثلة لهذا الغرض بقدر الإمكان بحيث تكون كل أصواتها الصحيحة من النوع الذى لايترك بصمة على الحنك الصناعى ، وجعلتها جميعا على وزن قالْ الساكنة اللام ، وجعلت الصوت الأخير فى جميعها واحداً ، واخترت الأول فى كل مثال من مجموعة من المجموعات التشكيلية السبعة التى تترتب بحسب تفخيمها وترقيقها على النحو الآتى :

المجموعة الأولى : ص ض ط

« الثانية : خ غ ق

« الثالثة : ب ف و م

« الرابعة : ء ه ع ح

» الخامسة : ن ر ل

» السادسة : ت د س ز

» السابعة : ش ج ك ى

فاخترت الأمثلة الآتية :

صاب — خاب — باب — عاب — ناب — داب — شاب .

لدراسة السعة والضيق فى الفتحة الطويلة اللذين يتناسبان مع التفخيم والترقيق طردا وعكسا ، وقد أردت بذلك أن أرى ما إذا كان صوت العلة يختلف فى السعة والضيق باختلاف المجموعات السبع ، كما يختلف باختلافها من ناحيــة القيمة الأصواتية التى يطلق عليها اصطلاح التفخيم أم لا ، أو بعبارة أخرى لأرى ما إذا كان هناك تطابق بين السعة والضيق وبين التفخيم والترقيق فى أصوات العلة مع هذه المجموعات السبع . وذلك لأن من المعلوم أن القيمة الأصواتية التفخيمية أو الترقيقية ترتبط بوضع اللسان فى أثناء النطق ، ومن المحتمل جدا أن هذا الوضع يرتبط بمساحة البصمة (قارن البصمات من ٢٥ — ٣٠) .

وليست البصمات نطقا ولا يجب أن تعامل كذلك ؛ ولــكن الرابطة الوحيدة بينها وبين النطق أن الخلاف بين بصمة وبصمة يتفق مع الخلاف بين نطق ونطق ولذلك صح من الناحية الفنية أن تتخذ هذه البصمات وسيلة من وسائل المعمل « وكذلك كل وسيلة آلية من وسائل البحث ، إذ تستخدم فى اختبار النطق المـكرر ، لينمت إلا توسيعا لمدى الآلية العضوية فى الإنسان ، أو حاسة إضافية ، إن صح هذا التعبير ، تستطيع فقط أن تـكشف عن استنتاجاتها من النطق . ويحدث ذلك دائما فى ظل محدودية الآلة[1] » .

وأحد مظاهر محدودية البلاتوغرافيا أنها لا تستطيع أن تخضع للبحث كل الأصوات الفنجيحة ؛ فليس لبعض هذه الأصوات بصمة ، مثل الباء والميم والواو

---

(1) Firth: Word - Palatograms & Articulations. Bulletin. ibid.

والفاء والحاء والعين والهمزة والهاء وهلم جرا . وفى الحقيقة أن الأصوات الصحيحة التى تنطق بمقدم اللسان فحسب هى التى يمكن أن تدرس عن طريق هذا التكنيك . ومن مظاهر محدوديتها أيضا أنك لا تستطيع أن تختار كل نسق متتابع من الأصوات الصحيحة فى الكلمة لتدرس ببصماته عن هذا الطريق ، لأن كلمة مثل « تبدو » مثلا تختلط فيها بصمة التاء ببصمة الدال ، لأنهما من مخرج واحد ، ولا يستطاع حينئذ دراسة أيهما . وحسبك أن تنظر إلى البصمات ٣١ — ٣٦ لترى مبلغ تداخل النطق حتى لا يمكن استنتاج أى شىء من البصمة .

الكيموغرافيا

أو تكنيك التعرجات الذبذبية

لقد كان للكيموغرافيا تاريخها الخاص فى التطور وإدخال التحسينات عليها ، سواء كان ذلك من ناحية طريقة الاستعمال ، أو من ناحية شكل الآلة . « وتكنيك الكيموغرافيا الذى يستعمل الآن ينتج خطوطا متموجة سوداء على أرضية بيضاء تحدث صورة أوضح وأكثر أثراً مما كان فى الماضى . وأصبح من غير الضرورى أن يتم تلميع الورق المكسو بالدخان ، وهكذا استغنى عن ناحية من أكبر النواحى غير المرغوب فيها فى كيموغرافيا الطريقة العادية[1] » .

ومكونات كل سطح كيموغرافى هى ما يأتى :

١ — خط وهمى يمثل سلبية الإثارة (ويسمى خط الراحة أو خط الصفر) ، يمكن أن يرسم بسن الكيموغراف على ورقة مثبتة على سطح عجلة عريضة تسمى الطبلة تدور أمام هذا السن . ويمكن عند الإرادة أن يهبط السن على سطح الورقة فيرسم التعريجات ، أو يرتفع عنها فلا ترسم هذه التعريجات برغم دوران الطبلة . ووظيفة هذا الخط الوهمى أن مبدأ رحلة السن يكون على أحد جانبيه ، ولذلك

---

(1) Firth & Adam, Improved Technique in Palatography & Kymography — Bulletin S.O.A.S. Vol. XII. Part 3, 1950.

KYMOGRAPHY: MOUTH TRACINGS.

1. يعقى jɪqdɪ:

2. عقدة ɛaqda

3. يطفى jɪʈfɪ:

4. عطل ɛaʈʈal

5. أكل ʔacɛl

6. أكتر ʔactər

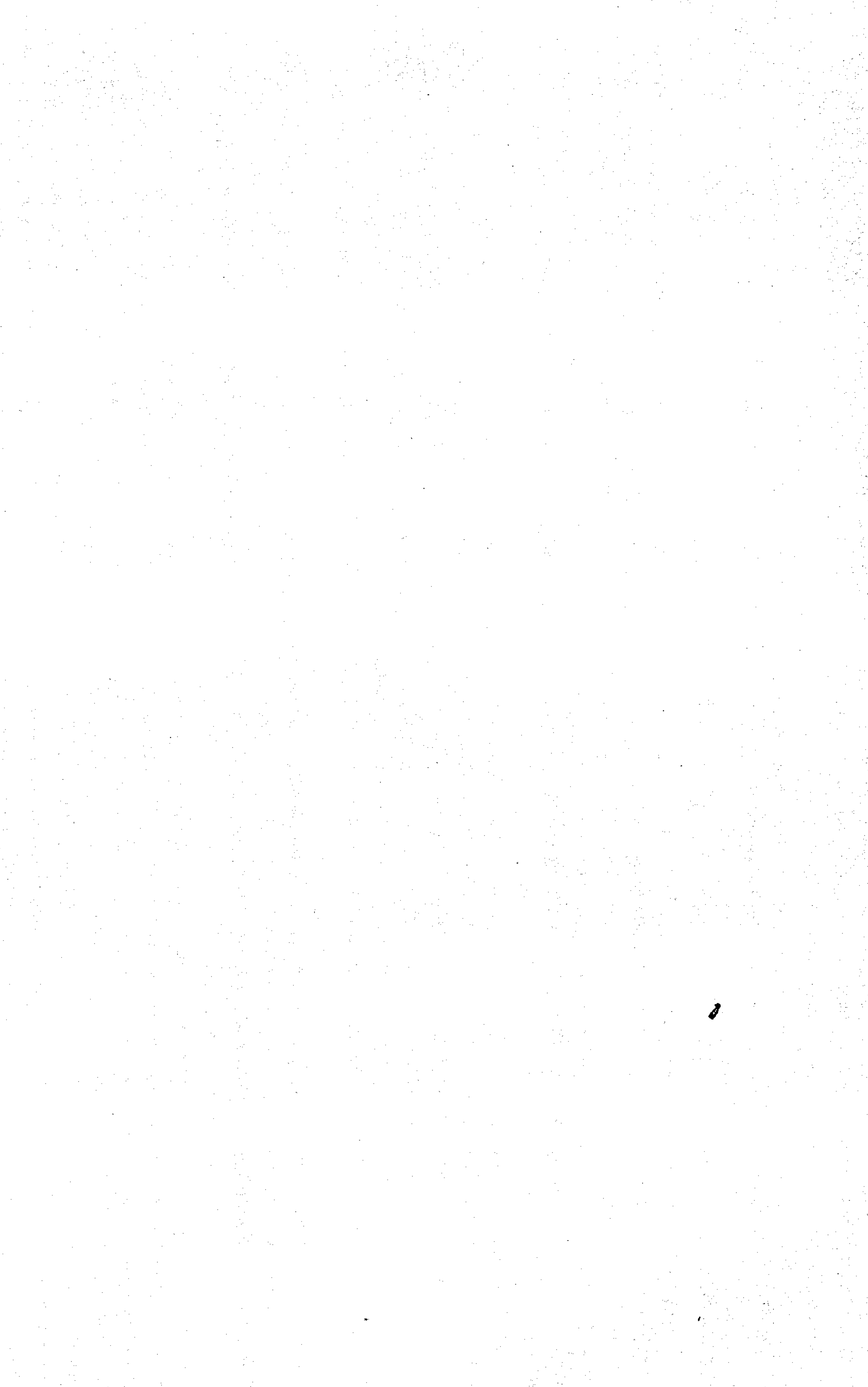
7. كتب cɛtəb

8. مقطوع mʌqʈu:ɛ

9. مقبول mʌqbu:l

10. سرقة كتاب səɾʌqcitə:b

11. سأل səʔʔal



N

ماجور

87. maʕʒuːr

L

M

N

سروجليه

88. mɪraːqɪsmaːʃɪtɪ

L

M

M

مأروه

'9. maʕdu:h

L

M

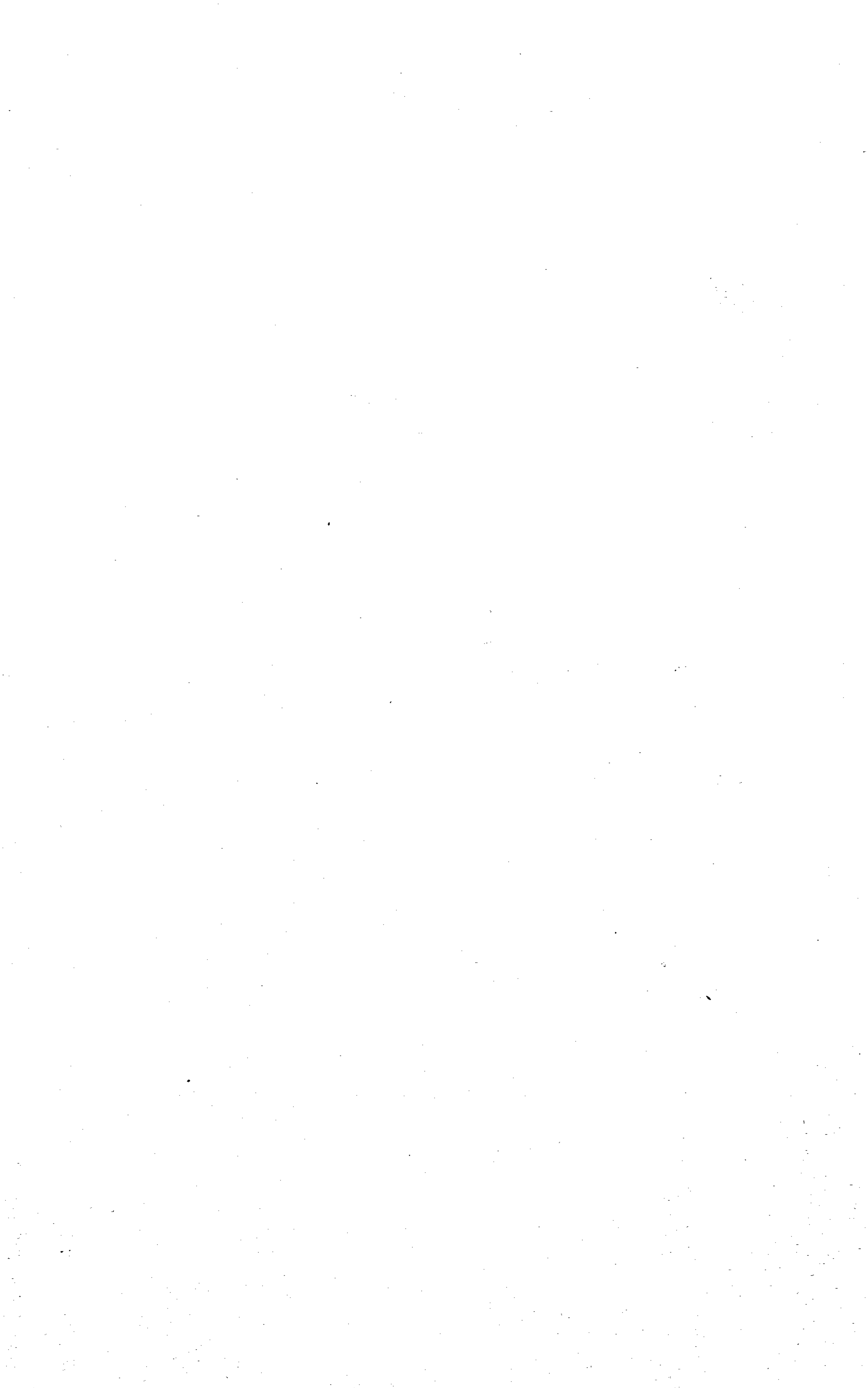
N

شأعره

90. maʃaːʕiru A.

L

M



مَزْج

47. mazʒ

نَزْف

48. nazf

غَزّ

49. ɣazz

عَزِيز

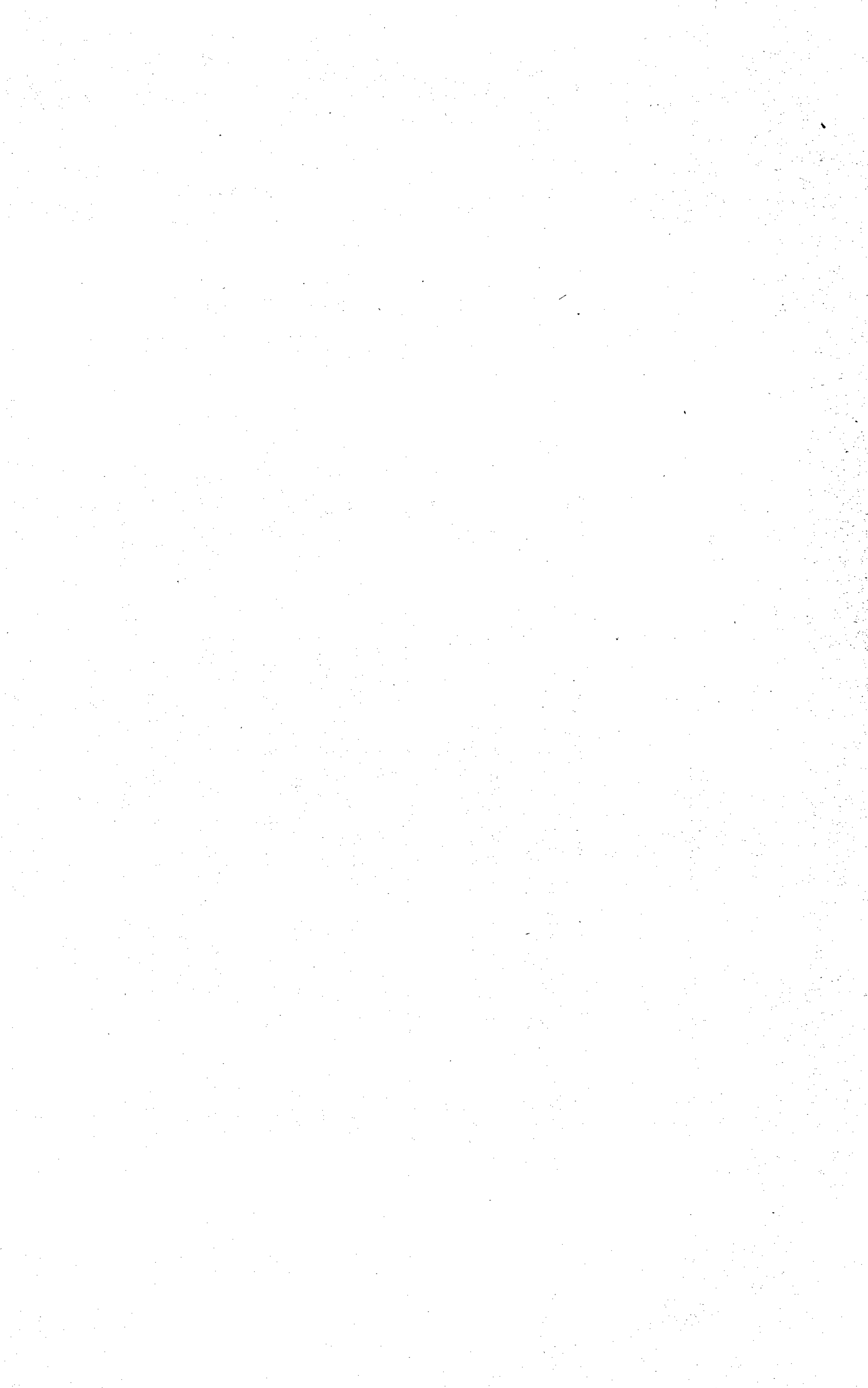
50. ʕaziːz

حبس زينب

51. ħabazzajnab

يضحك

52. jidˤħak



يمثل نقطة الصفر التى يقاس منها عمق التعرج (ويمثل هذا العمق فى الواقع شدة ضغط هواء التنفس على السن) .

٢ — رحلة السن الكاتب يمينا أو شمالا من هذا الخط بالنسبة إلى ضغط النفس عليه ، ويصله هذا الهواء عن طريق أنبوبة من المطاط متصلة ببوق الفم .

٣ — خط متموج يمثل وجود الجهر فى الصوت ، فإذا انعدم الجهر انعدم التموج فى الخط ، وإن بعدت رحلة السن الكاتب عن الخط الوهمى . ومعنى ذلك أنه فى نطق الفاء مثلا يرسم السن خطا غير معرج (لانعدام الجهر) إلى جانب الخط الوهمى غير منطبق عليه (لوجود ضغط التنفس الذى فى الفاء) . وإذا فالرحلة موجودة والتعرج منعدم (انظر مثال ٣) .

وإذا قيست الرحلة بالنسبة إلى خط الصفر أو خط الراحة فكانت رأسية عليه تقريبا ، دل ذلك على انفجار الهواء بعد حجزه عند نقطة معينة فى الجهاز الصوتى ، وهذا الانفجار هو المسمى الشدة . أما فى الرخاوة أو التركيب أو التوسط ، فلا تكون الرحلة بنفس الدرجة الرأسية ، لأن التسريح المفاجىء للهواء حين الانفجار يقذف بالسن الكاتب فى اتجاهه بزاوية قائمة تقريبا على خط الصفر أحيانا (أنظر مثال ٢) ويبتعد به عن هذا الخط إلى نقطة تتناسب مع ضغط الهواء الناتج عن الانفجار . يحدث ذلك فى أصوات مثل التاء والدال الطاء والكاف والباء وبقية الأصوات الشداد (أنظر الأمثلة ١ — ١٠) ، وأما الخط الذى يهبط إلى مستوى خط الصفر بالتدريج ، والذى يرتبط بالأصوات الرخوة فيمكن أن يبتعد عن خط الصفر بقدر ما يبتعد الخط الناتج عن الانفجار ، لأن القرب والبعد عن خط الصفر يتناسب كما قلنا مع ضغط هواء النفس لا مع طريقة النطق من شدة أو رخاوة . وهذا الضغط الذى يحدثه هواء النفس ، والذى ينتج عنه بعد خط التعرج عن خط الصفر ، يرتبط كذلك بقوة النطق أو ضعفه . ولهذا فإن من رأى أن قوة النطق أو ضعفه يمكن أن تدرس فى خطوط الكيموغرافيا أيضا . ويمكن أن يمثل لهذا بخط التعرج الدال على صوت صحيح بين صوتى علة إذا قورن بمشدد

فى الوسط ، أو مفرد ، أو مشدد (لاحظ ضعف نطق الكاف فى ٦ والقاف فى ٨ ، ٩) .

ومما يمكن أن يدرس فى خطوط الكيموغرافيا أيضا الجهر والهمس ، ويعرف ذلك عن طريق الخطوط الناتجة عن وضع بوق على الفم ، أو وضع بوق على الحنجرة مباشرة (أنظر الأمثلة ٤٧ — ٥٢ وفيها يرمز للحنجرة برمز L وللفم برمز m موضوعين على بداية الخطين) . وقد قلنا إن وجود التعرجات فى خط الكيموغرافيا دليل على وجود الجهر والعكس صحيح . وكذلك يمكن أن نتعلم من هذا الخط ما إذا كان انفجار صوت ما تاما أو غير تام عن طريق ملاحظة رحلة السن وما إذا كانت مبتعدة عن خط الصفر أو لا (أنظر الأمثلة ١٠ — ١١) .

ويمكن كذلك أن ندرس الغنة فى النطق ، بأن نوصل الأنف بسن كاتب غير سن الفم وسن الحنجرة ، ويعمل الثلاثة معا كمجموعة مترابطة بينها وحدة الزمان والمكان والنطق . ومما يلاحظ بهذه المناسبة أن أصوات العلة السابقة لصوت من أصوات النون أو اللاحقة له تتكون دائما بلون الغنة إذ يخرج بعض الهواء فى نطقها من الأنف وبعضه من الفم (أنظر الأمثلة ٨٧ — ٩٠) .

ومرة أخرى أحب أن أؤكد أيضا أن « خط الكيموغرافيا لا يعد نطقا أكثر مما تعد كلمة أو جملة فى الهجاء الإملائى أو أى هجاء آخر سواء كان شاملا أو غير شامل . فهذا الخط استنباط من نوع معين تأخذه الآلة بمحدودياتها جميعا من الهواء الذى يخرجه المتكلم [1] » .

صور الأشعة

إن الصورة الاستاتيكية الثابتة المأخوذة بالأشعة ليست من الأسس التى تقبل بسهولة للدراسات اللغوية ، لأنها إذا استخدمت لأغراض لغوية فسوف تنقصها الناحية الديناميكية الحركية التى هى خاصة من خواص النطق اللغوى .

---

(1) J. Carnochan A Study in the Phonology of an Igbò Speaker Bulletin. S. O. A. S. Vol. xII Part 2.

فهذه الصورة إذاً تفتقد بعض الشروط التى تؤهلها لأن تستخدم كتكنيك لغوى ناجح ، ولكنها تعطى صورة واضحة عن الأوضاع الساكنة للنطق ، وإن كانت هذه الأوضاع ، على رغم صلتها ببعض أوضاع الأصوات اللغوية ، لا تعتبر موثوقا بها فى تمثيل هذه الأصوات .

وربما كان من حظ الدراسات اللغوية فى المستقبل أن يستطاع استخدام صور أشعة متحركة فى بحوثها ؛ ولو تم هذا لخطا بالدراسات اللغوية خطوات جبارة إلى الأمام . وتستخدم صور الأشعة الثابتة بأن يجلس المساعد بجانبه إلى آلة التصوير ، وقد اختير هذا الوضع دون الأوضاع الأخرى لتجنب إخفاء عضو لعضو آخر فى الصورة ، إلا ما لا يمكن تجنبه كاخفاء الأضراس وبعض الأسنان للسان . ويمكن الحصول على هذا الوضع الجانبى مضبوطا بتعديل جلسة المساعد تعديلا مستمرا حتى يقنع المصور بوضعه كما يراه على شاشة الآلة . وإذا أخذت صورة بميل إلى اليمين أو إلى الشمال أى دون اتخاذ وضع جانبى مثالى ، فستكون النتيجة أن تظهر فجوة الحلق أضيق مما هى (قارن صورتى الميل إلى اليمين والشمال) ، فإذا حصلت على الوضع المناسب فخذ صورة فى وضع راحة ، ثم أطلب إلى المساعد من بعدها أن ينطق الصوت المختار كما لو كان مشكلا بالسكون ، وأن يطيل فى نطقه إياه ما أسعفه النفس ، وتأخذ صورة له فى أثناء هذا الوضع الثابت . ثم كرر ذلك مع الأصوات المختارة الأخرى ، وستحصل فى النهاية على طائفة من الصور تظهر كل منها وضعا ثابتا يلقى ضوءا على حركات نطقية معينة (أنظر الصور المصاحبة لنطق بعض الأصوات المدنية) .

هذه الصور على أى حال — مهما كانت ضوءا يلقى على الحركات النطقية — تعتبر ضوءا من خارج تكنيك الدراسات اللغوية . وهى تقبل فى هذه الدراسات دائما على شرط فهمها كذلك ، وعلى شرط ألا تتعارض مع تكنيك لغوى آخر كالملاحظة أو البلاتوغرافيا .

الأصوات العربية

المخرج مكان النطق ؛ ويمكن أن نحصر المخارج والصفات التى تستخدمها اللغة العربية الفصحى فى التمييز بين أصواتها . وهذا الاستخدام للتمييز إنما يعتبر من منهج التشكيل الصوتى لامن منهج الأصوات . ولكن منذا الذى يستطع أن يكتفى من العملة النقدية بأحد وجهيها عن كليهما ؛ فالأصوات والتشكيل الصوتى كما قلنا وصف ثم تقعيد للموصوف . والمعروف أن كل شىء يمكن أن يحد إيجابا وسلبا ، والحد الإيجابى ذكر الماهية ، والسلبى ذكر النقيض أو بعبارة الأصوليين الإيجابى مفهوم الموافقة ، والسلبى مفهوم المخالفة . وكما أن بعض حد الشىء أنه هو نفسه ، يمكن أن يقال إن بعض حده أيضا أنه ليس هو ذلك الشىء الآخر . وهذا البعض الأخير من الحد يستخدم كثيرا باعتباره « قيمة خلافية » ضرورية فى فهم أى شىء . « فالقيم الخلافية » إذا هامة جدا فى دراسة الأصوات والتشكيل الصوتى ، بل لها من الأهمية مايساوى أهمية « القيم الوفاقية » ، وسنحاول بعد ذكر المخارج أن نطبق هذا الكلام . والمخارج التى نذكرها هنا تختلف إلى حدما عن تلك التى توجد فى علم التجويد والقراءات اختلافا اقتضاه منهج البحث الحديث ، وسنشير عند كل نقطة من نقطة الخلاف بين هذه المخارج وتلك إلى وجه النقص الذى نراه فى وجهة نظر النحاة والقراء .

هذه المخارج هى :

١ — شفوى Bi-labial : ويكون بتقريب المسافة بين الشفتين بضمهما ، أو إقفالهما فى طريق الهواء الصادر عن الرئتين .

٢ — شفوى أسنانى Labio-dental هو نتيجة اتصال الشفة السفلى بالأسنان العليا لتضييق مجرى الهواء .

٣ — أسنانى Dental : مبنى على اتصال طرف اللسان بالأسنان العليا .

٤ — أسناني لثوى Denti — alveolar : وهو ما اتصل طرف اللسان فيه بالأسنان العليا ، ومقدمة اللسان باللثة ، وهى أصول الثنايا .

٥ — غارى : Palatal : وهو الذى تحدث فيـه صلة بين مقدم اللسان وبين الغار (وهو الحنك الصلب الذى يلى اللثة) .

٦ — طبقى Velar : وهو ماينتج عن اتصال مؤخر اللسان بالطبق (وهو الجزء الرخو الذى فى مؤخرة سقف الفم) ، وهذه التسمية خلقت خلقا، لتناسب أغراض البحث اللغوى، وقد أخذتها من كلمة « مطبق » ، وكلمة «إطباق» ، بعد خلق صلة بين معانى الـكلمات الثلاث :

٧ — لهوى Uvalar وهو ما اتصل فيه مؤخر اللسان باللهاة (وهى آخر جزء فى مؤخر الطبق) .

٨ — حلقى Pharyngal : ونقصد به المخرج الناتج من تضييق الحلق . والحلق فى اصطلاح هذا الـكتاب هو مايعرف فى الإنجليزية بكلمة Pharynx ، ولا يشمل المنطقة التى تسمى baccal area فهو مابين الحنجرة وبين جذر اللسان ويسمى فى العامية « الزور » .

٩ — حنجرى Glottal: وهو نتيجة الإقفال أو التضييق فى الأوتار الصوتية التى فى قاعدة الحنجرة .

ولقد خلط النحاة العرب خلطا كبيرا فى تحديد هذه المخارج . وحسبك أن ترى ابن الجزرى[1] يفاضل بين الآراء المختلفة فى تحديد عدد منها ، حتى إذا عد سبعة عشر مخرجا وجدناه يسمى النون مثلا مرة زلقية لأنها تخرج من زلقة اللسان، ومرة أخرى خيشومية لأنها تنطق فى تجويف الفم وهو الخيشوم ، ومرة ثالثة يقول إنها من طرف اللسان بينه وبين مافوق الثنايا ؛ فهو بهذا يعطى النون مخرجا خاصا حينا ، ويجمعها مع الراء واللام حينا ، ويضمها إلى الميم فى مخرج حينا آخر . ثم يغلط فى تحديد مخارج أصوات الخاء والغين والـكاف والطاء والدال والتاء

(١) النشر فى القراءات العشر ص ١٩٩ — ٢٠٢

فيقول : إن صوتى الخاء والغين من أدنى الحلق إلى الفم وراء مخرج القاف ، مع أنهما من مؤخر اللسان مع الطبق أمام مخرج القاف . وهو يجعل الكاف خلف القاف ، والعكس أصح ، فصوت الكاف من نفس مخرج صوتى الخاء والغين . ثم هو يقول إن الأصوات الثلاثة الأخيرة نطعية ، ويقصد أنها من نطع الغار (ونسميه فى هذا الكتاب الغار) ، والصحيح أنها أسنانية لثوية .

وأما صفات الأصوات فيمكن النظر إليها من زوايا متعددة :

١ — الطريقة التى يتم بها النطق فى مخرج ما (الشدة والرخاوة والتركيب والتوسط) .

٢ — حدوث ذبذبة فى الأوتار الصوتية وعدمه (الجهر والهمس) .

٣ — تحرك مؤخر اللسان أو مقدمه تحركا ثانوياً أثناء حدوث النطق فى موضع آخر (الإطباق والتغور والتحليق) .

أما من الناحية الأولى فإن الهواء الخارج من الرئتين إما أن يصادف مجراه مسدوداً سداً تاماً عند أية نقطة فى الجهاز النطقى من الأوتار الصوتية إلى الشفتين ، وإما أن يصادف فى طريقه تضييقاً لا سداً ، وهذا التضييق يسمح للهواء بالمرور ، ولكن مع الاحتكاك بنقطة التضييق .

وفى الحالة الأولى ، عند ما ينسدّ مجرى الهواء انسداداً تاماً ، تحتجز كمية الهواء خلف نقطة الانسداد فى حالة ضغط أعلى من ضغط الهواء الخارجى . حتى إذا انفك هذا الانسداد ، وانفصل العضوان المتصلان لسد المجرى انفصالا مفاجئاً ، اندفع الهواء الداخلى ذو الضغط الثقيل إلى الهواء الخارجى ذى الضغط الأخف محدثا جرساً انفجارياً ، هو عنصر مهم من عناصر نطق الأصوات الشديدة . ونقول إنه من عناصر نطق الأصوات الشديدة لأن نطق الصوت الشديد يتكون من أكثر من عنصر واحد ، ويمكن بيان ذلك بالإيضاح الآتى :

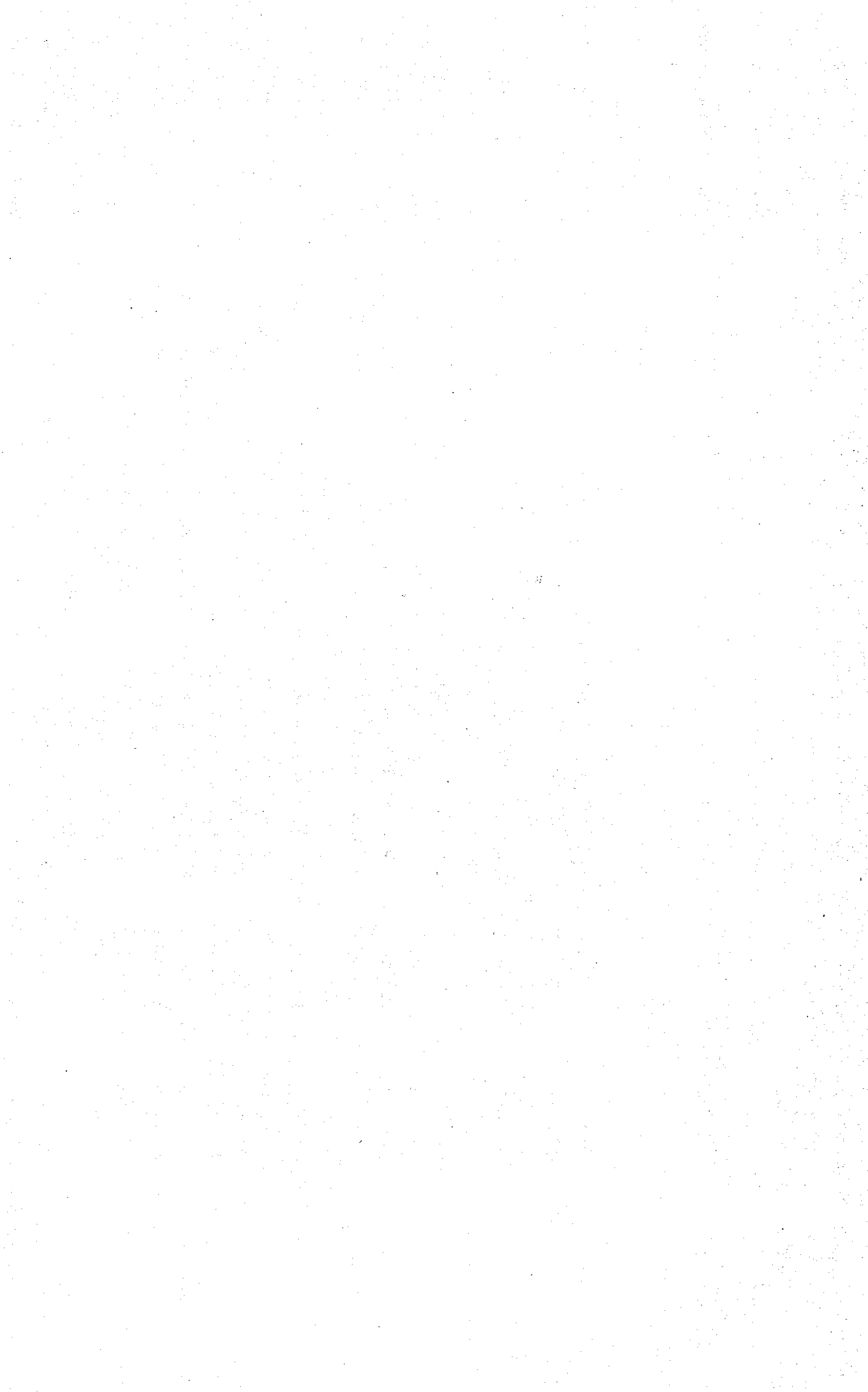
(١) اتصـــال عضوين لسد المجرى	(٢) انحباس الهواء خلف نقطة تلاقيهما	(٣) إنفصال العضوين فجأة وتسريح الهواء

←

جدول الأصوات العربية

مخارج الأصوات	صفات الأصوات												
	أصوات شداد				أصوات رخوة				صوت مركب	أصوات متوسطة			
	مجهور		مهموس		مجهور		مهموس		مجهور	كلها مجهور			
	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مرقق	جانبي	تكراري	أنفي	نصف صوت علة
شفوي		b										m	w
شفوي أسناني						(v)		f				ɱ	
أسناني					ð̣	ð		θ				n̪	
أسناني لثوي	ḍ	d	ṭ	t	(ẓ)	z	ṣ	s				n̪	
لثوي										l	r	n	
غاري						(j)		ʃ	ɟ			ɲ	y
طبقي		(g)		k		ɣ		x				ŋ	
لهوي				q								N	
حلقي						ʕ		ħ					
حنجري				ʔ		h							

الأصوات التي حولها دائرة ليست من العربية الفصحى



يحدث ذلك فى الأصوات الشداد مثل الباء ، والتاء ، والدال ، والضاد ، والطاء ، والقاف ، والكاف ، والهمزة .

فإذا وجد الهواء مجراه مضيقاً غير مسدود ، مر فى هذا المجرى محتكا بالعضوين اللذين سببا تضييقه . والأصوات التى يصحبها هذا النوع من طريقة النطق تسمى الأصوات الرخوة ، وذلك مثل أصوات الثاء ، والحاء ، والخاء ، والذال ، والسين ، والشين ، والصاد ، والظاء ، والعين ، والغين ، والفاء .

قلنا إن انفصال العضوين اللذين يسدان مجرى الهواء فى الأصوات الشداد انفصال سريع مفاجىء . والسرعة والمفاجأة ، هنا شرط مهم من شروط تسمية الصوت شديداً . ولكن فى أصوات اللغة العربية التى نقرأ بها القرآن فى مصر واحداً منها لا يصاحبه هذا الانفصال المفاجىء ؛ بل يصاحبه انفصال بطىء . وفى هذا الانفصال البطىء مرحلة بين الإنسداد المطلق والانفتاح المطلق شبيهة كل الشبه بالتضييق الذى وصفناه حين الكلام عن الأصوات الرخوة . وتأتى هذه المرحلة بعد الانفجار مباشرة فتسمح للهواء المسبب عن الانفجار بأن يحتك بالعضوين اللذين فى طريق التباعد البطىء احتكاكا شبيهاً بما يصاحب الأصوات الرخوة . ومعنى ذلك أن هذا الصوت العربى يجمع بين عنصر الشدة وعنصر الرخاوة ؛ فهو مركب منهما ؛ ولهذا سميناه صوتاً مركباً . ذلك هو صوت الجيم .

ومن الممكن أن يمر الهواء بمجراه دون انحباس أو احتكاك من أى نوع ، إما لأن مجراه فى الفم خال من المعوقات ، كما فى صوتى الواو والياء ، وإما لأن مجراه فى الفم يتجنب المرور بنقطة السد أو التضييق ، كما فى صوت اللام ، وإما لأن هذا التضييق غير ذى استقرار على حاله ، كما فى صوت الراء ، أو لأن الهواء لا يمر بالفم وإنما يمر بالأنف ، كما فى أصواتى الميم والنون . وكل هذه الطائفة من الأصوات تسمى الأصوات المتوسطة ، لأنها ليست شديدة ولا رخوة .

إذاً يجتمع لنا من أنواع الأصوات بالنسبة لطريقة النطق فى مخرج ما أربعة :

١ — الصوت الشديد .

٢ — الصوت الرخو .

٣ — الصوت المركب .

٤ — الصوت المتوسط .

وأما بالنسبة لحدوث ذبذبة فى الأوتار الصوتية تصاحب نطق الصوت أو عدم وجود هذه الذبذبة ، فيمكن تقسيم الأصوات إلى قسمين :

١ — المجهور ، وهو الصوت الذى تصحب نطقه ذبذبة فى الأتار الصوتية .

٢ — المهموس ، وهو ما لا تصحب نطقه هذه الذبذبة .

فالجهر والهمس ناحيتان تختلف فيهما الأصوات وتتقابل ، حتى لو اتحدت مخارجها ، كما فى صوتى الدال والتاء ، وكما فى صوتى الزين والسين ، فالصوت الأول من كل زوج مجهور والثانى مهموس ، والزوج الأول شديد والثانى رخو ، والزوجان معاً من الأصوات الأسنانية اللثوية ، ونحن نعود بذا كرتك مرة ثانية إلى فكرة تحديد الصوت تحديداً إيجابياً أو سلبياً ، وإلى المعنى الذى نقصده بالقيم الخلافية . انظر مثلا إلى الجدول الآتى :

	جهر	همس
شـدة	د	ت
رخاوة	ز	س
تركيب	ج	—
توسط	ل	—

فبعض معنى « د » أنها صوت شديد مجهور ، وبعض هذا المعنى أيضاً أنها ليست « ت » ولا « ز » ، مع اشتراك بينها وبين القرين الأول فى الشدة ، وبينها وبين الثانى فى الجهر . فالبعض الثانى من المعنى ، أو سمه مفهوم المخالفة إن أردت أو الجانب السلبى إن شئت ؛ هو الذى ينبنى على القيمة الخلافية بين « د » ، « ت » من ناحية ، وبين « د » و « ز » من ناحية أخرى . ومثل ذلك يقال فى التفريق

بين كل صوت وآخر من أصوات اللغة . ولعلك قد لاحظت أن « ج » و « ل » فى هذا الجدول الصغير ليس لهما مقابل مهموس .

والواقع أن المخارج (Articulations) ، والصفات (Correlations) ، هى الأساس الذى يقوم عليه بناء التطريز اللغوى الذى سيأتى الكلام عنه فى منهج التشكيل الصوتى . ولم ينته تطبيق الصفات عند هذا الحد ، فهناك ظاهرة عضلية تصحب النطق ، وتتسبب فى وجود ظاهرة أخرى أصواتية تطرد معها وجوداً وعدماً ؛ تلك الظاهرة هى ما يسميه القراء الإطباق . وليحذر القــارىء من الخلط بين اصطلاحين يختلفان أكبر اختلاف ، وإن اتحدا فى كثير مما يخلق صلة بينهما ذانك هما :

١ — الطبقية ، (أو النطق فى مخرج الطبق) Velar Articulation .

٢ — الأطباق ، (أو ما يسمى فى علـم الأصوات) Velarization .

فالطبقية ارتفاع مؤخر اللسان حتى يتصل بالطبق فيسد المجرى أو يضيقه تضييقاً يؤدى إلى احتكاك الهواء بهما فى نقطة التقائهما ، فهى إذاً حركة عضوية مقصودة لذاتها يبقى طرف اللسان معها فى وضع محايد . أما الإطباق فارتفاع مؤخر اللسان فى اتجاه الطبق بحيث لا يتصل به ، على حين يجرى النطق فى مخرج آخر غير الطبق ، يغلب أن يكون طرف اللسان أحد الأعضاء العاملة فيه . فالأطباق إذاً حركة مصاحبة للنطق الحادث فى مخرج آخر ، وتنتج عنه قيمة صوتية معينة ، تلون الصوت المنطوق برنين خاص كما فى نطق أصوات الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ، والخاء ، والغين ، والقاف . فإذا عرفنا أن الإطباق صفة تطرد وجوداً وعدماً مع قيمة صوتية معينة ، أمكن أن نقول إن الإطباق يصلح نقطة اتفاق أو نقطة اختلاف بين الأصوات اللغوية ، فهو مثلا نقطة اتفاق بين صوتى الصاد والضاد ، ونقطة اختلاف بين صوتى الصاد والسين ، لأن الصاد مطبقة ، والسين ليست كذلك وقد عبر النحاة والقراء الأقدمون عن الطبقية والإطباق كليهما باصطلاح « الاستعلاء » ، وقصدوا بذلك علو مؤخر اللسان فى اتجاه الطبق ، سواء اتصل به كما فى الطبقية ، أم لم يتصل كما فى الإطباق .

ويقابل الإطباق (Velarization) التغوير (Palatalization) . والتغوير الميل بالصوت ذى المخرج الذى خلف الغار إلى أن ينطق فى الغار ، أو أقرب ما يكون إليه . فصوت الكاف المجاور لأحد أصوات الكسرة مغوّر فى لهجة العراق ، كما فى قولهم « فيك » و « ركيك » وفى اللغة الفارسية كما فى قولهم « حاكم » وحتى صوت « Ch » فى الألمانية يقسمونه إلى نطق مغوّر « ich lout » وآخر غير مغور ويسمى « ach lout » . فأنت ترى أن مخارج الأصوات وصفاتها أساس ينبنى عليه التفريق بينها من حيث مكان كل منها فى المنظمة التشكيلية التى تسمى الأبجدية . وليس الإطباق السبب الأول والأخير فى ظاهرة التفخيم ، بل هو أحد عنصرى هذه الظاهرة .

أما العنصر الآخر من عناصر التفخيم ، فهو التحليق (Pharyngalization) وهو قرب مؤخر اللسان من الجدار الخلفى للحلق ، نتيجة لتراجع اللسان بصفة عامة . فالتفخيم إذاً ظاهرة أصواتية ناتجة عن حركات عضوية تغير من شكل حجرات الرنين بالقدر الذى يعطى الصوت هذهالقيمة الصوتية المفخمة . أما التغوير فنتيجته قيمة أصواتية مرققة ترقيقا عظيما كما فى الأمثلة التى ذكرناها .

أصوات العربية الفصحى

قلنا إن الصوت غير الحرف ؛ ومن المعروف أن حروف الهجاء الصحيحة فى العربية الفصحى ثمانية وعشرون ، وأن حروف العلة ثلاثة ، لكل منها كميتان ، إحداها قصيرة أوحركة ، والثانية طويلة أولين . فجموع الحروف فى العربية لفصحى واحد وثلاثون حرفا بناء على هذا الفهم . أما أصوات العربية الفصحى فأكثر من ذلك ؛ وسنحاول هنا أن ندرس الأصوات الصحيحة دراسة مختصرة بقدر ماتسمح المسافة المخصصة فى هذا الكتاب . وسنرى فى الجدول الموضح لهذه الدراسة أن كل صوت من هذه الأصوات له مكانه من رقعة الجدول ، وأن هذا المكان تحدده عوامل عضوية نسميها أمكنة النطق ، وأخرى صوتية نسميها صفات االأصوات . وسيكون تناولنا لهذه الأصوات مرتبا على أساس عضوى ، بالإضافة

إلى طريقة النطق أو الصفة ، ومعنى ذلك أن نتناول الأصوات بالترتيب التالى. مقروءا من الشمال إلى اليمين :

١ — أصوات شديدة :

b, ḍ , ɑ , ṭ , t , k , q , ʔ

٢ — أصوات رخوة :

ẓ , δ , θ , Z . ṣ , S , ʃ . γ . X , ɛ , ħ , h

٣ — صوت مركب :

J :

٤ — أصوات متوسطة :

r , l , m ɱ , ŋ̣ , ŋ́ , n , ɲ , ŋ , N , w , y

والقارىء مرجو أن يرجع حين الحاجة إلى تحديد معانى هذه الرموز الذى أفرد بمكان خاص فى صدر هذا الكتاب . وإليك القول فى شرح هذه الأصوات على ترتيبها فوق هذا الكلام .

« b »

صوت شفوى شديد مجهور مرقق ، ينطق بضم الشفتين ، وإقفال ما بين الحلق والتجويف الأنفى برفع الطبق ، على حين توجد الذبذبة فى الأوتار الصوتية ولقد حرص القراء والنحاة على جهر صوت الباء هذا فى كل موضع ، أى سواء كان موقعها فى أول الكلام ، أو فى وسطه ، أوفى آخره . ولذا قرأوا القرآن بإضافة صوت علة بعد كل باء ساكنة مظهرة ، وسموا هذه الظاهرة ظاهرة القلقة . أما فى اللهجات الحديثة فإن صوت الباء قد يأتى مهموسا فى وسط الكلام ، إذا تلاه صوت مهموس ، وفى آخر الكلام ، إذا سبقه صوت مهموس ، أوصوت علة طويل مثال ذلك :

أبشع = ʔ æ b̥ ʃ æ ɛ

كسب = k æ s b̥

كتاب = k i t ǣ ǣ b̥

ويتم تفجير صوت الباء أحيانا من الأنف بدل الشفتين ، كحينما تكون الباء في نهايه الكلام ، كما في المثالين الأخيرين من الأمثلة السابقة . ويتم هذا التفجير الأنفى بالقاء الشفتين على اتصالهما ، ثم فصل الطبق عن الجدار الخلفى للحلق فجأة فيمر الهواء قويا فى المجرى الأنفى ويتم التفجير .

« ḍ »

وهذا صوت أسنانى لثوى شديد مجهور مفخم ، كما ينطق به قراء القرآن فى مصر فى وقتنا الحاضر . وهو بهذا القيد ينطق بوضع طرف اللسان بحيث يلتصق بالأسنان العليا ، ومقدمة بحيث يتصل بأصول الثنايا التى تسمى اللثة ، ثم إلصاق الطبق بالجدار الخلفى للحلق ، ليسد المجرى الأنفى ؛ ويتم كل ذلك مع وجود ذبذبة فى الأوتار الصوتية .

وإذ تنطق الضاد يرتفع مؤخر اللسان فى اتجاه الطبق ، وتلك ظاهرة عضلية تسمى الإطباق ، ينتج عنها تغير شكل حجرة الرنين تغيرا يؤدى إلى خلق أثر صوتى معين يسمى التفخيم .

أما الضاد العربية القديمة فقد وصل إلينا من أوصافها ما يمكن تلخيصه فيما يلى :

١ — النطق الاسنانى

٢ — الرخاوة .

٣ — الجهر .

٤ — الإطباق . .

٥ — التفخيم .

٦ — الاستطالة ؛ وهى نتيجة طبيعية لامتداد اللسان من الأسنان إلى ما يدانى الجدار الخلفى للحلق ويسمى التحليق ، كما ذكرنا ذلك فى موضعه من هذا الكتاب ، وهو يوجد فى الضاد المصرية الحديثة ، وفى كل الاصوات الطبقية وهى الصاد والضاد والطاء والظاء .

٧ — الاستعلاء ، وقد نسبه الأقدمون إلى الأصوات المطبقة وإلى الأصوات الطبقية على السواء . والطبقيات من أصوات الاستعلاء التى اعترف بها العرب ، أى التى يتم نطقها فى الطبق هى أصوات الخاء والغين والقاف ، مع توسع فى مدلول الطبق فى حالة القاف حتى يشمل اللهاة باعتبارها قصوى أجزائه . ويظهر كذلك أن الضاد الفصحى كانت جانبية مع رخاوتها . أى أن الهواء الخارج فى نطقها يخرج من جانب اللسان ويحتك به . وهذه الأوصاف مجتمعة تشير إلى ضـاد غير شبيهة بما ننطقه فى الوقت الحاضر ، وقد حاولنا تمثيل نطق هـذه الضاد لطلبة كلية دار العلوم ، بناء على مجموع ما أورده النحاة والقراء من صفاتها السابقة :

« d »

وصوت الدال صوت أسنانى لثوى شديد مجهور مرقق ، ينطق بإلصاق طرف اللسان بداخل الأسنان العليا ، ومقدمه باللثة ، فى نفس الوقت الذى يلتصق فيه مؤخر الطبق بالجدار الخلفى للحلق ، وتحدث ذبذبة فى الأوتار الصوتية . وهو بهذا الوضع يعتبر المقابل المرقق للضاد التى تنطق فى اللهجات المصرية الحديثة . ولـكن القراء القدماء يصفونه بأنه المقابل المرقق للطاء القديمة ، وسنناقش ذلك عند الكلام عن الطاء . ومؤخر اللسان منخفض فى النطق بهذا الصوت ، وهذا الانخفاض يعطى لحجرة الرنين شكلا مغايرا لشكلها فى حالة التفخيم ، وتـكون النتيجة حينئذ ترقيق الدال .

ومع أن هذا الصوت مجهور فى صفته العامة ، إلا أنه قد يهمس فى بعض المواقع فى الـكلام العامى ، كأن يكون متلوا بصوت مهموس ، كما فى الكلمة العامية العامية :

يدفن = yi̥dfin

وكأن يكون فى نهاية الـكلام مسبوقا بصوت مهموس كما فى الـكلمة العامية :

رفد = ræ fd̥

أو مسبوقا بصوت علة طويل كما فى كلمة :

عيد = i i ḍ

أما فى العربية الفصحى وفى قراءة القرآن بصفة خاصة فقد حرص القراء على أن يجهروا صوت الدال فى كل موقع ، وذلك بجعلها من الأصوات المقلقة .

« ṭ »

أما صوت الطاء فأسنانى لثوى شديد مهموس مفخم ، كما ينطق به فى الفصحى فى مصر فى أيامنا هذه . ويتم نطقه بإلصاق طرف اللسان بالأسنان العليا من داخلها ، ومقدم اللسان بأصول الثنايا (أى اللثة) ، ويرتفع مؤخر اللسان فى نفس الوقت فى اتجاه الطبق ، وهذا ما يسمى بالإطباق ، ويتأخر قليلا إلى الجدار الخلفى للحلق ، وهذا ما يسمى بالتحليق ، ويرتفع الطبق حتى يسد المجرى الأنفى .

أما الطاء التى وصفها لنا القراء القدماء فمجهورة على ما رأوا ، وهذا يحتاج إلى قليل من المناقشة . ففى بعض اللهجات العامية المعاصرة صوت من أصوات الطاء يمكن وصفه بأنه مهموز ، ولإيضاح ذلك نقول : إن طرف اللسان ومقدمه يتصلان فى نطقه بالثنايا واللثة ، ويعلو مؤخر اللسان ، ويتراجع إلى الخلف فى اتجاه الجدار الخلفى للحلق ، ويقفل المجرى الأنفى للهواء الخارج من الرئتين ، بخلق اتصال بين الطبق وبين الجدار الخلفى للحلق . وفى نفس الوقت تقفل الأوتار الصوتية ، فلا تسمح بمرور الهواء إلى خارج الرئتين . وبذلك تتكون منطقة فى داخل الفم والحلق يختلف ضغط الهواء فيها عنه فى الرئتين وفى الخارج . وفجأة يتم انفصال الأعضاء المتحركة التى وصفنا اتصالها فى وقت معا ، فيندفع هواء الرئتين إلى الخارج ، ويندفع الهواء الخارجى إلى الداخل ، فيحدثان بالتقائهما أثرا صوتيا هو صوت الطاء ، كالتى تنطق فى بعض لهجات الصعيد مثلا . ومعنى كون الطاء مهموزة هنا أنه صحبها إقفال الأوتار الصوتية حين النطق ، فأصبح عنصر الهمز جزءا لا يتجزأ من نطقها . هذه الطاء مهموسة قطعا ، لأن إقفال الأوتار الصوتية لا يسمح بوجود الجهر .

ويرجح عندى أن الطاء العربية الفصحى القديمة التى وصفها القراء كانت فى صوتها وفى نطقها بهذا الوصف . ثم لغرابة صوتها على السمع ، أخطأ النحاة والقراء ، فجعلوها مجهورة فى دراستهم ، وجعلوا الدال مقابلا مرققا لها . أضف إلى ذلك أن النحاة والقراء فى القديم قد وضعوا قاعدة قياسية تقول : إن كل صوت من أصوات القلقلة مجهور شديد ، وهذا ما جعلهم يخطئون الصواب ، لا فى صفة الطاء فحسب ، بل فى وصف أصوات مهموسة أخرى بالجهر ، كالقاف والهمزة . يقول ابن الجزرى[١] « وأضاف بعضهم إليها (يقصد إلى حروف القلقلة) الهمزة لأنها مجهورة شديدة » . فصوت الطاء الفصحى إذاً أسنانى لثوى ، شديد ، مهموس ، مفخم ، مهموز .

—

«t»

صوت أسنانى لثوى شديد مهموس مرقق ، يتم نطقه بإلصاق طرف اللسان بداخل الثنايا العليا ، ومقدمه باللثة ، وبتخفيض مؤخر اللسان ، وإقفال المجرى الأنفى ، وفتح الأوتار الصوتية إلى درجة تمنع الذبذبة أن تحدث ، ومن ثم يمتنع وجود الجهر .

وكثيرا ما يعقب نطق التاء نفخة بسيطة aspiration ، وعلى الأخص إذا وليها صوت من أصوات الكسرة كما فى « تين » و« عتيق » . وأقل من ذلك مايلاحظ من أن احتكاكا يتبعها فى بعض اللهجات الحديثة ، فيجعلها تبدوا صوتا مركباً من شدة تتبعها رخاوة ، ويكون أشبه فى ذلك الوقت ينطق (تس) أو "ts" لا (ت) ، ونسمع بعض نساء القاهرة من أوساط معينة ينطقن (أختسى) بدل (أختى) . ويجهر هذا الصوت فى نطق بعض القاهريين إذا وليه (ز) ، كما فى (يدزحم) ، بدل (يتزحم) .

« k »

وصوت الكاف طبق شديد مهموس مرقق ، يتم نطقه برفع مؤخر اللسان

---

(١) النشر فى القراءات العشر ص ٢٠٣ .

فى اتجاه الطبق ، وإلصاقه به ، وإلصاق الطبق بالجدار الحلقى للحلق ليسد المجرى الأنفى . وهذا مع فتح الأوتار الصوتية ، حتى يكون همس لاجهر . والمقابل لهذا الصوت هو صوت (g) ، الذى يدل على نطق الجيم فى القاهرة ، والقاف فى الصعيد .

وقد يجهر هذا الصوت جهرا خفيفا إذا وليه صوت الدال كما فى :

يكدب = yigdib

وتصحبه نفخة خفيفة aspiration إذا وليه صوت من أصوات الكسرة كما فى كلمة « تأكيد » . وفى بعض اللهجات العربية يتم نطق هذا الصوت نطقا مغورا ؛ أى أن مخرجه يميل إلى القرب من منطقة الغار فى سقف الفم ، كما يسمع فى لهجات العراق ، وفى لهجة عدن ، فى مواضع معينة ، نحو :

فيك — عليك — حكيم — حكمة .

فهذه الأصوات فى لهجة العراق تبدو للسمع كأنها أصوات مركبة من التاء الساكنة والشين ، وهى أقل تغويرا من ذلك فى لهجة عدن .

—

«q»

وهـذا صوت لهوى شديد مهموس له بعض القيمة التفخيمية ، ولـكنه لا يوصف بأنه مفخم . ويتم نطقه برفع مؤخر الطبق ، حتى يلتصق بالجدار الخلفى للحلق ، ورفع مؤخر اللسان ، حتى يتصل باللهاة ، وهى الزائدة التى فى النهاية الخلفية للطبق ، وحتى يتصل كذلك بالجدار الخلفى للحلق ، فى الوقت الذى تنفتح فيه الأوتار الصوتية فى وضع تنفس ، لا فى وضع جهر .

لقد مر بنا أن هذا الصوت من أصوات القلقلة ، وأن النحاة والقراء قد أخطأوا فى اعتباره مجهورا لهذا السبب . ومر بنا أيضا أن الطبقية غير الأطباق ، وأن النحاة العرب لم يفرقوا بينهما ، بل أطلقوا عليها معا اسم « الاستعلاء » ، وأن كليهما ينتج بعض القيمة التفخيمية ، ولـكن التفخيم لا يتم إلا إذا انضم

التحليق إلى الأطباق أو الطبقية . والتحليق — كما ذكرنا — سحب اللسان إلى الخلف فى نقطة معينة ، وهو غير النطق الحلقى الذى توصف به أصوات العين والحاء .

وصوت القاف لهوى ، ومن ثم كان طبقيا لا مطبقا . ويتم معه قرب اللسان من الجدار الحلقى للحلق فى نقطة فوق تلك التى تتصل بها ظاهرة التحليق ، ومن هنا لم يكن صوت القاف من الأصوات المفخمة تفخيما كاملا ، وإنما كان له بعض القيمة التفخيمية الذى جاء من وجود العنصرين الطبقى والحلقى فى نطقه .

« ؟ »

صوت حنجرى شديد مهموس مرقق ، يتم نطقه بإقفال الأوتار الصوتية إقفالا تاما ، وحبس الهواء خلفها ، ثم إطلاقه بفتحها فجأة . ويطلق على هذا الصوت عادة الاصطلاح « وقفة حنجرية » Glottal Stop . وتأتى جهة الهمس فى هذا الصوت من أن إقفال الأوتار الصوتية معه لايسمح بوجود الجهر فى النطق . ولكن النحاة والقراء أخطأوا فعدوا هذا الصوت مجهورا ، وهو أمر مستحيل استحالة مادية ما دامت الأوتار الصوتية مقفلة فى أثناء نطقه .

ولكن هذا الصوت قد يأتى مُسَهَّلاً ؛ أى أن إقفال الأوتار الصوتية قد لا يكون تاما حين النطق به ، بل يكون إقفالا تقريبيا . وفى حالة التسهيل هذه يحدث الجهر ، ولكن المجهور حينئذ ليس وقفة حنجرية ، بل تضييق حنجرى أشبه بأصوات العلة منه بهذا الصوت .

الأصوات الرخوة

« f »

هذا الصوت شفوى أسنانى رخو مهموس مرقق ، يتم النطق به بخلق صلة بين الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا ، ورفع مؤخر الطبق ، وإلصاقه بالجدار الخلفى للحلق ، وفتح الأوتار الصوتية إلى درجة لا يكون معها جهر ، بل يكون معها تنفس مهموس .

ومع أن هـــذا الصوت مهموس ، يلحقه بعض الجهر فى حالات خاصة فى اللهجات الحديثة . ومن تلك الحالات الخاصة ما يسمع فى لهجة القاهرة من الـكلمات التى تتلو فيها (ɣ) أو (z) أو (ʓ) ، (وهذا الرمز الأخير للظاء العامية) مثال ذلك :

يفزع = yivzaʕ . أفغانى = ʔævɣææni

أفظع = ʔavʓaʕ

« ð »

وصوت الظاء هذا أسنانى رخو مجهور مفخم ، يتم النطق به بوضع طرف اللسان بحيث يلتصق بأطراف الثنايا العليا ، مع رفع مؤخر اللسان فى اتجاه الطبق، وتقريبه من الجدار الخلفى للحلق ، وسد المجرى الأنفى برفع الطبق حتى يلتصق بالجدار الخلفى للحلق ، وتضييق الأوتار الصوتية تضييقا يسمح بوجود ذبذبة فيها ينتج عنها الجهر .

تستعيض بعض اللهجات العامية عن هذا الصوت بصوت آخر يمكن أن نرمز له بالرمز (ʓ) حينا و (ẓ) حينا آخر . وفى لهجات عربية أخرى لا يفرق بين (ð) و (ḍ) ، لا باعتبارهما صوتين ، ولا باعتبارهما حرفين ، كما فى لهجة عدن .

ففى لهجة القاهرة مثلا نفرق بين الـكلمتين الآتيين :

ضفر = ḍafar أى صنع ضفيرة

ظفر = ʓafar أى انتصار

ولـكن لهجة عدن لا تفرق بينهما ، وتنطق كليهما بضاد مخرجها الأسنان . وكما أن الفارسى يتردد فى الـكتابة حين تملى عليه كلمة فيها الهاء ويسألك عما إذا كانت من (حُطِّى) أو من (هوَّز) ، والسودانى يتردد حين تملى عليه كلمة (قدر) فيسألك إن كانت بالقاف أو بالغين ، يتردد العدنى فى الـكلمة التى فيها الضاد بين كتابتها بالضاد أو بالظاء ، لأن الضاد والظاء فى لهجة عدن حرف واحد.

« ð »

وصوت الذال أسنانى رخو مجهور مرقق ، لا فرق بينه وبين الظاء الفصحى إلا التفخيم والترقيق . وإذا كان السبب فى التفخيم ، وهو ظاهرة صوتية ، ما يلابسه من أطباق (رفع مؤخر اللسان إلى الطبق) وتحليق (تقريب مؤخر اللسان من الجدار الحلقى للحلق) ، وهما حركتان عضويتان ؛ فإن السبب فى الترقيق عدم هاتين الحركتين . فليس فى نطق الذال إذاً إطباق ولا تحليق ، ومن ثم ليس فى نطقها تفخيم . ومن اللهجات العامية ما يستعيض عن هذا الصوت صوت الدال ، ومنها ما يستعيض عنه صوت الزين . مثال ذلك :

عربى	عامى
ðaɑkr = ذكر	dakar = ضد أنثى
	Zakar = جاء ذكر شيء ما على لسانه

« θ »

وصوت الثاء هو المقابل المهموس لصوت الذال ، فهو إذاً أسنانى رخو مهموس مرقق ، يتم نطقه كما فى نطق الذال بوضع طرف اللسان بحيث يلاصق أطراف الأسنان العليا ، وبإقفال المجرى الأنفى برفع الطبق بحيث يلتصق بالجدار الخلفى للحلق ، وجعل الأوتار الصوتية مفتوحة ، حتى لا يكون جهر .

وليس لهذا الصوت وجود فى اللجهات المصرية العامية ، ويستعاض عنه إما بصوت التاء وإما بصوت السين

ففى لهجة القاهرة :
- ti ʕ iil = ضد خفيف
- sæ ʕ iil = رذل

} = ثقيل .

وفى لهجة الكرنك :
- tææbit = صفيق
- sææbit = ضد متحرك

} = ثابت .

(Z)

وهذا صوت أسنانى لثوى رخو مجهور مرقق ، ينطق به بوضع طرف اللسان

ضد الأسنان السفلى ، ومقدمه ضد اللثة ، مع رفع الطبق إلى أن يلتصق بالجدار الخلفى للحلق ، فيسد المجرى الأنفى ؛ ويتم كل هذا مع وجود ذبذبة فى الأوتار الصوتية .

والمقابل المفخم لهذا الصوت هو الظاء العامية المصرية (ʐ) أما مقابله المهموس فهو صوت السين .

« ʂ »

وصوت الصاد أسنانى لثوى رخو مهموس مفخم ؛ يتم النطق به بوضع طرف اللسان ضد الأسنان السفلى ؛ ومقدمه ضد اللثة ؛ ورفع مؤخر اللسان فى اتجاه الطبق (وهو ما يسمى الإطباق) ، وبرجوعه فى اتجاه الجدار الخلفى للحلق (وهو ما يسمى التحليق) حتى ينتج عن الحركتين كليهما الأثر الصوتى المسمى التفخيم ؛ وفى نفس الوقت تفتح الأوتار الصوتية فلا يكون منها جهر .

إن المقابل المجهور لهذا الصوت هو (ʐ) الذى يوجد فى اللهجات العامية ؛ أما المقابل المرقق فهو (S) . وقد يجهر هـذا الصوت قليلا فى مواقع معينة فى اللهجات العامية ؛ ومن هذه المواقع فى لهجة القاهرة ما إذا تلاه صوت أسنانى لثوى مجهور كما فى :

قصدك = ʔ a ʐ d æ k

ناقص زعل = n ɑ ɑ ʔ ı ʐ z æ ʕ æl

« S »

وصوت السين أسنانى لثوى رخو مهموس مرقق ، ينطق به بوضع طرف اللسان بحيث يلتصق بالأسنان السفلى ؛ ومقدمه بحيث يتلصق باللثة ؛ مع رفع الطبق بحيث يلتصق بالجدار الخلفى للحلق ليسد المجرى الأنفى فى طريق الهواء الخارج من الرئتين ؛ ثم مع خفض مؤخر اللسان وفتح الأوتار الصوتية فى وضع التنفس المهموس .

والمقابل المجهور لهذا الصوت هو (Z) ؛ أما مقابله المفخم فهو (ʂ) . وقد

تجهر السين جزئيا فى لهجة القاهرة فى نفس المواضع التى تجهر فيها الصاد ؛ نحو :

أسدل = ʕ æ zdæ l

كيس زبيب = Kizzibiib

« ʃ »

وهذا صوت غارى رخو مهموس مرقق ، يتم النطق به بوضع طرف اللسان ضد الأسنان السفلى ، ومقدمه ضد الغار ، مع خفض مؤخر اللسان ، ورفع الطبق حتى يلتصق بالجدار الحلقى للحلق . ويتم كل ذلك مع فتح الأوتار الصوتية فى وضع تنفس مهموس .

والمقابل المجهور لهـذا الصوت هو صوت الجيم الشامية 'j' . وقد يجهر فى أماكن معينة فى اللهجات العامية ، ومن ذلك ما إذا وليه صوت الغين فى لهجة القاهرة كقولهم .

وزارة الأشغال = wizaaritial ʕ æ j ɣ aal

وما إذاً وليه صوت 'g' فى لهجة عدن كقولهم :

أشجار = æ j g æ æ r

« ɣ »

وهذا صوت طبق رخو مجهور مرقق ، وإن ارتبط بقيمة شبه تفخيمية فى بعض المواقع . ويتم النطق به برفع مؤخر اللسان حتى يتصل بالطبق وخلق صلة تسمح للهواء الرئوى بالمرور ، ولـكن مع احتكاك باللسان والطبق فى نقطة تلاقيهما ، وهذا هو عنصر الرخاوة فى الغين ؛ وفى نفس الوقت يرتفع الطبق ليسد المجرى الأنفى ، وتحدث ذبذبة فى الأوتار الصوتية .

لقد اعتبر النحاة والقراء الحلق مخرج الغين ، وبهذا يستطيع الباحث أن يقف منهم أحد موقفين ينبنى كل منهما على طريقة فهمهم للاصطلاح (حلق) . فإذا كان مفهوم هذا الاصطلاح فى أذهانهم مطابقاً لمـا نفهمه نحن الآن ، فهم ولا شك

مخطئون فى القول بأن صوت الغين يخرج من الحلق . أما إذا كان فهمهم للاصطلاح أوسع من فهمنا له حتى ليشمل ما بين مؤخر اللسان والطبق ، فلا داعى للقول بخطئهم .

والمقابل المهموس لهذا الصوت هو صوت الخاء .

« x »

صوت طبقى رخو مهموس مرقق ، ولو أن له قيمة شبه مفخمة فى بعض المواقع . ويتم النطق بهذا الصوت بنفس الطريقة التى يتم بها النطق بصوت الغين مع فرق واحد : هو أن الأوتار الصوتية فى هذه الحالة الأخيرة لا تكون بها ذبذبة ، ومن ثم كان صوت الخاء مهموساً .

وما قيل عن النحاة والقراء فى اعتبارهم صوت الغين صوتاً حلقياً يقال بحذافيره فى صوت الخاء .

« ع »

وصوت العين حلقى رخو مجهور مرقق ، يتم نطقه بتضييق الحلق عند لسان المزمار ، ونتوء لسان المزمار إلى الخلف حتى يتصل أو يكاد بالجدار الخلفى للحلق ، وفى نفس الوقت يرتفع الطبق ليسد المجرى الأنفى ، وتحدث ذبذبة فى الأوتار الصوتية ، ويحتك الهواء الخارج من الرئتين بلسان المزمار والجدار الخلفى للحلق عند نقطة تقاربهما .

لقد عد النحاة العرب صوت العين من الأصوات المتوسطة ، وربما كان ذلك لعدم وضوح الاحتكاك فى نطقها وضوحاً سمعياً ؛ ولكن الأصوات المتوسطة تشترك جميعها فى خصائص ليست موجودة فى نطق العين . وأوضح هذه الخصائص حرية مرور الهواء فى المجرى الأنفى أو المجرى الفموى ، دون سد طريقه أو عرقلة سيره بالتضييق عند نقطة ما . وقد اتضح بصورة الأشعة أن فى نطق العين تضييقاً كبيراً للحلق ، وهذا ما يدعونا وما دعا غيرنا من المحدثين قبل ذلك إلى اعتبار صوت العين رخواً لا متوسطا .

(ħ)

أما صوت الحاء فحلقى رخو مهموس مرقق ، وهو المقابل المهموس لصوت العين . ويتم النطق به كما يحدث مع صوت العين ، مع فارق واحد ، هو أن الأوتار الصوتية فى نطق الحاء مفتوحة ليس بها ذبذبة . ويعتور هذا الصوت بعض الجهر فى لهجة عدن بجنوب بلاد العرب ، وعلى الأخص حين يكون بين صوتى علة كما فى

(ba ħ at = بحث)

أو متلوا بصوت مجهور كما فى (أحمد = ʕ æ ħ m æd) والجهر فى كلتا الحالتين لا يبلغ مبلغه فى النطق بالعين .

(h)

وصوت الهاء حنجرى رخو مجهور مرقق ، يتم النطق به بتضييق الأوتار الصوتية إلى مرحلة فى منتصف الطريق بين الهمس والجهر ، حتى إذا مر هواء الرئتين بينهما كان لاحتكاكه بهما أثر صوتى لا هو بالحس[1] ولا هو بالتنفس .

هذا الأثر الصوتى فيه بعض الذبذبة ، وذلك ما يجعلنا ننظر إلى هذا الصوت باعتباره مجهوراً . ولكن هذا الصوت المجهور يهمس إذا وليه آخر مهموس كما فى (يهفو = y æ hfuu) . أما إذا تلاه صوت مجهور ، بقى على جهره . ويعطى قراء القرآن فى مصر عنـــاية خاصة لجهر هذا الصوت ، حتى ليبلغون به حد المبالغة أحيانا .

الصوت المركب

(J)

ومعنى التركيب هنا أن نطق هذا الصوت يستلزم طريقتين من طرق النطق ، أولاهما الشدة أو الانفجار ، والثانية الرخاوة أو الاحتكاك . ويمكن وصف هذا الصوت بأنه غارى مركب مجهور مرقق ، يتم النطق به بأن يرتفع مقدم اللسان

---

(١) راجع معنى الاصطلاح (حس)

فى اتجاه الغار ، حتى يتصل به محتجزا وراءه الهواء الخارج من الرئتين . ثم بدل أن ينفصل عنه فجأة ، كما فى نطق الأصوات الشديدة ، يتم هذا الانفصال ببطء ، فيعطى الفرصة لهواء الرئتين بعد الانفجار أن يحتك بالعضوين المتباعدين احتكاكا شبيها بما يسمع من صوت الجيم الشامية (j) .

ويمكن إيضاح هذا الصوت أيضا بأن فيه عنصرين هما (g j) .

ويلاحظ أن نطق أصوات الجيم يختلف باختلاف اللهجات ، وقد وصفنا نطق الجيم الفصيحة ، وينطق مثلها فى الصعيد والسودان ، أما فى القاهرة وعدن فللجيم صوت (g) ، ولها فى الشام صوت (j) . ويتضح هذا الخلاف بإيراد مثال واحد ؛ فكلمة جميل مثلا (على أنها تكتب بنفس الصورة فى مختلف البلاد العربية) تنطق بصور مختلفة منها :

J æ miil — g æ miil — j æ miil

الأصوات المتوسطة

«r»

صوت لثوى تكرارى مجهور ، ينطق به بترك اللسان مسترخيا فى طريق الهواء الخارج من الرئتين ، فيرفرف اللسان ، ويضرب طرفه فى اللثة ضربات مكررة ؛ وهذا معنى التكرار فى صفته .

ولهذا الصوت حالات فيما يختص بالتفخيم تختلف باختلاف موقعه من السياق فهو مرقق إذا ما تلاه صوت من أصوات الكسرة ، أو وقع ساكنا بعد هذا الصوت ؛ ومفخم فيما عدا ذلك ، ومن قواعد القراء .

ورقق الراء إذا ما كسرت   كذاك بعد الكسر حيث سكنت

لاحظ الفرق بين أصوات الراء من جهة التفخيم والترقيق فى الأمثلة الآتية :

حَرَم — يَحْرُم — حرِيم — حِرْمان

فالراء الأول والثانى مفخمان ، ولكن الأخيرين مرققان .

« l »

صوت لثوى جانبى مجهور ، يتم النطق به برفع طرف اللسان حتى يتصل باللثة ورفع الطبق حتى يتصل بالجدار الخلفى للحلق ، فيسد المجرى الأنفى ، وبإحداث ذبذبة فى الأوتار الصوتية . ومعنى الجانبية فى نطق هذا الصوت أن أحد جانبى اللسان أو كليهما يدع الفرصة للهواء الرئوى ليمر بينه وبين الأضراس فى الوقت الذى يمتنع فيـــه مروره على وسط اللسان لحيلولة طرف اللسان المتصل باللثة دون ذلك .

وهـذا الصوت مفخم فى لفظ الجلالة ، إذا لم يسبقه صوت من أصوات الـكسرة ، وكذلك يجوز تفخيمه إذا تلاه صوت من أصوات الفتحة ، وسبقه أحد الأصوات المطبقة . قارن الأمثلة الآتية :

الله — بالله — الصلاة — الطلاق — الظلام

« m »

وهذا صوت شفوى أنفى مجهور ، تتصل الشفتان حين النطق به ، ويهبط الطبق فينفتح المجرى الأنفى ، ويمر الهواء منه ، فى حين تحدث ذبذبة فى الأوتار الصوتية . وهذا الصوت مرقق فى العربية الفصحى ، ولـكنه فى اللهجات العامية قد يفخم بحسب موقفه من السياق كما فى كلمة :

مطر m a ṭ a r

« ɱ »

صوت شفوى أسنانى أنفى مجهور ، يتم النطق به بخلق صلة بين الشفة السفلى وبين أطراف الأسنان العليا ، وبخفض الطبق ، وإحداث ذبذبة فى الأوتار الصوتية . وهذا الصوت مرقق دائما . وهو صوت الميم أو النون إذا تلتهما الفاء ؛ ويسميه القراء إدغاما بغنة كما فى كلمة « ينفع » و « هم خالدون » .

« n̪ »

وهذا صوت أسنانى أنفى مجهور ، ينطق به بإخراج اللسان ، أى بوضع طرفه

ضد أطراف الأسنان العليا ، وخفض الطبق ، وإحداث ذبذبة فى الأوتار الصوتية .

وهو صوت النون قبل الذال والثاء والظاء ، وكذلك يمكن وصفه بالتفخيم إذا وليه الظاء ، وبالترقيق إذا وليه الذال أو الثاء . ولسنا بحاجة إلى القول بأنه فى حالة التفخيم يرتفع مؤخر اللسان فى اتجاه الطبق ، وينسحب إلى الجدار الخلفى للحلق بعكس حالة الترقيق . قارن مثلا :

إن ذهب — إن ثاب — إن ظلم .

« η »

وهذا صوت أسنانى لثوى أنفى مجهور ، ينطق به بوضع طرف اللسان ضد الأسنان العليا (فى حالة الشدة والسفلى فى حالة الرخاوة فيما يتبعه) ، ومقدمه ضد اللثة ، مع خفض الطبق ، وإحداث ذبذبة فى الأوتار الصوتية .

وهو لا يرد إلا قبل الدال والتاء والطاء من الأصوات الشداد ، وقبل الزين والصاد والسين من الأصوات الرخوة ؛ ويرد كذلك قبل الضاد والظاء العاميتين كما ينطقان فى مصر . وهو لهذا إما مرقق أو مفخم ، بحسب ما يأتى بعده من هذه الأصوات ، نحو :

إن دأب — إن تبع — إن طلب — إن زرع — إن صلح — إن سكت .

« n »

صوت لثوى أنفى مجهور مرقق ، يتم النطق به بجعل طرف اللسان ضد اللثة مع خفض الطبق لفتح المجرى الأنفى ، وإحداث ذبذبة فى الأوتار الصوتية . وهو صوت النون المفردة ، والتى بين صوتى علة كما فى :

أنا — نفع — أمان

« ɲ »

صوت غارى أنفى مجهور مرقق ، يتم النطق به برفع مقدم اللسان فى اتجاه الغار ، مع خفض الطبق حتى ينفتح المجرى الأنفى ، وإحداث ذبذبة فى الأوتار الصوتية .

وهو صوت النون التي يليها صوت الشين أو الجيم أو الياء نحو :

من شاء — من جاء — من يكن .

« ŋ »

صوت طبقي أنفي مجهور يتلوه الكاف في اللغة الفصحى ، ويتلوه هو وأصوات (g) ، (x) ، (ɣ) في اللهجات العامية . ويتم النطق به برفع مؤخر اللسان إلى الطبق ، وخفض الطبق إليه ، حتى ينفتح المجرى الأنفي ، ويكون ذلك مع إحداث ذبذبة في الأوتار الصوتية .

ولم يأت هذا الصوت قبل الخاء والغين في اللغة العربية لأن النون تظهر ولا تخفى قبلها ، قارن :

i i ŋkææn	ʕ i ŋ g æ æl	ʕ i ŋ xaaf	ʕ i ŋ ɣaab
إن كان	إن قال	إن خاف	إن غاب

« N »

وهذا صوت لهوى أنفي مجهور ، يرد قبل صوت القاف ، وينطق به برفع مؤخر اللسان ، وسحبه إلى الخلف حتى يتصل باللهاة تمهيداً لنطق صوت القاف . وهو صوت يوجد في الفصحى وفي بعض اللهجات العامية كلهجة عدن . مثال :

ʕ i Nqaal

« w »

صوت شفوى نصف عِلّي مجهور مرقق ، ينطق به بضم الشفتين ضما دون الإقفال ، مع نتوئهما إلى الأمام ، ورفع مؤخر اللسان ، وسد المجرى الأنفي ، ووجود ذبذبة في الأوتار الصوتية .

ولا فرق بين هذا وبين صوت الضمة من الناحية الأصواتية المحضة ، ولكن التفريق بينهما يأتي عن طريق التشكيل والتطريز اللغوى ، حيث تأتي الواو بعد علة وقبلها ولا تأتي الضمة كذلك مثل : وَاحد — تعوِيذ — آوُوه .

« y »

صوت غارى نصف «علّى» مجهور مرقق ، ينطق به برفع مقدم اللسان فى اتجاه الغار ، ورفع الطبق حتى يسد المجرى الأنفى ، مع وجود ذبذبة فى الأوتار الصوتية . ولا فرق من الناحية الأصواتية المحضة بين هذا وبين صوت الكسرة ، ولكن الفرق بينهما ، كما فى الواو والضمة ، يرجع إلى التشكيل والتطريز ؛ فصوت الياء يأتى سابقاً ولا حقاً للعلل ولا كذلك الكسرة . مثال ذلك :

يأتى — تميين — أخْيُوه

أصوات العلة

إن علاج « أصوات » العلة علاجاً دراسياً يختلف فى دراسة الفصحى عنه فى دراسة اللهجات العامية . والسبب فى ذلك يرجع إلى أمرين :

١ — أن « حروف » العلة فى اللهجات العامية أكثر منها فى الفصحى ؛ فالفصحى تعترف بثلاثة حروف علة يختلف كل منها بين الطول والقصر ، ويمكن تسميتها الكسرة والفتحة والضمة ، فى الوقت الذى تعترف فيه اللهجات العامية بخمسة يمكن تسميتها الكسرة ، والخفضة (أى الفتحة المائلة) ، والرفعة (أى الضمة المائلة) ، والضمة .

٢ — نظام التفخيم فى اللهجات العامية يختلف عنه فى الفصحى ، ومن ثم كان الارتباط بين القيم الصحيحة والقيم العلية تفخماً وترقيقاً يقتضى اختلافا بين الفصحى والعاميات فى هذه الناحية .

نخلص من هذا إلى القول إن الحروف الثلاثة التى تعترف بها الفصحى يحتوى كل منها على ثلاثة أصوات ؛ أحدها ، وهو المفخم ، يرتبط بأصوات الإطباق الأربعة (ẓ , ḍ , ṭ , ṣ) ، والآخر ، وهو أقل تفخيماً ، بالأصوات الطبقية (x , ɣ , q) ، والثالث ، وهو المرقق ببقية الأصوات . ويمكن أن نرمز لهذه بما يأتى :

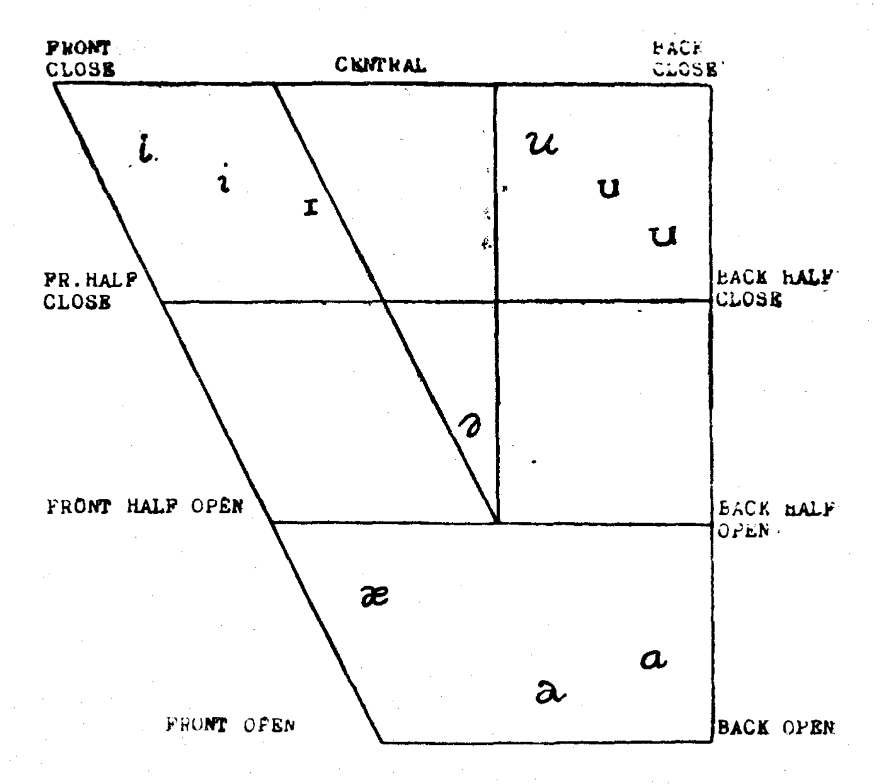
	مرقق	أقل تفخيماً	مفخم
كسرة	i	*i*	I
فتحة	æ	a	ɑ
ضمة	*u*	u	ü

إلى هنا أتينا بالحركات القصيرة ؛ فإذا أردنا أن نرمز لأصوات اللين كررنا الرمز القصير كما يأتى :

مرقق	أقل تفخيماً	مفخم
i i	*i i*	I I
æ æ	a a	ɑ ɑ
u u	u u	ü ü

وإذا كان التفخيم فى الفصحى يرتبط بالأصوات ، فإنه فى العاميات يرتبط بالمواقع ، على نحو ما فصلناه فى منهج التشكيل الصوتى فى هذ الكتاب .

ولقد حرص علماء الأصوات على أن يضبطوا إلى أقصى حد ممكن ما يستطيع المرء أن يسميه أوضاع أعضاء النطق بأصوات العلة ، وجاءوا لذلك بمقياس موضح بالرسم الذى تراه ، فى الصفحة الآتية توصلوا إلى شكله هذا بعد محاولات متعددة . وتمثل الزاوية الحادة والمنفرجة فى مقدم الرسم مقدم منطقة حروف العلة فى الفم ، أما الزاويتان القائمتان فتمثلان مؤخر هذه المنطقة . فأقصى ما يبلغه صوت الكسرة من العلو والتقدم هو الزاوية الحادة ، وأقصى ما يبلغه صوت الفتحة من الاستفال والتقدم هو الزاوية المنفرجة ، وأما ما يبلغه هذا الصوت الأخير من الاستفال والتأخر (أوسمة التفخيم إن شئت) الزاوية القائمة السفلى ، وأقصى ما يبلغه صوت الضمة من العلو والتأخر هو الزاوية القائمة العليا . وبين صوت الفتحة الأمامية (أو المرققة) وبين الكسرة منطقة أصوات الخفضة ، وبين صوت الفتحة الخلفية (أو المفخمة) وبين الضمة منطقة أصوات الرفعة . وأما المثلث الأوسط فهو منطقة الأصوات المركزية ، التى منها صوت القلقلة فى اللغة العربية . ويرى القارىء على هذا الشكل الأوضاع التقريبية لأصوات العلة فى العربية الفصحى وعلى الأخص فى نطق القراء .


FRONT CLOSE
CENTRAL
BACK CLOSE
FR. HALF CLOSE
BACK HALF CLOSE
FRONT HALF OPEN
BACK HALF OPEN
FRONT OPEN
BACK OPEN
i
i
ɪ
u
u
ʊ
ə
æ
a
ɑ

منهج التشكيل الصوتى

(الفونولوجيـا)

لقد ذكرنا وجهات نظر بعض العلمـــاء فى التفريق بين الـكلام واللغة ؛ ووضحنا أن الـكلام أعمال ، وأن اللغة نظام — أن الـكلام حركات ، وأن اللغة قوانين هذه الحركات — أن الـكلام نشاط يجرى (على حد تعبير السيوطى) على شروط اللغة . وقلنا إن دراسة الأصوات التى تجرى فى الـكلام من حيث هى حركات عضوية مقترنة بنغمات صوتية هى ما نسميه علم الأصوات . ولـكن دراسة الأصوات غير مقصورة على هذه الناحية الدراسية الطبيعية فحسب ، بل هى تخضع لقواعد معينة فى تجاورها ، وارتباطاتها ، ومواقعها ، وكونها فى هذا الحرف أو ذاك ، وإمكان وجودها فى هذا المقطع أو ذاك ، وكثرة ورودها وقلّته .. ثم دراسة الظواهر التى لا ترتبط بالأصوات (الصحاح والعلل) من حيث هى ، بل بالمجموعة الـكلامية بصفة عامة ؛ كالموقعية والنبر والتنغيم . ودراسة الأصوات من هذه النواحى الأخيرة دراسة لسلوكها فى مواقعها أكثر ممـا هى دراسة للأصوات نفسها ، وتلك هى دراسة التشكيل الصوتى . ويضع تروبتسكوى المسألة وضعاً آخر[1] حيث يقول : « إن علم دراسة أصوات الـكلام هو علم الأصوات وعلم دراسة أصوات اللغة هو علم التشكيل الصوتى » . فعلم الأصوات إذاً أوصاف لأعمال ، وعلم التشكيل الصوتى أوصاف لأبواب وقواعد . والـكلام من عمل المتكلم والأبواب والقواعد من عمل الباحث ، يخترعها اختراعا ولا يكتشفها اكتشافا . ويقول كانتينو[2] « إن الأصوات دراسة للظواهر الصوتية والتشكيل الصوتى دراسة لوظائف الأصوات » .

ولـكننا نجـد أنفسنا فى كثير من المواضع نستعمل فى التشكيل الصوتى اصطلاحات نستعملها فى الأصوات . فإذا كنا نقسم الأصوات مثلا إلى شديد

---

(1) Principe de Phonologie, Paris, 1949. p. 3.

(2) ibid, p. 12.

ورخو ومركب ومتوسط ، فهذا هو تقسيم الحروف فى التشكيل الصوتى أيضاً ؛ وإذا قسمنا الأصوات إلى مجهور ومهموس ، أو إلى مفخم ومرقق ، أو نسبنا إليها مخارج معينة ، فإننا نفعل نفس الشيء مع الحروف . وقد يبدو هذا خلطاً فى التفكير، وارتباكا فى استعمال الاصطلاحات . وفى الحق أن ذلك قد يكون كذلك فى التناول عن غير خبرة أو فهم ؛ ولكن الخبير الفاهم لا يستطيع أن يخلط بين الطريقتين من طرق الاستعمال إلا عن سوء قصد ؛ فمن المقرر دائماً أن يتنبه الباحث قبل البداية إلى المستوى الذى يدرس عليه ، أهو مستوى الأصوات أم مستوى التشكيل الصوتى . وإن الناظر إلى تعريف كانتينو للعلمين الذى وضعناه فوق هذا الكلام ليجد أننا إذا استعملنا اصطلاح « الشديد » مثلا للصوت ، فإنما نطلقه وصفاً لظاهرة حركية من ناحية ، وصوتية من ناحية أخرى . فهذه الظاهرة حركية لأن الشدة نتيجة لإقفال مجرى الهواء إقفالا تاماً ، ثم تسريح هذا الهواء تسريحاً مفاجئاً له طبيعة الانفجار فى السمع .

ولكننا إذا تكلمنا عن نفس الاصطلاح من الناحية التشكيلية فإنما نتكلم عن « وظيفة » صوتية من مجموعة وظائف يتكون منها « النظام » الصوتى للغة معينة . وكل وصف تشكيلى إنما ينبنى على إيجاد المقابلات الصوتية التى توجد فى اللغة ، والتفريق بين معانيها . وتلك أشياء تأتى بعد دراسة الأصوات من حيث هى، ولكنها تستقل عن دراسة الأصوات استقلالاً تاماً . فالمقابلة بين مجهور ومهموس ثم مفخم ومرقق ، ثم صحيح وعلة ، ثم شديد ورخو ومركب ومتوسط ، ثم بين طويل وقصير ، وبين مخرج ومخرج آخر ، وبين النبر وعدمه ، وبين اللحن الأول واللحن الثانى ، كل أولئك ومايتصل به من فهم دلالة كل مقابل من هذه المقابلات هو الأساس الذى ينبنى عليه علم التشكيل الصوتى .

دعنا إذاً وقد فرقنا بين هذين القسمين نحاول دراسة أهم الموضوعات التى يتناولها هذا العلم ، ثم طريقة البحث فيه ، ثم نخص فرعاً منه كاد يستقل عنه بكلمة قصيرة ذلك الفرع هو مايسميه الأمريكيون Phonemics ويقصدون به خلق الأبجديات المناسبة للهجات غير المكتوبة . ولذا أحب أن أنبه القارىء إلى أننى سوف

استخدم كلمة « الأبجدية » بعد هذا ترجمة لاسم هذا الفرع من فروع الدراسة اللغوية .

وسنبدأ كلامنا هنا بالتفريق بين الصحاح consonants والعلل vowels وفى علم اللغة كما فى بقية العلوم أفكار رئيسية لم يستقر الباحثون على تعريف لها يقبله الجميع . ومن هذه الأفكار « الكلمة » ، وسوف نحاول مناقشة تعريفاتها فى مكان لاحق من هذا الكتاب ، ثم « الصحيح » ؟ ثم « العلة » . وسوف أحاول هنا أن أشرح الأسس التى بنى العلماء عليها التفريق بين الصحاح والعلل ، لا لأخرج للناس تعريفا ، ولكن لأوضح مقدار الضعف الذى يجده المرء فى أسس التعريفات القديمة . وباستقراء هذه الأسس التى فرق العلماء عليها بين الصحاح والعلل ، نجدها كما يأتى :

١ — الأساس الفسيولوجى .

٢ — الأساس الصوتى (لاحظ عدم استعمال كلمة « أصواتى ») .

٣ — هذان الأساسان مجتمعين .

٤ — الوظيفة والتوزيع (أو كما يسمونه التطريز اللغوى) .

وباستعراض هذه الأسس نرى أن هناك منهجين من مناهج الدراسة مختلفين قد استخدما فى التفريق . فأما واحد فيشمل الأساسين الأول والثانى ، متفرقين أو مجتمعين ، ويعالج الصحاح والعلل على مستوى علم الأصوات ، وأما الثانى فيتناولهما من ناحية الوظيفة والتوزيع أو التطريز ، وذلك على مستوى علم التشكيل الصوتى .

ومعظم حالات التفريق بين هاتين الطائفتين تخلط بين النهجين المتقدمين نهج الأصوات ونهج التشكيل . وهاك أمثلة للتفريق بين هذين القسمين (الصحاح والعلل) على الأساس الفسيولوجى .

١ — يقول هنرى سويت[1] « إن التفريق الأساسى بين العلل وبين

(1) Primer of Phonetics p. 31.

الصحاح يتمثل فى أن تشكلات الفم مع العلل إنما تعدل الهواء المجهور فحسب وهو فيما عدا هذا عنصر جوهرى فيها ، ولكن تضييق مجرى الهواء أو إقفاله هو أساس الصوت الصحيح ، على حين تكون حالة الحنجرة شيئا ثانويا .

٢ — ويقول تروبتسكوى[١] إن خاصية الصحيح ، بعبارة أخرى ، هى إنشاء عقبة فى طريق الهواء ، أو فتح هذه العقبة ، على حين تبدو خاصية العلة فى صورة انعدام أية عقبة أو تعويق .

٣ — ويقول فندريس[٢] « كل العلل يقتضى أن يكون الفم مفتوحا ، ولو اختلف هذا الفتح فى الحجم ، ولكنه دائما أكبر مما هو مع الصحاح » .

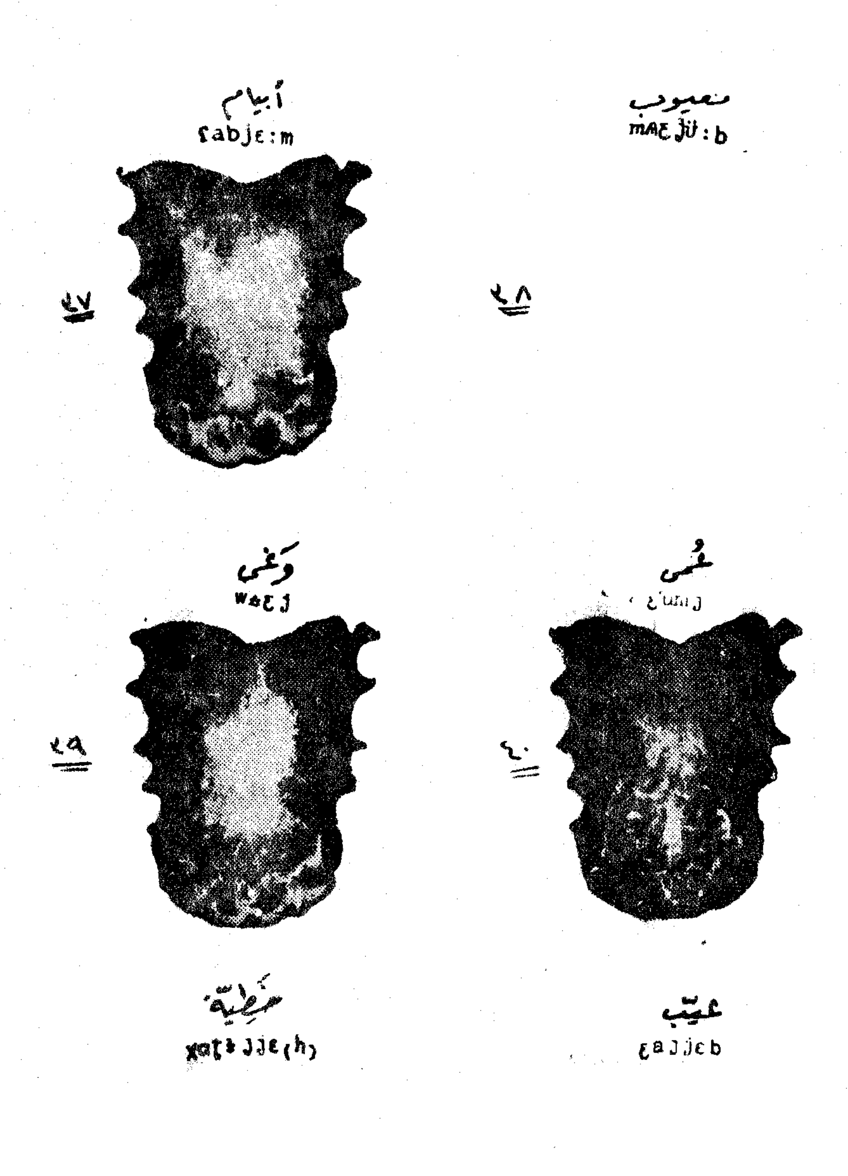
وليس المدخل الفسيولوجى إلى هذا التفريق مصطنعا وسطحيا فحسب ، ولكنه غير واف بالغرض أيضا من وجهة النظر العملية . أما أنه مصطنع وسطحى فلأنه يعتمد على مادة من خارج اللغة ، بعد قطع الصلة بين هذه المادة وبين بيئتها الأصلية التى هى علم الفسيولوجيا ، وتجاهل أثر الموقع والوظيفة باعتبارهما عاملين من أهم عوامل التشكيل الصوتى . ويستخدم عبارة اعتباطية فى تقرير المسألة تتعارض مع تجارب الأصوات فى المعمل[٣] وأكثر من ذلك أن هذه العبارات الفنية الفسيولوجية قد استخدمت لحل مسألة لم يعين مستوى بحثها ، أهو الأصوات ، أم التشكيل ، أم هما معاً . وإن عدم تخصيص مستوى لهذا التفريق ليجعله محتملا أن يكون على مستوى التشكيل الصوتى . فإذا كان ذلك كذلك فإن المدخل الفسيولوجى ، إذا صح أن يرتبط بدراسة الأصوات ، فليس هناك مكان بين تجريدات علم التشكيل الصوتى لمثل هذا المدخل العضوى العضلى ، لأن الصحاح والعلل فى علم التشكيل حروف لا أصوات ، أى وحدات فكرية لا حركات تشرحها الفسيولوجيا ولهذا فليس من الدقة فى شىء أن نقول إن (حرف) العلة لا يوجد فى نطقه تعويق ولا عقبة فى طريق الهواء أثناء نطقه ، لأن الحروف لا تنطق ، وإنما تنطق الأصوات .

---

(1) Principe p. 97 — 8.

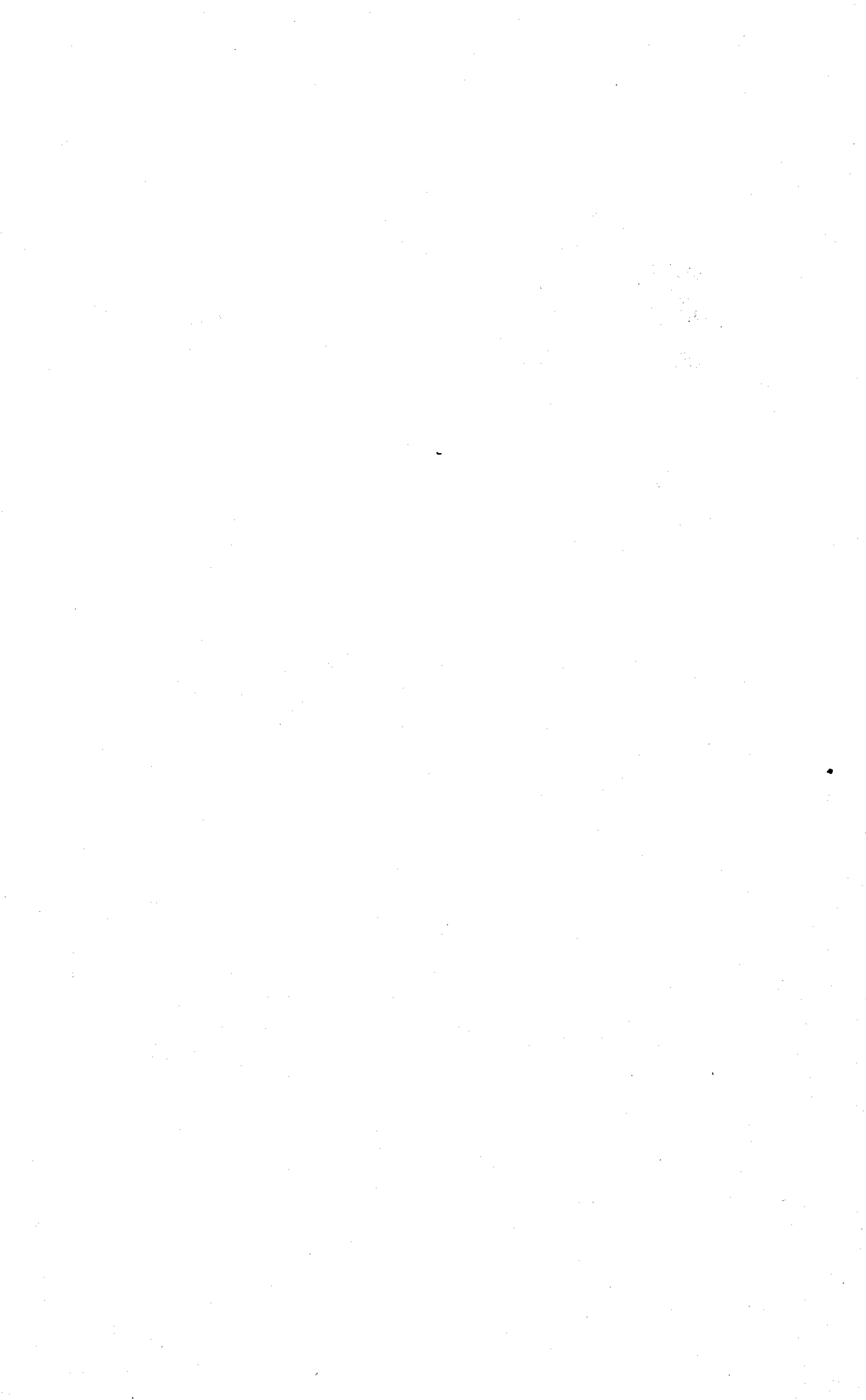
(2) Language p. 54.

(٣) لاحظ البصمات المصاحبة التى أخذت من الكلام العدنى لياء المد الأخيرة وهى علة ولليا ءات المتحركة وهى صحاح وستجد بصمة الطائفة الأولى ذات دلالة متعارضة مع هذا التفريق


أبيام
ʕabjɛ:m
٤٧
معيوب
maʕju:b
٤٨
وَعْي
waʕj
٤٩
عُمي
ʕumj
٤٠
خَطِيّة
xaṭijjɛ(h)
عيّب
ʕajjɛb

٤١

٤٢



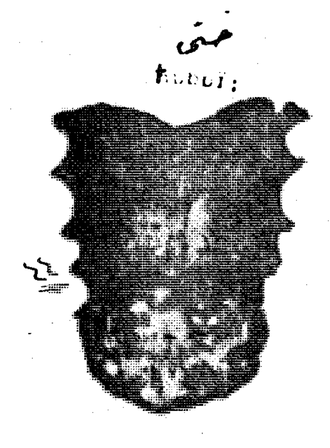
حلمي

ħelmi

٤٣

خفي

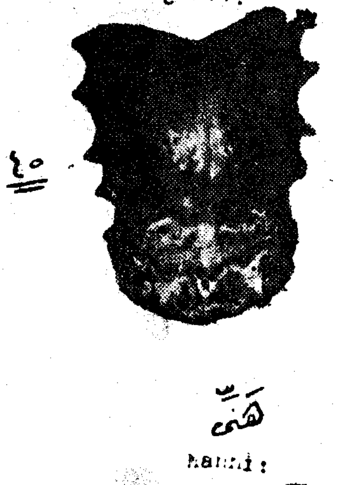
ħ[illegible]:



٤٤

عُفّي

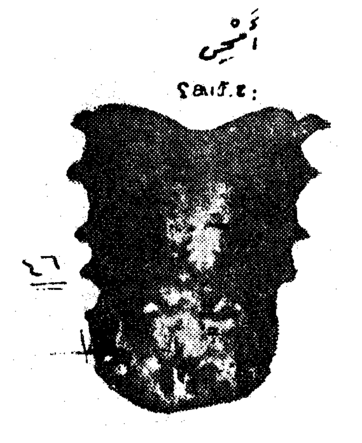
ʕuffi:



٤٥

أَشْيي

ʕaif.e:



٤٦

هَنّي

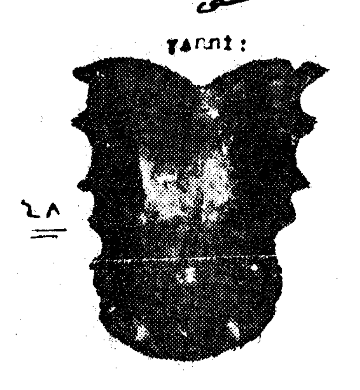
hanni:



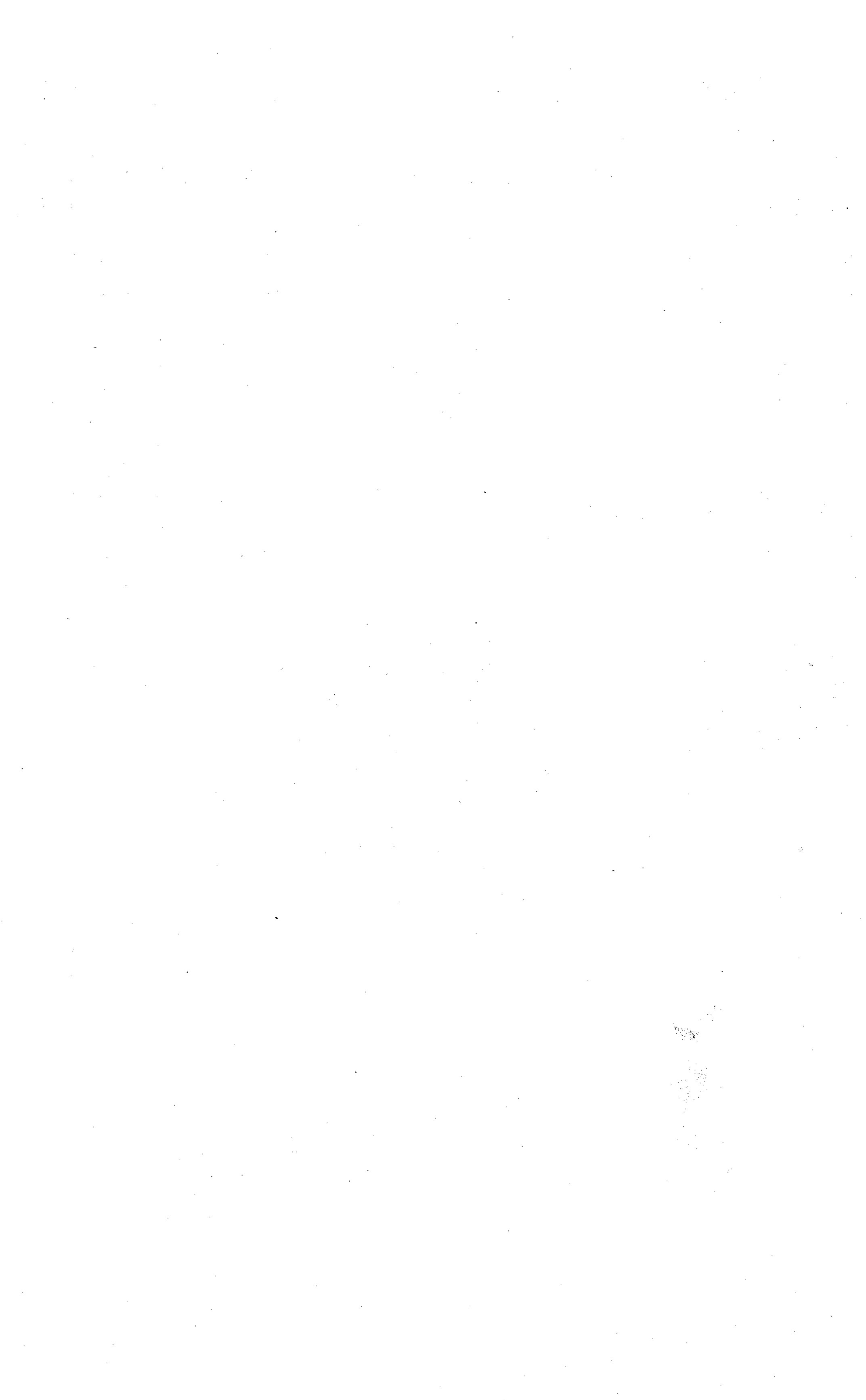
٤٧

غَنّي

ɣanni:



٤٨



وهذه العبارة عرضة للنقد حتى لو جاءت فى علم الأصوات ، ويأتيها هذا النقد من شهادة تجارب البلاتوغرافيا (أو الحنك الصناعى) . فقد وجدت فى لهجة عدن أن بعض أصوات العلة يسبب حين نطقه موقعا لسانيا أعلى ، واتصالا أكبر بين اللسان وبين الحنك الصناعى ، مما يسبب الصوت الصحيح الصالح للمقارنة به ؛ يؤخذ ذلك من حجم البصمة .

وهذه حقيقة تبدو أوضح ما تبدو فى حالة طوال أصوات العلة الأمامية الضيقة (أى مجموعة الأصوات المسماة ياء المد) ، فى نهاية المجموعة الكلامية ، إذا قورنت بالصوت الصحيح (ى) أى الياء الساكنة ، فى نفس الموقع . وشبيه بهذا أن كل صوت علة : طويلا كان أم قصيرا ، فى أى موقع ، له بصمة أوسع مساحة مما ينتجه صوت الياء الواقع بين صوتى علة كما فى كلمة (حياة)[١] .

وواضح أن هـــذا المدخل الفسيولوجى للتفريق بين الصحاح والعلل سطحى مصطنع ، وقاصر لا يكفى الحاجات العملية للبحث ، سواء فى الأصوات أو فى التشكيل الصوتى وسنرى بعد قليل أن التفريق على أساس صوتى (نسبة إلى علم الصوت أحد فروع علم الطبيعة) ليس أكثر غناء فى هذا المجال . وسنورد هنا بعض أمثلة التفريق على هذا الأساس بين هاتين الطائفتين : الصحاح والعلل :

١ — يقول ماروزو[٢] : يعتبر علماء الأصوات الصحيح مكونا فى جوهره من جرس[٣] ناتج عن مرور الهواء عبر القناة الصوتية ، فيخرج عن هذا التعريف الصوت أو الحس الذى يخصص العلة » .

٢ — ويقول دانيال جونز[٤] : ليس التفريق بين الصحاح والعلل اعتباطيا

---

(١) انظر معنى الاصطلاحات الخاصة بأصوات العلة فى قسم الأصوات وإلى البصمات البلاتوغرافية السابقة .

(٢) Lexique de la Terminologie Linguistique p. 36.

(٣) انظر معنى الجرس فى القسم الخاص بالأصوات .

(٤) Outline of English Phonetics, p. 23

فسيولجيا ، ولكنه فى الحق تفريق مبنى على اعتبارات صوتية هى العلو النسبى ، أو قوة الإسماع ، فى الأصوات المختلفة » .

وأما التفريق على الأساسين مجتمعين فيمكن أن يجده القارىء فى الأمثلة الآتية

١ — تقول آيده وورد[1] : « العلة فى الكلام العادى صوت يمر الهواء فى نطقه خلال الفم فى تيار مستمر ، لاتصادفه عقبة ولاتضييق ينتج عنه احتكاك مسموع ، وكل الأصوات الأخرى صحاح » .

٢ — ويقول إدوارد سابير[2] : « يتم النطق فى الأعضاء التى تتكون منها حجرة الرنين المسماة الفم على طريقتين ، فربما سمح للتنفس ، سواء كان مجهورا أو مهموسا ، مغنونا أو غيرمغنون ، أن يمر خلال الفم دون أن يمنع أو يعطل عند أية نقطة ، وربما منع فجأة من المرور ، أوسمح له بالمرور خلال فجوة ضيقة يحتك بها . وتوجد مراحل انتقال بين النوعين الأخيرين من أنواع النطق . ويصبح للتنفس غير المعطل لون خاص أو قيمة صوتية مطابقة لشكل حجرة الرنين التى هى الفم » .

ويقول أيضا : « وطريقة النطق فى الفم ليست كافية بالطبع لحد الصحاح ، بل يجب أن ندخل فى اعتبارنا المخرج »

ويجب أن نعقب هنا بأنه إذا لم يصلح المدخل الفسيولوجى للتطبيق فى هذا المجال ، فلن يصلح المدخل الطبيعى الصوتى ، لأن الحروف وحدات فكرية تجريدية تقسيمية لاجرس لها ولاتنطق . وهكذا يصبح المدخل الطبيعى قاصرا سواء أكان بمفرده أم بالإضافة إلى الأسس الفسيولوجية . وسواء كان هذان المدخلان مجتمعين أو متفرقين فإنهما غير لغويين ، ولا يمكن اعتبارهما أساسين أصليين من أسس البحث اللغوى تفرق عليهما المفهومات اللغوية المجردة التى هى غريبة عن علم الطبيعة بقدر ماهى أجنبية عن الفسيولوجيا . وإذا لم تستخدم التعريفات السابقة فكرة النوعية والنظم اللغوية ، فإن التعريف الآتى يستخدمها بلا شك .

---

(1) Phonetics of English, p. 65.

(2) Language, P. 1 — 53.

يقول بلوخ وتريجر[1] : « العلة صوت لاتوجد عقبة فى الفم حين نطقه ، حتى ليجرى تيار الهواء من الرئتين إلى الشفتين وما وراءها دون أن يتوقف أو يحشر فى مجرى ضيق ، ودون أن يحيد عن خط الوسط فى قناة مروره ، أو يحدث ذبذبة فى أى عضو فوق الحنجرة . هذا الصوت مجهور من الناحية « النوعية » وإن لم يكن هذا ضروريا من الناحية الفعلية ، والصحيح بعكس هذا ، صوت يتوقف الهواء فى نطقه عن الجريان توقفا تاما نتيجة إقفال الحنجرة أو قناة الفم أو ينحرف عن خط الوسط فى قناته إلى فتحة جانبية ، أو يجعل أحد الأعضاء التى فوق الحنجرة تتذبذب » .

واستعمال كلمة النوعية هنا يستدعى للذهن مدخلا تشكيليا ، على حين يقوم التفريق فى حقيقته على أسس طبيعية فسيولوجية .

ولقد وجد التفريق على أساس الوظيفة التى يؤديها الصحيح أو العلة عناية من بعض الباحثين . فنحن نرى ڤندريس مثلا يعترف بالوظيفة المختلفة التى يقوم بها كل من النوعين ، ولكنه حين يفرق بينهما بالفعل ، لا يستعمل اختلاف الوظيفة فى هذا التفريق . ولقد روينا لڤندريس من قبل تفريقا بين هذين القسمين على أساس فتح الفم مع كل منهما . ولكنه يقول فى اختلاف وظيفة الصحيح عن وظيفة العلة : « ومع أن الوظيفة قد تختلف فى هذين ، لا يوجد شىء فى الطبيعة الفعلية للأصوات ولا حد فاصل ، يفرق بينهما » ثم يفرق هو بعد ذلك على الأساس الذى اقتبسناه له من قبل .

لم يرد إلى هذا الحد أى تعريف أو تفريق يقوم على الفصل بين ما هو أصواتى وما هو تشكيلى من الصحاح والعلل ، حتى ينتج تناولا مزدوجا لهذه المسألة ولكن دى سوسور يتناول المسألة تناولا مزدوجا حين يستخدم اصطلاحات مزدوجة الدلالة على اختلاف النظرة إلى الصحاح والعلل باختلاف الأصوات والتشكيل الصوتى واصطلاحات دى سوسور كما يأتى :

---

(1) Outline Of Linguistic Analysis, p. 18.

اصطلاحات تشكيلية	أصطلاحات أصواتية
الصحاح : Consonantes (حروف صحيحة)	Consemmes (أصوات صحيحة)
العلل: Sonantes (حروف علة)	Voyelles (أصوات علة)

ويقول(١): إن الاصطلاحات Consonnes ، Voyelles تدل كما رأينا فى صفحة ٧٥ على أنواع مختلفة ، أما Sonantes ، Consonantes فإنها تدل بالعكس على وظائف فى المقطع »

هذه الثنائية فى الاصطلاح تسمح بتجنب ارتباك منهجى بقى زمنا طويلا . فمع أن نوع (i) واحد فى fidèle وفى pied إذ هى صوت علة ، لكن هذا الصوت حرف علة فى fidèle وحرف صحيح فى pied

ويستمر النص قائلا : « وقد رأينا مثلا أن w ، y ليسا شيئا مختلفا عن — ، u ، ولكن حين يُسأل المرء عن السبب الذى ينتج الوظيفة المزدوجة أو التأثير الصوتى المزدوج (لأن كلة وظيفة لايقصد بها غير هذا) ، يجيب بأن الصوت كذا يؤدى الوظيفة كذا ، وبحسبها تقع عليه النبرة القطعية أولا تقع »

والعالم الآخر الذى توخى ثنائية المصطلحات هو كينيث بايك الذى يستعمل الإصطلاحات الآتية :

اصطلاحات تشكيلية	اصطلاحات أصواتية
الصحاح : Consonants (حروف صحيحة)	Non - Vocoids أصوات صحيحة
العلل : Vowels (حروف علة)	Vocoids (أصوات علة)

ويقول(٢) (إن صوت العلة هو الصوت الذى يخرج الهواء أثناء نطقه : (١) من الفم (٢) على وسط اللسان (أى أنه ليس جانبيا) (٣) بلا احتكاك فى الفم (ولكن الاحتكاك فى مكان آخر لايمنع الصوت من أن يكون صوت علة والآن نحاول تأمل الأصوات الصحيحة : وتشمل هذه أى صوت يخرج الهواء

(1) C. D. L. G. , p. 87 — 8 — 9.
(2) Phonemics, pp. 13 — 60.

أثناء نطقه من الفم لـكن من جانب اللسان ، وأى صوت يخرج الهواء أثناء نطقه من الفم محدثا احتـكا كا محددا بنقطة من الفم ، وأى صوت لايجد تيار الهواء مخرجا أثناء نطقه » .

ويستمر بعد ذلك فيقول : « لـكل لغة أنواعها الخاصة من انساق الحروف ، ففي بعض اللغات يأتى الـكثير من الحروف الصحاح جنباً إلى جنب بلا توسط حروف العلة (أو سم ذلك إن شئت كتلا من الحروف الصحاح) والبعض الآخر لا يميل إلى هـذه الـكتل من الحروف الصحاح ، ولـكنه يفضل تعاقب الحروف الصحاح وحروف العلة . وربما يشك الباحث فى البداية حين يتناول بعض اللغات فيما إذا كانت أنساق معينة تـكتب فى i ، u أو y ، w أى حروف علة أو حروف صحيحة فيجب أن تسمى هـذه الجزئيات حروفاً صحيحة أو علة طبقاً للطريقة التى ترد بهـا فى نسق الـكلام فى مواقع موازية لورود ما اعتـبر حرفاً صحيحاً بالتأكيد مثل t ، s ، أو حروف علة بالتأكيد مثل a » .

وأخيراً يقول : « وحين يكون الصوت من نوع مشكوك فى ظاهره بأنه ربما كان منتميا لحرف صحيح أو لحرف علة ، يجعل الباحث قراره مبنيا على أساس توزيع هذا الصوت فى المقاطع الأصواتية والمقاطع التشكيلية ، أو فى الوحدات الصرفية morphemes ، أو توزيعه بالنسبة إلى مالا يبدو مشكوكا فيه » .

وبعد فما الصحاح وما العلل ؟ لقد جرت العادة فى لغتنا العربية على أن نطلق الاصطلاح « حرف » على مفهوم واسع فهو يشمل ما يأتى :

١ — الحرف بمفهومه الأبجدى التقسيمى ، ويشمل المفهوم الأصواتى أيضا .

٢ — والحرف بمعناه الخطى الرمزى الـكتابى .

٣ — والحرف أحد سبعة أحرف قرئ بها القرآن .

٤ — والحرف بمعنى بنط الطباعة .

ذلك إلى جانب استعمالاته الـكثيرة التى لا تدخل تحت مفهوم الاصطلاح ،

كالحرف بمعنى الطَّرَف ، وقوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف) وهلم جرا .

والذى يهمنا من كل هذا أن نسلخ عن المفهوم الاصطلاحى الأول جانبه الأصواتى ، وندع للكلمة مفهومها الأبجدى التقسيمى ، فنخرج بتقسيم عربى أبجدى تجريدى فكرى لحروف لا تنطق ، وإنما هى أقسام ثمانية وعشرون صحاح ، وثلاثة علل ، يدخل تحت كل قسم منها واحد أو أكثر من الأصوات . وتكون النتيجة بعدئذ أن يكون فى اللغة العربية أصوات كثيرة مقسمة إلى أقسام ، أى حروف ، أقل فى العدد ؛ وكل من الحروف والأصوات ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما الصحاح والعلل ؛ وإليك بيان الحروف الصحيحة وحروف العلة :

فأما الحروف العربية الصحيحة فهى :

ء ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف - ق ك ل م ن ه و ى .

وأما حروف العلة فهى :

الكسرة (ويشمل مفهومها ياء المد) ، والفتحة (ويشمل مفهومها ألف المد) والضمة (ويشمل مفهومها واو المد) ، أى أن حروف العلة إما أن تكون قصاراً أو طوالا ، فالقصير منها حركة ، والطويل مد . كل هذا على الأساس التشكيلى .

ومن الضرورى أن يفرق الباحث بين هذين الأساسين من أسس الدراسة ، التشكيل الذى يدرس الحروف ، والأصوات الذى يدرس الأصوات بالطبع . ومن الضرورى للباحث أن يبدأ بوصف الأصوات ، ثم يحدد أقسامها بعد ذلك عن طريق التخارج فى الموقع ، بمعنى أن الصوتين اللذين يقعان فى موقع واحد ، كالفاء من فَلَق والعين من علق ، ينسبان لحرفين مختلفين إذا اختلف معنى إحدى الكلمتين عن الأخرى .

أما إذا لم يقعا فى موقع واحد ، فلو قَسَرت أحدهما على أن يحل محل الآخر لم يتغير المعنى ، كما لو أحللت محل الميم فى ملق الصوت الذى نسميه إدغاما بغنة ،

وهو من حرف الميم ، فإنها إذاً من حرف واحد : هذا هو معنى التخارج فى الموقع.

والحروف تجريدات ، والأصوات تحقيقات ، فإذا وجد أن صوتا من الأصوات تحقيق لحرف صحيح ، فهو صوت صحيح ، وإذا وجد تحقيقا لحرف علة ، فهو صوت علة . خذ مثلا لذلك : أحد أصوات الضمة مع صوت الواو . ليس هناك فرق أصواتى بين الضمة الطويلة والواو الساكنة المطالة . انطق أيهما شئت ، واسأل جارك أن يخمن أيهما تعنى ، وستعلم أن أذنه لم تخبره الخبر اليقين ؛ فأين يقع الفرق بينهما إذاً ؟ إنه يقع فى التوزيع والوظيفة ، فمن الناحية التوزيعية ، تأتى الواو محركة ولا تأتى الضمة ؛ ومن الناحية الوظيفية ، تأتى الواو بداية لمقطع ولا تأتى الضمة . فإذا وجد الباحث الأجنبى فى اللغة العربية صوتا كالذى نطقته ولم يعرفه جارك فليحركه وليبدأ به مقطعا ، فإن أطاعه فى الكلام فهو صحيح ، وإن لم يجد لكلامه معنى فليجرب اعتباره حرف علة ، وسيجده كذلك . يفعل ذلك دون أن يدخل فى مضايق الفسيولوجيا أو الطبيعة ، أو يستعمل اصطلاحاتهما ، لتحديد مفهومات لغوية بحتة .

ويجب فى تحديد الحروف أن نعنى باعتبارين هامين :

١ — التطريز اللغوى (أو التوزيع) .

٢ — الوظيفة .

وقد وضحنا معنييهما بعض التوضيح بالمثال فوق هذه السطور .

ومع الاحتفاظ بهذين فى الذاكرة ، يمكن تحديد الصحاح أو العلل فى ضوء اللغة أو اللهجة التى ترد فيها ، وتنتمى إليها ، لا على أساس صدق هذا التحديد فى كل لغات العالم ، لأن لكل لغة تطريزها الخاص ، ووظائفها الخاصة التى تسندها إلى الصحاح والعلل .

تقسيم الحروف

لا يستطيع الباحث إذاً أن يبنى تقسيمات الحروف على اعتبارات فسيولوجية

عضوية ، أو طبيعية صوتية ، كما أشرنا إلى ذلك فى كلامنا عن التفريق بين الصحاح والعلل ؛ لأن الحروف الصحاح وحروف العلة لا تنطق ، وإنما تنطق الأصوات الصحاح وأصوات العلة .

وعند تقسم هذه الوحدات التشكيلية ، (التى نسميها الحروف فننسب إليها مخارج وصفات كمخارج الأصوات وصفاتها) ، لا نقصد من هذه النسبة أى معنى عضوى فسيولوجى فى المخارج ، ولا طبيعى صوتى فى الصفات ؛ وإنما نستعمل الاصطلاحين « مخرجا » و« صفة » استعمالا تشكيليا محضا ، غير أصواتى ، لندل به على أنواع لا أعمال ، وعلى أفكار تقسيمية لا موضوعات طبيعية ، وعلى وسائل للتناول لا عمليات نطقية ، وأخيرا كما يقول كانتينو على وظائف لا حركات . وعند ما نتكلم فى معرض التشكيل عن نطق شفوى ، إنما نتكلم عن أحد أنواع النطق المستخدمة فى اللغة العربية مثلا ، لا على عملية النطق نفسها ، أى أننا نتكلم عما يشمل حروف الباء والميم والواو ، لا عن أى صوت بعينه من أصوات هذه الحروف .

وأما اصطلاح العلاقة ، (ونقصد بها جهة الشركة أو التخالف بين صحيح وصحيح ، كعلاقة الجهر المدركة إيجابيا بين د — ز ، وسلبيا بين د — ت ، أى أنها جهة شركة بين الزوج الأول ، وجهة اختلاف فى الزوج الثانى) ، فإنه لا يدع فى التفكير شكا فى جهة إطلاقه ، برغم اتصاله بصفات فى الأصوات تتصل بالناحية الصوتية الطبيعية ، وتناولها من ناحية التشكيل تناول للتنظيم ، لا للوصف الصوتى كما فى علم الأصوات . فيدل اصطلاح « العلاقة » هنا على صفة ربما كانت إيجابية فى أحد طرفيها سلبية فى الطرف الآخر ، مع اتحاد الطرفين فى المخرج ، كما فى مثالنا السابق (د فى مقابل ت) . ويختلف استعمال هذا الاصطلاح هنا عن الطريقة التى يستعمله بها تروبتسكوى ؛ إذ يقصد به «مجموع الأزواج ذوات العلاقة المتبادلة والتى تخصصها نفس علامة العلاقة[1]» ؛ ومعنى الأزواج ذات العلاقة المتبادلة فى نظره كل حرفين (أو كما يقول هو « فونيمين » وسنشرح الاصطلاح «فونيم» فيما يأتى) يقف أحدهما فى وجه الآخر مقابلا له فى سلب صفة وإيجابها ، كوجود

(1) Princ ipe , p, 89 ,

الجهر فى أحدهما والهمس فى الآخر ، كما فى د ، ت . ويقصد بعلامة العلاقة خاصية تشكيلية كالجهر مثلا ، يخلق إيجابها وسلبها زوجا أو أزواجا ذات علاقة متبادلة . أما بالمعنى الذى نقصده نحن من الاصطلاح « علاقة » فإنه يدل على ما يشمل إلى جانب الجهر طرق النطق كالشدة والرخاوة والتركيب والتوسط ، وما يشمل صفات كالتفخيم أيضا .

وإلى جانب استخدام الاصطلاح « علاقة » أحب أيضا أن أطلق الاصطلاح « ميل » على ظاهرة لم يخلق لها اصطلاح فيما كتب عن علم اللغة ، تلك هى الميل بالمخرج الأصلى أثناء النطق إلى تدخل مخرج آخر ، كالذى نسميه الإطباق ، وما نسميه التنوير ، وذلك الذى نسميه التحليق ، ومعنى ذلك ارتفاع مؤخر اللسان فى اتجاه الطبق أثناء النطق فى مخرج بعيد عن هذه المنطقة ، أو مقدمه فى اتجاه الغار ، أو يتراجع جذعه فى اتجاه جدار الحلق ، أو تقفل الحنجرة ، أو تحدث نفخة مصاحبة ، وإنما تفرد الميول بعلاج منفصل عن علاج العلاقات ، لأن هذه الميول صفات فى الموقع أكثر مما هى صفات فى الحرف ؛ وذلك كلام يصدق فى اللهجات العامية على وجه خاص .

وإذاً فلا بد من استخدام المخارج والعلاقات والميول (أو المخارج والصفات إن أردنا الاختصار) فى تقسيم الحروف ، لنجعل من مجموع هذه الحروف منظمة تطريزية توزيعية ، يقوم كل حرف فيها بوظيفة تشكيلية خاصة تساهم فى المعنى العام .

واصطلاح التطريز مستعار من فن الزخرف الذى يقوم على أساس فى وحدات زخرفية ، يحتل كل منها مكاناً فى المجموعة التطريزية ، متكاملا مع أمكنة الوحدات الأخرى ، ومختلفاً عنها . ويؤدى المجموع غرضاً زخرفياً ؛ ولشرح ذلك نقول : إن أى حرفين فى النظام التشكيلى فى أى لغة لا بد أن تكون بينهما جهة اختلاف واحدة على الأقل . وهذه الجهة إما أن تكون مخرجا أو صفة ، ولو اتفق حرفان فى المخرج والصفة لما صح أن يسميا حرفين ، بل إنما يكونان حرفاً وحداً . وإن نظرة واحدة إلى جدول الحروف لتبين كيف لا يتفق اثنان منها فى المخرج والصفة كليهما بل لا بد من اختلاف بينهما ، يجعل لكل منهما مكانه فى المنظمة التطريزية للحروف . وإليك الجدول :

المخارج	الصفات												
	شديد				رخو				مركب	متوسط			
	مجهور		مهموس		مجهور		مهموس		مجهور	مجهور كلى			
	مفخم	غير مفخم	مفخم	غير مفخم	مفخم	غير مفخم	مفخم	غير مفخم		جانبى	تكرارى	أنفى	نصف حرف علة
شفوى		ب										م	و
شفوى أسنانى								ف					
أسنانى					ظ	ذ		ث					
أسنانى لثوى	ض	د	ط	ت		ز	ص	س					
لثوى										ل	ر	ن	
غارى								ش	ج				ى
طبقى				ك		غ		خ					
لهوى				ق									
حلقى						ع		ح					
حنجرى				ء		ه							

ويمكن تشبيه هذه المنظمة التشكيلية الحرفية فى مجموعها بمربعات رقعة الشطرنج ، فالمربعات فى هذه الرقعة تختلف بحسب الاعتبارات الآتية :

١ — سواد المربع وبياضه ،

٢ — مكان المربع فى الخط الرأسى ،

٣ — مكانه فى الخط الأفقى ،

٤ — مكانه فى الخط المائل ،

ولا يمكن أن يتحد مربعان فى كل هـذه الصفات ، وذلك هو معنى فـكرة التطرز فى الرقعة . ويشبهه هذا الجدول الذى وضعناه أمامك من حيث إن خطه الأفقى مخرج ، وخطه الرأسى صفة ، ولا يمكن أن يتحد حرفان فى المخرج والصفات جميعها ، وهذا هو معنى التطرز الحرفى فى الجدول واللغة كليهما .

«نظرية الفونيم»

كل مجموعة كلامية لا بد أن يتكون من سلسلة من الأصوات التى ينتهى كل منها فى الآخر فى شكل انزلاقى ، ولا يتفق اثنان منها اتفاقا تاما . ولـكننا إذا أردنا التحليل اللغوى فإننا نتجاهل عمداً هذه الانزلاقية الصوتية ، وندعى إمكان إيجاد الحدود بين صوت وصوت ، وإمكان إخراج صوت من هذه السلسلة وإحلال آخر محله . ومن المعلوم أن الدراسات اللغوية — لأغراض عملية أبجدية ونحوية ودلالية — تقبل أن تربط عدداً من هذه الأصوات اللغوية برباط واحد ، تطلق عليه اصطلاحا شاملا كالنون مثلا . فالنون اصطلاح شامل يدخل تحته عدد من الأصوات ، كالذى فى بداية « نحن » ، والذى قبل الثاء فى « إن ثاب » ، وقبل الظاء فى « إن ظهر » ، وقبل الشين فى « إن شاء » ، وقبل القاف فى « إن قال » ، مع اختلاف واضح بين هذه الأصوات فى المخرج . لاحظ أن صوت النون فى « إن ثاب » و « إن ظهر » مما يخرج فيه اللسان ، كالثاء والذال والظاء تماما . لقد اصطلحنا على أن نسمى هذا العدد من الأصوات حرف النون ، فنجعل الحرف

أعم من الصوت كما سبق . وهذا أيضاً هو المقصود عند بعض الباحثين بالاصطلاح « فونيم » ، إذاً فالفونيم فى أحد معانيه يقصد به معنى الحرف .

وهو فى رأى دانيال جونز[1] عائلة من الأصوات التى يعتبر كل منها عضواً من أعضاء العائلة ، يترابط مع الآخرين بهذه الطريقة التى شرحناها فى النون ، ويسمى واحد من هؤلاء الأعضاء عضواً رئيسياً . والسبب الذى ينبنى عليه اختيار الرئيسى من بين الأعضاء واحد مما يأتى :

١ — إما أن يكون هـــذا العضو أكثر وروداً فى الاستعمال اللغوى من بقية الأعضاء .

٢ — أو لأنه العضو الذى يستعمل منعزلا عن السياق .

٣ — أو لأنه متوسط بين الأعضاء المتطرفة كصوت النون اللثوى فى مقابل بقية أصواتها .

وتسمى بقية الأعضاء أعضاء ثانوية للفونيم ، أو العائلة الصوتية المذكورة .

ولإيضاحه إيضاحا أكبر يستعمل دانيال جونز كلمة « لغة » بمعنى كلام شخص واحد ذى أسلوب ثابت ، ويستعمل اصطلاح « بيئة الصوت » ليقصد الأصوات المحيطة بهذا الصوت فى ظروفها كلها ، من جهر وكمية وعلو فى الصوت وهلم جرا . ثم يقرر بعد ذلك أن الفونيم فى لغة ما عائلة من الأصوات متقاربة فى خصائصها ، تستعمل بطريقة لا تسمح بأن يستعمل أحدها فى نفس البيئة الصوتية التى يستعمل فيها الآخر أبداً . ومعنى ذلك أن النون التى قبل الثاء ، بما فيها من إخراج اللسان، ومن الصفات الأخرى ، لا تحل محل النون التى قبل القاف ؛ لأن لكل منهما مكانها وبيئتها الصوتية الخاصة بها . وهذا هو المقصود بمعنى التخارج بين الأصوات؛ فكل صوتين من نفس الحرف متخارجان من جهة الموقع ؛ أى لا يقع أحدهما موقع الآخر . والعلاقة بين الأعضاء المختلفين فى الفونيم الواحد إما أن تكون عضوية أو صوتية ؛ أى أنها إما أن تكون علاقة بالمخرج ، أو علاقة بالصفة .

---

(1) The Phoneme Theory, Cambridge 1950

فالعلاقة بين الخاء المهموسة فى « يخشى » والمجهورة فى « أَصِخْ غَيْرَ مَأمُور » علاقة بالمخرج مع اختلاف الصفة ، ولكن العلاقة بين النونات المختلفة التى ذكرناها علاقة بالصفة مع اختلاف المخرج .

ويرى دانيال جونز أن الصوت الواحد لا يمكن ، إلا فى حالات نادرة ، أن يكون منتمياً إلى فونيمين اثنين فى نفس الوقت . ويأتى لذلك بأمثلة كثيرة يمثل بها للقاعدة ولشواذها . ونضيف هنا أن الصوت الشفوى الأسنانى الذى نسميه إدغاما بغنة (ɱ) يكون من أصوات الميم تارة ، ومن أصوات النون تارة أخرى . ويتضح ذلك من مقارنة المثالين :

ينفع ، دعهم فى غيهم .

فنطق النون فى ينفع ، ونطق الميم فى دعهم يتم بنفس الطريقة . ومن الفونيم ما يكون ذا أعضاء متعددة ، كالنون ، وما يكون ذا عضو واحد ، كالياء .

لقد قلنا من قبل إن أعضاء العائلة الفونيمية الواحدة متخارجون ، فالنونات المختلفة متخارجة من حيث الموقع ، ولهذا التخارج أهمية خاصة فى نهاية الخطورة ، من جهة الدلالة ؛ لأن الصوتين إذا انتميا إلى فونيمين مختلفين ، انتفت عنهما فكرة التخارج ، وصح أن يحل أحدهما محل الآخر ، ليحدث تعديلا فى الدلالة أو فى المعنى المعجمى ، بخلق كلمة جديدة . فالمعروف مثلا أن التاء فونيم غير فونيم الثاء ، وأننا إذا وضعنا التاء موضع الثاء من كلمة « ثاب » ، تغيرت الكلمة ، وتغير معناها ، وأصبحت « تاب » . فإذا وضعنا فونيم العين بدل التاء ، أصبحت « عاب » . فإذا استبدلنا ذلك بالخاء ، أصبحت « خاب » . فإذا حلت الراء محلها أصبحت « راب » . والشين « شاب » ، والغين « غاب » ، وهلم جرا . فحلول أحد الصوتين محل الآخر دليل على أنهما ينتميان لفونيمين مختلفين . وهذا أحد أوجه الكشف عن القيم الخلافية فى اللغة . وإضافة الفونيم إلى الكلمة ، واستخراجه منها ، كاستبداله فيها ، يميز الكلمة عن الأخرى . فمثال التميز بالإضافة « جدّ » و« جدّد » ، وبالاستخراج العكس ، وقد سبق التمثيل للتميز بالاستبدال .

ومما تتميز به كلمة عن كلمة « الكمية » ، كما فى قَالَ و « قَلّ » ، ففى المثال الأول لين أطول من الفتحة التى فى الثانى ، وفى الثانى تشديد أطول من الإفراد الذى فى الأول ، وهذا فرق فى الكمية . ومن ذلك النبر ، ولكن اللغة العربية استغنت بوسائلها المتعددة عن استخدام هذه الوسيلة من وسائل التمييز بين الكلمات ، ومثال التمييز بالنبر فى الانجليزية كلمة Contract مع وضع النبر على أول أصوات الكلمة ، و Contract مع وضعه على r ومعنى الكلمة الأولى « عَقْد » ومعنى الثانية يتفق اتفاقاً مدوناً . ومن ذلك أيضاً نغمة الكلمة ؛ وهى تستخدم فى اللغة الصينية وفى لغات غرب أفريقيا وهذا النوع من اللغات يسمى — Tone Languages ، كل ذلك يسمى الخلافات الصغرى التى يفرق بها بين كلمة وأخرى . وقد يجرى التفريق بخلافين أصغرين أو أكثر ، كما فى « قُلْ » و « قَالْ » حيث يفرق بينهما بصوت الضمة فى مقابل صوت الألف اللينة من جهة ، وباختلاف كمية طولها من جهة أخرى . وكما فى « قُلْ » و« قَاسْ » ، حيث نضيف إلى الخلافين السابقين ثالثاً بين اللام والسين . والمفهوم أن قال فى المقارنة الأولى وقاس فى الثانية ساكنان بالوقف .

وأهم شىء فى هذا الصدد أن يكون مجموع الخلافات الصوتية بين كلمة وكلمة كافيا لأن يبرر دعوى اختلافهما ، أما الطريقة التى يتوصل بها إلى إيجاد مجموع هذا ، فليس لها مثل هذه الأهمية . وإنما نقول مجموع الخلافات لأن هذه الخلافات باعتبارها فرادى قد لا يكفى واحد منها للتفريق ، بنفسه فحسب ، بين الكلمتين ، ولكنها مجتمعة قد تكفى لذلك .

هذه النظرة إلى الفونيم يمكن أن تسمى نظرة عضوية تركيبية ، لأنها تعترف بكلمة « عائلة أصوات » . ولكن نظرات أخرى إلى الفونيم قد أخذت تنافسها فى التفكير اللغوى ، وأهمها النظرة العقلية ، والنظرة الوظيفية التركيبية . فأما أصحاب النظرة الأولى فيعتبرون الفونيم صوتاً مفرداً ، له تجريد ذهنى ، أو صورة ذهنية ، يستحضرها المتكلم إلى عقله بالإرادة ويحاول بلا وعى أن ينطقها فى الكلام ، فينجح فى بعض الأحوال فى تحقيق صورة الصوت بالنطق ، ولكنه فى أحوال

يخفق ، فيستحضر أقرب الأصوات إلى هذه الصورة . وهذا شبيه بنظرية المُثُل عند أفلاطون .

ولقد نحا « بودوان دى كورتينى » مكتشف هذه النظرية نحواً نفسياً فى التفكير فيها حيث عرّف الفونيم بأنه صورة ذهنية ، وفرق لهذا بين نوعين من علم الأصوات ، أولهما علم الأصوات العضوى ، وثانيهما علم الأصوات النفسى . وجعل الأول لدراسة الأصوات المنطوقة ، والثانى لدراسة الأصوات المنوية فى النطق. ويفرق بين مجموعتين من الرموز الكتابية الأصواتية ، على هذا الأساس أيضاً ، أولاها لكتابة الأصوات المنطوقة ، والثانية لكتابة الفونيمات ، أو الصور الذهنية ، أو الأصوات المنوية فى النطق .

ومن أصحاب النظرة النفسية أيضاً سابير[1] ، الذى يستعمل فى مقاله المعنون « أنماط الأصوات فى اللغة » ، الاصطلاح « أصوات مثالية » ، ليقصد الفونيمات من وجهة النظر العقلية . ويقول بأن « هذه الأصوات المثالية التى يكونها إحساس المرء بالعلاقات المقصودة بين الأصوات الموضوعية أكثر تحققاً فى نظر المتكلم الفطرى من الأصوات الموضوعية نفسها » ويقول فى نفس المقالة « إن السيكولوجية المركبة للعلاقة والنمط واضحة فى نطق أبسط صحيح أوعلة » . ويقول مرة أخرى « ويوجد بالبديهة مكان للصوت (منظوراً إليه باعتباره نقطة حقيقية فى النمط لا باعتباره أحد الصور الصوتية المشروطة) فى نظام لوجود إحساس عام بعلاقته الأصواتية بالأصوات الأخرى » ويقول : « إن غرض هذه المقالة وروحها أن ترى أن الظواهر الأصواتية ليست عضوية ، مهما كان من الضرورى فى المراحل الأولى للبحث اللغوى الاستقرائى أن نعطى الحقائق الأصواتية تجسيما عضوياً . فالمناقشة الحاضرة فى الحقيقة توضيح خاص لضرورة الذهاب إلى ماوراء مادة الإحساس ، فى أى نوع من أنواع التعبير ، لندرك من الأشكال ما يدرك بالبديهة ويعطى معنى للتعبير » .

---

(1) Sound paterns in Language, Language, Vol. I, 1945 pp. 37—51 and La Réalité Psychllogique des Phonemes Journal de Psych. Jan-Apr, 1933.

ومن العلماء طائفة ترفض الإدراك النفسى للفونيم ، ويقولون فى نفس الوقت إن الفونيم لا يوصف عن طريق الأصوات التى توضحه ، بل يحـددونه فى ضوء وظيفته التركيبية فى اللغة .

وفى مقدمة هؤلاء تروبتسكوى[1] ، الذى يبدو أنه يعتبر الفونيم أى واحد من الخلافات الصغرى التى تفرق بين الكلمات فى المعنى ، وقد سبق شرح ذلك . ويحدد الفونيمات بأنها وحدات تشـكيلية لا يمكن تقسيمها من وجهـة النظر اللغوية إلى عناصر متتابعة أدق ، وقال إنها علامات مميزة ، لا يمكن تعريفها إلا بالرجوع إلى وظيفتها فى تركيب كل لغة على حدتها .

وهو يقول أيضاً إن الفونيم مجموع الصفات التشـكيلية ذات الصلة بالموضوع . ثم هو يقول : إن الفونيم فـكرة لغوية لا نفسية . ومما يرضى أن تروبتسكوى يقود بنظرته هذه إلى نفس النتائج العملية التى قادت لها أوضاع أخرى للنظرية ، وذلك أن هذه النظرية تمنحنا مادة جوهرية لتحليل التراكيب اللغوية ، وأساسـا قوياً للـكتابة الأصواتية .

ويبدو أن بلومفيـلد يرى نظرية الفونيم من نفس زاوية تروبتسكوى ؛ فهو يعرف الفونيمات بأنها « الوحدات الصغرى من الصـفات المميزة للأصوات » ، و« أصغر ما يحدث اختلافا فى المعنى من الوحدات» . ولقد قال أيضاً : إن فونيمات اللغة ليست أصواتاً ولـكنها صفات فى الأصوات التى ينتجها المتكلم بالتـدريب ، ويميزها فى تيار الكلام العملى .

أما « توادل » فيقول إن الفونيم ليس له وجود حقيقى ، لا من الناحيـــة العضوية ولا من الناحية النفسية ، وإنما هو وحدة خرافية تجريدية . وهـذا هو رأى هـيلمسـلف كما يبدو ، وكل هذه الآراء تقود إلى نفس النتيجة العملية . هذه النتيجة العملية هى :

---

(1) N. S.Troubetzkay, Grandzüge der Phonologie, p. 34,

١ — أن الفونيم يؤدى وظيفة دلاليـة ، حيث تأتى الدلالة من الفونيمات والمورفيمات والكلمات والجمل .

٢ — يعين على تعلم النطق الأجنبى .

٣ — يعين على استخدام الأصوات الصحيحة فى أماكنها الصحيحة .

٤ — يعين على فهم النحو والصرف وبقية الدراسـات اللغوية ، عن طريق الإضافة والاستخراج والاستبدال .

٥ — يعين على خلق أبجديات منظمة للغات المختلفة . وهـــذه الناحية محل دراسة ضخمة فى أمريكا ، تعرف تحت عنوان « Phonemics » ،

المجاورة فى السياق

ليس كل حرف صالحاً لأن يجاور كل حرف آخر فى المقطع . وشكل المقطع ، ومخرج الحرف المجاور وصفاته ، والملحقات الصرفية ، وغـير ذلك ، هى العوامل التى تحدد ورود حرف بعينه فى موقع بعينه ، أو عدم وروده . وسـيجد الباحث نفسه مرغماً على دراسة الـكلمة بدون الملحقات الصرفية التى بها . ونقصد بالملحقات ما اتصل بأول الكلمة ، كالسين والتاء فى استفعل وكأحرف المضارعة ، أو دخل فى وسطها ، كتاء الافتعال ، أو جاء فى آخرها ، كالضمائر المتصلة ، وهلم جرا .

ونحب أن نسمى مااتصل بالأول صدرا إلحاقيا ، وما دخل فى الوسط حشوا ، وما جاء فى الآخر عجزا . وإنما يرغم الباحث على دراسة الـكلمة بدون ملحقاتها لأن هذه الملحقات ذات حروف ثابتة لاتتغير بتغير الموقع ، ومن ثم فهى بحكم ثبوتهـا تجاور كل مايأتى معها من حروف الـكلمة . وأدعى للضبط أن يقصر الباحث نفسه على الـكلمة غير ذات الملحقات ؛ لأن دراسة المجاورة فى السياق إنما تعتبر موجهة إليها باعتبارها نواة الدلالة ، ولأنها ذات معنى معجمى ، بخـلاف الملحقات التى يقصد بها معنى الوظيفة الصرفية أو النحوية التى تؤديها ، وفرق بين المعنى المعجمى والمعنى الوظيفى .

وقبل أن نبدأ فى تحديد هذه الحروف التجاورة فى المقطع ، يجب أن نلم إلمامة عابرا بمعنى المقطع ، وإن كان هذا الاصطلاح مما يصعب تحديده صعوبة تامة. سوف لانحاول تعريف المقطع ؛ لأن دراسة المقطع سيفرد لها باب خاص ؛ وإنما نحاول أن نعد مقاطع العربية ، ونبين حدودها فيما يأتى :

فى العربية ستة مقاطع ، فى كل منها صحيح واحد أو أكثر ، وعلة واحدة فحسب ، سواء أكانت هذه طويلة أم قصيرة : فإذا رمزنا للصحيح بالرمز (ص) وللعلة بالرمز (ع) إذا كان قصيراً و (ع ع) إذا كان طويلا، أمكننا أن نبنى المقاطع العربية فى أشكالها المختلفة .

١ — ع ص

٢ — ص ع

٣ — ص ع ص

٤ — ص ع ع

٥ — ص ع ع ص

٦ — ص ع ص ص

والمقطعان الأولان قصيران فى كميتهما ، والثالث والرابع متوسطان ، والأخيران طويلان .

والقاعدة فى تمييز المقطع الأول أنه يوجد فى بداية كل ما بدىء بهمزة الوصل . فالمعروف أن هذه الهمزة إنما تأتى طارئة على الكلمة، ليتوصل بها إلى النطق بالساكن، أو على الأصح بحرف العلة الذى قبل الصحيح الساكن فى أول الكلام فحسب . أما فى وسط الكلام ، فلا تأتى مطلقا . ومن هنا كان العنصر الدائم الذى يعتد به فى هذا المقطع هو حرف العلة ، والحرف الصحيح ، الذى يليه مباشرة ؛ فيوجد هذا المقطع مثلا فى بداية كل ما كان على وزن استفعال ، وانفعال ، وافتعال ، وفى أفعال هذه المصادر ، وفى أداة التعريف . ويجب أن نشير هنا إلى أن هذا المقطع

تشكيلى فحسب : أى أنه لاوجود له فى الدراسة الأصواتية لأن المقطع العربى من الناحية الأصواتيه لابد أن يبدأ بصوت صحيح . أما من الناحية التشكيلية التى تدرس القاعدة والنظام ، لا النطق ، فقد أوردنا تبرير وجود هذا المقطع فوق هذا الكلام ونريد هنا ما يأتى :

إذا تهجينا كلمة « استخراج » فلا شك أن مكوناتها هى كسرة فى البداية ، فسين ساكنة ، فتاء مكسورة ، فخاء ساكنة ، فراء بعدها ألف مد ، فجيم والذى يهمنا هنا هو أننا إذا أردنا النطق بهذه الكلمة دون أن تسبقها كلمة أخرى ، فسنضطر إلى التمهيد المنطق بها بخلق همزة ليست من بنيها ، هى همزة الوصل ، وستوضع هذه الهمزة قبل الكسرة التى فى البداية ، ولكننا إذا قلنا مثلا « أمر استخراج » ، فسوف لانضطر إلى خلق هذه الهمزة . لماذا ؟ لأن الراء من كلمة أمر سدت مسدّها . ولكن الراء من كلمة أخرى ، والتشكيل لا يعتبر المقطع وحده سمعية كما تفعل الأصوات ؛ فإذا كان المقطع من الناحية الأصواتية هو مجموع الهمزة والكسرة والسين الساكنة فى الحالة الأولى ، ومجموع الراء والحركة والسين الساكنة فى الحالة الثانية ، فإنه يتكون من وجهة النظر التشكيلية من الحركة والسين الساكنة فحسب . لأن الهمزة والراء طارئتان ، وكلتاهما غريبة على الكلمة ، وما كان غريبا على الكلمة لا يعد من مقاطعها من وجهة النظر التشكيلية .

وقد سبق أن قلنا إن الحركة فى هذا المقطع يرمز لها بالرمز (ع) ، والصحيح يرمز له بالرمز (ص ، فبنية المقطع إذا هى (ع ص) ، ولكنك ستجده فى دراسة الأصوات دائماً فى صورة (ص ع ص) .

وقاعدة المقطعين الثانى والثالث (ص ع ، ص ع ص) أنه إذا تحرك حرف بالكسرة أو الفتحة أو الضمة القصيرة ، فإذا تحرك ما بعده ، فالحرف المتحرك الأول مع حركته مقطع من نوع (ص ع) ، كالكاف المفتوحة من كَتَبَ ؛ أما إذا سكن ما بعده ، فالحرفان وبينهما الحركة يكوّنان مقطعا من نوع (ص ع ص) ، كالميم المفتوحة والحاء الساكنة من « محمود » .

وقاعدة المقطعين الرابع والخامس أنه إذا تحرك حرف بياء المد أو ألفه أو واوه، فإذا تحرك التالى له ، فالحرف الأول وحرف المد يكوّنان مقطعا من نوع (ص ع ع)، كالقاف والألف من قاتل ؛ أما إذا سكن مابعده ، فالصحيحان وبينهما المد يكونان مقطعا من نوع (ص ع ع ص) ، كالميم والواو والدال من «محمود» .

وقاعدة المقطع السادس أنه إذا تحرك حرف بحركة قصيرة؛ ثم تلاه ساكنان مثل «عبد» ، أو ساكن مشدد ، مثل «شد» ، فإن الحرف الأول والحركة والساكنين جميعا تكون مقطعا من نوع (ص ع ص ص) فإذا نونت عبد وشد ، تغير نظام المقاطع ، فأصبحت بنية الكلمة (ص ع ص + ص ع ص) بدل (ض ع ص ص)

وبعد أن شرحنا بنية المقاطع نود أن نبين المقصود بالحرفين المتجاورين فى السياق ، وهذان إما أن يكونا :

١ — الصحيح فى المقطع (ع ص) والصحيح الذى يأتى بعده بداية لمقطع جديد .

أو ٢ — الصحيح فى المقطع (ص ع) والصحيح الذى يأتى بعده بداية لمقطع جديد .

أو ٣ — الصحيحان اللذين فى مقطع (ص ع ص) .

أو ٤ — الصحيح الذى فى المقطع (ص ع ع) والصحيح الذى يأتى بعده بداية لمقطع جديد .

أو ٥ — الصحيحين اللذين فى المقطع (ص ع ع) .

أو ٦ — الصحيح الذى فى البداية ، والصحيح الذى قبل الآخر من المقطع (ص ع ص ص) .

أو ٧ — الصخيحين الساكنين فى نهاية المقطع (ص ع ص ص)

٧ — الصحيح الذى فى نهاية (ص ع ص) ، أو (ص ع ع ص)

أو ، (ص ع ع ص ص) ، وما يأتى بعده بداية لمقطع جديد ، (مع العلم أن (ص ع ع ص) ، (ص ع ص ص) لا يكونان فى وسط الكلام إلا فى اللهجات العامية فقط) .

وسيجد الباحث أن الأساس الذى يمتنع عليه أن يتجاور الحرفان إنما هو المخارج! فانظر إلى الجدول الذى سبق ، وستجد أن كل حرف أسنانى المخرج لا يميل إلى أن يجاور نفسه ، ولا حرفا له نفس المخرج إلا قليلا ويشمل ذلك (ض د ط ت ز ص س ظ ذ ث) . فإن قلت فما تقول فى « تذليل » التى يجتمع فيها التاء والذال متجاورتين ، فالرد على ذلك أننا ندرس الكلمة خالية من الملحقات والزوائد . ويمكن أن يقال نفس الشىء عن (خ — غ — ك — ق) إذا توسعنا فى مدلول « طبق » إلى ما يشمل ما كان مخرجه اللهاة التى هى نهاية الطبق . وكذلك عن (ب م و ف) إذا توسعنا فى مدلول « الشفوى » إلى ما يشمل الفاء ، وهى شفوية أسنانية ، وعن (ع ح هـ د) إذا توسعنا فى مدلول الحلق إلى ما يشمل الحنجرة ، وهلم جرا .

يقول السيوطى [1] . « قال ابن دريد فى الجمهرة إعلم أن الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت لأنك إذا استعملت اللسان فى حروف الحلق دون حروف الفم ودون حروف الذلاقة كلفته جرسا واحدا وحركات مختلفة ألا ترى أنك لو ألفت بين الهمزة والهاء والحاء فأمكن لوجدت الهمزة تتحول هاء فى بعض اللغات لقربها منها نحو قولهم فى أم والله هم والله وقالوا فى أراق هراق ولو وجدت الهاء فى بعض الألسنة تتحول وإذا تباعدت مخارج الحروف حسن التأليف .

قال واعلم أنه لا يكاد يجىء فى الكلام ثلاثه أحرف من جنس واحد فى كلمة واحدة لصعوبة ذلك على ألسنتهم » .

ويروى السيوطى عن الشيخ بهاء الدين صاحب عروس الأفراح أن رتب الفصاحة متفاوتة فإن الكلمة تخف وتثقل بحسب الانتقال من حرف إلى حرف

---

(١) المزهر ص ١١٥

لايلائمه قربا أو بعداً فإن كانت الكلمة ثلاثية فتراكيبها اثنا عشر .

١ — الانحدار من المخرج الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى نحو ع د ب

٢ — الانتقال من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط نحو ع رد

٣ — من الأعلى إلى الأدنى إلى الأعلى نحو ع م ه

٤ — من الأعلى إلى الأوسط إلى الأعلى نحو ع ل ن

٥ — من الأدنى إلى الأوسط إلى الأعلى نحو ب د ع

٦ — من الأدنى إلى الأعلى إلى الأوسط نحو ب ع د

٧ — من الأدنى إلى الأعلى إلى الأدنى نحو ف ع م

٨ — من الأدنى إلى الأوسط إلى الأدنى نحو ف د م

٩ — من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى نحو د ع م

١٠ — من الاوسط إلى الادنى إلى الاعلى نحو د م ع

١١ — من الاوسط إلى الأعلى إلى الأوسط نحو ن ع ل

١٢ — من الأوسط إلى الأدنى إلى الأوسط نحو ن م ل

ثم يقول إن أحسن هذه التراكيب الأول ، فالعاشر ، فالسادس . وأما ٥ ؛ ٩ فهما سيان فى الاستعمال ، وإن كان القياس يقتضى أن يكون أرجحهما ٩ ، وأقل الجميع استعمالا ٦ .

وواضح هنا أن العلو والتوسط والدنو مقاييس اعتبارية بالنسبة إلى المخارج فى حروف الكلمة ، فى الجهاز النطق . وهذه المقاييس النسبية واضحة فى كل الأمثلة إلا فى المثال الرابع (علن) ، لأن مخرج اللام والنون واحد ؛ ولكنهما يختلفان فى الصفة ؛ فاللام يجرى الهواء معها من جانب اللسان ، وأما النون فإن هواءها يجرى فى الخياشيم ، وهى أوغل من جانب اللسان وأبعد . ولست أفهم مايقصده الشيخ بهاء الدين من جعل الراء أدنى مخرجا من الدال فى المثال الثانى ؛ مع أن العكس هو الصحيح ، ولعل المثال فيه (ع ب د) لا (ع ر د) .

هذا مثال من أمثلة دراسة المجاورة فى السياق على طريقة اللغويين من العرب

وهو مجهود ليس باليسير الهين ، وإن كان غير محدد الدلالات الاصطلاحية . على أن هذا الموضوع بحاجة إلى دراسة أوسع ، ومجهود أضخم ، لأن فيه الكثير من أسرار اللغة العربية ، التي لاتبديها الدراسات التقييدية الشائعة فى النحو والصرف والبلاغة .

أما تقسيم حروف العلة ؛ فإنه يختلف فى الفصحى عنه فى اللهجات العامية . ذلك لأن حروف العلة فى الفصحى ثلاثه هى الكسرة حركة ومدا ، والفتحة ، والضمة كذلك ؛ وأما فى الهجات العامية فلا بد للباحث من الاعتراف بحرفين آخرين يمكن أن يسمى أحدهما الخفضة ، وهى التى تتوسط الكسرة والفتحة ، ثم الرفعة ؛ وهى التى تتوسط الفتحه والضمة ، ويمكن أن رمز e ، o لهما على التعاقب. وينبغى أن ننبه هنا إلى أن هاتين فى معظم اللهجات العامية طويلتان فقط ؛ أى أنهما مدتان لاحركتان. والاعتراف بالقصر والطول فى حروف العلة كالاعتراف بالإفراد والتشديد فى الحروف الصحيحة إذ هو فى كلتا الحالتين تعبير عن وجود كميتين مختلفتين فى الحرف الوحد . وكما أن الحرف المشدد بحرفين ، كما يقولون ، يعتبر المد بحركتين كذلك . ومن ثم استخدمنا فى الدلالة على المقاطع الرمزين (ع) ،(ع ع) للدلالة على اختلاف الكمية كما استخدمنا (ص) (ص ص) تماما .

وكل من هذه الحروف يضم مجموعة من القيم الأصواتية المختلفة ، المرتبطة بالقيم التى تنسب إلى الصحاح المجاورة لها . وحرف العلة فى مجموعه لايعبر عن أية قيمة أصواتية بمفردها ؛ وإنما يشملها جميعاً كعنوان لها ، وهو كالحرف الصحيح لا ينطق . وينبغى أن نشير أيضاً إلى أن أصوات العلة المركزية ، التى تعتبر القلقلة أوضح أمثلتها ، لاتدخل تحت حرف من هذه الحروف ؛ أى أنها ، وإن كانت أصواتاً لغوية ، فهى لتحديد موقع ورودها . أى أنها تخدم غرضاً موقعياً prosodic ، ولاتدخل فى النظام العلى للغة أواللهجة العربية المدروسة . ولا يمكن أن يقال عن واحد منها إنه من حرف الكسرة أو الفتحة أو الضمة .

وكما أن ورود حرفين صحيحين متجاورين مقيد باعتبارات تطريزية مخرجية يتقيد ورود حرفى علة متجاورين لتجاور مقطعيهما ، لنفس السبب على ما يبدو . وللمقاطع ص ع ، ص ع ص ، ص ع ص ص ثلاث إمكانيات علية ، هى

الكسرة والفتحة والضمة ، مع موقعية القصر (أى أن هذه الثلاثة تأتى قصيرة فى شكل حركات فى هذه المقاطع) . أما المقطعان ص ع ع ، ص ع ع ص ، فلهما هذه الإمكانيات مع موقعية الطول (أى أن هذين المقطعين يشتملان على الكسرة أو الفتحة أو الضمة فى صورة ياء المد أوألفه على التعاقب) . وهذا فى الفصحى ؛ أما فى اللهجات العامية ، فإن(ص ع ع ص)يضم إلى ذلك اشتماله على الخفضة ، والرفعة أيضاً ، وهما لا تأتيان مطلقاً فى ص ع ع . لقدقمت بدراسة تجاور حروف العلة بتجاور المقاطع التى ترد فيها فى لهجة عدن ، فى رسالتى للدكتوراه ، وهى دراسة إحصائية طويلة نمسك عن إيرادها هنا لاعتبار المسافة المخصصة فى الكتاب .

المقطع

إن اختيار رمز من الرموز ليدل على شىء من الأشياء إنما هو مسألة اختيار مطلق ، مادام واضع الرمز يبين ، بما لايحتمل الغموض ، أى معنى أو فكرة أو شىء يقصد من استعمال هذا الرمز . وذلك هو المقصود من « تحديد الرمز » ؛ فيستطيع المرء أن يستخدم رمزاً قديماً بمعناه التقليدى ، أو يدخل عليه بعض التعديل فى الشكل أو الدلالة ، أو يخلق رموزه الخاصة ، طالما التزم ببيان دلالتها قبل الاستعمال . والمقاطع تعبيرات عن نسق منظم من الجزئيات التحليلية ، أوخفقات صدرية فى أثناء الكلام ، أو وحدات تركيبية ، أو أشكال وكميات معينة . فيمكن إذاً أن يخلق نظام رمزى للمقاطع ، طبقاً للنظرة الأولى أو الثانية أو الثالثةأوالرابعة، أى تبعاً لوجهة النظر التى ينظر بها إلى هذه المقاطع ، ولناحية دراستها دراسة معينة . فإذا بحث باحث فى المقطع من جهة اعتباره تعبيراً عن نسق منظم من جزئيات التحليل اللغوى ، فإنه يستطيع أن يفعل ما فعلناه من قبل ، فيخصص رمزا للصحيح وآخر للعلة ، وليكن هذان الرمزان ص ، ع . وأن يعبرعن طبيعة النسق فى المقطع بترتيب هذه الرموز بحسبه ، فيقول مثلا إن من الأنساق المقطعية نسقاً فى صورة ص ع ، وآخر فى صورة ص ع ص ، وثالثاً فى صورة ص ع ع ، وهلم جرا . فهذه أنساق منظمة من الرموز لأنساق منظمة من الصحاح والعلل .

أما إذا نظرنا إلى المقطع باعتباره خفقة صدرية (كما ينظر إليه الموسيقيون غالباً) ، فإن أى رمز كالنقطة ، والسهم ، كاف لأن يدل على المقطع فى كافة كمياته وأشكاله . ذلك بأن الذى يهمنا هنا ليس كمية المقطع ولاشكله ولاتركيبه فى صورة نسق معين ، وإنما الدلالة على مقطع أيا كان . وبهذا الاعتبار يمكن التعبير عن عدد المقاطع فى كلمة مثل كتبْ (فعل ماض ساكن الباء) ، بالرمز (←—←—) . ولقدبنى العروضيون من العرب مقاييسهم العروضية بناءعلى هذهالنظرة على مايبدو ؛ حيثنظروا إلى المقاطع باعتبارها خفقات صدرية أو وحدات إيقاعية أوشيئاً له هذه الطبيعة ، ووصفوا النظام الإيقاعى العروضى باستخدام الاصطلاحين « حركة » و«سكون» ، ودلوا على الحركة بشرطة ، وعلى السكون بدائرة ، واعترفوا بثلاث إمكانيات إيقاعية كما يأتى :

(—) وتدل على مايساوى ص ع ،

(— ٥) وتدل علىمايساوى (ع ص)،أو(صعص)، أو (ص ع ع) ،

(— ٥ ٥) وتدل على ما يساوى (ص ع ع ص) ، أو(ص ع ص ص)

فأنت ترى أن الرمز الواحد من هذه الرموز الثلاثة قد يدل على أكثرمن بنية مقطعية واحدة . ويمكن أن نلاحظ على هذه الرمزية العروضية ما يأتى :

١ — تدل الشرطة على صحيح متحرك بحركة قصيرة . واستعارة الرمز هنا من رمز الحركة فى الكتابة يدل على أنهم كانوا يعتبرون الصحيح الذى فى بداية المقطع تابعاً للحركة ، وهذا عكس وجهة النظر النحوية ، التى تجعل الحركة صفة للصحيح . ويجب أن ننبه إلى أن علم اللغة الحديث لا يجعل أياً من الصحيح ، والحركةملك يمين للآخر ، وإنما هما وحدتان مستقلتان متتابعتان، لا ترد أحدهما وصفاً للأخرى .

٢ — يرمز لكل من موقعية الطول (انظر إلى معنى الاصطلاح «موقعية») والصحيح الساكن (أى الذى يقع فى نهاية المقطع) بدائرة واحدة ، فإذا اجتمع هذان أو تكرر الصحيح الساكن رمز لهما بدائرتين .

٣ — لا يرد أكثر من دائرتين بين شرطة وشرطة .

٤ — يمكن قياس موقعية الطول على تعليق النغمة فى الموسيقى ، أما الحرف الساكن فهو أشبه بالفترة بين ضربتى الإيقاع منه بما يسميه الموسيقيون « السكتة » « Syncopation »

فإذا درسنا المقطع مع النظر إلى كونه وحدة تركيبية ، ورمزنا إلى كلة تركيب بالرمز « ر » مثلاً ، صح لنا أن نقول إن فى اللغة العربية ست وحدات تركيبية هى ر^{١} ، ر^{٢} ، ر^{٣} ، ر^{٤} ، ر^{٥} ، ر^{٦} . ونكون فى هذه الحالة قد تجاهلنا النص على تحديد الفروق بين كل وحدة وأخرى ، وإن كنا قد نصصنا على هذه الفروق غير محددة حين فرقنا بين كل راء والأخرى بعدد مصاحب لها .

أما إذا درسنا المقاطع مع النظر إلى كونها أشكالاً وكميات معينة ، فسيكون لنا فى الرمز إليها شأن آخر . دعنا نعنى بالرمز « ق » كلة قصير ، وبالرمز « م » متوسط ، وبالرمز « ط » طويل ، فهذه كميات ثلاث . ثم دعنا نعن بالرمز « ف » كلة مفتوح ، ويقصد بها أن المقطع مما ينتهى بعلة ، وبالرمز « ل » كلة مقفل ، ويقصد بها أن المقطع مما ينتهى بصحيح ، فإذا جاء فى نهاية المقطع صحيحان مشكلان بالسكون، كان الرمز «ل ل». إذا فعلنا ذلك نتج لنا الكميات والأشكال الآتية للمقاطع العربية :

١ — ق ل	وهو من	الناحية	التركيبية	ع ص .	،
٢ — ق ف	«	«	«	ص ع	،
٣ — مـ ل	«	«	«	ص ع ص	،
٤ — مـ ف	«	«	«	ص ع ع	،
٥ — ط ل	«	«	«	ص ع ع ص	،
٦ — ط ل ل	«	«	«	ص ع ص ص	،

فالقاف والميم والطاء تدل على كميات واللام والفاء تدل على أشكال .

ونحن نختار لدراسة المقاطع العربية وجهة النظر الأولى، أى اعتبارها تعبيرات عن أنساق منظمة من الجزيئات التحليلية ، ونبنى رمزنا للمقاطع على هذا الأساس

باستخدام الرمزين ص،ع ليدل أولهما على الصحيح ويدل ثانيهما على العلة. ونرمز للأنساق المقطعية المنظمة الستة كما فعلنا من قبل بما يأتى :

ع ص	وهو قصير مقفل	ومثاله أداة التعريف ،
ص ع	وهو قصير مفتوح	ومثاله باء الجر المكسورة ،
ص ع ص	وهو متوسط مقفل	ومثاله لَمْ ،
ص ع ع	وهو متوسط مفتوح	ومثاله ما ،
ص ع ع ص	وهو طويل مقفل	ومثاله بَابْ بالسكون ،
ص ع ص ص	وهو طويل مزدوج الإقفال	ومثاله عبد بالسكون .

ومن الضرورى أن نعترف بنوعين من أنواع المقاطع : أولهما هو المقطع التشكيلى ، والآخر هو المقطع الأصواتى . أما أول هذين ، فهو تجريدى مكون من حروف ، وأما الثانى فهو أصواتى محسوس مسموع مكون من أصوات . وهذه الثنائية فى التناول نتيجة حتمية للاعتراف بالحقيقة القائلة إن ماهو تقعيدى لايتحقق دائما فى النطق بالضرورة .

فالتقعيد نتيجة من نتائج النظر إلى التطرز والتوزيع اللغوى ، فهو من عمل الباحث اللغوى لا من عمل المتكلم ويحتم بعض ظواهر الموقعية كالحذف ، والطول والقلقلة ، وما أشبه ذلك ألا يتغافل الباحث عن عدم اطراد الورود بين المقطع التشكيلى والمقطع الأصواتى . وإننا لنجد أحيانا مقطعا تشكيليا فى صورة (ص ع ص ص) يقابله من الناحية الأصواتية مقطعان هما (ص ع + ص ع ص) كنتيجة من نتائج قلقلة الصاد التى قبل الأخيرة فى المقطع التشكيلى . مثال ذلك فى الفصحى كلمة عقل بقاف مقلقلة ولام ساكنة . فعلم التشكيل يقول إن القاف ساكنة ، ولكن بملاحظة الأصوات يدرك السامع أن بين القاف واللام صوت علة مركزيا هو صوت القلقة . فالكلمة إذا مقطع واحد من الناحية التشكيلية ، ومقطعان من الناحية الأصواتية . ومن هنا كان من الضرورى التفريق بين هذين النوعين من أنواع المقاطع ؛ المقطع المقعد والمقطع المسموع . ويستخدم هذان جنبا إلى جنب للتفريق بين ماهو تعبير عن القاعدة ، وبين ماهو

تعبير عن المثال . يقول پايك [1] « يجب على الباحث فى بعض اللغات أن يستعد لأن يجد أن المقطع الأصواتى لا يطابق معظم التجميعات التركيبية للجزئيات التحليلية . فكما أن الجزئيات يجب أن يؤدى البحث إلى تحليلها إلى حروف تركيبية يجب كذلك أن تحلل المقاطع الأصواتية إلى مقاطع تشكيلية » .

وفى اللغة العربية كلمات أحادية المقطع مثل « مَنْ » وثنائية مثل « لَمَّا » وثلاثيته مثل « يُقَاتِلْ » ورباعيته مثل « يَتَعَلَّمْ » وخماسيته مثل « مُتَخَاصِمِين » وسداسيته مثل « يتجاهلون » وسباعيته مثل « مُتَحَدِّثِيهِما » .

فأما الكلمات ذات المقطع الواحد ، فإن المقطع الذى تتكون هى منه قد يكون قصيرا أو متوسطا ، أو طويلا . ومعظم الكلمات التى يكونها مقطع قصير أو متوسط واحد أدوات نحوية . فمما يقع من هذه فى مقطع واحد قصير باء الجر المكسورة ، وواو العطف المفتوحة . ومما يقع فى المقطع المتوسط ، سواء أكان مفتوحا أم مقفلا ، « ما » و « فى » و « لا » و « لم » و « عن » و « كم » و « ولو » .

وأما الكلمات غير الأدوات ، فقلما نجد منها ما تركيبه مقطع واحد قصير أو متوسط ، مثل « يد » و « دم » ، ولكن الكلمة كثيرا ما تأتى فى صورة مقطع طويل واحد ، مثل « قال » و « باع » و « راح » ، أومثل « عبد » و « عذر » و « وقهر » بسكون الآخر فى كل أولئك .

والشائع المقبول أن الكلمة العربية ذات حروف أصلية ثلاثة ، يسمى أولها فاء الكلمة ، وثانيها عينها ، وثالثها لامها ، وفى الأمثلة المتقدمة نجد أن هذه الحروف الثلاثة واضحة فى « عَبْدْ » و « عُذْرْ » و « قَهْرْ » ولكننا لا نجد فى « قالْ » و « بَاعْ » و « راحْ » إلا حرفين صحيحين ، يمكن أن نردها إلى هذه القاعدة ، هما فاء الكلمة ، ولامها ، فأين عين الكلمة ؟ وما صحة الدعوى على وجودها فيها ؟ إن عين الكلمة إذا لم تظهر فى المثال فستظهر فى الجدول ؛ فإذا

---

(1) Phonemics, p. 98.

أحدنا « قالْ » مثلا ، ووضعناها فى جدول توزيعى ، وجدنا أن العين تظهر فى بعض صيَـغِه كما يأتى :

قَالْ — قَوْلاً — قوَّال — أَقْوَال — مَقَاوِيلْ — مَقَاوِل — مِقْوَلْ الخ .

وكذلك بَاعْ بَيْعاً — بَيَّاع — بَائِع ، إلخ .

وكذلك رَاحْ — رَوَاحاً — رَوَّح — مُرَوِّح ، الخ .

وإذاً فإن دعوى وجود الحرف الصحيح الغائب من الكلمة ، دعوى لها ما يبررها ، ومن أنجع الوسائل لإظهار هذا الحرف الغائب ، أن تضع حروف المادة فى صيغة يقع الحرف الغائب ، فيها مشدداً ، كما فى : قَالْ وقَوَّال ، وبَاعْ وبَيَّاعْ ، الخ . ومعنى هذا أن الكلمة إذا بدت فى مقطع واحد ولم توجد حروفها الثلاثة مجتمعة ، فإن ذلك لا يطعن فى عدتها .

نخلص من هذا إلى القول بأن هذه الحروف الثلاثة يمكن أن توضع فى مقطع واحد من نوع (ص ع ص ص) ، كما يمكن أن توضع فى مقطعين ، كما فى : كَتَبْ ، جَمَلْ ، حَسُودْ ، كاتِبْ ، كِتَابْ ، جَمِيلْ ، صُدَاعْ ، قِرَبْ ، كُتُبْ ، سَمِج ، حَرَمْ ، بسكون الأخر فى جميعها .

وكل هذه كلمات لم يلحق بها صدر ولا حشو ولا عجز .

وبعض الكلمات التى بها هذه اللحقات تأتى فى شكل مقطعين أيضاً نحو :

يَكْتُبْ — مَكْتوبْ — يَخْرُمْ — يَرْمِى — يَرُوحْ ، بسكون الآخر فى الجميع أيضاً .

وأما الكلمات ذات المقاطع الثلاثة أو الأربعة أ. الخمسة أو الستة أو السبعة فإنها جميعاً من ذوات اللحقات الصرفية : ولو جئنا بكلمة مثل « مُحْتَمِلِيهِمَا » لوجدناها تتكون من مقاطع ستة كما يأتى :

مُحْ — تَ — مِ — لِى — هِ — مَا .

ص ع ص — ص ع — ص ع — ص ع ع — ص ع — ص ع ع .

وهناك نماذج ممتنعة فى تركيب الكلمات العربية من الناحية المقطعية وكل صيغة من صيغ الميزان الصرفى إنما تعبر إيجابيا عن نموذج ممكن ، ولكن النماذج الممتنعة فى اللغة العربية دراسة سلبية لا يمكن أن تنشأ إلا عن طريق المقاطع واستخدامها فيها وسنحاول هنا أن نذكر بعض هذه النماذج الممتنعة ، ولكننا يجب أن نشير ، قبل أن نفعل ذلك ، إلى أن النماذج الممكنة متكاملة من الناحية الدراسية مع النماذج الممتنعة . وهما معاً يعبران عن تركيب اللغة من الناحية المقطعية إيجاباً وسلباً ، ومن هذه النماذج الممتنعة :

١ — كلمة تشتمل على المقطع (ع ص) فى وسطها أو آخرها .

٢ — كلمة مكونة من (ع ص + ص ع) فحسب .

٣ — كلمة مجردة من الملحقات واردة فى صورة (ص ع ع + ص ع ص ص).

٤ — كلمة متعددة المقاطع تبدأ بالمقطع (ص ع ص ص) ، أما البادئة بالمقطع (ص ع ع ص) فمن أمثلتها ضالّين .

٥ — كلمة مجردة ثلاثية المقطع منتهية بالمقطع (ص ع ع ص أو ص ع ص ص)

٦ — كلمة مكونة من أكثر من أربعة مقاطع متحدة الشكل ، أما الكلمات ذات الأربعة مقاطع المتحدة الشكل فمنها ضَرَبَكَ ، (لَمْ) أَسْتَقْبِلْهُمْ .

هذه أمثلة من النماذج الممتنعة فى اللغة العربية ، ولعل الوقت يسمح فى المستقبل باستقصاء كل هذه الصيغ . وفائدة معرفة هذه النماذج مساوية لفائدة معرفة الموازين الصرفية ، لأن الموازين الصرفية إذا كانت نماذج نحكم على الصيغ المكونة على مثالها بأنها عربية ، فإن النماذج الممتنعة تمكننا من أن نحكم على شكل تركيبى ما بأنه غير عربى .

بعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة من الكلام عن المقاطع نجد من الخير أن نحاول أن نتكلم عن كل منها على حدة ، شارحين بعض المعلومات التى تتصل به ، ونبدأ بطبيعة الحال بالمقطع الأول (ع ص) .

قلنا من قبل إن هذا المقطع تشكيلي غير أصواتى ، لأن الأصوات لا تعترف بأن تبتدىء المجموعة الكلامية بحركة ولذلك تعمد إلى همزة تنشئها قبل هذه الحركة ، وتتخذها قنطرة للنطق بها ، ثم تعتبر هذه الهمزة من بنية المقطع . فإذا كان هذا المقطع التشكيلي فى وسط الكلام ، فإن دراسة الأصوات لا تعترف به ؛ لأنها تتخذ من الصحيح قبله قنطرة ، كما اتخذت همزة الوصل فى بداية الكلام . وحركة هذا المقطع من الناحية الصرفية قد تكون كسرة ، كما فى (اضرب) ، أو فتحة كما فى (الولد) ، أو ضمة كما (اصدُق) .

وهذا المقطع إن صح أن يقع فى وسط الكلام فإنه لا يصح أن يقع فى وسط الكلمة ، أى أنه يلزم موقعه فى بداية الكلمة الذى هو فيها فى غير بدء المجموعة الكلامية ، كما فى (الولد) ، (قال الولد لأبيه) وهو لا يقبل النبر أبداً (انظر معنى النبر) كما يرى فى الجملة الآتية : الخير فى استقبال الضيف واحترامه .

وأما المقطع الثانى والثالث (ص ع و ص ع ص) ، فإنهما يوجدان وفيهما الكسرة أو الفتحة أو الضمة ، وقد يكونان منبورين ، وقد يكونان بداية الكلمة ، أو وسطها ، أو نهايتها . فورودها فى الكلام إذاً غير مقيد بشروط خاصة ، كما يتقيد المقطع (ع ص) . تأمل : سنستدرجهم حتى ننتقم منهم .

والمقطع الرابع ، (ص ع ع) ، يرد فى الفصحى وفيه ياء مد أو ألفه أو واوه ، فى أول الكلمة أو وسطها أو آخرها ، ويزاد على هذه الإمكانيات فى اللهجات العامية أن يرد فى أول الكلمة ، أو وسطها ، وفيه خفضة أو رفعة طويلة ، ولا ترد هاتان فيه فى آخر الكلمة . وقد يرد هذا المقطع منبورا أو غير منبور . تأمل : سيأتى الله بالفرج .

وأما المقطع الخامس (ص ع ع ص)، فإنه قد يوجد فى أول الكلمة ، ووسطها أو آخرها . وهو يرد فى الوسط فى بعض العاميات دون بعض . فهو يرد أولا كما فى (ضالّين)، ويصلح هذا المثال للتدليل على وروده آخرا أيضاً . وأما وروده وسطاً فمثل «مدهامتان» . وهو منبور فى الفصحى دائماً وفى نبره تفصيل فى العاميات . وتأتى فيه ياء المد أو ألفه أو واوه

والمقطع الأخير ، (ص ع ص ص) ، لا يوجد فى الفصحى إلا فى آخر المجموعة الكلامية ، حين الوقوف بالسكون على مشدّد ؛ أو على صحيحين مختلفى المخرج . أما العاميات ، فقد يرد فى بعضها فى البدء أو فى الوسط . وهو دائماً منبور فى الفصحى ؛ وفى نبره تفصيل فى العاميات . وهذا المقطع ترد فيه الكسرة أو الفتحة أو الضمة ؛ وهو أحد المواضع التى تحدث فيها ظاهرة القلقلة فى اللهجات العربية . تأمل : لله الحَمْدْ ؛ ولكن الحمد لله .

وفى العاميات : عَبْدْ ربُّه ؛ مَـقَصّهم .

الموقعية

إن استعمال سويت[1] لاصطلاحى « التركيب » و « التحيل » فى دراسة اللغة يوضح الحاجة الملحة إلى دراسة الموقعية . ويظهر ظهوراً واضحاً من دراسة السياق النطقى أن التحليل إذا هدف إلى وصف الجزئيات الصغرى المكونة لهذا السياق (أو كما يسميها الأمريكيون من اللغويين segments) بعد استخراجها من تتابعه المتصل ، فإن التركيب إنما يتناول الكل المتصل كيفما كان مظهره . ويشمل هذا علامات المواقع والعلاقات المتبادلة بين الأبواب اللغوية (linguistic categories كالترابط والتوافق وتبادل التأثير فى السياق وهذا ما سنشرحه فى منهج النحو) .

أما دراسات علامات المواقع فهى ما نسميه الموقعية ، ونمثل مبدئيا لذلك بهمزة الوصل التى تدل على بداية الكلمة ، وعلى أن الكلمة فى بداية المجموعة الكلامية . وأما العلاقات المتبادلة بين الأبواب اللغوية كالعلاقة بين باب الفعل وبين باب الفاعل فهى ما نسميه النحو . مثال ذلك ما يأتى :

فى قولنا (قام محمد) تماسك سياقى ، من حيث إن البابين الذين يدرسان فى هذا السياق يتبادلان أثر الإفراد والتذكير والغيبة ، وفى قولنا قام محمد الفاضل ترتيب سياقى ثابت ، لأن الفاضل لا يمكن أن يسبق محمداً ، أما بين قام ومحمد فالترتيب غير ثابت

(1) H. Sweet, Primer of Phonetics. pp 7 & 44.

لأننا نستطيع أن نقول محمد قام ، وفى هـذه الجملة الأخيرة توافق سياق من حيث إن قام ومحمداً وا ناضل تلزم جميعها حالة متشابهة فى الأفراد والتذكير والغيبة . كل ذلك من صميم الدراسات النحوية .

فالموقعية إذاً دراسة لعلامات المواقع ، أو دراسة لسلوك الأصوات فى الموقع ، طبقا لما يقتضيه هو سواء أكان هذا الموقع بداية الكلمة ، أو وسطها ، أو نهايتها . وإذاً فدراسة الأصوات المفردة المنعزلة انعزالا مصطنعا عن السياق ليست دراسة موقعية ، لأن الصوت المفرد المنعزل ليس به مواقع نسبيـة تدرس أو تكون لها علامات .

والظواهر الانعزالية ظواهر أصوانية بحتة « أما إذا نظرنا إلى المادة اللغوية من وجهة النظر السياقية فسيكون صواباً أن نقول إننا لو وجدنا أية ظاهرة أصواتية خاصة بموقع أو نقطة اتصال بين الأصوات فمن المفيد أو ربما كان من الأكثر إفادة أن نعبر عنها بأنها موقعية فى الجملة أو الكلمة »[1] .

ويمكن أن نقسم الموقعية فى اللغة العربية الفصحى إلى أربعة أقسام رئيسية :

١ — موقعية البداية ،

٢ — موقعية الوسط ،

٣ — موقعية النهاية ،

٤ — موقعية الشيوع .

موقعية البداية

أما موقعية البداية ، فتشمل ورود همزة الوصل فى أول الكلام الذى يبتدىء بحرف علة متلو بصحيح ساكن ؛ أو بعبارة أخرى ، يبتدىء بالمقطع (ع ص) . فهمزة الوصل إذا علامة على هذا الموقع ؛ لأنها لا ترد فى وسط الكلام ، حيث

---

(1) Firth, Sounds and Prosodies TPS. 1948. pp. 127 — 50.

يعتمد حرف العلة على بديل لما هو نهاية أى مقطع سابق . وقد سبق أن مثلنا لذلك بالمثالين :

« الولد » ، « قام الولد » .

موقعيات الوسط

وأما موقعيات الوسط فتشمل ما يأتى :

١ — موقعية نقطة الاتصال ،

٢ — موقعية الشدة الأنفية ،

٣ — موقعية القلقلة ،

٤ — موقعية الساكنين .

١ — موقعية نقطة الاتصال

فأما نقطة الاتصال فتدرس الموقعية فيها بالنسبة للحرف الصحيح يلتقى بالصحيح ، وبالنسبة لحرف العلة يلتقى بحرف العلة . والتقاء الصحيحين مسئول إلى حد كبير عن خلق دراسة الأصوات الصحيحة ، ثم هو أوضح ما ينبنى عليه علم القراءات . فنقطة اتصال حرفين ربما تكون البيئة الوحيدة لصوت لغوى معين . لاحظ مثلا أن التقاء حرف النون بحرف الباء فى السياق يحقق النون فى صورة ميم ، وهذا ما يسمونه الإقلاب . وإذا جاءت بعد النون فاء ، تحققت النون فى صورة إدغام بغنة ، وهلم جرا . إذاً فنقطة الاتصال بين حرف صحيح وحرف صحيح آخر بيئة صالحة لدراسة الموقعية . وكذلك الحال فى التقاء حرفى علة فى وسط الكلام . وكقاعدة عامة يمكن القول إنه إذا التقى حرفا علة فى وسط الكلام ، فاللاحق منهما هو (ع) ، التى فى (ع ص) ، أى أنه هو حركة همزة الوصل ، لو ألحقت همزة الوصل بأول الكلمة التى هو فيها . لاحظ أننا إذا أقررنا كلمة « الولد » فإننا ننطقها همزة مفتوحة ، فلاما ساكنة ، فواوا مفتوحة إلخ ، إذا فالحركة الأولى فى الكلمة فتحة ،

ولـكن هذه الفتحه تختفى من الناحية الموقعية ، فى أمثلة مثل :

يرمى الولد ،

يدعو الولد ،

لم يخرج الولد ،

يخرج الولد ،

فعلامة الموقع فى هذه الحالات ، هى عدم وجود (ع) التى فى المقطع (ع ص) فى النطق وهذا يدعونا إلى القول بعدم وجودها أيضا فى قولنا .

قام الولد — أن يقوم الولد — غضبت على الولد .

قياسا على الأمثلة السابقة .

٢ — موقعية الشدة الأنفية

وأما موقعية الشّدة الأنفية فى العربية الفصحى ، فمن المعروف أن الحروف الشديدة فى هذه الفصحى هى الهمزة ، والباء ، والتاء، والدال ، والضاد ، والطاء ، والقاف ، والـكاف ، وأن هنالك حرفا مركبا من شدة تعقبها رخاوة (أو كما يسمونها تعطيش) . وحروف القلقة من هذه هى الباء ، والدال ، والطاء ، والقاف ، والجيم ، والحروف غير القلقة هى الهمزة ، والتاء ، والضاد، والـكاف ، هذه الأربعة الأخيرة هى موضع هذه الظاهرة الموقعية .

إن وجود صوت القلقة بعد حروفها الخمسة يحتم أن يكون الفم مخرج الهواء حين الانفجار الذى نسميه الشدة ، والذى هو خاصة من خواص النطق بأصوات هذه الحروف . وأما الحروف الأربعة الأخيرة فلا قلقة فيها ، ومن ثم إذا تلتها الميم أو النون ، فإن هواء الانفجار فى نطق أصوات هذه الحروف الشديدة يخرج من الأنف ، وهذا الذى نسميه موقعية الشدة الأنفية . قارن الأمثلة الآتية :

يأمن — يأنس — يُتْمْ — مَتْنْ — يَضْمن — أضْنىَ — يَكْمُل — يَكْنِى بحروف القلقة فى :

أَنْباء — يُدْمى — يَدْنو — يَطمع يُطْنب — يَقْمع — يُقْنع — يَجْمع — يَجْزِى .

وستجد أن القلقة هنا تقترن بخروج هواء الشدة من الفم وأن عدمها يقترن بخروج هذا الهواء من الأنف .

٣ — موقعية القلقلة

وموقعية القلقة تربط بالحرف كما ترتبط بالموقع ، وقد ذكرنا حروفها فوق هذا الكلام ، فارتباطها بها واضح . وأما ارتباطها بالموقع ، فيكفى أن نقول إن أى حرف من هذه لا يقلقل إذا شدّد ، وإلا إذا تلاه آخر من نفس مخرجه ، فلا قلقة لباء ساكنة متلوة بميم ولا لطاء متلوة بتاء ، وهلم جرا .

٤ — موقعية التقاء الساكنين

وأما موقعية التقاء الساكنين ، فعلامتها الكسرة التى لا مبرر لها من الناحية الإعرابية البحتة ، وكل ساكنين التقيا يتحرك أولهما بهذه الكسرة ، إلا إذا كان أولهما مدا وثانيهما مشددا ، كما يرى ذلك فى الفرق بين الأمثلة الآتية :

لم يكن الذين كفروا — اضرب المذنب — لا تهن الفقير .

ولا الضالّين — أتحاجّونى فى الله — مدهامّتان .

الحاقّة ما الحاقّة — الطامّة — الصاخة .

والحقيقة أن كل هذه الأنواع من الموقعية يمكن إدراجها تحت موقعية نقطة الاتصال فالإخفاء ، والإقلاب ، والإدغام بغنّه ، تشير إلى نقطة اتصال من نوع معين ، والشدة الأنفية تشير إلى نقطة اتصال بين شديد وأنفى ، والقلقة تشير إلى نقطة اتصال حرف من حروفها بآخر من غير مخرجه ، والكسر لالتقاء الساكنين يشير إلى نقطة اتصال ساكن بساكن .

موقعة النهاية

وأما موقعية النهاية فأهمها فى الفصحى سكون الوقف وهاؤه ، وفى الشعر القافية : وأما فى بعض العاميات ، فإن من مظاهر هذه الموقعية أن تتحقق الفتحة التى قبل تاء التأنيث فى صورة كسرة ، إذا سبقتها حروف خاصة ، وأن يتحقق ياء المد وواوه فى نهاية الكلام أيضا فى صورة أصوات علة مركبة ، وأن يكون المظهر الصوتى للفتحة والضمة فى آخر مقطع من المجموعة الكلامية أكثر انفتاحا منه فيهما إذا وقعا فى مقاطع فى وسط الكلام . والأمثلة لذلك :

سمكة — قاضى — قالوا — راكب — يدخل .

موقعيات الشيوع

بقيت موقعية الشيوع . وإنما سميت بذلك لأنها تعيّن المواقع سواء أكانت فى مبدأ الكلام أو وسطه أو نهايته ومنها :

١ — الإجهار والإهماس ،

٢ — قوة النطق وضعفه ،

٣ — التفخيم والترقيق ،

٤ — الكمية ،

٥ — النبر ،

٦ — التنغيم :

١ — الإجهار والإهماس

والإجهار جهر ما هو مهموس من جهة التبويب والتقعيد ، والإهماس همس ما هو مجهور من هذه الجهة ، فى موقع صالح لذلك . لقد أفهم كلام النحاة العرب أن ظاهرة القلقة فى الأصوات مرجعها إلى تجنب الإهماس فى حروف القلقة التى

زعموها جميعا مجهورة فى التبويب والتقسيم ، مع العلم بأن الطاء والقاف من الحروف المهموسة من هذه الناحية .

والواقع أن اللهجات العامية لم تحترم جهر الحروف إلى هذه الدرجة ، وإنما تعمل موقعية نقطة الاتصال عملها فى هذه الناحية ، دون نظر إلى الناحية التبويبية للحرف . والغالب أن الحرف المجهور إذا تلاه فى الكلام حرف مهموس ، وكانا متلاصقين تلاصق جزءى الحرف المشدود ، فإن أولهما المجهور يلحقه بعض الهمس أو كله ، وذلك مانسميه الإهماس . ويحدث العكس فى بعض الحالات فى الحرف المهموس ، إذا لاصقه حرف صحيح مجهور لاحق له .

لاحظ إهماس الباء فى أبشع ، وإجهار الفاء فى أفظع ، والشين فى وزارة الأشغال ، حتى لتصبح الباء P ، والفاء مثل V ، والشين مثل الجيم السورية تقريباً j .

وهناك موقع آخر للإهماس هو موقع الحرف الأخير من المجموعة الكلامية وذلك مثل الباء فى كتاب ، والضاد فى خفض ، والزين فى عزيز ؛ وعدم اختصاص هذه الظاهرة والظواهر التي ستأتى بعد ذلك بمكان واحد ، هو الذى برر تسميتنا لها بموقعية الشيوع . وأنا استميح القارىء عذرا فى اختيار كلمتى الإجهار والإهماس ، ولقد أكثرت من الاعتراض عليهما لنفسى من كل ناحية ، ولكنهما خير ما يختار للدلالة على ظاهرة تتصل بالجهر والهمس ولا تتطابق معهما .

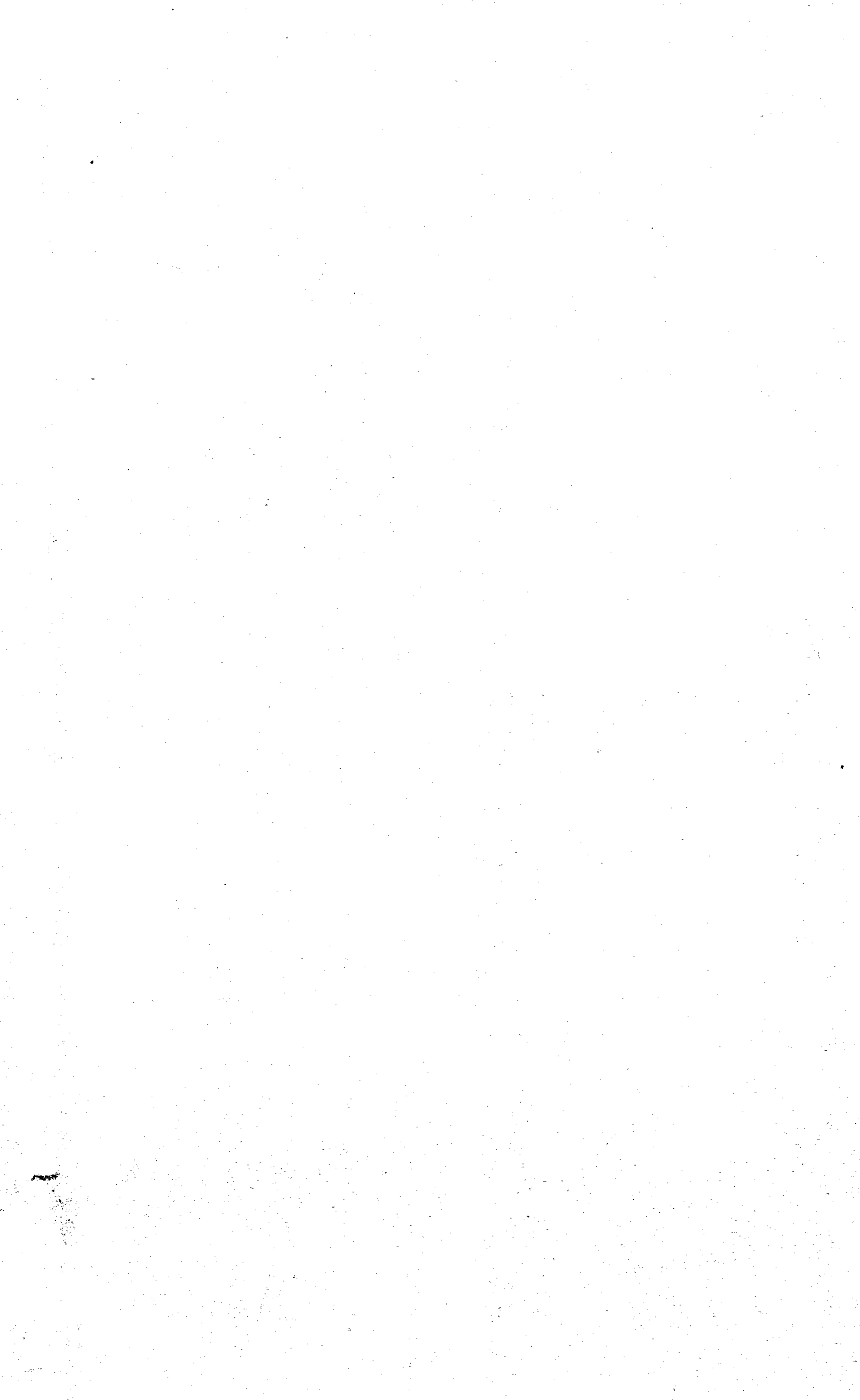
٢ — القوة والضعف

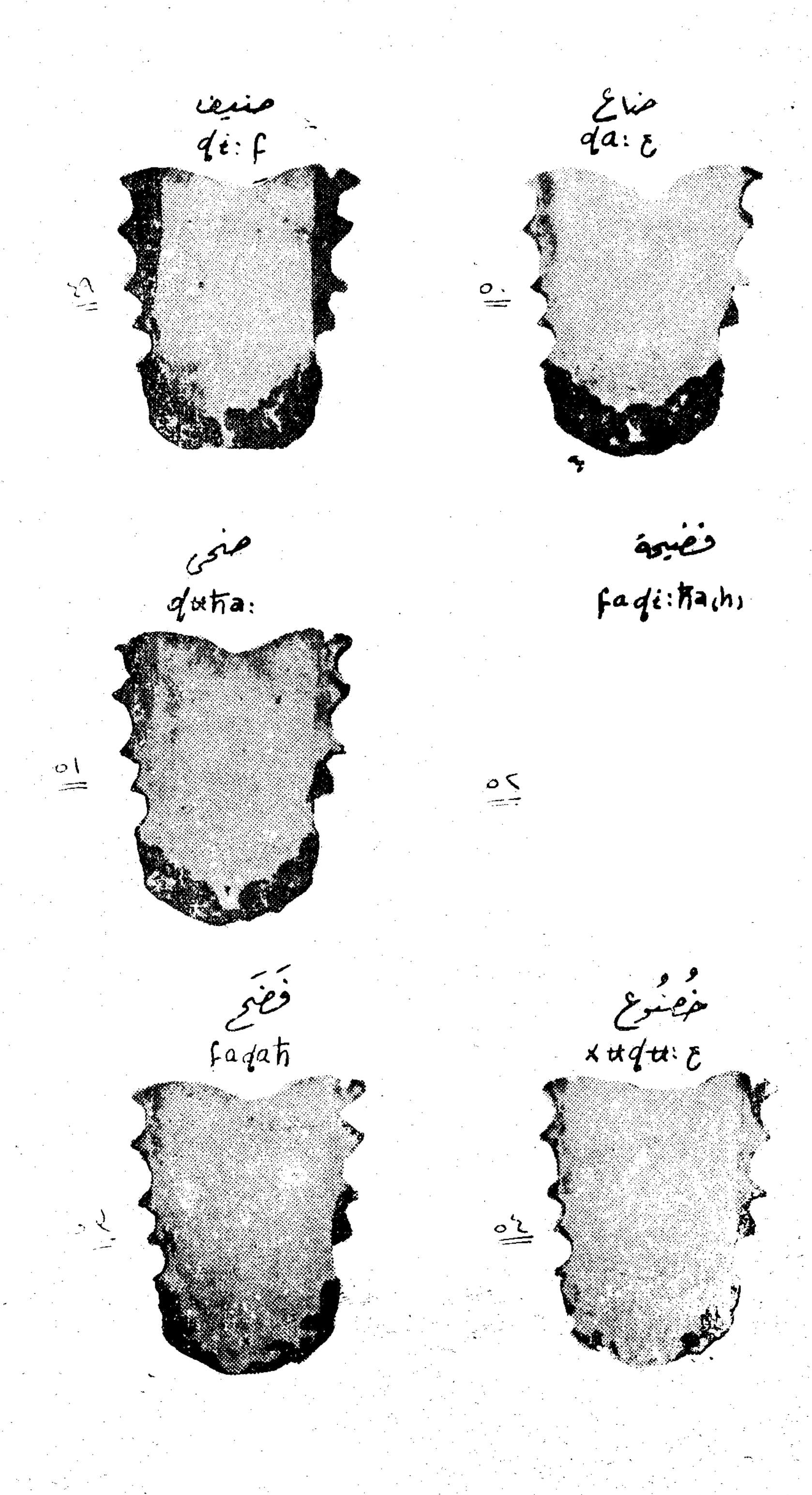
وأما موقعية القوة والضعف فى النطق ، فقد سبق أن قسمنا مواقع الحرف فى المجموعة الكلامية إلى ثمانية مواقع هى :

١ — البداية كموقع الكاف من كتب .

٢ — ما كان بين علتين كموقع التاء من كتب .

٣ — المشدد فى الوسط كموقع اللام المشددة من علّم .





ضيف
٤٩
ضاع
٥٠
ضحى
٥١
فضيحة
٥٢
فضح
٥٣
خضوع
٥٤

٤ — ما كان ساكنا فى الوسط كموقع العين من معلوم .

٥ — ما كان متحركا فى الوسط كموقع اللام من معلوم .

٦ — ما كان قبل الأخير فى المجموعة الكلامية كموقع الجيم من استخرجتْ (بسكون التاء) .

٧ — الساكن المفرد فى الآخر كموقع الباء من اضرب .

٨ — الساكن المشدد فى الآخر كموقع اللام المشددة من استقلّ .

تلك هى المواقع التى توصف بالقوة أو الضعف ، وهى فى هذا أشبه بباب الفاعل ، يوصف بالرفع بقطع النظر عن أمثلته التى هى محمد أو جعفر أوعبد الله . فهذه المواقع تختلف قوة وضعفا فى اللهجات العربية بقطع النظر عما يرد فيها من الأصوات والحروف .

ولهذا يقال مثلا إن الصوت إذا وقع مشددا فى الآخر ، كان أقوى ما يكون نطقا . وهو أضعف ما يكون ، إذا وقع بين حرفى علة . ومعنى القوة والضعف هنا مرتبط ارتباطا تاما بتوتر أعضاء النطق، أوتراخيها ، أثناء عملية النطق (قارن بصمة الضاد التى فى أول الكلمة بالضاد التى بين حرفى علة فى الأمثلة المصاحبة) .

٣ — التفخيم والترقيق

والتفخيم والترقيق يختلفان فى الفصحى عنهما فى العاميات فهما فى الفصحى يرتبطان بالحروف ، أما فى العاميات فهما ظاهرة موقعية ترتبط لا بالحروف وإنما بالموقع فى السياق .

يقول النحاة القدماء إن حروف التفخيم هى (ص ض ط ظ غ خ ق) وبالتأمل فى هذه الحروف ، نجد أن مما يعد فى خصائصها إما صفة الإطباق ، وإما مخرج الطبق (وهو هنا يشمل اللهاة) : وصفة الإطباق ومخرج الطبق يشملهما فى التجويد العربي اصطلاح « الاستعلاء » . والذى يبدو لى أن التفخيم فى هذه الحروف غير متحد القيمة ، ولا مطّرد الورود فى المثال .

لحروف الإطباق الأربعة مفخمة إلى درجة أكبر من تفخيم الحروف الطبقية الثلاثة ، وهى ترد مفخمة أكثر مما ترد الثلاثة الطبقية ، ذلك لأن حروف الإطباق يبقى لها تفخيمها فى كل وضع ، ومع كل حرف علة سابق أولا حق ، أما الثلاثة الطبقية فإنها لا تفخم فى مجاورة الكسرة ويعترف علماء التجويد بأن الطبقة أقوى تفخيماً من الطبقية . يقول ابن الجزرى[1] : « ومنها المستفلة وهى ضد المستعلية ؛ والاستعلاء من صفات القوة وهى سبعة يجمعها قولك : قظ خص ضغط وهى حروف التفخيم على الصواب وأعلاها الطاء كما أن أسفل المستفلة الياء ، وقيل حروف التفخيم هى حروف الإطباق ، ولاشك أنها أقواها تفخيما » .

هذا هو التفخيم فى الفصحى ؛ تفخيم يرتبط بالحروف أكثر مما يرتبط بالموقع ، ولذلك لا يمكن اعتباره ظاهرة موقعية . أما فى اللهجات العامية ، فهو على العكس من ذلك يرتبط بالموقع أكثر مما يرتبط بالحروف ؛ ففى لهجتى المحلية (لهجة الكرنك — قنا) .يمكن تلخيص هذه الظاهرة فيما يأتى :

تنقسم الحروف بالنسبة لهذه الظاهرة إلى أقسام خمسة ، كل قسم منها له سلوكه التفخيمى الخاص ، الذى يختلف عن سلوك بقية الأقسام . هذه هى الأقسام :

١ — ص ض ط ظ وهى المجموعة المطبقة

٢ — ر وهى تكرارية

٣ — خ غ ك گ بدل (ق) وهى المجموعة الطبقية

٤ — ب م و ف — ح ع ء ه وهى مجموعة المخارج القصوى فى الشفتين والحنجرة

٥ — ت د س ز ل ن ج ش ى والكسرة والخفضة وهى المجموعة اللسانية الأمامية .

وسيرى القارئ من وصف المجموعات بالأطباق والتكرار والطبقية الخ ، أن

(١) كتاب النشر الجزء الأول ص ٢٠٢ .

كل مجموعة تربطها رابطة مخرجية خاصـة . والمجموعة الأولى مفخمة دائما ، أما المجموعات الأخرى فيلحقها التفخيم بحسب الموقع ، وهذا هو معنى كونه ظاهرة موقعية . والقاعدة فى ذلك ما يأتى :

١ — كل ما يسبق حرفا من المجموعة الأولى فى الـكلمة فهو مفخم مهما كانت المجموعة التى ينتمى إليها ، فالتفخيم صفة الحروف كلها فى :

« رقص » ، « خبط » و « سمط »

وصفة الحرف المطبق وما قبله فى :

« رصف » و« قطع » و« رطز » و« سطل »

٢ — كل حرف يسبق الراء فى الـكلمة فهو مفخم مثلها إلا إذا سبق بكسرة أو خفضة ، غير مسبوقتين بأحد حروف المجموعة الأولى ، كما فى «سيرة» ، وإلا إذا كانت الراء متوسطة بين حرفين من المجموعة الخامسة ، كما فى « جَرَسْ» ، فى هاتين الحالتين ترقق الراء وما قبلها .

٣ — كل ماسبق المجموعة الثالثة ، أو الرابعة فهو مفخم مثلها ، إلا :

(ا) حين يكون الوسـط من المجموعة الخامسة ، كما فى « رَزَع » و« خَلَقَ » و« غَنَمْ » .

(ب) حين يكون أول الـكلمة ووسطها من المجموعة الرابعة أو الخامسة ، أو كليهما بأى ترتيب ، نحو : « زَبق » و « بزَق » و « دلَق » و « بحَق » .

٤ — (ا) إذا انهت الـكلمة بحرف من المجموعة الخامسة ، فهو مرقق وما قبله كذلك ، إلا حروف المجموعة الأولى وما سبقها فى الـكلمة ، نحو :

« حَصَدْ » « غَطَسْ » ، ولـكن فى « طَقَشْ » ، التفخيم للطاء فحسب .

وأما فى لهجة عدن فالحروف مقسمة أيضا ، ولـكن الأقسام سبعة ، مرتبة بحسب غلبة التفخيم على سلوكها . وهذه الأقسام مبنية على حسب اتحاد المخرج

أو قربه أيضا ، وهى الفخم ، والمضخم ، والمحايد ، والمدقق ،و المرقق كما يأتى :

١ — المفخم (الحروف الأسنانية اللثوية المطبقة) ص ض ط وهى ذات تفخيم دائم .

٢ — المضخم (الحروف الطبقة) خ غ ق وهى أقل منها تفخيما .

المحايد وهو مجموعات ثلاث :

٣ — (الحروف الشفوية) ب م و ف وهى أقل من المجموعة الثانية

٤ — (الحلقية) ء ه ح ع وهى أقل تفخيما من المجموعة الثالثة .

٥ — (اللثوية) ر ل ن وهى أقل تفخيما من المجموعة الرابعة .

٦ — المدقق (الحروف الأسنانية اللثوية غير المطبقة) ت د س ز وهى أقل ترقيقا من المجموعة الأخيرة .

٧ — المرقق (الحروف الغارية) ك ج ش ى وهى أقل ترقيقا .

هذه الموقعية وظيفة من وظائف المقطع ، وتقسم كل حرف من حروف العلة إلى سبعة قيم ، أصواتية ، ترتبط كل قيمة منها بمجموعة من هذه المجموعات .

وإذا كان ذلك حال الصحاح والعلل فى المقطع ، صح أن يوصف المقطع بأنه مفخم ، أو محايد ، أو مرقق ؛ ويمكن دراسة هذا الاختلاف التفخيمى بين المقاطع فى السياق وفى الجدول على السواء . ولذكر قاعدة التفخيم فى المقطع نجد من الضرورى أن نقسم المقاطع إلى قسمين رئيسيين : هما المفتوح والمقفل . ولكل منهما تناول خاص :

١ — المقطع المقفل وهو الذى ينتهى بحرف صحيح :

(ا) يكون هذا المقطع مفخما إذا كان فى بدايته أو نهايته أحد حروف المجموعة الأولى أو الثانية ، مثل الطاء واللام من طلّق ، واللام والطاء من بَلَط ، ، والصاد والحاء من وَجدْ صَاحِبُه .

(ب) ويكون محايدا حيث تكون بدايته ونهايته كلتاهما من حروف المجموعة

الثالثة ، أو الرابعة ، أو الخامسة ، مثل الباء والراء من عَـبَر ، والراء والحاء من فَرَحْ ، والباء والنون من بَانْ .

(حـ) ويكون مرققا إذا كان أحد حروفه من المجموعة السادسة ، أو السابعة وليس فيه حرف من المجموعة الأولى ، أو الثانية . نحو الدالين فى عَدَدْ ، والباء والدال من عَـبَـدْ ، والباء والشين من رَبَشْ .

٢ — المقطع المفتوح وهو الذى ينتهى بحرف علة :

(ا) يكون هذا المقطع مفخما ، إذا بدأ هو أو لاحقه بحرف من المجموعة الأولى ، أو الثانية ، نحو :

الحرف الأول وحركته من طلب ـ بَطَـل ـ سطا ـ غلب ـ نَقَـل ـ سقط .

(ب) ويكون محايدا ، إذا بدأ هو وتاليه بحرف من المجموعة الثالثة أو الرابعة أو الخامسة نحو الحرف الأول المتحرك من بَعَـدْ عَبَـدْ .

(حـ) ويكون مرققا حين يبدأ بحرف من المجموعة السادسة ، أو السابعة ، ويبدأ تاليه بأى حرف من غير المجموعة الأولى ، أو الثانية ، وينتهى بأى حرف من غير المجموعة الأولى فقط ، نحو الحرف المتحرك الأول من :

جَبَـل — سَبَـح — جَبَر — شَرَح — تَبَـعْ — كبس

٤ — الـــــكمية

وتأتى بعد ذلك موقعية الـكمية التى ترتبط بأبواب ثلاثة رئيسية فى اللغة ونعنى بالـكمية الطول والقصر فى المقـاطع والحروف الصحيحة وحروف العلة وغالباً ما تستعمل كلمة الطول بدل اصطلاح الـكمية وهما مفهومان من مفهومات التشكيل يقصد بهما باب تشكيلى من أى لغة يعينها . فالـكمية إذاً فـكرة تقسيمية تجريدية لا أكثر ولا أقل ثم هى لا ترتبط بالزمن الفلسفى أكثر مما يرتبط به شكل الفعل المـاضى والمضارع . أما المدة فهى اصطلاح أصواتى لا تشكيلى يقاس بوســائل ميكانيكية ويدخل فى مفهوم الزمن ويمكن استخراجه من المسافة كما يستخرج من

السطوح التوقيتية كيناء الساعة وخط الذبذبة على سطح الورقة وهلم جرا . والكميات والأطوال المختلفة مفهومات اعتبارية فالطويل طويل بالنسبة لما هو أقصر، والقصير قصير منسوباً إلى ما هو أطول ، ولكن الوقت عامل من عوامل فهم المدة. فإن المدة تقاس فى علم الأصوات بواحد على مائة من الثانية، والمدة تنسب إلى الصوت والكمية تنسب إلى الحرف والمقطع . والمدة والكمية يتفقان ويختلفان فليس من الضرورى أن يكون الحرف المشدد وهو أطول كمية من المفرد أطول مدة فى نطق صوته من الحرف المفرد . وهذا الفرق الأخير يوضح الاختلاف بين الكمية والمدة توضيحاً تاماً .

والذى نستطيع أن ندرسه هنا هو الكمية لا المدة ، ذلك بأن دراسة المدة فى اللغة الفصحى تتطلب من الوسائل الميكانيكية ما لا نملكه الآن ويؤسفنى أن أقول إن جامعة القاهرة لم تتنبه إلى الآن إلى وجوب إنشاء معامل لهذا النوع من الدراسات على ما له من خطورة فى الخارج الآن من الوجهتين النظرية والعملية على السواء . ولكننى أستطيع أن أذكر خلاصة دراستى للمدة فى لهجة عدن بعد الاستعداد لها بتجارب كيموغرافية ومقارنة نتائج هذه التجارب وقياس ذبذباتها فى معمل معهد اللغات الشرقية بلندن . والخلاصة أن النتيجة النهائية لهذه التجارب هى ما يأتى :

١ — أطول الأصوات مدة هو المشدد الساكن فى آخر المجموعة الكلامية كالدال فى مدّ .

٢ — ويليه فى ذلك المفرد الساكن الأخير فى المجموعة الكلامية كالدال فى بعيد .

٣ — ثم يليه المشدد فى وسط المجموعة الكلامية كالدال فى أدّب .

٤ — ثم يليه ما تبتدىء به المجموعة كالدال فى دخل .

٥ — ثم يليه ما تحرك بعد ساكن ولم يكن آخراً كالدال فى يهدم .

٦ — ثم يليه ما وقع ساكناً قبل الأخير الساكن فى المجموعة الكلامية كالدال فى هدّمْ .

٧ — ثم يليه ما وقع ساكناً قبل المتحرك فى الوسط وهو المقصود بالموضع رقم ٥ كالدال فى يدخل .

٨ — وأقصر الجميع مدة ما وقع بين صوتى علة كالدال فى هدَم .

ومن هذا ترى أن بعض الأصوات المفردة أطول مدة فى النطق من بعض الأصوات المشددة وهذا يوضح لك الفرق بين المدة وبين الكمية .

أما الكمية فى المقطع فقد سبق أن ذكرنا أن المقاطع العربية ستة منها قصيران ومتوسطان وطويلان وقلنا إن من القصيرين مقفلا ومفتوحاً ومن المتوسطين كذلك ومن الطويلين مقفل ومزدوج الإقفال وأوردنا صور المقاطع كما يأتى :

ع ص — ص ع — ص ع ص — ص ع ع — ص ع ع ص — ص ع ص ص .

وأما الكمية فى الصحاح فكلنا يعرف المفرد والمشدد ويعلم أن المشدد أطول كمية من المفرد بل يعلم فوق ذلك أن الحرف المشدد بحرفين وأما فى العلل فكلنا يعرف الفرق بين الحركة والمد ويعلم أن المد أطول من الحركة .

كل هذه الكميات تقسيمية نظرية لتكوين النظام اللغوى وإيجاد علاقات بين أقسامه وأقسام أقسامه فلا يقصد بها رواية شىء عن الزمن الفلسفى كما يقصد ذلك حين ذكر مدة النطق أو كما يطلق عليها اصطلاحاً (المدة) .

ولست أدرى إن كان يحق لى أن أقول إن لفظى المجرد والمزيد الصرفيين من اصطلاحات الكمية ولكننى أحب أن ألاحظ ملاحظة عابرة أن المفروض فى المجرد أن يكون أقصر من المزيد مع أننى لست أجد هذا فى يُكرم ويُضرب .

٥ - النـــبر

كلنا يدرك أن الكلمات التى نتكلمها من أصوات متتابعة ينزلق كل تابع منها من سابقه . وليست هذه الأصوات فى الكلمة بنفس القوة وإنما تتفاوت قوة وضعفاً بحسب الموقع . وكون صوت من الأصوات فى الكلمة أقوى من بقيتها يسمى النبر . فالنبر إذاً موقعية تشكيلية ترتبط بالموقع فى الكلمة وفى المجموعة الكلامية . وَحَدُّهُ أنه وضوح نسبى لصوت أو مقطع إذا قورن ببقية الأصوات والمقاطع فى الكلام ويكون نتيجة عامل أو أكثر من عوامل الكمية والضغط والتنغيم . فالضغط لايسمى نبراً ولكنه يعتبر عاملا من عوامله ومع هذا فإنه يعتبر أهم هذه العوامل . وربما كان ذلك لأن النبر يعرف بدرجة الضغط على الصوت أكثر مما يعرف بأى شئ آخر أو لأن الضغط فى صورتيه صورة القوة وصورة النغمة يتسع مجال تطبيقه على النبر أكثر مما يتسع مجال العوامل الأخرى . ويعتبر سويت [1] الضغط مما يرتبط بالتركيب لا بالتحليل وذلك لأنه نسبى دائماً ويفيد المقارنة باستمرار إما بين مجموعتين مختلفتين من الأصوات وإما بين جزئين مختلفين من مجموعة واحدة . أما من الناحية العضلية فالضغط مجهود يخرج به الهواء من الرئتين وكل دفعة منه يصحبها إحساس عضلى لهذا السبب وأما من الناحية الصوتية فإنه ينتج أثراً يعرف بالعلو يتوقف على مدى الموجات الذبذبية التى تسبب الإحساس بالصوت . واستعمال سويت لكلمة التركيب يسوقنا إلى فهم معنى الموقعية من كلامه .

والكـلمات تركـيبات من أنســاق صــوتية لها نظامها النبرى الخــاص المســتقل عن نظام النبر فــى الأنســاق الكــبرى (الجمـل والمجموعات الكلامية) . والواقــع أن النبر فى الكــلمات العربيــة من وظــيفة الميزان الصــرفى لا من وظيفة المثال ، فنحــن إذا تأمــلنا كلــمة « فاعل » نجد أن الفاء أوضح أصــواتها لوقــوع النبر علــيها وباعتبار هــــذه الصــيغة ميزاناً صــرفياً نجد أن كل ماجـاء على مــثالــه يقـــع عليــه النـــبر بنفــس الطـريقة مثــل قــاتــل ،

(1) Primer of Phonetics,1902 P.47

حابس ، وناقل ، ورابط ، وعازل ، وشاغل ، وضارب ، وعازم ، وخازن ، حتى
لأمر من صيغة الفاعل : كجاهد ، وسافر ، تقع فى نموذج هذا الوزن فتتلقى النبر على
اء الـكلمة ، ومثل ذلك أن صيغة مفعول وكل ما جاء على مثالها يقع النبر على عين
لـكلمة فيها ، وماجاء على وزن مستفعل يقع النبر فيه على التاء ، وهلم جرا . ومن
نا لا نـكون مبالغين إذا قلنا إن النبر فى الكلمات العربية موقعية تشكيلية وصرفية
، نفس الوقت . أما فى الأنساق الـكبرى (أو السياقات ، أو بعبارة أخرى ، الجمل
المجموعات الـكلامية) فيقع ترتيب النبر على غير المقتضات الصرفية البحتة ، بل
نه لا يرتبط بها وإن وافقها فى الظاهر . هذا النبر الذى فى السياق إنما يكون من
ظيفة المعنى العام ، أى أنه نبر دلالى . ومعنى هذا أن فى اللغة العربية نوعين من
وقعية النبر فى التشكيل الصوتى .

١ — النبر الصرفى .

٢ — النبر الدلالى .

وينقسم النبر الصرفى إلى قسمين بحسب قوة النطق ودرجة الدفعة : أولى ، وثانوى .
إنما سمى الأولى كذلك لسببين ؛ أولا لأنه أقوى من الثانوى ، وإن استعمال كلمة
لى بهذا المعنى يقتضى كلمة ثانوى بالضرورة . وثانياً لأن موضع النبر الثانوى إنما
اس مسافته فى المقاطع بالنسبة للأولى ، فإذا وضعت قاعدة المسافة بين الأولى
لثانوى بعدد من المقاطع ظهر الإيقاع اللغوى الخاص باللغة العربية . وقاعدة
بر الصرفى كما يأتى :

١ — النبر الأولى :

(ا) يقع النبر على المقطع الأخير فى الكلمة إذا كان من نوع (ص ع ع ص)
(ص ع ع ص ص) أى من النوع الطويل ، مثل قال ، استقال ، قلّ ، استقل
من النوع المتوسط فى الكلمات أحادية المقطع كفعل الأمر من قال .

(ب) ويقع على ما قبل الآخر إذا كان متوسطاً والآخر متوسطا ، سواء كان
ا المتوسط من نوع (ص ع ص) أو (ص ع ع) مثل :

علّم ـ سلّم ـ عبدك — يتوفاكم — قاتل — جوارٍ

أو كان ماقبل الأخير من نوع (ص ع) القصير مبدوءة به الكلمة أو مسبوقاً بصدر إلحاق نحو :

كتب — حسب — حرم — محترم — احبس .

(حـ) يقع النبر على المقطع الذى يسبق ما قبل الآخر إذا كان الآخر يقع مع ماقبله فى إحدى الصور الآتية :

١ — (ص ع + ص ع ص) نحو علـمك — حاسبك

٢ — (ص ع + ص ع ع) نحو علمـوا — حاسبوا — ضربك

ولا يقع النبر على مقطع سابق لهذا الأخير .

٢ — النبر الثانوى

إن مجال النبر الثانوى فى الكلمة أضيق منه فى الجملة أو المجموعة الكلامية ، ومع هذا فإن النبر الثانوى يوجد فى الكلمات ذوات المقطعين فأكثر . فالمقطع المنبور نبراً ثانوياً يمكن وجوده على مسافات محددة من النبر الأولى كما يأتى :

١ — يقع الثانوى على المقطع الذى قبل المقطع المنبور نبرا أولياً إذا كان ذو النبر الثانوى طويلا مثل ضالّين — حاجّات — مدهامّات .

٢ — ويقع على المقطع الذى بينه وبين المنبور نبراً أولياً مقطع آخر إذا كان المنبور الثانوى يكوّن مع الذى يفصل بينه وبين المنبور الأولى أحدالأنساق الآتية :

(ا) مقطع متوسط + آخر متوسط (ص ع ص) أو (ص ع ع) مثل :

علـمناه — مستبقين — يستخفون — عاشرناهم .

(ب) مقطع متوسط + مقطع قصير مثل :

مستقيم — مستعدة — صاحبوهم

٣ — ويقع على المقطع الثالث قبل المنبور نبراً أولياً إذا كانت الثلاثة السابقة

لهذا المنبور الأولى تـكوّن نسقاً فى صورة (متوسط + قصير + قصير أو متوسط) نحو :

مستحمّين — يستفيدون — ما عرفناهم — محتملوهم

ولا يقع الضغط الثانوى على المقطع الرابع السابق للمنبور الأولى فى الـكلمة

نبر السياق (أو النبر الدلالى)

ونبر السياق مستقل عن نبر الصيغة الصرفية الذى شرحناه ولو أنه يتفق معه فى الموضع أحياناً. والفرق بين الدلالى والصرفى ، أو نبر السياق ونبر الصيغة ، أن نبر السياق يمكن وصفه ، على عكس نبر الصيغة ، بأنه إما أن يكون تأكيدياً ، وإما أن يكون تقريرياً . ويمكن تلخيص الفرق بين التأكيدى والتقريرى فى نقطتين :

١ — أن دفعة الهواء فى النبر التأكيدى أقوى منها فى التقريرى .

٢ — وأن الصوت أعلى فى التأكيدى منه فى التقريرى .

وأى مقطع فى المجموعة الـكلامية ، سواء كان فى وسطها أو فى آخرها ، صالح لأن يقع عليه هذا النوع من النبر . والمسـافة بين أى حالتى نبر فى المجموعة الـكلامية ، سواء كان كلاهما أوليا أو ثانويا أو مختلفا ، لا تتعدى أربعة مقاطع .

والواقع أن هذه المسافة يتحكم فيها عامل الإيقاع فى الـكلام العادى ، ولا يظنن ظان أن النبر فى الـكلام المتصل (أو فى المجموعة الـكلامية على حسب ما نسميه هنا) يقع أوليا فثانويا فأوليا فثانويا على التعاقب فربما تجاورت حالات من الأولى أو من الثانوى دون أن يتخـللها النوع الآخر . ولـكن الملاحظ أن المسافات بين كل حالتى نبر تبدو كأنها متساوية تقريبا وهذا ما نسميـه الإيقاع وللقارىء إن شاء أن يتأمل كلامه ؛ ويحدد المسافات بين حالات النبر ، وسيجد هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح .

ولا يفوتنى هنا أن أشير إلى أن دراسة النبر ودراسة التنغيم فى العربية الفصحى يتطلب شيئا من المجازفة ذلك لأن العربية الفصحى لم تعرف هذه الدراسة فى قديمها

ولم يسجل لنا القدماء شيئاً عن هاتين الناحيتين ، وأغلب الظن أن ما ننسبه للعربية الفصحى فى هذا المقام إنما يقع تحت نفوذ لهجاتنا العامية ، لأن كل متكلم بالعربية الفصحى فى أيامنا هذه يفرض عليها من عاداته النطقية العامية الشىء الكثير . وأظن القارىء يعلم أن القرآن الكريم نفسه يختلف نطقاً ونبرا وتنغيما (وعلى الأخص فى نطق الضاد والجيم والثاء والذال والظاء والقاف والكاف) من بلد عربى إلى بلد عربى آخر اختلافا يخبر عن نسبة التباين فى هذه الناحية بين اللهجات العامية فى البلاد العربية المختلفة .

٦ — التنغيم

يمكن تعريف التنغيم بأنه ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام وربما كان له وظيفة نحوية هى تحديد الإثبات والنفى فى جملة لم تستعمل فيها أداة الاستفهام فقد تقول لمن يكلمك ولا تراه « أنت محمد » مقررا ذلك أو مستفهماً عنه وتختلف طريقة رفع الصوت وخفضه فى الإثبات عنها فى الاستفهام ولكن كل شىء فيما عدا التنغيم يبقى فى المثال على ماهو عليه ؛ ترتيب الكلمات فى الجملة ، والبناء فى الكلمة الأولى ، والإعراب فى الثانية وحركة الإعراب وحركة البناء ، والنبر الثانوى على الهمزة والأولى على الحاء . كل ذلك إذ يبقى فى الحالتين لا يصلح أساسا للتفريق بين الاثبات والاستفهام ، ولكن التنغيم هو ناحية الخلاف الوحيدة بينهما . وما دامت ناحية الخلاف هذه قادرة على أن توضح كلا من المعنيين فللتنغيم إذا وظيفة نحوية ، والوظيفة الأصواتية للتنغيم هى النسق الأصواتى الذى يستنبط التنغيم منه أما الوظيفة الدلالية فيمكن رؤيتها لا فى اختلاف علو الصوت وانخفاضه فحسب ولكن فى اختلاف الترتيب العام لنغمات المقاطع فى النموذج التنغيمى الذى يقوم من الأمثلة مقام الميزان الصرفى من أمثلته ، اختلافا يتناسب مع اختلاف الماجريات العامة التى تم فيها النطق. وليس فى العربية وظيفة معجمية للتنغيم لأن اللغة العربية لا تستخدمه بهذه الطريقة كما تستخدمه الصينية وبعض لغات غرب أفريقيا .

ويمكن تقسيم التنغيم العربى من وجهتى نظر مختلفتين ؛ إحداهما شكل النغمة

النبورة الأخيرة فى المجموعة الكلامية والثانية هى المدى بين أعلى نغمة وأخفضها سعة وضيقا فأما من الوجهة الأولى فينقسم إلى قسمين :

١ — اللحن الأول الذى ينتهى بنغمة هابطة .

٢ — اللحن الثانى الذى ينتهى بنغمة صاعدة أو ثابتة أعلا مما قبلها .

وأما من الوجهة الثانية فينقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ — المدى الإيجابى :

٢ — المدى النسبى .

٣ — المدى السلبى .

فمجموع التقسيمات إذا يقع فى ستة نماذج تنغيمية مختلفة ، هى كل ما فى اللغة العربية من نماذج التنغيم ، وتقف من أمثلتها التى تحصى موقف الميزان الصرفى من من أمثلته كما قلنا سابقاً . حتى إننا لنستطيع أن نسميها الموازين التنغيمية ؛ كما سمينا الموازين الأخرى صرفية . هذه الموازين الستة هى :

١ — الإيجابى الهابط .

٢ — الإيجابى الصاعد .

٣ — النسبى الهابط .

٤ — النسبى الصاعد .

٥ — السلبى الهابط .

٦ — السلبى الصاعد .

لقد وقعت على هذا التقسيم فى دراستى للهجة عدن ، وحاولت بعد ذلك أن أطبقه على اللغة العربية الفصحى ، فوجدته وافيا بالغرض . وهذا التقسيم يختلف عن التقسيم التقليدى الذى يستعمله الباحثون اللغويون ، فيبنونه على قسمين أحدهما مؤكد والثانى غير مؤكد . ولكن التأكيد من الأفكار الذهنية ؛ ويجب نحن أن

تقيم الدراسة اللغوية على أساس الشكل والوظيفة . والتأكيد كفكرة ذهنية يكون فى الإيجابى كما يكون فى السلبى من هذه المديات ، فكما يؤكد المرء بالصوت العالى يؤكد أيضا بالصوت المنخفض جدا .

ويكتب التنغيم كما تكتب الموسيقى على خطوط أفقية ؛ ولكن عدد الخطوط هنا ليس خمسة كما فى الموسيقى، وإنما يختلف باختلاف عدد المديات ؛ فيجعل لكل مدى مسافة بين خطين . والمديات هنا ثلاثة ؛ فيلزم أن نستعمل فى كتابتها خطوطا أربعة تحصر بينها مسافات ثلاث ، سفلاها لكتابة المدى السلبى، وهى ومافوقها لكتابة المدى النسبى ، والثلاث جميعا لكتابة المدى الإيجابى الذى هو أوسع هذه المديات الثلاثة .

ونفرق هنا عمدا بين اصطلاحى النغمة واللحن . فأما النغمة فنقصد بها تنغيم المقطع الواحد فى عموم المجموعة الكلامية فتوصف هذه النغمة بأنها صاعدة أو هابطة أوثابتة ونقصد باللحن مجموع النغمات التى فى المجموعة الكلامية أى الترتيب الأفقى للنغمات التى يشتمل النموذج أوالميزان عليها مع نظرة خاصة إلى النغمة المنبورة الأخيرة من هذا الترتيب . فالميزان إذا أعم من اللحن والمدى ويشملهما جميعا فى الفهم .

ولا يجب أن يفهم القارىء الاصطلاحات « إيجابى » و « نسبى» و«سلبى » بمعناها فى المعجم . فالاصطلاحات بطاقات لمدلولاتها العلمية التى لا تتطابق كثيرا مع المعنى المعجمى العام . ويستعمل المدى الإيجابى فى الكلام الذى تصحبه عاطفة مثيرة .

ولتحديد هذا تحديدا أكثر ضبطا نقول: إن الكلام بهذا المدى تصحبه إثارة أقوى للأوتار الصوتية بإخراج كمية أكبر من الهواء الرئوى ، باستعمال نشاط أشد فى حركة الحجاب الحاجز .

وهذا أكثرضبطا من استعمال تعريف مبنى على الدراسات النفسية لأن علم النفس

باعتباره علما مساعدا من أقل العلوم فائدة فى الدراسات اللغوية .

ويستعمل المدى النسبى فى الكلام غير العاطفى وتفهم سعة المدى وضيقه فى محدودية المدى التنغيمى العام فى اللغة المدروسة ، أى المدى الذى بين أعلى وأخفض نغمة كلامية تستعمل فى المحادثة وذلك . لأنه ليس هناك سعة مطلقة وضيق مطلق بل كل شىء فى هـذا المجال نسبى : وأما المدى السلبى فيستعمل فى الكلام الذى تصحبه عاطفة تهبط بالنشاط الجسمى العام كالحزن مثلا .

وأما كتابة النغمات نفسها فكما يأتى :

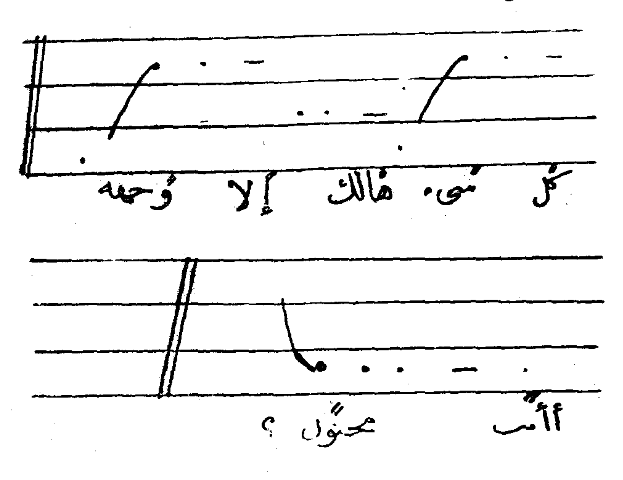
١ — النغمة الهابطة ولا تكون إلا على مقطع منبور

٢ — النغمة الصاعدة ولا تكون إلا على مقطع منبور

٣ — النغمة الثابتة إذا كانت منبورة —

٤ — النغمة الثابتة إذا لم تكن منبورة .

وإليك مثالا من هذه الكتابة :



ولعل القارىء لا يحتاج إلى النص على أن النغمة الهابطة والصاعدة لابد أن تصاحب النبر فى المقطع أما النغمة الثابتة فقد تكون فى مقطع منبور أو غير منبور كما يمكن رؤية ذلك فى الأمثلة الواردة .

لقد تكلمنا من قبل فى توضيح المعنى الاصطلاحى للمجموعة الـكلامية ، وقلنا إنها سلسلة من الأصوات اللغوية المتصلة فى نفس واحد واقعة بين سكتتين وهى بهذا التحديد قد تـكون جملة أو كلمة. ونريد الآن أن نتكلم عن اصطلاح آخر، هو المجموعة المعنوية . يعلم القارىء أنه فى إلقاء جملة شرطية يستطيع المرء أن يقسم هذه الجملة على تنفسين ، يتكلم فى أولهما فعل الشرط ، وفى الثانى جوابه وجزاءه ويمكن أن يفعل ذلك فى الجملة المصدرة بأما ، وفى الجملة الطويلة التى لا يمكن أن تقال جميعها فى تنفس واحد . يقسم المرء الجـملة إلى أجزاء يقول كلا منها فى تنفس مستقل ٠ وعادة تقطيع الجملة عادة ضرورية فى المسرح يزاولها الممثلون على يد المخرج قبـل التمثيل الفعلى .

وفى كل جملة مقسمة على هذا النمط ، يعتبر كل جزء منها مجموعة كلامية مستقلة ، لأنه يقع بين سكتتين . ولـكن هذه المجموعات الـكلامية مترابطة من جهة المعنى، وقد لا يقوم كل منها مستقلا عن المجموعات الأخرى ، دون أن يكون ذلك على حساب المعنى . تصور مثـلا أنك اكتفيت بجملة الشرط عن جوابه ، أو بمـا بعد فائها الواقعة فى الجواب . أو بالمبتدأ الموصوف بصلة عن خبره الجملة ألا يكون كل ذلك نقصا فى المعنى ؟ إن المجموعات الـكلامية الترابطة من جهة المعنى بهذه الصورة تـكون فى مجموعها مجموعة معنوية . فالمجموعة المعنوية إذا اصطلاح لغوى عام ، والمجموعة الـكلامية اصطلاح أصواتى معناه يتصل بالدراسات الطبيعية التى منها التنفس وقد تـكون المجموعة الـكلامية مجموعة معنوية ، كما فى محمد قائم ، إذا تمت الإفادة ، وقد لا تـكون ، كما فى إن قام محمد ، لأن الإفادة لا تتم عند هذا الحد ، برغم كون إن قام محمد مجموعة كلامية .

نخلص من هـذا بأن الـكلام قد يتم فيكون مجموعة معنوية وهو فى نفس الوقت مجموعة أو مجموعات كلامية . ولا بد للمجموعة المعنوية من أن تنتهى بنغمة هابطة فى التقرير والطلب والاستفهام غير المبدوء بهل والهمزة . أما فى الاستفهام المبدوء بهل والهمزة ، وفى المجموعة الـكلامية التى لم يتم بها المعنى ، فالنغمة النهائية

صاعدة أو ثابته ، أعلى مما قبلها . هده قاعدة عامة نقدمها بين يدى دراسة النماذج التنغيمية المختلفة .

أما ترقيم التنغيم فكترقيم الكتابة ، تحمل العلامة فيه من الكتابة محل الشهيق لاسترجاع النفس من الكلام ؛ وكلما جاءت سكتة وجب وجود علامة ترقيمية . وفى التنغيم علامتان ترقيميتان ، إحداهما خط رأسى واحد ، ليدل على وقفة مع عدم تمام الكلام ، وثانيتهما خطان رأسيان ، ليدلا على تمامه .

ويستعمل النموذج الإيجابى الهابط فى تأكيد الإثبات كقولك فى جواب من أنكر أنه هو الذى قام بفعل معين: أنت فعلت هذا أى لا غيرك ، أو ادعى أنه فعل شيئاً غيره أنت فعلت هذا أى لا الآخر بجعل النبر والتأكيد فى الجملة الأولى على الضمير ، وفى الثانية على اسم الإشارة ، مؤكدا النبر فى الحالتين وهابطا بالنغمة المنبورة من أقصى علو المدى . ويستعمل أيضاً فى تأكيد الاستفهام بكيف وأين ومتى وبقية الأدوات فيما عدا هل والهمزة . أما إذا كان الاستفهام بهل أو الهمزة ، فإن النموذج المستعمل فى التنغيم هو الإيجابى الصاعد .

وللإثبات غير المؤكد يستعمل النسبى الهابط ، ومن ذلك التحية والكلام التام وتفصيل المعدودات والنداء وماعبر به عن فكرة مكملة لكلام سابق مباشرة كما فى «لقد قابلت أخاك ... على دراجته » والاستفهام بغير هل والهمزة ، أما إذا كان الاستفهام بهل والهمزة ، أو بلا أداة أبدا فالمستعمل النسبى الصاعد .

ويستعمل السلبى الهابط فى تعبيرات التسليم بالأمر نحو لاحول ولا قوة إلا بالله . وعبارات الأسف والتحسر وكل ذلك مع خفض الصوت فإذا كان الكلام تمنياً أو عتاباً فالمستعمل السلبى الصاعد المنتهى بنفحة ثابتة أعلى مما قبلها .

والفرق بين الثلاثة مديات (الإيجابى والنسبى والسلبى) فرق فى علو الصوت وانخفاضه ، فالإيجابى أعلاها والسلبى أخفضها وبينهما النسبى .

وكم أجد فى نفسى أمنية حارة أن ينظم المجمع اللغوى دراسات للتنغيم تنتهى بخلق مستوى صوابى موحد للقراءة والإلقاء فى البلاد العربية كلها ، حتى لاتكون

العربية الفصحى خاضعة فى كل إقليم للعادات النطقية العامية ، وحتى لايجد العربى غرابة فى إلقاء أخيه العربى ، فيكون أقدر على فهمه .

منهـــج الصرف

المورفـــيم

بعد أن انتهينا من شرح العناصر الصغرى التى يتكوّن منها الكلام تحت عنوان الأصوات ، وشرحنا علاقاتها وسلكناها فى نظام خاص أو نظم خاصة تحت عنوان التشكيل ، نريد الآن أن نتناول بالتحليل عناصر أخرى أكبر من من هذه ، تحت عنوان آخر هو الصرف ، أو البنية ، أو مايطلق عليه الاوربيّون « Morphology » . ومن طبيعة هذه الدراسة أن تتناول الناحية الشكلية التركيبية للصيغ والموازين الصرفية ، وعلاقاتها التصريفية من ناحية ، والاشتقاقية من ناحية أخرى . ثم تتناول ما يتصل بها من ملحقات ، سواء كانت هذه الملحقات صدوراً ، أو أحشاء ، أو أعجازاً .

ويدور على الألسنة اصطلاح هام فى الدراسة الصرفية ، هو الوحدة الصرفية ، أو المورفيم « Morpheme » ، يغمض المراد به على كثير من الباحثين فى اللغة ، حتى ليخلطون فى تفسيره وتطبيقه خلطا كبيرا . ولعل ممن وضحوا المعنى التقليدى لهذا الاصطلاح ڤندريس Vendryes [1] . فالمورفيمات فى اعتباره عناصر صرفية . تربط بين الأفكار التى يتكون منها المعنى العام للجملة ، وهذه الأفكار واضحة فى السيمانتيمات « Semanteme » ، أو نواة المعنى المعجمى .

ورأيه فى ذلك أن الجملة تحتوى نوعين من العناصر ؛ تعبيرات عن أفكار ، وعلامات على الارتباط بين هذه التعبيرات . فإذا قلنا : « الحصان يجرى » كان لنا فكرتان : الحصان ، والجرى . ثم نوحد بين الفكرتين فى الجملة المذكورة ؛

---

(1) Language, p. 73.

ونحن نفكر دائما فى صورة جُمَل ، ونفرض أن العملية الذهنية التى تربط بين عناصر الجملة تتم فى العقل مع العملية التى تربط بين الفاعل والفعل فى حدود معينة.

هذه العملية الذهنية التى يفرضها الاستعمال اللغوى تشمل عملين متعاقبين ، التحليل والتركيب . وفى الأول يميز الذهن بين بعض العناصر التى تربط الصورة العامة بينها ، وفى الثانى يوحد الذهن بينها من جديد ، ليكون منها صورة نطقية . هذه العملية الثانية هى التى تهم علماء اللغة ، لأن اختلاف اللغات ينبنى على اختلاف هذه العملية فى الأذهان .

دعنا نفرض إذاً أن العقول الإنسانية المختلفة تجرب أثرا نظريا متحدا للحصان الجارى ، وتحلل بنفس الطريقة تلك العناصر التى تكون الصورة ، وتنشىء نفس العلامة بين الحصان وبين الجرى . إذا تم هذا فسيكون التعبير عن هذه العلاقة مختلفا باختلاف اللغة ، لأن الصور اللفظية سيتم تأليفها بطرق مختلفة .

فالسيمانتيم فى هذه الصورة عنصر لغوى يعبر عن الفكرة التى فى الذهن ، كفكرة الحصان ، وفكرة الجرى ، والمورفيم هو العنصر الذى يعبر عن العلاقة بين هذه الأفكار . ففكرة الجرى ترتبط هنا ارتباطا عاما بالحصان ، عبر عنه بصيغة الغائب . فالمورفيمات تعبر عن العلاقات بين السيمانتيمات ، وهذه الأخيرة عناصر موضوعية من الأفكار . فالمورفيم فى عمومه عنصر أصواتى (صوت أو مقطع أو عدة مقاطع) يدل على العلاقات بين الأفكار فى الجملة .

ويورد مثالا من اللغة العربية الفصحى ، هو زيد يقتل ، ليدل على أنه من غير المهم أن يكون المورفيم متصرفا أو غير متصرف . فيقول : إن هذا المثال إذا أريد به أن يدل على الاستمرار فى الماضى ، فإن فعلا ماضيا يجب أن يسبق هذا الفعل المضارع ويتم التصريف فى كليهما على النحو الآتى :

كنت أقتل ،
كنتَ تقتل ،
كنتِ تقتلين ،
كان يقتل ،
كانت تقتل ، وهلم جرا .

ويقول إن هاتين الصيغتين تحسان دائما صيغة واحدة ، حتى لو توسط اسم بينهما ، كما فى « كان زيد يقتل » . وأولاهما مورفيم بسيط ، أما الثانية فسيمانتيم ، لأن الأولى تدل على علاقة ، والثانية تدل على فكرة .

أما فى اصطلاح هذا الكتاب فيجرى التفريق بين كلمات ثلاث يتصل بعضها ببعض ، أولاها « باب » والثانية « مورفيم » والثالثة « علامة » .

١ — « الباب » اصطلاح من علم اللغة العام ، له معنى العموم لا الشمول .

وهو ، إذا صح أن نستعمل اصطلاحات دى سوسور ، يستعمل بالنسبة إلى اللغة المعينة ، ثم هو وسيلة تقسيمية لا يمكن التعبير عنها على النمط الوجودى ، فلا ننسب له وجودا خارجيا ، ويمكن إنشاء نظام من الأبواب فى اللغة ، يعبر عن كل باب منه مورفيم معين .

٢ — والمورفيم اصطلاح تركيبي بنائى ، لا يعالج علاجا ذهنيا غير شكلى ، إنه ليس عنصرا صرفيا ، ولكنه وحدة صرفية فى نظام من المورفيمات المتكاملة الوظيفة . وكل نظام من المورفيمات ، له علاقة بنظام الأبواب ، لا يمكن فى اللغة العربية أن يعبر عنها كالتعبير عن علاقة واحد إلى واحد . أى أنه لا يلزم أن يقابل كل باب فى نظام الأبواب ، مورفيم فى نظام المورفيمات . وربما كان ذلك ممكنا فى اللغة التركية مثلا . وكل كلمة طائفة من المورفيمات المتراصة ، أى طائفة من الوحدات من نظام مورفيمى لا يمكن دائما أن تعبر عنه علامات وعناصر صرفية .

٣ — والعلامة هى العنصر الذى يعبر عن المورفيم تعبيرا شكليا ، وتوجد فى النطق . وهى إما أن تكون عنصرا أبجديا أو فوق الأبجدى ، بمعنى أنها تكون فى شكلها كمية أو نبراً أو تنغيما ، ويعبر عنها إما إيجابيا بوجودها ، أو سلبيا بعدمه ، إذ ربما يكون هناك ما يسمى « العلامة صفر » . أو الصيغ الصرفية ، وحركات الإعراب ، والإلحاقات ، وهلم جرا تكون نظاما من العلامات لنظام من المورفيمات ، يعبر عن نظام من الأبواب ، يتكون منه الصرف والنحو

العربيين . إن علاقة العلامة بالمورفيم أشبه ما تكون بعلاقة الصوت بالحرف ، وعلاقة المورفيم بباب مثل علاقة الحرف بما ارتبط معه فى مخرج تقسيمى واحد ، وعلاقة الباب بنظام الأبواب كعلاقة طائفة من الحروف مرتبطة بمخرج تقسيمى واحد بالأبجدية التشكيلية بصفة عامة .

وإذا أردنا التمثيل للترابط بين هذه الاصطلاحات الثلاثة ، نقول مثلا : إن باب الفاعل يعبر عنه مورفيم خاص هو الاسم المرفوع ، وعلامته محمدٌ مثلا .

فالجملة المنطوقة تتكون من نسق من العلامات الصرفية ، بينها الترتيب والتوافق .

وفى الصرف مورفيمات لها أسماء خاصة ، كالطلب ، والصيرورة ، والمطاوعة والتعدى واللزوم ، والافتعال ، والتكسير ، والتصغير ، والوقف ، وهلم جرا تعبر عنها على الترتيب علامات هى : استفعل ، وانفعل ، وأفعل ، وفَعّل ، وافتعل ، وصيغ التكسير ، والتصغير ، وعدم الحركة . فالطلب فى الصرف مورفيم ، وفى النحو والبلاغة باب ، وصيغته علامة صرفية . ومثل ذلك يمكن أن يقال فى البقية .

الصيغة

والصيغة بالنسبة إلى المورفيم علامة ، وبالنسبة إلى أمثلتها المختلفة ميزان صرفى ؛ فلها هذان النوعان من التسمية . وهى بالاعتبار الثانى ملخص شكلى لطائفة من الكلمات ، تقف منها موقف العنوان من التفصيل الذى تحته . ثم إنها باعتبارها علامة لا بد لها أن تدل على معنى خاص هو معنى المورفيم ، غير أن هناك فرقا بين معنى العلامة الصرفية التى هى الصيغة ، وبين معنى الكلمة التى هى المثال ؛ فالمعنى الأول وظيفى ، والثانى معجمى . وأنا إن أخرت الكلام عن تعريف الكلمة وما يحيط بها من نقاش إلى ذكر منهج المعجم ، أجدنى مدفوعا هنا إلى أن أناقش معنى الصيغة ، وإلى شرح معنى الوظيفية فيه .

خذ مثلا صيغة « فَاعَلَ » تجد لها معنى وظيفيا خاصا هو المورفيم ، ويسميه الصرفيون المشاركة . أضف إلى ذلك أن هذه الصيغة لا بد لها أن تكون صيغة فعلية ، وهذا جزء آخر معناها الوظيفي . ثم زد عليه أنها بشكلها الحاضر تتخذ ميزانا صرفيا لما أسند إلى الغائب من هذا الفعل الذى يدل على المشاركة ، وهذا جزء ثالث من معناها الوظيفي أيضا . ثم هى بتحديدها الشكلى وبناء وسطها وآخرها على الفتح ، مغايرة تمام المغايرة لصيغة اسم الفاعل ، ولصيغة الأمر منها ، وهذا جزء سلبي من المعنى . فأنت ترى أننا لم نتعرض للمعنى المعجمى العرفى الذى فى قاتل ، وجادل ، وناضل ، وحاسب ، وما إلى ذلك من أمثلتها التى توجد معانيها المعجمية مفصلة فى القاموس ؛ فالمعنى الوظيفى نحوى صرفى ، والمعنى المعجمى عرفى واجتماعى إلى حد ما ، وإنما نقول إلى حد ما لأن الصفة الاجتماعية لا تتم إلا فى المعنى الدلالى ، الذى يكشف عنه تحليل الحدث الكلامى ، وسيأتى الكلام عن ذلك فى منهج الدلالة .

ولكن الصيغة الصرفية قد لا تكون بمفردها كافية للدلالة على المورفيم ، لوجود الغموض فيها ، فهى إذا فى حاجة إلى المثال ليوضح ما فيها من غموض .

خذ مثلا صيغة « فَعْل » تجدها مشتركة بين الصفة المشبهة ، وبين المصدر ، وتجد من أمثلتها « شهم » ، و « ضرب » فإذا وقع الغموض فى الصيغة هنا ، فلن يقع فى الأمثلة ، لأن هذه الأمثلة إما أن تكفى بمفردها لشرح معنى الصيغة ، كالمثالين المذكورين ، وإمّا ألا تكفى كما فى عَدْل التى تصلح لمعنى الصفة ، كما تصلح لمعنى المصدر . فإذا جاء هذا الغموض فى المثال كما جاء فى الصيغة ، اضطررنا إلى الاستعانة بوسيلة نحوية فى تحديد معان صرفية ، تلك الوسيلة النحوية هى السياق . ومثل ذلك يقال فى صيغة فعيل ، التى تأتى صفة مشبهة ، ومصدرا وبمعنى اسم الفاعل واسم المفعول ، وفِعَال ، التى تأتى صيغة لمفرد ، ككتاب ، وجمع ، ككلاب ، ولمصدر ، كقتال . ولا يطعن ذلك أبدا فى بحدودية المعنى الوظيفى للصيغة ، لأن هذا المعنى بحكم تسميته وطبيعته إنما يكون فى تحليل السياق ؛ والسياق كما قلنا إحدى الوسائل التى يلجأ إليها أخيرا فى إيضاح هذا المعنى ، وإذاً فما دام هذا هو الحال فلن يغمض على الفهم معنى وظيفى لغوى أبدا .

والصيغة باعتبارها علامة على المورفيم لا يدخلها الإعلال ، أما باعتبارها ميزانا صرفيا فهو يدخلها . « فالاستقامة » مثال من أمثلة علامة « الاستفعال » الدالة على مورفيم الطلب أو الصيرورة ، ولكنها على وزن استقالة ، وهذا هو الفرق بين اعتباريها المختلفين . و« بع » مثال من أمثلة افعِل ، شأنها فى ذلك شأن « اضرب » ، و« اجلس » ، و« احبس » ، ولكنها على وزن « فِلْ » . ومن أمثلة هذه الصيغة أيضا « قِ » ، و« عِ » ، ولكنهما على وزن « عِ » . ومن هذا يتضح أن تفريق بين الاعتبارين تفريق مقصود ، لأن كلا منهما ذو مهمة خاصة فى تقرير حقائق البنية اللغوية الصرفية .

وتدخل الصيغة فى الجدول كما تدخل الأمثلة ؛ فنحن نستطيع أن نصرف الصيغة من غير الاستعانة بأمثلتها ، وهذه خاصة من خواص اللغة العربية ، وربما كانت فى اللغات السامية أيضا . مثال ذلك :

أنا	افتعلتُ	أفتعل	
نحن	افتعلنا	نفتعل	
أنتَ	افتعلتَ	تفتعل	افتعل
أنتِ	افتعلت	تفتعلين	افتعلى
أنتما	افتعلتما	تفتعلان	افتعلا
أنتم	افتعلتم	تفتعلون	افتعلوا
أنتن	افتعلتن	تفتعلن	افتعلن
هو	افتعل	يفتعل	
هى	افتعلتْ	تفتعل	
هما	افتعلا	يفتعلان أو تفتعلان	
هم	افتعلوا	يفتعلون	
هن	افتعلن	يفتعلن	

ومثل هذا يمكن أن يتم مع كل صيغة من صيغ الأفعال ، فيكون نتيجة ذلك تصريفا فى داخل مورفيم الافتعال ، بحسب اختلاف الضمائر الشخصية ، التى يعبر كل منها عن مورفيم آخر هو التكلم أو الخطاب أو الغيبة ، مع مورفيم الإفراد أو التثنية أو الجمع .

واكتفاء الصرف بالصيغة ، كاكتفاء الأصوات بالصوت ، واكتفاء التشكيل بالحرف والمقطع ، استكفاء فرضه التحليل . وإلا فليست هذه إلا مفهومات منهجية ، لا تعبيرات باللغة .

ونحن لا نتكلم أصواتا ، ولا حروفا ، ولا مورفيمات ، ولا صيغا ، وإنما نتكلم جملا مفيدة مركبة من هذه الأجزاء التحليلية ، التى يعتبر النظر المنهجى مسئولا عن أكثرها ، حيث يخلقها باعتبارها وسائل تقسيمية ، أو أدوات لتناول مادة اللغة تناولا ينبنى على منهج خاص . فالصيغة جزء من المنهج لا من اللغة نفسها ، وإنك تقول « خرج محمد بالأمس » فتتكلم على شرط اللغة ؛ ولا تقول « فَعَل مُفَعَّل بالفَعلْ » ، لأن هذا ليس من اللغة .

واللغة العربية محظوظة جدا بوجود هذه الصيغ الصرفية ، لأن هذه الصيغ تصلح لأن تستخدم أداة من أدوات الكشف عن الحدود بين الكلمات فى السياق . ويشكو معظم لغات العالم من عدم وجود مثل هذا الأساس الذى يمكن به أن تحدد الكلمات .

والباحثون فى لغات غير لغاتهم جديدة عليهم يعانون التعب والمشقة اللذين يجدونهما فى سبيل هذا التحديد ، فيعمدون إلى كل الوسائل الممكنة يستخدمونها فى هذا الغرض ، ويظهر القسر والعسف فى استخدامها واضحا . فأما اتخاذ الصيغة الصرفية أداة من أدوات خلق الحدود بين الكلمات فى السياق ، فميزة للغة العربية من كبريات ميزاتها التى تفاخر بها . وسنذكر فى تعريف الكلمة الذى سنورده فى منهج المعجم بعض الوسائل التى يتذرع الباحثون بها فى هذا السبيل .

وتساعد الصيغة فى الأعم الأغلب على تحديد الباب أيضا ، ذلك لأن معناها

الوظيفى هو المورفيم ، والمورفيم نفسه تعبير عن الباب ، فكأن الباب أحد معانى الصيغة غير المباشرة . ومعنى هذا الكلام أننا إذ أخذنا « فَاعَلَ » فسنجد كل ماعلى مثالها داخلا فى باب الفعل الماضى الذى يدل غالبا على المشاركة ، (نقول غالبا احترازا من «سافر») ؛ فالصيغة هنا دلت على النسبة إلى قسم من أقسام الكلام ، وهذه ميزة من ميزات اللغة العربية أيضا ، واعتماد هذه الدلالة هى ما يسميه علماء اللغة بالتحديد الجراماطيقى « Grammatical Designation » . وإذا لم تدل الصيغة بنفسها على هذا التحديد ، يبقى مثالها محايدا من الناحية الجراماطيقية (وقد مثلنا لهذه الحالة بكلمة « عدل ») ، حتى يوجد ما يحدده ويوضح معناه الجراماطيقى .

ولكن الصيغة فى اللغة العربية تعجز عجزا تاما عن أن تشمل طائفة كبيرة من العناصر اللغوية غير الخاضعة للاشتقاق كالضمائر ، والأدوات .

ويلاحظ أن معانى هذه العناصر جميعها غير محدودة من الناحية المعجمية ، محدودية الكلمات ذات الصيغ الصرفية . وهذا هو الذى دعى برتراندرسل(١) إلى أن يسمى بعض هذه العناصر « خواص مركزية شخصية » حيث يقول : « إننى أسمى الكلمات التى يختلف معناها باختلاف المتكلم ووضعه فى الزمان والمكان «خواص مركزية شخصية» والأسس الأربعة لهذا النوع هى أنا ، وهذا ، وهنا ، والآن » .

الاشتقاق

لاحظ علماء اللغة أن إرتباطا معينا يوجد بين الكلمات من جهة اللفظ والمعنى ، فقالوا بوجود ارتباط وضعى بين هذه الكلمات . ولقد جذب انتباههم من هذا ما يأتى : —

١ — أن الكلمة العربية ذات أصول ثلاثة ، يعبر عنها فى الميزان الصرفى بفاء الكلمة وعينها ولامها ، وأنها تأتى مرتبة بهذا الترتيب .

---

(1) Human knowledge p. 100.

٢ — أن الكلمات العربية تأتى على هيئات صرفية معينة تسمى الصيغ ، وأن الخلاف بين الكلمات من الناحية التركيبية هو فى الواقع اختلاف بين هذه الصيغ .

والارتباط الذى قال به النحويون والصرفيون بين الكلمات المتحدة الأصل المختلفة الصيغة ، ارتباط لفظى أولا ، ومعنوى ثانيا . أما لفظى فلأن حروف الأصل توجد فى الصيغتين المترابطتين بنفس الترتيب ، وإن اختلف الهيكل العِلّى فى كلمة عنه فى الأخرى ، فلابد إذاً أن ترد الكلمتان إلى أصل واحد . وأما معنوى فلأن الملاحظ أن الكلمتين اللتين توصفان هذا الوصف تعبران عن معنى عام واحد تختلفان فى دائرته ، كما تختلف الصيغتان ، لا كما تختلف المادتان المعجميتان. فلابد إذاً أن تُرد هاتان الكلمتان إلى مادة واحدة .

ويلاحظ هنا أن الاختلاف اللفظى صرفى ، وأن الاختلاف المعنوى معجمى. فإذا اغتفر استعمال علم المعجم فى تحديد المفهومات الصرفيــة ، أمكن القول بأن الاشتقاق « رد لفظ إلى آخر لموافقته إياه فى حروفه الأصلية،ومناسبته له فى المعنى ».

ويرى بعض العلماء تقسيم الاشتقاق إلى صغير وكبير وأكبر . ويقول ابن جنى إن الصغير « مافى أيدى الناس وكتبهم كأن تأخذ أصلا من الأصول فتقرأه فتجمع بين معانيه وإن اختلفت صيغه ومبانيه وذلك كتركيب (س ل م) فإنك تأخذ منه معنى السلامة ، فى تصرفه نحو سلم ويسلم ، وسالم وسلمان وسلمى والسلامة ، والسليم اللديغ أطلق عليه تفاؤلا بالسلامة ، وعلى ذلك بقية الباب إذا تأولته »[1] فذلك هو الاشتقاق الذى نريده فى دراستنا الصرفية هذه .

ولذلك سنكتفى به عن الكبير والأكبر ، لأن أحدهما لا يعترف بالترتيب فى حروف المادة كشرط من شروط الاشتقاق ، ولأن الآخر يعتمد فى دعوى الاشتقاق على التشابه فى المخرج بين أى حرفين يحل أحدهما محل الآخر كنعق ونهق. وإنما اخترنا الصغير لدراستنا هذه لأنه أكبر خطراً وأكثر استعمالا فى الناحيــة التطبيقية فى اللغة .

---

(١) الخصائص ص ٦٢٥ .

لم يقنع النحويون بالقول بمجرد العلاقة بين المشتقات ، وإنما أصروا على أن يكيفوا هذه العلاقة بكيفية خاصة ، فقرروها على أساس الأصل والفرع . بمعنى أن صيغة ما لا بد أن تتخذ أصلا لبقية الصيغ ، وأن تسمى أصل الاشتقاق ، وأن تعتبر الصيغ الأخرى مشتقة منها . وذهب هؤلاء اللغويون فى ذلك مذهبين شهيرين : «ذهب الكوفيون إلى أن المصدر مشتق من الفعل وفرع عليه»[1] . وأتوا فى ذلك بحجج ذكرها كمال الدين بن الأنبارى فى الإنصاف ، وأورد منها أن المصدر يصح لصحة الفعل ويعتل لاعتلاله ؛ وأن الفعل يعمل فيه ، وأنه يذكر تأكيدا للفعل ، وأنه لا يتصور معناه إلا بفعل فاعل . وأنت ترى أن المراد هنا هو جعل الفعل أصل المشتقات لا أصل المصدر فحسب ، وإنما اختص المصدر بالذكر ، لأن البصريين جعلوه أصل الاشتقاق ، فجعل الكوفيون من هذا الأصل فرعا ، وانسحب ذلك على كل ما عداه من الصيغ بالضرورة . ويرد ابن الانبارى على حجج الكوفيين واحدة بعد الأخرى فيقول ردا على حججهم إن المصدر لا يأتى إلا صحيحا ، ولا يعتل منه إلا مافيه زيادة عن الأصل ، وهو فرع عن الثلاثى ، وهذا الذى يعتل إنما يعتل للتشاكل ، وذلك لا يدل على الأصالة والفرعية .

ويجوز أن يكون المصدر أصلا ، ويحمل على الفعل الذى هو فرع . وكون الفعل عاملا فى المصدر لا يدل على أصالته ، لأن الحروف والأفعال تعمل فى الأسماء ، ولا خلاف فى أن الحرف والفعل ليسا أصلا للاسم ، ولأن المصدر معقول قبل وقوع الفعل فهو قبله . وأما أن المصدر يأتى مؤكدا للفعل فذلك لايدل على الأصالة فى الفعل أيضا ، لأن التوكيد غير مشتق من المؤكد فى مثل « قام زيد زيد » ، فكذلك هنا . وأما أن المصدر لايتصور معناه ما لم يكن فعل فاعل ، فذلك باطل ، لأن الفعل فى الحقيقة ما يدل على المصدر ، وأما صيغة الفعل ، فإخبار بوقوع ذلك الفعل فى زمان معين ، ومن المحال الإخبار بوقوع شىء قبل تسميته .

ولعل القارىء يرى أن النحاة هنا قد خرجوا فى محاجتهم عن شكلية اللغة إلى مضايق المنطق والفلسفة ، وبنوا جدلهم على نظرية ظهر فسادها ، هى نظرية

(١) الإنصاف ص ١٤٤

العامل[١] . ولكن البصريين لم يكونوا أبعد فى جدلهم عن هذه المثالب ، فقد ذهبوا « إلى أن الفعل مشتق من المصدر وفرع عليه »[٢] . واحتجوا بحجج منها أن الدليل على أن المصدر أصل للفعل ، أن المصدر يدل على زمان مطلق ، والفعل يدل على زمان معين ، والمطلق أصل المقيد ، فالمصدر أصل الفعل . ومنها أن المصدر اسم ، والاسم يقوم بنفسه ، ويستغنى عن الفعل ، ولا عكس . ومنها أن المصدر يدل على الحدث ، ولكن الفعل يدل عليه وعلى الزمان ، والواحد أصل الاثنين ، فالمصدر أصل الفعل . ومنها أن المصدر له مثال واحد ، والفعل له أمثله مختلفة ، كما أن الذهب نوع واحد ، وما تفرع منه أنواع مختلفة ، ومنها أن الفعل بصيغته يدل على مايدل عليه المصدر ، وهو الحدث ، ولكن المصدر لا يدل على ما يدل عليه الفعل ، ولابد أن يكون الأصل فى الفرع لا العكس . ومنها أنه لو كان المصدر مشتقا من الفعل ، لجرى على سنن فى القياس ، ولم يختلف شكله ، ولكنه لا يجرى على ذلك ، بل يختلف كاختلاف الأجناس مثل « الرجل » ، « والثوب » ، والتراب . ومنها أنه لو كان المصدر مشتقا من الفعل ، لوجب أن يدل على ما فى الفعل من الحدث والزمان ، وعلى معنى ثالث ، كما دلت أسماء الفاعلين والمفعولين عليهما وعلى ذات الفاعل أو المفعول به . ومنها أن الدليل على أن المصدر ليس مشتقا أن الهمزة لا تحذف منه فى نحو « إكرام » كما تحذف من المشتق نحو مكرم ، ومنها أن اسم المصدر يدل على صدور ما عداه عنه .

والنظرة الفاحصة تكشف عن مبلغ تضارب هذه الحجج فى منطقها ، حتى لو قيل إن صاحب كل حجة منها غير قائل الحجة الأخرى ، لأن هذا لا ينفى أن هذه الحجج قد جاءت بها مدرسة البصرة المدافعة عن نظرية موحدة ، بفلسفة موحدة . فهذه الحجج تكشف عن عدم الوحدة فى فلسفة النظرية البصرية . فالمصدر فى نظرهم اسم حينا ودال على الزمان حينا واسم دال على الزمان حينا آخر ودال على الحدث

---

(١) راجع الرد على النحاة لابن مضاء فى نقض هذه النظرية .

(٢) الإنصاف ص ١٤٤ .

دون الزمان فى بعض الحجج . ثم من الذى يستسيغ أن المصدر يدل على الزمان حتى ولو كان هذا الزمان مطلقا ؟ أولا يقول ابن مالك .

المصدر اسم ما سوى الزمان من   مدلولى الفعل كأمن من أمن

فإذا علمنا أن ابن مالك يشرح بألفيته مذهب البصرين أكثر ما يشرح ، عرفنا مدى ضعف الحجة فى القول بأن المصدر يحتوى عنصر الزمن . فعنصر الزمن هذا من خواص الأفعال ، لا الأسماء الجامدة ، ولا الأسماء المشتقة . وليس حرص البصريين على المنطق أقل من حرص الكوفيين ، ويكفى أن نلحظ أن حججهم تشمل كلمات مثل « الأجناس » و « القياس » ، و « يقوم بنفسه » ، و « وزمان مطلق » . والزمان المطلق أو الفلسفى لا صلة له بالنحو ، وسيأتى شرح ذلك فى منهج النحو إن شاء الله .

والقول بأن صيغة ما أصل لكلمة أو صيغة أخرى مما يتنافى مع المنهج اللغوى الحديث ، فلا يطيق هذا المنهج اصطلاحات مثل « نائب الفاعل » ، لأن فى ذلك تلمحيا إلى أن الفاعل أصل للمرفوع بعد ما بنى للمجهول ، وليس ذلك كذلك . يقول الصبان تعليقاً على قول الأشمونى « (النيابة مشروطة بأن يغير الفعل عن صيغته الأصلية) : هذا كالصريح فى أن المبنى للمفعول فرع المبنى للفاعل وهو مذهب الجمهور ، وقيل كل أصل »[1] . حتى بعض النحاة الأقدمين كما نرى كان يستهجن أن يجعل صيغة أصلا لصيغة أخرى . فالقول بأن كلمة أو صيغة أصل لكلمة أو صيغة أخرى مردود فى القديم والحديث . فلا الفعل ، كما يقول الكوفيون ، ولا المصدر ، كما يقول البصريون ، أصل للمشتقات ؛ لأنك قد رأيت أن الأدلة على أصالة كل منهما ضعيفة لا تقاوم النظرة الفاحصة . فما وجه القول إذاً فى الاشتقاق . وما نظرة علم اللغة الحديث إليه ؟

وجه القول كما أراه فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، أن مسألة الاشتقاق تقوم على مجرد العلاقة بين الكلمات ، واشتراكها فى شىء معين ، خير من أن

---

(١) حاشية الصبان على الأشمونى جـ ٢ ص ٤٣ .

تقوم على افتراض أصل منها وفرع ، وهو رأى فطن إليه السيوطى حين قال[١] : «قالت طائفة من النظار الكلمة كله أصل». والقدر المشترك بين الكلمات المترابطة من الناحية اللفظية واضح كل الوضوح ؛ ذلك هو الحروف الأصلية الثلاثة . فأنت إذا نظرت إلى « ضَرَبَ » و « ضَارَبَ » و « مضروب » و « مَضْرِب » و « مُضَارِب » و « ضَرْب » وما تفرع من ذلك ، رأيت أنها جميعاً تشترك فى (ض ر ب) ، وتتفرع منها . فطن إلى ذلك المعجميون ولم يفطن إليه الصرفيون . فهذه الحروف الثلاثة الصحيحة جذور اللغة العربية التى تتفرع منها الكلمات ، ولست أحب أن أدعى أنها جذور اللغات السامية جميعاً ، تشترك فيها ، وتتخصص كل منها بوضع المعنى المناسب للصيغة ، حتى إن بعض دارسى اللغات السامية يدرسون المادة بعينها دراسة مقارنة فى هذه اللغات جميعاً ، ويضعون معاجمهم بهذه الطريقة[٢] .

وكلمات اللغة جميعاً مشتقة بهذا الاعتبار ، «وقالت طائفة من المتأخرين اللغويين كل الكلم مشتق ونسب ذلك إلى سيبويه والزجاج»[٣] فما دام لكل كلمة من كلمات العربية مادة تصاغ منها ، فلها اشتقاق منسوب إلى هذه المادة . ولا يبقى فى الصرف ما يسميه الصرفيون الاسم الجامد . فيجب أن يبنوا التقسيم إلى جامد ومشتق إذاً على أساس جديد . وليس اشتقاق ما يسمونه بالجامد من نوع الاشتقاق الذى يحاوله بعض اللغويين تعليلا لأسماء الأعلام والأجناس، « قال أبو عبد الله محمد بن المعلى الأزدى فى كتاب الترقيص ، حدثنى هرون بن زكريا عن البلمى عن أبى حاتم ، قال : سألت الأصمعى لم سميت منى منى ، قال لا أدرى فلقيت أبا عبيدة فسألته فقال لم أكن مع آدم حين علمه الله الأسماء ، فأسأله عن اشتقاق الأسماء ، فأتيت أبا زيد فسألته فقال سميت منى لما يمنى فيها من الدماء »[٤] ومن قال إن رمضان مشتق من الرمضاء ، وأن قضاعة مشتق من انقضع الرجل

(١) المزهر للسيوطى حـ ١ ص ٢٠٢ .

(٢) أنظر مثلا A Hebrew & Chaldee Lex. to the Old Testament, B. Julius Fuerst.

(٣) المزهر حـ ١ ص ٢٠٢ .

(٤) المزهر حـ ١ ص ٢٠٥ .

عن أهله أى بعد عنهم ، أو تقضّع بطنه إذا أوجعه ، وأن اليَمَن مشتق من اليُمْن ، والشام من الشؤم أو التشاؤم ، وأن الخيل من الخيلاء ، فإنه يعلل التسمية ولا يعقد صلة اشتقاقية صرفية . فإذا علمنا أن الأسماء لا تعلل ، وضح لنا أن الذين جاءوا بهذه التعليلات قد أضاعوا أوقاتهم ولم يأتوا بشىء ذى خطر .

وسائل خلق الرباعى

قلنا إن الكلمة العربية ذات ثلاثة أصول ترتبط بها من الناحية الاشتقاقية ، وقلنا كذلك إن هذه الأصول الثلاثة ، إلى جانب استعمالها من الناحية الصرفية ، تتخذ مادة للكلمة من الناحية المعجمية . ادعينا ذلك للغة العربية على الأقل ، ولم نحب أن ندلف من الميدان العربى الخاص إلى الميدان السامى العام ، لأن اللغات السامية الأخرى ليست موضوع هذا الكتاب من ناحية ، ولأن دعوى اشتراكها فى الأصل الثلاثى بحاجة إلى تفصيل فى القول والأدلة أكثر مما تسمح به المسافة المخصصة فى هذا الكتاب .

ولكن فى اللغة العربية صيغا رباعية يقول النحويون عن بعضها إنه من مزيد الثلاثى ، ويقولون عن بعضها الآخر إنه أصلى فى حروفه الأربعة . فماذا عسى أن يكون علاج المنهج الحديث لهذه الرباعيات .

نقول مبدئيا إن المنهج التقليدى فى البحوث الصرفية قد اعتبر الهمز فى نحو أكرم ، والتضعيف فى نحو كرّم ، من الزيادات التى يؤتى بهـا لغرض نحوى ، هو التعدية . فالمعلوم أن الفعل الماضى (كرم) المضموم العين من الأفعال اللازمة ، ولكن أكرم وكرّم كليهما متعديان . ولسنا نحب أن نخوض مرة أخرى فى أن بعض الكلمات أصل لبعضها الآخر ، ولا أن ندخل فى مناقشة ما إذا كان الفعل اللازم هنا أصلا للمتعديين أو لم يكن . ويكفى أن نشير إلى أن الحروف الأصلية الثلاثة فى هذه الصيغ الثلاث هى الكاف ، والراء ، والميم ، وأما ما زاد عن ذلك فهو من الملحقات الصرفية التى سيأتى الكلام عنها فى حينه ، إن شاء الله .

ومن الملحقات الصرفية أيضا حرف اللين فى قاتل ، وقوتل . فالحروف الأصليه فى هذين الفعلين هى القاف ، والتاء ، واللام ، وأما حرف المد فقد جىء به ليعبر عن قيمة خلافية شكلية ، موازية لقيمة خلافية فى المعنى . وتفرق القيمة الخلافية هنا بين « قَتَل » و « قاتل » وبين « قتِل » و « قوتِل » من جهة أخرى ، وهو تفريق يقتضيه الفرق فى المعنى بين الصيغتين .

ومن الملحقات الصرفية أيضاً أن تتكرر فاء الكلمة بين العين واللام ، إذا تماثلت العين واللام فى الثلاثى ، فأصبحتا حرفا واحدا مشدداً[١] . فإذا أخذت أفعالا ثلاثية مثل جرّ ، هدّ ، عسّ ، كفّ ، ثرّ ، زلّ ، وجدت أن الرباعى تتكرر فيه الفاء بين عنصرى الحرف المشدد بعد فكه ؛ فرباعيات هذه الأفعال جرجر ، وهدهد ، وعسعس ، وكفكف ، وثرثر ، وزلزل ، والفاء المكررة فى كل هذا زيادة صرفية إلحاقية ، لا حرف أصلى ؛ تشهد بذلك الصيغة الثلاثية المجردة . ولقد حرصت اللهجات العامية على استخدام هذة الطريقة الصرفية فى الإلحاق استخداما واسعا جدا ، إما من الثلاثى المشدد الآخر على النمط المذكور كما فى الأفعال الآتية :

لفلف	لفّ	تختخ	تخ
فتفت	فت	بلبل	بل
شمشم	شم	بصبص	بص
رجرج	رج	لملم	لم
دقدق	دق	كشكش	كش
خضخض	خض	قبقب	قب
حكحك	حك	حفحف	حف
تفتف	تف	رطرط	رد
دبدب	دب	طرطر	درّ
شخشخ	شخ	صحصح	صح

(١) وذهب أبو اسحاق فى نحو قلقل وصلصل وجرجر وقرقر إلى أنه فعفل وأن الكلمة لذلك ثلاثية : الخصائص ص ٤٥٠

. وإما من ثلاثى غير مضعف الآخر كما فى صفصف من التصفيـة ، وإما من أسماء مثل :

عبعب	من العبّ	سلسل	من السلسلة
سبسب	من سبيبةالفرس	ورصرص	من الرصاص
رمرم	من الرمة	فلفل	من الفلفل
عشعش	من العش		

وإما من أصوات طبيعية مثل : بعبع ، بقبق ، تهته ، جمجم ، دندن ، وغرغر ، وغمغم ، وتكتك ، والفاء المكررة مزيدة فى كل أولئك ، كما اعتبرناها مزيدة فى الأفعال العربية .

على أنه ليس من الضرورى أن تكون الفاء هى المزيدة فى الصيغة الرباعية ، فقد تكون الزيادة زيادة حرة ، دون نظر إلى نوع الحرف المزيد ، ولا إلى ارتباطه بأحد الحروف الأصلية . وهناك طائفة من الأفعال فى اللغة العربية تعتبر رباعية أصلية الحروف الأربعة فى نظر الصرفيين ، ولكنا نرى أن أحد هذه الحروف مزيد ، حتى ولو لم يكن من حروف « سألتمونيها » فمن ذلك :

دحرج	درج	بعثر	بثر
سقلب	قلب	عربد	عرد (ومنها العردّ = القوى)
شقلب	قلب	زغرد	غرد

فأنت ترى أن الفعل الرباعى ذو مادة ثلاثية ، إما أن يستعمل منها فعل ثلاثى له نفس معنى الفعل الرباعى ، وإما أن تستعمل منها صيغ أخرى تدور حول نفس المعنى . وترى كذلك أن الحرف الزائد قد يكون حاء ، أو سينا ، أو شينا ، أو عينا ، أو باء ، أو زينا ، وقد يكون أى حرف من الحروف الأبجدية

وقد استخدمت اللهجات العامية نفس الطريقة فى الزيادة أيضا وسنورد لك طائفة من الأفعال الرباعية العامية ، ونضع أمام كل منها الحروف الثلاثة التى نقترحها

أصلا لهذه الرباعيات . وقد نجد أن هذه الثلاثة تـكون بنفسها فعلا ثلاثيا عاميا من من لهجة أو أخرى ، أو فعلا عربيا كما يأتى :

دربك	ربك	سلبن	لبن (سال لعابه كاللبن)
شعبط	شبث	شرمط	شرط
زروط	رَوث	حمرق	مرق
شردح	ردح	بحلق	بحق (مستعملة فى الصعيد)
زمزق	زمق	فرفش	فرش
زفلط	فلت	فنتر	نتر
فرطح	فتح	مرمط	مرد — مرط
حندق	حذق	طربق	طبق
هردم	هدم أو ردم	دفلق	دفق
صرمح	رمح	دحدر	حدر
برطع	رتع	كربس	كبس
فنجر	فجر	طرطف	طرف
شنعر	نعر	حرجم	رجم
وسطن	وسط	خلبط	خلط

والزائد هنا أيضـــا حرف غير مقيد بحروف « سألتمونيها » . ولعـل ذلك أن يكون مما يعزز دعوى ثلاثية الـكلمة العربية تعزيزاً كاملا .

الملحقات

سيرجع بنا الـكلام عن الملحقات الصرفية إلى فـكرة المعنى الوظيفى مرة أخرى . فهذه الملحقات ، سواء كانت من حروف الزيادة ، أو من الأدوات ، أو مما يسمونه الضمائر المتصلة ، تتخذ معنى وظيفيا لامعجميا . ومعناها الوظيفى فى الـكلمة التى تلحق هى بها هو المورفيم الذى تعبر عنه باعتبارها علامة ، والذى يعبر هو بدوره عن باب من أبواب النحو أو الصرف . فإذا أخذنا مثلا « يحترمونهم »

وجدنا أن الياء صدر (Prefix) فى الكلمة تعبر عن مورفيم المضارعة الذى يعبر عن باب المضارع ، ثم ندع الحروف الأصلية الثلاثة (ح ر م) ، لأننا إنما نتكلم هنا عن الملحقات ، ولكننا لا بد أن نقع على التاء ، وهى حشو (Infix) فى الكلمة يعبر عن مورفيم الافتعال ، الذى يعبر بدوره أيضا عن باب الافتعال . أما الواو فأحد ثلاثة أعجاز (Suffixes) فى الكلمة ؛ وهى باعتبارها علامة تعبر عن مورفيم الفاعلية الذى يعبر عن باب الفاعل ، أو قل باب المسند إليه ، أو العمدة ، والنون علامة على مورفيم الرفع الذى يعبر عن باب رفع الفعل المضارع فى حالة تجرده من الناصب والجازم ثم الضمير المتصل عجز فى الكلمة أيضا ، وهو علامة على مورفيم المفعولية الذى يعبر عن باب المفعول أو قل باب الفضلة .

ففى الكلمة هنا طائفة من المورفيمات هى المضارعة ، والافتعال ، والفاعلية أو العمدية والرفع والمفعولية أو الفضلية . وهذه المعانى جميعا وظائف تؤديها الإلحاقات فى الكلمة ، ويختص كل منها بملحق خاص به ، لكل منها معنى هو الوظيفة التى يؤديها ، أو بعبارة أخرى هو المورفيم الذى يعبر عنه . فمعنى الملحقات إذا وظيفى أولا وقبل كل شىء . ولقد سبق أن شرحنا الفرق بين المعنى الوظيفى والمعنى المعجمى ، فلاحاجة بنا هنا إلى أن نعيد القول فى ذلك مرة أخرى . فأنت ترى إذاً أن الملحقات أنواع ثلاثة كما سبق :

١ — صدور Prefixes

٢ — أحشاء Infixes

٣ — أعجاز Suffixes

فالصدر ما ألحق بأول الكلمة وتصدرها ، ليؤدى معنى صرفيا معينا ، بتعبيره عن مورفيم أو وحدة صرفية . وأشهر الصدور فى اللغة العربية حروف المضارعة ، وهمزة التعدية المفتوحة ، والحركة التى فى أول الافتعال ، ثم الحركة والنون الساكنة فى أول الانفعال ، والحركة والسين والتاء فى الاستفعال ، والتاء المفتوحة فى تَفَعَّل وتفاعل ، والتاء والميم فى تمفعل كتمنطق .

وإنما عنينا بالحركة التى فى أول الافتعال والانفعال والاستفعال حركة همزة الوصل ، وتلك هى الحركة التى فى أول المقطع القصير المقفل (ع ص) ، ومنها أيضا ما يناسب هذه الصدور فى تصاريف الصيغ المذكورة كمفتعل ، ومنفعل، ومنها الميم التى فى أول مفعول من الثلاثى ، ثم ما ذكرناه فى وسائل خلق الصيغ الرباعية من الزيادات الحرة التى تأتى فى بداية الكلمة كما فى شقلب ، وسقلب ، بمعنى قلب، وزغرد المأخوذ من غرد ، والكلمات العامية شردح المأخوذ من ردح ، وصرمح المأخوذ من رمح ، وبرطع المأخوذ من رتع ، وهلم جرا .

والحشو ما جاء فى وسط الكلمة ليؤدى معنى صرفيا معنيا فيها ، أى ليعبر عن مورفيم أو وحدة صرفية معينة هى وظيفته . وأشهر الأحشاء فى اللغة العربية تاء الافتعال ، والتضعيف فى مضعف العين من الثلاثى ، والفاء المكررة فى نحو هَدْهَدَ ، وما زيد زيادة حرة فى وسط الكلمة فى أفعال مثل دحرج من درج ، وبعثر من بثر ، والأفعال العامية شعبط من شبث ، وفرطح من فتح ، وهردم من هدم[1] ، وفنجر من فجر ، وطربق من طبق ، ودفلق من دفق، وخلبط من خاط، وشرط الحشو أن يكون بين حرفين أصليين .

والعجز ما ألحق بآخر الكلمة ، فأدى معنى وظيفيا نحويا أو صرفيا ، بتعبيره عن مورفيم خاص ، يعبر عن باب من أبواب النحو أو الصرف . فإذا اتخذنا صيغة المسند إلى الغائب نموذجا خاليا من الأعجاز ، صالحا لأن يتقبلها ، وجدنا أن أشهر الأعجاز فى اللغة العربية الضمائر المتصلة ، ونون الوقاية ، وحركات الإعراب ، وحروفه ، وعلامة التأنيث ؛ وتشمل جموع التكسير كثيرا من الصدور والأحشاء والأعجاز ، كما تحتوى على كثير من مجرد التغيرات الداخلية .

والمهم فى هذا الباب أن يقدر القارىء المهمة الأساسية للملحقات ، ومعناها الوظيفى ، وبعدها عن المعنى المعجمى . أنظر كيف شئت فى المعجم ، وسوف لا تجد نون الوقاية مختصة بمدخل معجمى خاص ، وسوف لا تجد كذلك كاف الخطاب ، ولا ياء المتكلم ، مع ورودها مفعولا ، ومضافا إليه . ولكنك تجد معانى كل ذلك فى النحو والصرف اللذين يحددان وظائفهما ومعانيهما الوظيفية .

---

(١) أما إذا كان الفعل من ردم فالزيادة فيه صدر لا حشو .

الجدول التصريفى والتوزيع الصرفى

إن دراسة الصرف لاتكون إلا دراسة رأسية ، وتلك هى الصبغةالتى يصطبغ بها منهجه . ونقصد بالدراسة الرأسية دراسة الجدول ، سواء أكان تصريفيا أم اشتقاقيا . والواقع أن فكرة رأسية الجدول إنما تقصد فيما يقابل أفقية السياق . ولتوضيح هذه الفكرة نورد المثال الآتى ونعلق عليه :

ضربتُ

ضربنا

ضربتَ اعتذر

ضربتِ اعتذرى

ضربتما اعتذرا

إذا كنتم قد ضربتم زيدا فاعتذروا إليه .

ضربتنّ اعتذزن

ضرب

ضربا

ضربتا

ضربوا

ضربن

وتنبنى الفكرة الرأسية على الخلافات الشكلية فى المادة الواحدة ، أى اختلاف الصيغة الذى يتسبب عن التكييفات الصرفية المناسبة . أما الفكرة الأفقية ، فمبناها على العلاقات بين الأبواب النحوية فى السياق . وسيأتى شرح ذلك ، إن شاء الله ، فى منهج النحو .

ولقائل أن يقول : كيف تدخل الإلحاقات التى فى صيغ الجدول فى هذا التناول الرأسى ، مع أنها ، بحسب معناها ، فى قوة الكلمات المستقلة ؟ فالتاء المضمومة فى

« ضربتُ » فاعل ، أى مسند إليه ، ولـكنها تدخل فى تصريف الفعل . وكذلك تدخل «نا» من « ضربناَ » والتاء المفتوحة من «ضربتَ» ، والمكسورة من « ضربتِ » ، و « تما » من « ضربتما » ، « وتم » من « ضربتم » ، وهلم جرا . ويقع الجواب على ذلك فى شطرين : الأول أن هذه ، وإن كانت مسندا إليها لا يمكن أن تستقل بنفسها فتعزل عن الصيغة . ومن ثم سميناها ملحقات صرفية ، لا كلمات . فالتاء ، وإن أعربت فاعلا ، ليست إلا عجزاً فى «ضربتُ» ، يدل على الفاعل كما دل تجرد المسند للغائب من الملحقات على الغائب . والثانى أن هذه الملحقات علامات ، تدل على مورفيمات ، تدل على أبواب .

فالتاء فى « ضربت » علامة تدل على مورفيم الفاعلية الذى يدل على باب الفاعل فى النحو . إذاً فليست هذه الملحقات كلمات ؛ وإنما هى أجزاء من كلمات . وسيأتى فى تعريف الكلمة ، حين الكلام عن منهج المعجم أن كل ما لا يستقل بنفسه لا يسمى كلمة .

ولقائل أن يقول أيضا إننا لم نسمع عن ما تسميه مورفيم الفاعلية فى دراسة الصرف ، ولكننا سمعنا عن باب الفاعل فى النحو . والجواب على ذلك أن نمثل بوجهى عملة النقد ، وبصفحتى الورقة ، حيث تتعدد جهات الشىء الواحد . فالفاعل ذو وجهين : وجه صرفى تدل عليه العلامة ، ويمكن وصفه بأنه شكلى ، وهذا هو المورفيم ، ووجه نحوى ، تدل عليه الوحدة الصرفيـة التى هى المورفيم ، ويوصف بأنه وجه تقسيمى . ينبنى فهمه على العلاقات فى السياق ، وهو الباب . فالفاعل إذا مورفيم باعتبار ، وباب باعتبار آخر . وليس هنـــاك تناقض إذا بين التسميتين الصرفية والنحوية .

ويقوم الجدول التصريفى على أساس التطريز اللغوى أيضا ، وقد سبق شرح هذا الاصطلاح ، فارجع إليه فى منهج التشكيل الصوتى . ولنزيد الفكرة وضوحا نسوق إليك هذا الجدول ، لترى توزيع الصيغ فيه وكيف يتم .

	مفرد		مثنى		جمع	
	مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث
متكلم	ضربت		ضربنا			
مخاطب	ضربتَ	ضربتِ	ضربتما	ضربتما	ضربتم	ضربتن
غائب	ضرب	ضربتْ	ضربا	ضربتا	ضربوا	ضربن

وكما قلنا إن جدول الأصوات وجدول الحروف يشبهان رقعة الشطرنج ، وفصلنا القول فى وجه الشبه ، نؤكد وجه الشبه هنا بين هذا الجدول وبين الرقعة . ففى هذا الجدول خطوط رأسية ستة هى : المفرد المذكر ، والمفرد المؤنث ، والمثنى المذكر إلخ ، وخطوط أفقية هى المتكلم ، والمخاطب ، والغائب . وفيه مربعات يمتلىء كل منها بصيغة خاصة ، بينها وبين الصيغ الأخرى جهات خلاف تكون جزءا سلبيا من معناها . غير أن بعض المربعات هنا أكبر من البعض الآخر ؛ ففى قسم التكلم مثلا نجد التقسيم إلى مفرد فى عمومه ، أى بما يشمل المذكر والمؤنث ، ثم ما عدا المفرد فى عمومه أيضا ، ومثنى المخاطب بقسميه مربع واحد . فالفكرة التطريزية قائمة هنا ، كما كانت قائمة فى الأصوات والتشكيل ، وكما تقوم فى كافة فروع الدراسات اللغوية الأخرى .

وأما التوزيع الصرفى فليس المقصود منه التصريف ، بل التحديد . خذ مثلا صيغة صرفية معينة مثل ضارب ، وقاتلْ ، موقوفا عليهما بالسكون . إذا نظرنا إلى هاتين الصيغتين فى انعزالهما عن السياق ، كما هما الآن ، لم نستطع أن نحددها تحديداً صرفياً دقيقاً . فهما تصلحان اسمى فاعل ، كما تصلحان فعلى أمر ، وإنما تتحدد كل صيغة أى منهما تحديدا صرفيا بأحد شيئين :

١ — ورودها فى السياق حيث تبدو محددة بعلاقاتها المتشابكة .

٢ — وضعها فى توزيع صرفى على النحو الآتى :

ضاربٌ	ضاربٌ	ضاربٌ	ضاربٌ
ضاربى	الضارب	ضاربٌ أباه	ضارب أبيه
ضاربا	الضاربة	ضاربةٌ أباها	ضاربةُ أبيها
ضاربوا	الضاربان	ضاربان أباها	ضاربا أبيهما
ضارين	الضاربون	ضاربون أباهم	ضاربو أبيهم
	الضاربات	ضارباتٌ أباهن	ضارباتُ أبيهن

ويتضح من كل طائفة من هـــذه الطوائف ما المقصود بضارب فى أولها . والمحايدات الصرفية من هذا النوع كثيرة فى اللغة العربية ، يأتى معظمها على صيغة فاعل هذه ، ومن صيغة فَعَل كحسب ، وهرب ، وصيغة فَعِل كشره، وجزع.

والفكرة الرأسية قائمة فى التوزيع الصرفى كما كانت قائمة فى الجدول التصريفى لأن الصرف كما قلنا فى مبدأ هذا الكلام ينبنى منهجة على هـذا الاتجاه الرأسى بعكس النحو الذى ينبنى على الاتجاه الأفقى السياقى الذى تدرس فيه العلاقات بين الأبواب النحوية ممثلة فى الكلمات التى فى المثال المدروس .

منهج النحو

لقد ذكرنا أن النحو دراسة العلاقات بين أبوابه ممثلة فى الكلمات التى فى النص . فنحن حين نعرب نترجم الكلمات إلى أبواب ، ليمكن أن ننظر إليها فى ضوء علاقاتها النحوية . فإذا أعربنا « ضرب محمد عليا » ، لم نقنع بضرب كما هى ، وإنما سميناها باسم باب نحوى هو الفعل الماضى ؛ ولم نقنع بمحمد كما هو ، فسميناه باسم باب آخر هو الفاعل ، ولا بعلى على حاله ، فسميناه باسم باب المفعول . والسبب الذى نحول من أجله الكلمات إلى أبواب واضح جدا ، وهو كما ذكرنا أن النحو دراسة العلاقات بين الأبواب ، لا بين الكلمات ، ويقول ابن مالك وبعد فعل فاعل الخ ، ولا يقول وبعد ضرب محمد ؛ لأنه يتكلم عن الأبواب لا عن الأمثلة .

فحين تتحول الكلمات بالتحليل الإعرابى إلى أبواب ، تتضح العلاقات التى بينها ، لأن هذه العلاقات مقررة فى قواعد النحو . وكل باب من هذه الأبواب معنى وظيفى للكلمة المعربة به ، فحين نقول إن المعنى الوظيفى «لضرب» أنها فعل ماض ، نقصد أنها تقوم فى السياق بدور الفعل الماضى ، وتؤدى وظيفته النحوية الخاصة به . وحين قال النحاة قديما إن الإعراب فرع المعنى كانوا فى منتهى الصواب فى القاعدة وفى منتهى الخطأ فى التطبيق . لأنهم طبقوا كلمة المعنى تطبيقا معيبا حيث صرفوها إلى المعنى المعجمى حينا ، والدلالى حينا ، ولم يصرفوها إلى المعنى الوظيفى .

والحق أن الصلة وثيقة جدا بين الإعراب وبين المعنى الوظيفى . فيكفى أن تعلم وظيفة الكلمة فى السياق لتدعى أنك أعربتها إعراباً صحيحاً . وتأتى وظيفة الكلمة من صيغتها ووضعها ، لا من دلالتها على مفهومها اللغوى . ولذلك يستطيع المرء أن يعرب كلمات لا معنى لها ، ولكنها مصوغة على شروط اللغة العربية ، ومرصوفة على غرار تراكيبها .

وإذا لم يصدق القارىء هذا الكلام ، فليسمح لى بأن أجرؤ على خلق هذا النص الآتى على مثال اللغة العربية ، وإن لم يكن هذا نصا عربيا ، فكل كلماته هراء :

« حنكف المستمصّ بسقاحته فى الكمظ فمنّذ التّران تمنيذا خسيلا فلما اصطقفّ التران وتحنكف شقله المستمص بحشله فانحكز سحَيلاً سُحَيلاً حتى خزب » .

لكأنى بالقارىء الآن قد بدأ فى إعراب هذا النص ، وكأنى أسمعه يقول : حنكف فعل ماض ، والمستمصّ فاعل ، وبسقاحته جار ومجرور متعلق بحنكف ، إلى أن يتم له الإعراب الصحيح .

ولكن مهلا ! كيف يستطيع القارىء أن يعرب كلمات ليس لها معنى فى القاموس ، مع أن نصها المسوق هنا لا يدل على معنى دلالى خاص ؟ الجواب بسيط جدّا ؛ لأن هذه الكلمات الهرائية تحمل فى طيها معنى وظيفيا . فالكلمة الأولى فى النص تؤدى وظيفة الفعل الماضى لسببين : الأول أنها جاءت على صيغته ، والثانى

أنها وقعت موقعه ؛ وتقوم الكلمة الثانية بدور آخر ، والثالثة بوظيفة ثالثة ، وهلم جرا . فالإعراب إذاً فرع المعنى الوظيفى ، لا المعنى المعجمى ، ولا المعنى الدلالى ، وأظننا قد فرّقنا بين هذه المعانى الثلاثة فى مكان سابق من هذا الكتاب . ومن هنا كان قول النحاة صوابا ، وكان تطبيقهم خاطئا .

ولا يمكن أن تقوم دراسة نحوية صحيحة دون أن يدخل فى منهجها علم الأصوات ، وعلم التشكيل الصوتى ، وعلم الصرف . والباب الذى لا يُستغنَى عنه من علم التشكيل فى الدراسة النحوية هو باب الموقعية ، لأن النحو ملىء بالسلوك الموقعى للكلمات ، أى أن الموقع يتحكم إلى حد كبير فى الإعراب ، وما يدل عليه من حركات وعلامات . ألست ترى موقعية واضحة فى كسر آخر فعل الأمر فى « اضرب الولد » ، وآخر المضارع فى « لم اضرب الولد » ، مع أن الأول مبنى على السكون من الناحية التقسيمية ، والثانى مجزوم ؟ فالموقعية هنا ، أو على وجه التحديد موقعية التقاء الساكنين ، هى التى اقتضت الحركة الأخيرة فى الفعلين ، وقد سبق أن شرحنا الدور الذى يلعبه التنغيم فى التفريق بين التقرير والنفى . هذا مثال من أمثلة كثيرة جدا على ضرورة الإحاطة بالأصوات والتشكيل الصوتى فى أيّة دراسة نحوية ، ولقد كان النحاة القدماء هم واضعى علم القراءات ، فساعدتهم معرفتهم بالقراءات والأصوات التى فيها على أن يأتوا فى النحو بما أتوا به .

أما الصرف ومدى ارتباطه بالنحو ، فدليله أن النحاة القدماء لم يفصلوا بين منهجيهما فى التناول ، ويكفى أن تنظر مثلا إلى ألفية ابن مالك ، ثم تحاول أن تفصل فيها بين أبواب النحو وأبواب الصرف ، وأنا واثق أن الأمر سيتطلب منك تفكيراً عميقاً ، وأنك ستجد بعض الأبواب مستعصية على الإضافة إلى هذا المنهج أو ذاك ، لإختلاط المنهجين فيها .

وهذه المناهج الأربعة (الأصوات ، والتشكيل ، والصرف ، والنحو) هى ما يطلق عليه فى مجموعه اسم الجراماطيقا « Grammar » فمن قال إننى أدرس اللهجة الفلانية من جهة الجراماطيقا والأصوات ، أو الجراماطيقا

والتشكيل ، أو الجراماطيقا والصرف ، أو الجراماطيقا والنحو ، فهو مخطىء فيما يقول ، لأن الجراماطيقا اسم يشمل كل هذه المناهج .

والنحو دراسة الجمل التامة من ناحية العلاقات السنتاجماتية Syntagmatic relations أو السياقية ، فى مقابل الصرف الذى يدرس العلاقات البراديجماتية Paradigmatic relations أو الجدولية . وإلى جانب ذلك يدرس النحو الأبواب العامة لمعانى الجملة كالتقرير ، والنفى ، والاستفهام ، والتأكيد ، وهلم جرا . وهنا يدخل المنطق ، فحذار من الخلط بين النحو والمنطق .

وإذا علمنا أن الجراماطيقا تعالج المعنى حتى حدود المعجم ، ثم يبدأ دور المعجم فى تحديده على مستوى الكلمة ، حتى يصل به إلى حدود الدلالة التى تعالجه على مستوى اجتماعى يشمل الجملة والماجريات المحيطة بها ، ظهر لنا أن المعنى الذى تدرسه الجراماطيقا هو المعنى الوظيفى فحسب . وهو معنى يحدد وظيفة الصوت ، فوظيفة الحرف والمقطع والموقع والنبر والكمية والتنغيم ، فوظيفة المورفيم والصيغة ، فوظيفة الباب من أبواب النحو . ذلك هو قسط المعنى الذى يدرسه علم الجرماطيقا بفروعه الأربعة . ولعل ذلك يوضح أن الدراسات اللغوية جميعا إنما تتجه إلى تحديد المعنى ، سواء باعتبارها فرادى أو مجتمعة .

والمعنى المدروس هنا هو مدلول العلامات اللغوية ، سواء كانت هذه العلامات أصواتا أو كلمات أو جملا ، فهو معنى يوصل إليه عن طريق المنهج الشكلى . وليس المقصود هنا المعنى النفسى ، أو المعنى الذى تبحث فيه الإبستيمولوجيا (علم أصول المعارف) ، لأننا نباعد بين الفلسفة وبين الدراسات اللغوية ؛ إذ نريد أن نجعل المعلومات اللغوية كلها براجماتية تنبنى على الاستقراء بالحس ، لا ترانسندنتالية تنبنى على الحدس والتخمين .

« أقسام الكلام »

لقد وضحنا فى بداية هذا البحث الفرق بين اللغة والكلام ، وقلنا إن الكلام حركات عضوية مصحوبة بظواهر صوتية ، ويقوم على دراسته فرع خاص من

فروع الدراسات اللغوية هو الأصوات . ونود أن نضيف هنا أن النحاة قد استعملوا الـكلام بمعنى الـكلمات أحياناً ، فسموا تقسيم الـكلمات إلى اسم وفعل وحرف تقسيما للـكلام . وقد يبدو فَكِهاً أن نقول إننا لا حاجة بنا فى دراسة « الـكلام » إلى أن ندرس « أقسام الـكلام » ، ولـكننا إذا أدركنا أن الـكلام الأول يقصد به الحركات العضوية ، وأن الـكلام الثانى تقصد به الـكلمات[1] ، بدا لنا هذا القول فى صورة الحقيقة التى تعلو على النقد . ولقد قسم النحاة القدماء الـكلمات على أسس لم يذكروها لنا . وإنما جابهونا بنتيجة هذا التقسيم إلى اسم وفعل وحرف ؛ ولـكننا إذا نظرنا إلى هذا التقسيم فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة أمكننا أن نصل إلى شيئين :

١ — أن الـكلمات العربية يمكن أن ينقد تقسيمها القديم .

٢ — أن هـذا النقد ينبنى على أسس يمكن استخدامها فى تقسيم الـكلمات تقسيما جديداً . ونحن الآن مطالبون أن نأتى بهذه الأسس التى ينبنى عليها تقسيم الـكلمات . وسنجيب على هذه المطالبة بإيراد الأسس الآتية وشرح طريقة تطبيق كل منها فى التقسيم :

١ — الشكل الإملائى المكتوب :

هذا هو الأساس الأول من أسس التقسيم ، فنحن نستطيع أن نقول إن طائفة من الـكلمات العربية يمكن وصفها بأنها « طائفة الواو والنون » ، وإن من هذه الطائفة كلمة « مسلمون » ، وليس منها كلمة « مجنون » ، لأن تحليل هذه الطائفة من الـكلمات يكشف لنا عن عدم تشابههما فى قبول التنوين ؛ فلا نجد فى اللغة العربية « مسلموناً » كما نجد « مجنوناً » ، و « ملعوناً » ، و « مأفوناً » ، وهلم جرا . فالشكل الإملائى هنا أساس من أسس التفريق بين طائفتين من الـكلمات ، إحداهما فى صيغة الجمع ، والأخرى فى صيغة المفرد .

---

(١) انظر معنى الـكلمة فى منهج المعجم.

ويقال نفس الشيء فى التفريق بين « مسلمات » ، « ونبات » ، وبين « مصرى » ، و « كرسى » ، لأن الألف والتاء تتخلى عن « مسلمات » ، ولأن الياء تتخلى عن « مصرى » ولا تتخلى عن « كرسى » .

وإذا تأملنا طائفة الـكلمات التى تنتهى من الناحية النطقية بصوت من أصوات الفتحة الطويلة (وتلك هى الأسماء المقصورة والأفعال المعتلة الآخر بالألف) ، وجدنا الشكل الإملائى يعين كثيراً على تحديد الأصل الثالث من أصولها ، لأن ما كان أصله الثالث واوا من هذه الطائفة كتب بالألف ، وما كان أصله الثالث ياء كتب بالياء ؛ كما يظهر ذلك فى الفرق بين رَمَى وسَمَا ، وبين هَدَى وعَلاَ .

وما بدىء إملائياً بألف ولام فهو من طائفة خاصة من الـكلمات ، تسمى طائفة الأسماء المعرفة بالأداة . ولا يغرنك من الـكلمات مثل « ألقى » ، التى هى فعل ماض ، فتعتبرها من هذه الطائفة للأسباب الآتية :

١ — أن الألف واللام من المعرف بالأداة يمكن أن تحذفا من هذا المعرف ، بعكس الفعل الذى لا يمكن أن تحذفا منه .

٢ — أن همزة الأداة همزة وصل ، بعكس الهمزة التى فى أول الفعل .

٣ — أن همزة أداة التعريف همزة وصل داخلة على المقطع (ع ص) ولهذا لا يقع عليها النبر أبدا ، بخلاف همزة « ألقى » فهى بداية لمقطع منبور من نوع « ص ع ص » ؛ وهنا تدخل دراسة التشكيل الصوتى فى النحو .

وما لحقه التنوين فى آخره فهو من طائفة الأسماء المجردة من أداة التعريف ومن الإضافة ، ولست أظن القارىء يدخل فى هذه الطائفة كلمات مثل : « ائذَنْ » ، و « أستأذِنْ » ، و « أركَنْ » و « أستَهْجِنْ » ، و « يَحْسُنْ » ، وهلم جرا ، للأسباب الآتية :

١ — أن طائفة الأسماء يمكن أن يحذف منها التنوين بدخول الأداة ولا تدخل الأداة على الأمثلة الفعلية المذكورة .

٢ — أن نون التنوين ساكنة أبداً ، ولـكن نونات الأفعال متحركة بالرفع عند عدم الوقف .

٣ — أن ضمير الوصل إذا دخل على الطائفة الأولى حذفت نونها ، وإذا دخل على الثانية بقيت النون كما هى .

كل أولئك دلالات إملائية هى أسس ينبنى عليها التفريق بين أنواع الكلمات ، والتقسيم الذى يمكن أن تنقسم إليه هذه الكلمات .

٢ — التوزيع الصرفى :

وإلى جانب استخدام أداة التعريف فى تقسيم الكلمات على الأساس الشكلى الإملائى ، يمكن استخدامها على أساس التوزيع الصرفى أيضاً ، ولقد ذكرنا شيئاً عن التوزيع الصرفى فى منهج الصرف ، فارجع إليه إن شئت . لقد قلنا إن بعض الصيغ تعتبر محايدة من الناحية الصرفية ، وذكرنا طائفة من هذه الصيغ . ونزيد الآن أن المحايد الصرفى صالح لأن ينتظم فى سلك أحد قسمين من أقسام الكلمات ، ونمثل لذلك هنا بالمحايدين « رَاحْ » ، و « بَاعْ » . فهاتان الكلمتان غامضتان بشكلهما الحاضر ، ولكنهما تتضحان إذا وزعنا كلاً منهما توزيعاً صرفياً على النحو الآتى :

(١)	(٢)	(٤)	(٤)
باع	باع	راح	راح
الباع	يبيع	الراح	يروح
باعان	بع	—	رح
أبواع	بائع	—	رائح
باعى	مبيع	—	—
باع أو ذراع	باع أو اشترى	رَوْح ورَاحْ	غدا وراح

فباع (١) اسم بدليل دخول الأداة عليها فى توزيعها ، وباع (٢) فعل لأن الأداة لا تدخل عليها كما تدخل على قسيمتها ، ولأسباب أخرى ليس هذا محلها تدخل تحت العنوان الشامل « علامات الفعل » .

ويمكن أن يجرى نفس الشىء بالتفريق بالإضافة ، حيث يجرى التوزيع على النحو الآتى :

بَاعْ	بَاعْ	رَاحْ	رَاحْ
باعُ محمدٍ	باعَ محمداً	رَاحُ السُّكرِ	رَاحَ السُّكرُ

فالفروق هنا يمكن أن تتضح فى موضعين ، أولهما حركة المضاف فى مقابل حركة الفعل الماضى ، وثانيهما حركة المضاف إليه فى مقابل حركة المفعول أو الفاعل .

كل ذلك إنما يجرى على دعوى الوقف بالسكون على « بَاعْ » و « رَاحْ » أما إذا اعتبرناهما متحركين ، فهما غير محايدين مَن الناحية الصرفية .

٣ — الأسس السياقية :

ترتبط الناحية الشكلية للكلمات فى السياق بعلاقاتها بما قبلها وما بعدها ؛ وقد رأينا كيف كانت أداة التعريف دليلا على اسمية ما بعدها ، وأن ياء النسب دليل على اسمية ما قبلها ، كما أن « سوف » تقوم دليلا على فعليّة مايليها . وأداة التعريف فى الفرنسية مثلا لا تقف عند بيان الاسمية فى مصاحبها ، وإنما تدل بشكلها أيضاً على تذكيره وتأنيثه ، وهذا مانفرد له علامة منفصلة عن أداة التعريف فى العربية ، ولانستطيع ، إلا على أساس سياق ، أن نفرق بين « هُمْ » باعتبارها ضميراً منفصلا ، وبينها باعتبارها ضميرا متصلا ، لأنها بشكلها الإملائى قد لا تدل على اتصال أو انفصال ، بدليل المقارنة فى الأمثلة الآتية .

هم يُحْضِرُون	يحْضِرهم
هم يَجِدُونَ	يَجِدهم

فالشكل الإملائى هنا لا يجدى فى التفريق بين الضميرين ، وإنما نحتاج فى التفريق إلى الموقع فى السياق .

والسياق هو المكان الطبيعى لبيان المعانى الوظيفية للكلمات ؛ فإذا اتضحت

وظيفة الكلمة ، فقد اتضح مكانها فى هيكل الأقسام التى تنقسم الكلمات إليها
وقد وضحنا فى مكان سابق أن السياق يجدى فى هذه الناحية إلى درجة توضيح
وظائف الكلمات حتى فى جملة هرائية كالتى ذكرناها من قبل فما بالك بكلمات
مرصوفة فى نص أدبى تستخرج منه القواعد النحوية . وظنى أن النحاة العرب
وقد استخرجوا قواعدهم من النصوص الأدبية قد اعتمدوا فى تقسيم الكلمات
على الأسس السياقية فحسب . وإذا نظرنا إلى بيتى ابن مالك اللذين يقولان :

بالجر والتنوين والندا وأل ومسند للاسم تمييز حصل

بتافعلت وأتت ويا افعلى ونون أقبلن فعل ينجلى

وجدنا أن كل العلامات التى ذكرها يمكن — بل يتعين — استخراجها من السياق
فى النص الأدبى . ولعل من محاسن النحو العربى أنه اعتمد على الشواهد والنصوص
فى مبدأ نشأته ، وإن كان تطبيق قواعده قد انقلب تمرينا عقليا يبيح مالا شاهد
عليه إلا القياس فى النهاية .

٤ — المعنى الأعم أو معنى الوظيفة :

وقد بينا أن هذا المعنى يتضح فى السياق أكثر مايتضح ، ولكن قسطا
منه يتضح خارج السياق ، فالفرق بين « محمد » و « يقوم » يتضح بمجرد النظر
إليهما ، ولو كان ذلك خارج السياق . وسيبدو لأول وهلة أن « محمدا » اسم علم ،
وهذه وظيفته التى يؤديها فى النحو ، وأن « يقوم » فعل مضارع ، وتلك هى
وظيفته أيضاً .

والتحديد بالاسمية أو الفعلية الذى يأتى نتيجة لمعنى الوظيفة أو المعنى الأعم ،
تقسيم للكلمة فى أحد صوره . ويتضح ذلك بالتأمل فى الكلمات الآتية :

عَلىّ — عَلَى — من — قائم — سمج — استغفار — يتعلم — عربى
كتاب — مساجد — هو — الذى

فكل كلمة من هذه الكلمات يمكن أن تنسب إلى قسم من أقسام الكلمات

بمجرد النظر إليها . وذلك لأنها تتحد معنى أعم يتصح فى وظيفتها التى تؤديها فى اللغة ، وموقعها من النظام النحوى العام .

٥ — الوظيفة الاجتماعية :

يلاحظ أن لبعض الكلمات دلالات اجتماعية خاصة لأنها تدخل فى تحديد العلاقات التى يبنى عليها المجتمع ، والكلمات الآتية مثلا من هذا النوع :

أب — أم — مولود — رئيس — مرؤس — قائد — مقود — موظف صديق — مدرس — طالب — أقارب — أعداء — زملاء .

ومنها أيضاً أنا — أنت — هو — نحن — أنتم — هم — هذا — هذه هؤلاء — أولئك — وهلم جرا . ويلاحظ أن الدلالة الاجتماعية للطائفة الأولى من الكلمات تختلف عنهما فى الطائفة الثانية وهى الضمائر ، ذلك لأن كلمات الطائفة الأولى ذات دلالتين ، إحداهما مطابقية ، والأخرى التزامية ، إذا صح أن نستعمل اصطلاحات المنطق فى دراسة النحو ، بعكس كلمات الطائفة الثانية .ولكن هناك جامعا بين الطائفتين ، هو أنك إذا أخذت أية كلمة من كلماتها صح أن تستخدم هذه الكلمة للدلالة على أى شخص تستخدم من أجله ، فكل الناس أب أوأم أومولود أورئيس أومرؤس أوقائد أومقود وهلم جرا ، وكلهم يقول أنا ونحن ، ويخاطب بأنت وأنتم ويقال له هو وهم ، ويشار إليه بهذا أوهذه ، وهلم جرا . فالقسم الأول من هذه الكلمات أسماء ، والقسم الثانى ضمائر شخصية ، أو إشارية .

ولقد تعددت المؤلفات التى تقوم بدراسة تواريخ ظهور الكلمات وترتيبها فى حياة الأطفال بالنسبة إلى هذه الوظيفة الاجتماعية[١] ، ولكن ليس من هذه ما يضيف جديدا إلى موضوعنا هذا .

والتقسيم والتجريد أساسان لكل نشاط علمى أيا كان نوعه ، ونقصد بالتجريد

---

(١) اقرأ مثلا A. F. Watts, Language & Development of Children
وأيضا Lewis. Sterns, and Susan Isaes books

خلق الاصطلاحات التي تدل على الأقسام . ويظل الباحث الذى لايعتمد على هذين الأساسين تائها فى فوضى المفردات المبعثرة . ونوع التقسيم الذى يهدف إليه الباحث العلمى خاضع لقانون الحالات الوضوعية Objective Conditions ، وهو لا ينطبق بأى حال على التقسيمات غير الواعية التى تقوم على الغريزة ، ولا ينطبق أيضا على التقدير الشخصى (Commônsense) ، لأن العلم لايقوم على أى أساس شخصى ذاتى .

وليس هناك ماهو شخصى مثلا فى (٥ — ١ = ٤) ، ولا فى (H_2O = ماء) . وكثيرا مايختلف التقدير والتقسيم فى العلم عن التقدير والتقسيم الشخصيين ؛ فالقيطس مثلا ليس من فصيلة السمك من الناحية العلمية . وتنفصل التقسيمات اللغوية العلمية عن التقسيمات المنطقية ، ويجب أن تظل كذلك دائما ، فالمنطق يعنى بخلق أبواب تدرج تحتها الأشياء الحقيقية ، وقد قلنا إن أرسطو خلق عشرة أبواب سماها القولات ؛ ولو كانت لغته غير اللغة اليونانية لاختلفت فلسفته عن شكلها الحاضر . وقضايا المنطق وأقيسته لا تنطبق على اللغة والقاعدة المتبعة فى التقسيمات النحوية هى اعتبار ما كان له تعبير شكلى من الأقسام العقلية . ويعامل الباحث كلمة « المعتزلة » ، مثلا معاملة المفرد فى اللغة العربية ، سواء وردت فى قولنا « المرأة المعتزلة » ، « أو فرقة المعتزلة مع أن ثانيتهما جمع من الناحية العقلية . ومثل ذلك يقال فى المسلمة من « المرأة المسلمة » وقول الشاعر :

« وحاربتنا بالسيوف المسلمة »

ولافرق من الناحية المنطقية بين الإنسان والناس فى المثالين الآتيين :

خلق الإنسان ضعيفا — يحب الناس المال .

فالكلمتان تدلان على بنى آدم فى عمومهم ، ولكن الفرق واضح من الناحية النحوية ، حيث تعتبر إحدى الكلمتين مفردا ، والثانية اسم جمع . ومع أن الفعلين فى المثالين مختلفان من الناحية النحوية ، يدل كلاهما على الحلم والاستمرار من الناحية المنطقية ومهمة الدراسات اللغوية أن تقرر الحقائق الخاصة بها فحسب ، تاركة حقائق المنطق للمناطقة فإذا قسمنا الكلمات العربية على هذه الأسس الخمسة المذكورة ، فسنجد أن الأقسام التى تنتج من ذلك أربعة .

١ — الاسم ٢ — الفعل . ٣ — الضمير . ٤ الأداة .

ويشترك الضمير مع الاسم فى أنه يدل دلالة غير معينة على مايدل عليه الاسم دلالة معينة ، ويشترك مع الأداة فى أنه يخرج عن القاعدة العامة القائلة إن للكلمة العربية أصولا ثلاثة ، وفى أنه لايقبل العلامات المميزة للاسم جميعها ، فلا تدخل عليه أل مثلا . أما «أل» التى فى «الذى» فهى من بنية الكلمة ، لاأداة تعريف لضمير الصلة . ويشمل الضمير :

١ — ضمير الشخص (أنا الخ) ٢ — ضمير الصلة (الذى الخ) ٣ — ضمير الإشارة (هذا الخ) .

وسائل الترابط فى السياق

إن ما يجعل السياق سياقاً مترابطاً إنما هى ظواهر فى طريقة تركيبه ورصفه ، لولاها لكانت الكلمات المتجاورة غير آخذ بعضها بحجز بعض ، فى علاقات متبادلة تجعل كل كلمة منها واضحة الوظيفة فى هذا السياق . وتنقسم الوسائل التى تخلق هذا الترابط إلى ثلاثة أقسام :

١ — وسائل التماسك السياقى Transitivity

٢ — وسائل التوافق السياقى Concord

٣ — وسائل التأثير السياقى Governance أو Regimen

وسنشرح كلا من ذلك على حدة :

١ — يقول عبد القادر الجرجانى[1] : « واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك : أن لا نظم فى الكلم ولا ترتيب ، حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك . هذا ما لايجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس .

وإذا كان كذلك فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء ، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها : ما معناه وما محصوله . وإذا نظرنا فى ذلك علمنا أن لا محصول

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٤ .

لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا ، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر ، أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثانى صفة للأول أو تأكيداً له أو بدلا منه ، أو تجىء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثانى صفة أو حالا أو تمييزاً ، أو تتوخى فى كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفياً أو استفهاما أو تمنياً فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك ، أو تريد فى فعلين أن تجعل أحدهما شرطاً فى الآخر ، فتجىء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى ، أو بعد اسم من الأسماء التى ضمنت معنى ذلك الحرف . وعلى هذا القياس » .

فهذا الترتيب الذى يقول به عبد القاهر بين الكلمات فى السياق هو أساس التماسك بينها ، والواقع أنه ترتيب بين الأبواب فى نظرنا ، وهو ما نخالف فيه عبد القاهر . على أن هذا العلاّمة قد فطن إلى ضرورة التماسك السياق على أى حال كشرط من شروط البلاغة ، وجعله مبنياً على المعنى . وواضح هنا أن هذا المعنى ليس معجمياً ولا دلالياً ، وإن قصد به عبد القاهر ذلك ، وإنما هو معنى وظيفى يدور حول وظيفة الباب فى السياق .

يعمد بعض المؤلفين أحياناً ، وعلى الأخص أصحاب الحواشى ، إلى الإتيان بالمبتدأ فى صفحة ، ثم بالخبر بعده بصفحات . فما الذى يجعل هذا الخبر مترابطاً مع ذلك المبتدأ ؟ إنه ولاشك التماسك السياقى ؛ ولولا ذلك التماسك لظل المبتدأ المسكين يتطلب خبره إلى أن يتم الكتاب بعونه تعالى . ثم انظر بعد ذلك فى « ضرب محمد علياً » لترى فيها عدداً من العلاقات المتشابكة . محمد فاعل لضرب ، وعلى مفعول بها ، وقد جاء ضرب فى صيغة المفرد الغائب ليتماسك مع محمد الذى يطلبه بهذه الصورة ، ووجود على فى الجملة منصوبا قضى بالرفع لمحمد ، وبصفة التعدى لضرب ، وهلم جرا .

٢ — والتماسك السياقى يقتضى توافقاً بين أجزاء معينة فى السياق فى بعض النواحى الآتية أو كلها :

(ا) التكلم والحضور والغيبة (الشخص) (ب) الإفراد والتثنية والجمع

(العدد) (ح) التذكير والتأنيث (النوع) . وبالنظرة العارضة إلى الجدول التصريفى الآتى ترى التوافق بين جزئى الجملة .

الجملة	جهات التوافق	
أنا أقوم	الشخص والعدد	والنوع مشترك فى الضميرين .
نحن نقوم	الشخص والعدد	
أنتَ تقوم	الشخص والعدد والنوع .	
أنتِ تقومين	» » »	
أنتما تقومان	» » »	
أنتم تقومون	» » »	
أنتن تقمن	» » »	
هو يقوم	» » »	
هى تقوم	» » »	
هما يقومان	الشخص والعدد	والنوع مشترك فى الضمير .
هما تقومان	الشخص والعدد	
هم يقومون	الشخص والعدد والنوع .	
هن يقمن	» » »	

وليس التوافق من مميزات الجدول التصريفى فحسب ، بل هو عام فى كل سياق لغوى . ويقوم الترقيم فى الكتابة بتبيين القطع المتماسكة فى السياق . فتفصل الشولة بين القطعتين المستقلتين فى الجملة الواحدة ، وتفصل النقطة بين الجملتين التى لا تعتمد كل منهما على الأخرى ، وهلم جرا . ويظهر ذلك فى المثال الآتى :

« فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ : أين المفر ؟ كلا ؛ لا وزر ؛ إلى ربك يومئذ المستقر . ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » .

والتوافق ملحوظ بين المبتدأ والخبر ، وبين الفعل والفاعل ، وبين التابع والمتبوع ، فمحمد قائم ، لا قائماز ولا قائمون ، ويقوم محمد ، لا يقومان ولا يقومون وقام محمد الفاضل ، لا الفاضلان ولا الفاضلون ولا الفضلاء ، وقام محمد تاجر القطن لا تاجرا القطن ولا تجاره ، وهلم جرا . وقام هو نفسه ، لا نفساها ولا أنفسهم ، وهلم جرا . فإذا كان التوافق ملحوظاً فى الجملة الاسمية ذات المبتدأ والخبر ، وفى الجملة الفعلية ذات الفعل والفاعل ، وفى التابع والمتبوع ، فهو ملحوظ إذاً فى الجزء الأهم الأعظم من أجزاء النحو العربى .

٣ — والتماسك والتوافق أثران من آثار التأثير السياقى الملحوظ فى تركيب الجملة . ولقد ذكرنا العلاقات المتبادلة بين الفعل والفاعل والمفعول فى « ضرب محمد علياً » ، ونحب أن نضيف هنا أن التطريز اللغوى (أو القيم الخلافية التى تميز كل باب فى السياق عن الأبواب الأخرى) مسئول إلى حد كبير عن رفع محمد ، ونصب على ، ومعنى ذلك أن القيم الخلافية بين أبواب النحو سبب فى اختلاف حركات الإعراب . فالاختلاف بين وظيفة الفاعل ووظيفة المفعول فى الجملة أدى إلى رفع الأول ، ونصب الثانى . ويظهر أن بعض النحاة القدماء قد فطن لهذا ، وقال به . يقول ابن مضاء [١] : « وأما من يرى أن العرب إنما راعت المعانى ، وجعلت اختلاف الألفاظ فى الغالب دليلا على اختلاف المعانى فإنه يجيز . . . الخ » . ويقول فى موضع آخر [٢] : « وتقول (لا تأكل السمك وتشرب اللبن) أى لا تجمع بينهما ، ولو جزم لنهاه عن الجمع والتفرقة ، ولو رفع لنهاه عن أكل السمك ووجب له شرب اللبن » .

فابن مضاء هنا يجعل اختلاف الحركات لاختلاف المعانى الدلالية ، ولو أنصف لجعلها لاختلاف الوظيفة النحوية التى يؤديها (تشرب) فى الجملة ، سواء أكانت هذه الوظيفة عطفاً ، أم استئنافا ، أم غير ذلك . فاختلاف الوظيفة مؤثر فى الجملة إلى حد

---

(١) الرد على النحاة ص ١٢٦ .

(٢) الرد على النحاة ص ١٤٧ .

كبير ، وذلك الاختلاف فى الوظيفة هو المقصود بالتطريز اللغوى ، والقيم الخلافية .
وهذا فى الواقع مساهمة فى نقد نظرية العامل ؛ لأن القيم الخلافية إذا أثرت فى السياق هذا التأثير ، لم يكن هناك داع لافتراض عامل ومعمول فى الجملة . ولإيضاح ذلك نقول إن الأبواب الرئيسية فى النحو ذات مواقع معينة فى السياق ؛ فالفعل قبل الفاعل دائماً . والمبتدأ يسبق الخبر فى الغالب ، والإشارة تسبق المشار إليه ، والموصول يسبق الصـــلة ، والموصوف يسبق الصفة ، وهلم جرا . فإذا جاء اسم منصوب ، فنصبه على الخلاف بينه وبين الفاعل ، وتقدم الخبر على المبتدأ إنما يكون مثلا لاختلاف الوظيفة فى نحو « زيد قائم » عنها فى « أقائم زيد » .

وإذا تأخرت الإشارة عن المشار إليه فى نحو « لقاء يومكم هذا » ، فللخلاف بين « يوم » فى حالة الإضافة كما فى المثال ، وبينه فى حالة اتصاله بأداة التعريف كما فى هذا اليوم ، وهلم جرا . وليس القول بأثر القيم الخلافية فى السياق قولا بنظرية جديدة للعامل ؛ لأن القيم الخلافية لا تعمل ، وإنما تُرَاعَى . وهى فروق سلبية ، لا عوامل إيجابية . وهى ، من ناحية أخرى ، يمـكن أن تنبنى عليها نظرية نحوية شكلية تامة ، ليس لها ما للنظرية العامل من التناقض ، والحاجة إلى التأويل ، والتمحك .

نخلص من ذلك إلى أن ما يجعل السياق مترابطاً إنما هو ظواهر فيه تفرق بينه وبين نسق من الـكلمات التى لها مجرد المجاورة بلا رابط ، نحو « محمد فى بل قم على قبائل راكب » . فهذه كلمات متراصة ينقصها التمـــاسك ، والتوافق ، والتأثير ولو توفرت لها العناصر المذكورة ، لأصبحت سياقا عربياً لاغبار عليه .

مظاهر التماسك السياقى

قلنا إن التماسك السياقى ينبنى على العلاقات المتشابكة بين أجزاء السياق ؛ أى بين الأبواب النحوية فيه . وهذا يتضح فى مظهرين من مظاهره هما :

١ — الحالة .

٢ — الزمن والجهة .

وسنشرح كل واحدة منهما على حدة .

١ — الحالة : هنا أيضا يجب أن نلاحظ أن العلاقة التى نسميها الحالة ليست إلا علاقة شكلية بين الأبواب ، أو بين الكلمتين من باب واحد ؛ وهى مع ذلك جزء آخر من أجزاء التطريز النحوى . وللحالة مجال فى الأسماء ، والأفعال ، والأدوات ؛ أى أنها تجد تعبيرها الشكلى فى أولئك جميعا ، ولكنها ينظر إليها فى الغالب باعتبارها فى الأسماء . ولهذا نرى دراسة الحالات المختلفة فى الإغريقية واللاتينية تأتى فى كتب الجراماطيقا تصريفات للأسماء لا للأفعال . ويبدو بصفة عامة أن هذا يلقى شيئا من الغموض على حقيقة هامة ، هى أن الحالة ليست إلا وسيلة أخرى من وسائل النمطية النحوية .

وتبدو الفكرة السنسكريتية عن الحالة أكثر جدوى من الفكرتين الإغريقية واللاتينية . فالدراسات السنسكريتية لا توجه اهتمامها الكلى إلى الجدول، وإنما توجهه إلى علاقة الأسماء بالأفعال فى أنواع الجمل . ومن الضرورى فى الفنلندية أن تدرس الحالة فى الأسماء ، إذا كنت تريد فهم « الجهة » فى الأفعال . فكل من الأسماء والأفعال فى هذه اللغة يؤثر فى الآخر تأثيراً يؤدى إلى تماسك سياق . وما تحدده الإنجليزية والفرنسية مثلا بالأدوات ، تحدده الفنلندية بالتعبير الشكلى عن الحالة كما فى حالة البعضية . فإذا قلت « مزّق الكتاب» فإن الكتاب سيكون فى حالة البعضية ، ثم إن البعضية المفهومة من التمزيق إلى قطع تتطلب أن يكون الفعل فى صورة خاصة ، إذا أردت أن تتصورها بإيضاح من العربية مثلا قلنا (مع الاعتذار لإيضاح لغة بصيغة من أخرى) إن هذه الحالة تتطلب أن يكون الفعل مشدّد العين المفتوحة مثلا ، لامفردها . فأنت ترى هنا كيف تتبادل العلاقات فى السياق بين الاسم والفعل ، وقد ضربنا لذلك مثلا بجملة « ضرب محمد عليا »

والعربية من بين اللغات المتصرفة تعطى مثالا حيا للعلاقة بين الأسماء والأفعال ، وبينها وبين الأدوات ، وصورة الحالة . ففى العربية حالات أربع شكلية ، نقطع الصلة متعمدين بينها وبين الأفكار المنطقية : الأولى حالة الرفع ، والثانية حالة النصب ،

والثالثة حالة الجر ، والرابعة حالة الجزم . وحالة الرفع من مميزات العمدة فى السياق . فالسند والمسند إليه كلاهما فى حالة الرفع ، يصدق ذلك على المبتدأ والخبر ، والفاعل، ونائب الفاعل ، وعلى المضارع المجرد من بين الأفعال ، لأن البقية موزعة بين البناء ، والوقوع فى مواقع الحالات الأخرى . ولكن إذا دخلت أداة على طرفى الإسناد فى الجملة الإسمية عمدت اللغة العربية إلى تغطية أخرى فى الصوغ ، مراعاة للقيم الخلافية بين ما اقترن بالأداة وما لم يقترن . ودخول الأدوات على الجملة الاسمية يتطلب المخالفة فى الحالة بين طرفى الإسناد ، فيبدو أحدهما فى حالة الرفع ، والآخر فى حالة النصب ، فمع كان وكاد وليس وأخواتهن ، الأول مرفوع والثانى منصوب ، ومع إن ولا النافية ، يلاحظ العكس .

ويلاحظ هنا أننا نعتبر النواقص والمقاربات أدوات لا أفعالا ، برغم إمكان دخولها فى جدول تصريفى ، لدخولها على الجملة المفيدة بنفسها ، وإفادتها وظيفة نحوية قريبة من وظائف الأدوات من مثل « إنّ » و « لا » .

وحالة النصب بعد ذلك تعبير شكلى عن طائفة كبيرة مما يعبر عنه باصطلاح الفضلة هى المفعولات الخمسة ، والحال والتمييز والمستثنى وحد هذه الطائفة ، أنها الفضلة التى لم تأت معها أداة جر ، أو اسم مضاف . والفعل المضارع المنصوب من هذه الطائفة ، لأنه يقع مواقعها من الكلام ، ويتم الكلام بدونه مثلها .

وحالة الجر إما أن تكون بالأداة أو بالإضافة ، وهى حالة طائفة من الفضلات يعبر عن العلاقة بينها وبين الفعل بإحدى هاتين الطريقتين .

أما حالة الجزم فتكون فى الفعل المضارع الواقع فى نوع خاص من الجمل ، تقتضى المخالفة بينه فيها وبينه فى الجمل الأخرى التى ينصب فيها أو يرفع ، أن يتخذ شكلا إعرابيا آخر هو الجزم .

ذلك هو ملخص الحالة فى اللغة العربية .

وتتشابك العلاقات بين الحالة وبين النوع ، والعدد ، والشخص ، فتكون

كلها نماذج للترابط فى السياق بين أجزائه ، على نحو ما فى المثال الآتى : « هـذه هى المرأة البيضاء التى فتنت » .

الـكلمة	الحالة	النوع	العـدد	الشخص	الزمن
هذه	الرفع	المؤنث	المفرد	الغائب	—
هى	»	»	»	»	—
المرأة	»	»	»	»	—
البيضاء	»	»	»	»	—
التى	»	»	»	»	—
فتنت	—	»	»	»	الماضى

ومن هذا نرى تساند الـكلمات وتقاربها فى علاقاتهـــا التطريزية ، ونرى النوع والعـدد والشخص (الأفراد والتأنيث والغيبة) متحدة فى كل كلمات المثال ، سواء فى ذلك الأسماء والفعل ، ونرى الحالة فى الأسماء دون الفعل الماضى ، لأنه مبنى غير معرب ، والحالة إعرابية أولا وقبـل كل شىء ، ونرى الزمن فى الفعل دون الأسماء .

وتفرق اللغة العربيـة بين حالات الرفع والنصب والجر فى ضمائر الشخص كما يبدو ذلك فى الأمثلة الآتية :

هُمْ يقومون ، يضربونَهُمْ ، يغضبون عليهِمْ

هُوَ يقوم ، يضربونهُ ، يغضبون عليه .

لاحظ الفرق بين حركتى الهاء فى الضمير فى الحالتين ، ولاحظ الفرق فى الفصل والوصل بين حالة الرفع والحالتين الأخريين .

إننا إذا نظرنا إلى جملة مثل « بالنبي والله أومن » فسوف لا يقرر ما إذا كان لفظ الجلالة معطوفا أو مقسما به إلا الاعتبارات التماسكية فى هذه الجملة .

٣ — الزمن والجهة :

يجب أن نفرق هنا بين اصطلاحات ثلاثة تفريقاً تقتضيه الأغراض العملية لهذا البحث ؛ هذه الاصطلاحات هي الزمان ، والزمن ، والجهة . ونقصد بالزمان الوقت الفلسفي الذى ينبنى على الماضى ، والحاضر ، والمستقبل، ويعتبر قياساً لكمية تجربة فى الرياضة ، أو الطبيعة ، أو الفلسفة ، ويعبر عنه بالتقويم ، والإخبار عن الساعة ، وتتوجه إليه النظرية المعروفة بنظرية حدّ السكين ، التى تقول : إن الزمان إما ماض ، أو مستقبل ، ولا وجود للحاضر . ويقابله فى الانجليزية كلمة « time » . ونقصد بالزمن الوقت النحوى الذى يعبر عنه بالفعل الماضى ، والمضارع ، تعبيرا لا يستند إلى دلالات زمانية فلسفية ، وإنما ينبنى على استخدام القيم الخلافية بين الصيغ المختلفة ، فى الدلالة على الحقائق اللغوية المختلفة . ويقابل الزمن فى الانجليزية كلمة « tense » . ونقصد بالجهة ما يشرح موقفاً معينا فى الحدث الفعلى ؛ ويكون ذلك بإضافة مايفيد تخصيص العموم فى هذا الفعل . ويقابلها فى الانجليزية « aspect » .

ليس الزمان والزمن إذا مترادفين فى فهم هذا البحث ، لأن الزمان يدخل فى دائرة المقاييس، والزمن يدخل دائرة التعبيرات اللغوية . فالفرق بينهما كالفرق بين الذراع القياسى كوحدة ذات طول معين ثابت وبين ذراع الطفل الصغير كجزء من جسم متغير بالنمو . ولهذا لا يهمنا فى دراسة النحو أن نعلم ساعة حدوث الزمن ولا تاريخه ، ولكن الذى يهمنا نظام زمنى معين فى نحو اللغة المدروسة ، يقوم على التطريز والنمطية ، أكثر مما يقوم على المعنى الفلسفى المطلق .

والزمن النحوى نسبى اعتبارى . والماضى والمضارع صيغ لا أفكار . فصيغة الماضى من نوع الماضى ، ولو دلت على المستقبل أو الحضور الفلسفيين ، كما فى :

« إن كنت شجاعا فواجهنى بالحقيقة » ، « إذا جاء نصر الله والفتح »

« لوكان زيد يأتى لكنت أعطيه درهما » ، « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة »

والمضارع بصيغته مضارع ، ولو دل على المضى الفلسفى كما فى «لم يقم زيد» .

ولا بد لأية لغة من اللغات من أن تستخدم الدلالات الزمنية ، (ولا أقصد الزمانية) . وهذه الدلالات لا تنحصر فى الأفعال فحسب ، ولكنها تتعداها إلى ظروف الأزمان التى لا تكاد تتصل اتصالا مباشرا بنظام الأزمنة فى الأفعال . وكذلك يستطيع الناظر إلى الكلمات المفردة من غير الأفعال والظروف أن يجد من بينها ما يعبر تعبيرا خاصاً عن شىء يشبه الزمان ، أكثر مما يشبه الزمن . ولإيضاح ذلك قارن الكلمات الآتية :

جد ، ابن ، سابق ، لاحق ، خطيبة ، مطلقة ،

مرشح ، متوقع ، منتظر ، المأسوف عليه ، المرحوم ، المورث .

ولكن هذه الدلالات لا تهمنا فى الدراسات النحوية ؛ فلندعها لهؤلاء الذين يدرسون الاجتماع اللغوى ؛ وسيجدون فيها مادة غزيرة للملاحظة .

لقد كان النحاة العرب على حق فى تسميتهم المضارع مضارعا ، لأن هذه التسمية ذات دلالة شكلية لازمانية . فهم يقولون : إنما سمى المضارع مضارعا لمضارعته المشتق من حيث إعرابه وشكله ، ولو جرت التسمية فى الماضى والأمر على هذا النمط ، لخلت اصطلاحات الزمن فى اللغة العربية من عدوى التفكير فى الزمان ولكان اللاحقون من النحاة أقدر على تخليص النحو من براثن الفلسفة .

ولنا أن نلاحظ هنا أن الجهة مما يمكن ملاحظته فى الأسماء ، والأفعال ، والأدوات ، وقد سبق أن مثلنا بمجموعة الأسماء ذات الدلالة على السبق أو اللحاق ، وبدخول « لم » على المضارع ، والوظيفة التى قامت بها هذه الأداة ، غير أن الجهة ينظر إليها نحويا فى الأفعال فحسب . ولكل لغة وسائلها الضخمة فى التعبير عن الجهة ، فالهمز ، والتضعيف ، وتشديد العين ، وحروف الزيادة فيما زاد على الثلاثة والإضافات الظرفية ، والحال ، والتمييز ، تعبيرات شكلية عن الجهة فى اللغة العربية ؛ بمعنى أنها تقييد لعموم الدلالة بما يفيد النظر إلى جهة معينة فى تطبيق فهم الفعل . لاحظ اختلاف الجهة باختلاف الصيغة من نفس المادة والزمن فيما يأتى :

قتل – قاتل — قتّل — استقتل — اقتتل .

قتله أمس — قتله من سنة مضت — يقتله الآن — يقتله غدا — يقتله حين ينفرد به — قتله صبرا — قتله ذبحا — قتله خجلا — قتله تشهيراً — قتله قصاصا قتله واقفا — قتله على ظهر حصانه — قتله شهيدا — قتله قائما للصلاة .

لاحظ أيضا الفرق بين :

عس — عسعس ، جر — جرجر ،
درج — دحرج ، قلب — سقلب .

وما يسمونه حرف المطاوعة ، وتاء الافتعال ، وكل حروف الزيادة التى تأتى لمعنى وظيفى ، هى فى الواقع تعبيرات شكلية عن الجهة ، تضيف معنى وظيفتها إلى المفهوم العام للفعل ، لتخصيصه فى الدلالة . والجهة تعبير يستغرق كل تصريفات الفعل ؛ بمعنى أنه يلحظ فى كل شكل من الأشكال التصريفية للمادة ، مثال ذلك أن نأخذ تاء الافتعال ، أوصيغة المطاوعة، كتعبير عن الجهة ، فسنجد أن المطاوعة تلحظ فى كل صيغة فى التصريف كما يأتى :

انكسرت ، انكسرت ، انكسر ،
انكسرنا ، انكسرت ، انكسرت ،
انكسرتما ، انكسرا ،
انكسرتم ، انكسرتا ،
انكسرتن ، انكسروا ،
انكسرن .

والجهة غير الزمن ؛ ومن الضرورى ألا نخلط بينهما فى الفهم . وهذا الخلط محتمل فى حالة التعبير عن الجهه بالظرف ؛ فهذه الظروف تختلف عن الدلالةالزمنية فى الأفعال . هذه الدلالة الزمنية فى الفعل ملحوظة مع وجود الظرف وعدمه ،

وهى الفرق الزمنى بين ضرب ، ويضرب ، واضرب . ومن التعبيرات الشكلية عن الجهة ؛

كان يضرب ، ظل يضرب ، أصبح يضرب ، مازال يضرب ، إنه يضرب ما فتىء يضرب ، وهلم جرا .

وإتيان هذه « النواسخ » لأداء وظيفة التعبير عن الجهة هو الذى دعانا فيما سبق إلى اعتبارها أدوات .

والتعدى واللزوم جهتان فى اللغة العربية ، يفرق بينهما بالهمز ، والتشديد ، كما فى شاع وأشاع ، ووفى ووفّى ومن ذلك أيضا ترديد صيغة الفعل معطوفة ، نحو « فكتبت وكتبت ، حتى لم أدع ممنى إلا طرقته» .

والترديد صورة أخرى من صور التعبير عن الجهة فى اللغة العربية ، نحو جرجر ، وعسعس ، وزمزم ، الخ والمعانى التى يضيفها الترديد ليخصص بها عموم دلالة الفعل هى الكثرة ، أو التكرار ، أو الكبر ، أو الشدة ، أو التعود ، أو الاستمرار .

ويمكن أن نلاحظ هنا ملاحظة عابرة أن هذا الترديد فى عمومه الذى يشمل الاسم على أنواع منها :

١ — البسيط : نحو إربا إربا ، وجرجر ، وعسعس ، ودكادكا .

٢ — المقفى : نحو شذر مذر ، حيص بيص ، ومن التعبيرات العامية شيله بيله ، وحرسه برسه .

٣ — متخالف : نحو الكلمات العامية يتكتك (بمعنى يحدث صوت مثل الموتوسيكل) ، حتحوت ، كركور (اسم منطقة) ، علمى علمك .

٤ — مخلخل : نحو الكلمات العامية يوم عسل ويوم بصل ، كده وكده ، نص ونص ، وهو مخلخل لتدخل الواو بين الأجزاء المرددة .

مظاهر التوافق السياقى

قلنا إن التوافق الشكلى فى السياق وسيلة من وسائل ترابط الأبواب فيه ، وإن هذا التوافق إنما يتضح فى جهات ثلاث : أولاها : النوع (أو التذكير والتأنيث) ، وثانيتها : العدد (أو الإفراد والتثنية والجمع) ، وثالثتها : الشخص (أو التكلم والحضور والغيبة) ، ونريد الآن أن نتكلم عن كل من هذه الجهات على حدة .

١ — النوع : ليس هناك صلة بين ما نسمية النوع فى النحو ، وبين ما نسميه الجنس فى الطبيعة . وبعبارة أخرى ، ليس هناك صلة بين التذكير والتأنيث فى النحو ، وبين الذكورة والأنوثة فى الطبيعة . فالتذكير والتأنيث نواح تطريزية تقسيمية خلافية للتفريق بين طائفتين من الكلمات من ناحية سلوكهما فى السياق، ولكن الذكورة والأنوثة مفهومان من مفهومات الدراسات الطبيعية ينبنيان على التفريق بين وظائف الأعضاء . فالكلمة التى تدل على ذكورة عضوية قد تحرم التذكير النحوى ، كحمزة ، الذى تلحقه التاء فى آخره . والفعل يؤنث جوازاً مع كل أنواع الجموع، حتى جمع المذكر السالم فى رأى الكوفيين ، ومع بعضها الذى يشمل جموع تكسير المذكر أيضاً فى رأى غيرهم[1] . فإذا أنث الفعل مع جمع المذكر ، فمعنى ذلك أن هذا الجمع عومل معاملة المؤنث ، وهذا إجراء يجوز نحواً ، ولا يجوز فى الطبيعة .

وارتباط التذكير والتأنيث النحوى إنما يكون باعتبارات تختلف فى لغة عنها فى الأخرى . ففى اللغة الألمانية تقسيم للأسماء من هذه الناحية إلى تسعة أنواع ، طبقاً لتسعة أنواع من الأعضاء الجسمية ؛ وتدخل كل كلمة فى القسم الذى يناسبها . أما الأوردية فبها تفريق بين الصغير وبين الكبير من هذه الناحية : فكلمة « دِبا » معناها صندوق كبير ، ودِبى » للصندوق الصغير . ويذكرنا ذلك

---

(١) الشذور ص ١٧٢ تعليق الشيخ محي الدين عبد الحميد .

بالعاميات العربية، والمصرية منها بصفة خاصة، حيث تضاف ألف لينة، وياء مفتوحة، وهاء ساكنة إلى أى اسم، لتدل على تصغيره وتأنيثه، حتى « راجل »، يمكن أن يصبح « راجلاية » فى بعض اللهجات، أى رجل صغير، ويعامل الاسم نحوياً معاملة المؤنث. وفى لغة بورما أربع عشرة جهة تقسيمية، فالأشياء تنقسم باعتبار التسطح، والفرطحة، والطول، وكونها للنقل، والحيوانات، والمجموعات والمركبات، والكهنة، والسوقة؛ وفيها اعتبار تقسيمى خاص لأمراء القصص، وأميراته. ويلاحظ الذين يتكلمون إلى النوبيين أنهم يدخلون التذكير والتأنيث الخاص بلغتهم فى كلامهم العربى، فيبدون وكأنهم يطرد فى كلامهم تذكير المؤنث، وتأنيث المذكر. وليس أدل على عدم الربط بين الأنوثة والتأنيث من أن كل الأسماء التى تدل على عضو التأنيث فى المرأة مذكرة فى اللغة العربية على ما أظن. وإن الشمس والقمر لمثالان رائعان لدراسة هذه الظاهرة فى لغات مختلفة، فالشمس مؤنثة فى العربية مذكرة فى الانجليزية، والقمر بالعكس. فالتذكير والتأنيث إذاً تطريز اجتماعى، يتفق أحياناً مع الواقع، ويختلف أحياناً أخرى، ولذا يجب التفريق بين النوع الذهنى، والنوع النحوى، لأنهما يختلفان كما تختلف فكرة الشخص عن ضمائر الأشخاص. وإن توزيع الأدوات المهنية بين التذكير والتأنيث فكرة لا يمكن تعليلها بنجاح إلا على أساس نحوى. فهل هناك أى سبب خارج النحو يبرر أن يكون المنشار، والقدوم مذكرين، وأن تكون المطرقة، والفأس، والمائدة، من الأسماء المؤنثة؟ ومن الأسماء التى تذكر حيناً وتؤنث حيناً آخر جمع شخص وشبح فابن أبى ربيعة يقول.

« ثلاث شخوص كاعبان ومعصر »

وجائز أن تقول ثلاثة أشخاص أو شخوص؛ ومثل ذلك يقال فى أشباح.

فالتذكير والتأنيث طريقة من طرق التقسيم النحوى، لإظهار التوافق فى السياق ليكون التماسك واضحاً فيه، ويعبر عنه تعبيراً شكلياً فى الغالب من حالاته. وفى اللغة الفرنسية يكون هذا التعبير الشكلى بأداة التعريف، كما فى الألمانية، فتعلم من شكل الأداة ما إذا كان الاسم الذى يليها مذكراً أو مؤنثاً. ولكن هل نستطيع

أن نقول قولا مؤكداً : إن شكل الأداة الفرنسية يتوقف على التذكير والتأنيث فحسب ؛ إنها تصحبهما دائماً بلا شك ، ولـكنها تدل كذلك على العدد ، وربما دلت أحياناً على الحالة ، كحين تدل على حالة البعضية فى "du pein" .

يقول أستاذى فيرث فى إحدى محاضراته : « وهناك نوع من التقسيم أحس به ، ولا أصر عليه ، ألمحه وراء الـكلمات التى تبدأ بالحرفين sl مثل :

slender, sleet, slip, sleek, slit, slink, slim, slight, slide, slick, slice, slince slither.

ويستطيع المرء أن يسلى نفسه بجمع الـكلمات التى تبدأ بالحرفين el أو str أو spr وهلم جرا ، فربما وجد شيئاً شائماً بينها لا يهمنى هنا أن أنص عليه . وتبدأ تسعون كلمة فى الهولندية بالحرفين 'sl' كلها للشتم والإهانة ، وقد استعير بعضها فى اللغة الجاوية ، فبدأ بالحرفين 'se' وهذا يستدعى إلى الذهن أن تقسيم الـكلمات بحسب أثرها الذهنى شائع فى اللغات الجرمانية . وربما كان هناك صلة بين الصوت والشـكل كما ترى فى المثالين الآتيين :



هاتان الـكلمتان (أومبوبو وكيكيريكى) لا تدلان على معنى معين فى أية لغة على ما أعلم . ولـكن الطلبة من جميع الأمم ينسبون الاسم الأول إلى الشكل الأول، والاسم الثانى إلى الشكل الثانى[1] فإذا صح أن هناك صلة بين الشكل والأثر الصوتى ، فإن ذلك يفسر اتجاه الأوردية إلى التفريق بين الـكبير والصغير فى التذكير والتأنيث .

---

(١) محاضرات الأستاذ فيرث فى العام الدراسى ٤٨ — ١٩٤٩

والتوافق بين المسند والمسند إليه فى التذكير والتأنيث مطرد فيما إذا وقع الفعل فى جملة الخبر ، نحو « هند قامت » ، « وإذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت » فتقدم المذكر أو المؤنث أو ما فى حكمه يقتضى التوافق التام فى التذكير والتأنيث بينهما وبين الفعل الواقع فى جملة الخبر ، وكذلك إذا تأخر المسند إليه فكان فاعلا ، أو نائب فاعل ، مؤنثا تأنيثا حقيقياً ، ، غير منفصل عن الفعل ، سواء كان مفرداً أو جمعاً ، نحو « قامت فاطمة » ، « وقامت الهندات » . فإذا فقد شرط من ذلك ، بأن كان المؤنث المتصل بالفعل مجازياً أو جمعاً أو فصل بينه وبين فعله بغير إلا ، فتأنيث الفعل أرجح ، نحو « طلعت الشمس » ، « وجمع الشمس والقمر » ، و « قام أو قامت الزيود » ، و« كيف كان عاقبة المكذبين » ، و «قام أو قامت اليوم هند » ، و « إن امرأ غره منكن واحدة » . أما إذا كان الفصل بإلا ، فتذكير الفعل أرجح نحو « ما قام إلا هند » .

وصفة الاسم ، والحال منه يذكران لتذكيره ، ويؤنثان لتأنيثه . أما الأعداد من ثلاثة إلى تسعة ، فبالعكس . وهذه القاعدة التى تقرر صلة العدد بالمعدود فى التذكير والتأنيث تكشف تماماً عن التباين بين وجهتى النحو والمنطق العلمى فى علاج التذكير والتأنيث ، والذكورة والأنوثة .

٢ — العدد :

وقد ذكرنا أن المقصود بالعدد الإفراد والتثنية والجمع . وفكرة التقسيم إلى مفرد ومثنى ومجموع فكرة اعتباطية لغوية إلى أقصى حد . فليس هناك أى سبب منطقى لجعل العدد (واحد) طبقة خاصة ، واختصاص (الاثنين) بطبقة أخرى ، ثم حشد جميع الأعداد بعد ذلك فى طبقة ثالثة هى الجمع . والعدد ، كالتذكير والتأنيث ، ليس إلا عادة نحوية صرفية من عادات اللغة . وكما لا تعقد الصلة بين التذكير والتأنيث ، وبين الذكورة والأنوثة ، لا تعقد كذلك بين الإفراد والتثنية والجمع ، وبين الأعداد والأرقام الحسابية . ونحن نستعمل الأرقام فى الحساب ، والرياضة ، وفى عد الفقرات والصفحات ، وهلم جرا ، وليس كذلك استعمالنا

للإفراد والتثنية والجمع . ومايعبر عن الجمع من الناحية النحوية قد يدل على المفرد من الناحية الحسابية . فمن العادات الكتابية الديوانية ، أن تكتب إلى رئيس الإدارة ، أو وزير الوزارة « أعرض عليكم ما يأتى » :

ولقد كانت المراسيم تصدر، وفى بدايتها « نحن ملك مصر » ، حيث كان يقصد « أنا » .

واللغة العربية من اللغات القليلة التى احتفظت بالمثنى فى تطريزها النحوى . ولقد عرفت اللغات الهندية الأوربية المثنى فى القديم ، ولكنها فقدته . لأن حاجتها إلى إفراد المثنى بصيغة لغوية خاصة لم تعد ملحة كما كانت . وتعبر الإنجليزية الحديثة عن المثنى أحياناً بطريق الكلمات الخاصة . لا بطريق الصيغ النحوية ؛ ومن ذلك مثلا استعمال التراكيب الآتية :

twô boys, both boys, a couple of boys, a brace of boys.

والكلمتان (brace و couple) من نوع dozen و score و gross ، وبقية الكلمات ذات الدلالة على تقسيمات خاصة غير الإفراد والتثنية والجمع .

وللعربية تعبيرات شكلية خاصة عن المفرد والمثنى والجمع ، فى الاسم والضمير والفعل ، وتقسيمات للجمع إلى جمع تصحيح ، وجمع تكسير ولهذا الأخير إلى جمع كثرة ، وجمع قلة ، وإلى جمع له مفرد ، وجمع لامفرد له ، وهلم جرا

ويجرى العد فى بعض لهجات الصعيد بحسب المعدود ، على نماذج مختلفة . فإذا كان المعدود نقودا ، أوناسا ، أوقطيعا ، جرى العدد على نمط (واحد اثنان ثلاثة الخ) وإذا كان المعدود بلحا ، أوفاكهة ، جرى على نمط (فرد ، جوز ، ثلاثة حب ، تورة الخ) .

وربما استعملوا (قيط ، بدل (جوز) . ومع هذا لايمكن القول بأن هذا وثيق الصلة بالإفراد والتثنية والجمع فى النحو .

وتعطينا اللغة العربية الفصحى أروع مثل لعدم منطقية التطريز اللغوى، حيث يميز الجمع بالمفرد ، فى نحو قولنا: ألف رجل، والأيام السعيدة، وحيث يوصف جمع التصحيح بجمع التكسير ، فى نحو قولنا : المحاربون القدماء ، ويجرى العكس ، فى نحو

« القوم الـكافرون » ، وحيث تشمل اللغة كلمات تدل منطقيا على جمع ، ونحويا على مفرد ، نحو جمهور . وحكومة ، وطائفة ، وأمة ، وبرلمان .

ويجب أن تفرق بين العدد ، واسم العدد ، والرقم ، فإذا رأيت :

٣ × ٤ = ١٢ فهذه أرقام لها لغة وكتابة قائمة بنفسها .

ويقولون إن العربية عرفت الأرقام من الهندية . والرقم ٣ عربى ولـكن الرقم (3) افرنجى أما ثلاثة فى أربعة تساوى إثنى عشر ، فهذا تعبير بأسماء الأعداد لا بالأرقام وأما ثلاث أربعات تساوى اثنى عشر ، فاسم العدد الأول (ثلاث) مفرد واسم العدد الثانى (أربعات) جمع مؤنث سالم ، والثالث مركب صدره مثنى مضاف وعجزه مفرد . أما العدد فهو مدلول اسم العدد ، أى مايطلق اسم العدد عليه ، فهو فـكرة لا كلمة ولا رقم .

ومما يعتبر من باب أسماء الأعداد ، ولـكنه أقل منها محدودية ، مايضاف من نحو بعض ، وكل ، وأى ، ومايأتى من نحو كثير ، وقليل . ولست أدرى إن كان يحق لى أن أقول إن أسماء الموصول التى تستخدم فى الاستفهام أو الشرط مثلا تدل منطقيا على عدد شائع غير محدد . تأمل المثالين :

من يقف هناك ؟ والذى يقوم فله درهم .

ثم انظر إن كنت توافقنى أو تخالفنى فى هذا القول . ومع هذا فإن هذين الموصولين من الناحية النحوية الشكلية ليسا إلا مفردين . وأمامن يقفون هناك والذين يقومون فلهم خمسة دراهم ، فإن من والذين فيهما فى صيغة الجمع . فـكأن الذى يقرر إفراد من أو تثنيتها ، أو جمعها ، إنما هى علامة التوافق التى تأتى فى صلتها ويتضح ذلك فى مقارنة أمثلة مثل :

من يقوم ، من يقومان ، من يقومون .

فاتحاد شكل من فى الحالات الثلاث لاينفى أنها مفرد فى المثال الأول ومثنى فى الثانى وجمع فى الثالث، ومغزى هذا بالطبع ألا ربط الشكل بالفـكرة المنطقية ، وليس العدد النحوى إلا توافقـا سياقيا فى خدمة التطريز اللغوى والمقتضى الاجتماعى

٣ — الشخص :

ومما له صلة بالنوع والعدد النحويين ، ويقع معهما تحت عنوان التوافق ، الشخص . ويقصد بالشخص المتكلم أو المخاطب أو الغائب ، ولست أرى صلة بين الشخص النحوى والشخص أو الشخصية فى الفلسفة والتربية . ومن هنا كانت « الشمس تطلع » و« الحصان يجرى » ، فى صيغة الشخص الغائب من الناحية النحوية . و« من » الاستفهامية غير شخصية ، لعدم تنوع دلالتها على الشخص ، فهى دائماً للغائب . ومثلها الأسماء الموصولة ، أما « هو » ، فإنها مع دلالتها دائماً على الغائب ، تعتبر واحدة من نظام ضمائر متنوع الدلالة على التكلم والحضور والغيبة .

والشخص أوضح ما يكون فى الضمائر ، ولكن الكثير من اللغات يتوسع فى التعبير الشكلى عن الشخص ، حتى يشمل الأفعال، كما فى اللاتينية، والطليانية والعبرية ، والعربية . فى اللاتينية القديمة كانت كلمة « ago » ، ككلمة « amo » تأتى حين يراد التأكيد ، ولكنها كانت كلما تقدم بها الوقت أضيفت إليها الضمائر بشكل واضح . والفرنسية من اللغات التى تختلف فيها صيغة الفعل باختلاف الشخص ، ولكن الإنجليزية أقل حظاً من هذا الاختلاف . قارن الصيغ الآتية :

j'amie	tu aimès	il aime
I can	you can	he can
I go	you go	he goes
I shall go	you will go	he will go

ولا يظن القارىء أن الشخص ينقسم إلى هذه الثلاثة (التكلم والخطاب والغيبة) فى الإفراد والتثنية والجمع فحسب ، فهناك إمكانيات كثيرة أخرى . فالشخص فى بعض اللغات ذو أقسام سبعة ، وفى لغة جزيرة (فيجى) ، فى جنوب المحيط الهادى ، أربعة أعداد ، وخمسة عشر شخصاً . ويوضح هذا مرة أخرى مدى الحاجة إلى علاج كل شىء على علاته ، لا على أساس المنطق .

وتعبر اللغة العربية بصيغة الفعل عن الشخص ، كما يتضح ذلك من الجدول التصريفى الآتى :

أقوم	تقوم	يقوم
نقوم	تقومين	تقوم
	تقومان	يقومان
	تقومون	تقومان
	تقمن	يقومون
		يقمن

فإن قال قائل إن الضمير المتصل موجود فى هذه الصيغ ، ليدل على الشخص ، قلنا انظر إلى الصيغ : أقوم ، نقوم ، يقوم ، تقوم . فالتى فيها حروف المضارعة ، لا الضمائر . ومع ذلك يدل الأول والثانى منها على التكلم ، والثالث على الغيبة ، والرابع على خطاب المذكر ؛ أو غيبة المؤنثة .

وفى الضمائر الدالة على الشخص فى حالة الجمع ما يدعو دائماً إلى التأمل ؛ لأن الظروف الاجتماعية المتنوعة تقتضى تنوعاً فى الاستعمال ، فبجوار نحن ، وأنتم ، وهم ، توجد أنواع أخرى من صيغ الجمع ، قد لا تدخل دخولا مقبولا فى دراسة النحو ، ولكنها جزء لا يتجزأ من الدراسات اللغوية الاجتماعية . لاحظ مثلا :

نحن وإياكم ، أنا وأنت ، أنا ومحمد ، أنت وعلى ، أنا وحزبى ، هو وزملاؤه كلنا ، من كان منا ، وطائفة منا .

ويميز دائماً فى الانجليزية بين الدلالات الجامعة ، والدلالات ذات الإخراج ، فى استعمال بعض الضمائر نحو (١) let us go فى مقابل (٢) let's go

والفرق بينهما يتضح فى أن (١) ربما تساوى (٢) ويكون المعنى فيهما « دعنا نذهب » (أى وأنت معنا) ، على حين تختص (٢) بمعنى آخر ، إذ تستعمل بمعنى

بمعنى اتركنا نذهب (أى ولا تذهب معنا) ، وحينئذ لا يدخل السامع فى مدلول « us » .

ولأحد المبشرين فى أفريقيا قصة شهيرة طريفة : فقد كان فى لغة الزنوج فى المنطقة التى عمل فيها عدد من الضمائر بمعنى نحن ، تختلف جمعا وإخراجا ، منها ما يقصد به « نحن الحاضرين » ، ومما يقصد به « أنا ومن قبلى » ،أو «أناوشخص آخر » ، وهلم جرا . وقد وقف هذا المبشر واعظا هؤلاء الزنوج بلغتهم ، فقال لهم فيما قال : « نحن مذنبون ، ونحن ولا شك نحتاج إلى من يهدينا » . ولقد كان الضمير الذى استعمله ، لسوء حظه ، هو ما يقصد به : « أنا وشخص آخر » ، مع إخراج السامعين طبعاً ، مع أنه كان يقصد « أنا وأنتم » .

ويجب أن نلاحظ أنه ربما كان هناك اختلاف بين الشخص النحوى والشخص الفلسفى . وإن استعمال الجمع للتأدب فى الأوردية يقتضى أن يستعمل المرء «خادمكم الوضيع » ، بدل « أنا » . وتتصل أسماء الإشارة فى اللغات اتصالا وثيقاً بالشخص النحوى ، فهذا للقريب يدنو من معنى الحضور ، وذاك للبعيد يدنو من معنى الغيبة، وحين يقال فى الإنجليزية .

This man أو That man

بدل The man ، تدخل The فى دراسة الشخص النحوى ، وقد يدل التنغيم الخاص على البعد ، كما يحدث فى العاميات العربية فى تنغيم كلمة « هناك » ، أو « بعيد » بمد طويل .

وتستعمل كل لغة من الأشخاص ما يناسبها ، ولعل القارىء يلاحظ استعمالات فى اللغة العربية ، مثل إن أحدكم ليفعل كذا ، وإن المرء ، وإن الإنسان ، واعلم ، وأبقاك الله ، وأطال الله بقاءك ، حين يستعمل كل ذلك فى صورة مكتوبة ،فيحتاج تطبيقه على التكلم والحضور والغيبة إلى شىء من التأمل . وجدوى الشخص النحوى واضحة فى التوافق السياق ، وفى التمكين من خلق الجدول التصريفى ،

فهذا النوع من التطريز صالح للعمل أفقيا فى السياق النحوى ، ورأسيا فى الجدول الصرفى .

منهج المعجم

يدور المعجم حول الكلمة إيضاحاً وشرحاً ، ليجلو منها ما نسميه المعنى المعجمى. وهذا المعنى قاصر فى حقيقته عن المعنى الاجتماعى أو الدلالى الذى يعنى بتتبع الجملة ، أو قل « الحدث الكلامى » وما يحيط به من ماجريات ، على نحو ما سنشرحه فى منهج الدلالة . ولندلل على قصور المعنى المعجمى عن أن يحدد المدلول تحديدا يرتبط بالموقف ، نسوق الأمثلة الآتية التى يشتمل كل منها على كلمة صاحب :

صاحب الفضيلة — صاحب البيت — صاحبى — صاحب المصلحة — صاحب الحق — صاحب رسول الله — صاحب نصيب الأسد ، وهلم جرا .

فالصاحب الأول ملقب ، والثانى مالك ، والثالث صديق ، والرابع منتفع ، والخامس مستحق ، والسادس معاصر ، والسابع مقتسم . وسوف لا يأتى المعجم بكل تفصيلات الكلمة على هذا النحو ، ولكن سيأخذ منها القاسم المشترك ، فيجعله معنى معجميا للكلمة ، وسيشغل نفسه أحيانا ببقية مشتقات المادة عن مشتق بعينه . ولست أدعى ما أتيت به فى شرح كلمة « صاحب » اجتماعيا دلاليا كاملا ، لأن مثل هذا المعنى الدلالى يحتاج إلى تحليل بطريقة خاصة ؛ ولكن ما أتيت به هنا إيضاح للقصور فى المعنى المعجمى ، الذى قد يفوته أن يذكر — بين معانى صاحب — معنى اللقب ، وهو جديد ، ومعنى المعاصر ، وهو قديم .

وما دامت الكلمة مادة للمعجم ، يدور حولها نشاطه ، فإن هذه الكلمة تحتاج إلى شرح وتحليل . « الكلمات وحدات لغوية ، ولكنها ليست وحدات أصواتية: وليس فى التحليل الأصواتى لنسق من الأصوات المنطوقة ما يكشف لنا عن عدد الكلمات التى يتكون منها هذا النسق ، ولا عن الحد الفاصل بين كلمة وكلمة»[1] .

---

(1) Jespersen, The Philosophy of Grammar, p. 92.

ويتضح ذلك فى التراث الضخم الذى تركه لنا الأدباء من الجناس مثل قول بعضهم :

كالكم قد أخـــذ الجـا م ولا جام لنـــا

ما الذى ضر مدير الـ جام لو جاملنــــا

وقول بعضهم :

إذا ملك لم يكن ذاهبة فدعه فدولته ذاهبــة

فإذا لاحظنا الفرق بين حدّى الكلمة فى « جام لنـا » ، و « جاملنـا » ، وفى « ذاهبة » ، و « ذاهبة » (الأولى بمعنى صاحب هبة والثانية بمعنى زائلة) ، أدركنا أن التحديد لا يمكن أن يتم على أساس أصواتى محض ، وأدركنا كذلك مدى الصواب فيما يقوله يسپرسن .

وإذا استعرضنا تعريفات مختلفة للكلمة ، شرقية وغربية ، وجدنا فى النهاية أن فكرة الكلمة — كبعض الأفكار اللغوية الأخرى — لا يمكن أن تعرف تعريفاً ينطبق عليها فى كل اللغات ، وإنما تستقل فى كل لغة بتعريف خاص بها ، مستق من طبيعة اللغة ، ووسائلها الخاصــة فى التركيب . يقول ڤندريس[1] : « وبالنظر إلى هذا التنوع فى طرق البناء الصرفى ، لا بد أن تعرف الكلمة تعريفاً مختلفاً لكل لغة» . ولقد حاول الباحثون من قبل أن يعرفوها تعريفاً شاملا ، ولكن لم يكتب لواحد من هذه التعريفات أن يرقى عن مدارج النقد .

فالتعريفات العربية للكلمة — برغم اعتمادها على طبيعة اللغة العربيــة — إما أن تخلط بين الكلمة واللفظ والقول، كقول الأشمونى[2] : «الكلمة هى اللفظ المفرد » ، وقول صاحب الشذور : « الكلمة قول مفرد »[3] ، وهـذا تعريف صادق على كل نطق بين سكتتين ، ولو كان جملة أو أكثر ، لأن إفراد اللفظ أو القول معناه أن يكون بين سكتتين ؛ وإما أن أن تضيف إلى هذا الخلط خلطاً آخر ،

---

(1) Language , P. 87.

(٢) راجع الأشمونى .

(٣) راجع شذور الذهب ص ١٠ .

بأن تبنى التعريف على العلاقة بين الكلمة ومعناها ، أى الفكرة التى تعبر عنها ، كقول ابن عقيل[١] : « الكلمة لفظ وضع لمعنى مفرد » ، فهذا يصدق على باء الجر التى وضعت لمعنى مفرد هو المصاحبة ، مع أنها ليست كلمة . وإما أن تزيد الطين بلة بأن تدخل فى تعريف الكلمة أفكاراً منقوضة كفكرة التقدير[٢] ، كقول صاحب الهمع[٣] « وقد اختلفت اعتباراتهم فى حدّ الكلمة اصطلاحا ، وأحسن حدودها (قول مفرد مستقل أو منتوى معه) » . فنية اللفظ إنما تكون عند عدم وجوده ، وتكون فى صورة تقديره فى الكلام ، ويمثل السيوطى لذلك بأنت فى قُم .

ويمكن تلخيص العيوب التى فى هذه التعريفات فيما يأتى :

١ — أنها لا تفرق بين الصوت والحرف ، أى بين عملية النطق والنظام الذى تجرى عليه .

٢ — أنها تخلط بين الوظيفة اللغوية ، والمعانى المنطقية والوضعية .

٣ — أنها لاتفرق بين وجود الكلمة وعدمها فى تعريفها ، وهذا ما يؤدى إلى الخلط فى التفكير .

ولقد حاول اللغويون المحدثون أن يحددوا ماهية الكلمة ، وأن يخلقوا القواعد التى يمكن على أساسها أن يوجدوا الحد الفاصل بين كلمة وكلمة فى السياق ، فأتوا فى ذلك بنتائج يمكننا أن نلخصها فيما يأتى :

١ — يقول بلومفيلد Bloomfield[٤] «الكلمة أصغر صيغة حرة» . وهذه الحرية يمكن انتقادها بأنها تحمل فى طياتها شيئا من الغموض ، لأن بلومفيلد لم يحدد نوعها . فهو إذا أراد بها إمكان عزل الكلمة عن سياقها ، فإن الجمل ذات

---

(١) راجع ابن عقيل .

(٢) راجع الرد على النحاة ص ٩٩ — ١٠٣ .

(٣) همع الهوامع ص٣ .

(4) Langnage , P. 178 .

الكلمة الواحدة « كنحو زيد فى جواب من قرا » يصدق عليها هذا التعريف ، كما يصدق أيضا على «من» الاستفهامية المفردة ، و«لا» النافية المجاب بها « هل رأيت زيدا ؟ » ، وكلتاهما جملة بنفسها .

٢ — ويقول سابير Sapir [١] « إن العناصر اللغوية ذات المعانى هى بصفة عامة أنســــاق من الأصوات ، إما أن تكون كلمات ، أو أجزاء ذات معان من الكلمات ، أو مجموعات من الكلمات .

أما مايميز بين هذه العناصر ، فهو أنها علامات خارجيــة لفكرة خاصــة ، سواء كانت هذه الفكرة معنى مفردا ، أو صورة ، أو عدداً من المعانى والصور ، مندمجة اندماجا واضحا فى كل » .

ويمكن تلخيص ماهية الكلمة من تعريفه هذا بأنها (ا) نسق من الأصوات ، (ب) صورة خارجية لفكرة . وهذا شبيه جدا بالتعريفات العربية التى تقدناها .

٣ — ويقول مييه Meillet [٢] : « تعرف الكلمة بأنها ربط معنى ما بمجموعة ما من الأصوات ، صالحة لاستعمال جراماطيقى ما » وهذا التعريف صالح للمورفيمات ، وللجمل ، وأجزاء الجمل أيضا . أضف إلى ذلك أن الاستعمالات الجراماطيقية لاتهتم بالكلمات ، وإنما تهتم بالأبواب التى تعتبر الكلمات أمثلة لها فى السياق .

٤ — وعند جاردنر Gardiner [٣] « أن الكلمات ذات وجهين فى طبيعتها ، فوجه هو المعنى ، ووجه آخر هو الصوت . وحيث تكون الكلمات فى ملك كل شخص ، تكون من ناحية جواهر طبيعية مكونة من منطقة المعنى من جهة ، ومن صورة صوت معين من جهة أخرى ؛ هــــذا الصوت صالح لأن يعاد نطقه بالإرادة . والكلمات فى حقيقتها نفسية ، وهى مواد للمعرفة والتعلم ، مع أنهــا فى أحد جانبي طبيعتها تشير إلى حدث عضوى تمكن إعادته بحسب الإرادة » .

---

(1) Language, P. 25.

(2) Lingu st que Historique et Ling. Génér. P. 30.

(3) Speech & Language, PP. 69 – 70.

وهذه ثنائية ديكارتية ، واقعة تحت نفوذ نظرية دى سوسور اللغوية ، وجانحة بلا مواربة إلى غموض عالم النفس . وليس الباحث اللغوى بحاجة إلى أن يبنى أفكاره على أسس غريبة عن منهج اللغة . وتعريف جاردنر فى مجموعه مبنى على مجازات ، أكثر مما هو مبنى على اصطلاحات لغوية . لاحظ فى التعريف استعمال كلمات : الحقيقة — الطبيعة — الفكر — المعرفة — التعلم — النفس .

والكلمات كما ذكرنا وحدات لغوية لا أصواتية ؛ هكذا اعتبرها الجميع ، حتى هؤلاء الذين يخلطون بين الكلمة واللفظ . يقول بلومفيلد[1] : « ليست الكلمة وحدة أصواتية بصفة مبدئية ، فلسنا نحدد أجزاء كلامنا التى يمكن استقلالها بسكتات ، أو مظاهر صوتية أخرى ، ومع ذلك تمنح اللغات المختلفة اعترافا أصواتيا للوحدات الكلامية ، بطرق متعددة . يفعل البعض ذلك قليلا ، كالفرنسية ، والبعض الآخر كثيرا ، كالانجليزية » .

ويرى يسپرسن[2] : « أن الوسائل الأصواتية الخالصة لا تصلح لتحديد حدود الكلمات » . و « يضاف إلى الإحساس بالكلمة — غالباً لا دائماً — خصائص أصواتية معينة ، تساعد على التحديد الخارجي للكلمات »[3] .

ويقول فندريس[4] : « تحمل الكلمة فى نفسها علامة استخدامها ، والتعبير عن قيمتها الصرفية . فلها بنفسها كمال لا يدع الحاجة ماسة إلى شىء » .

ويتطلب إيجاد الحدود الفاصلة بين الكلمات فى السياق عديداً من الطرق والمناهج التى أهمها :

١ — الإفراد عن السياق ،

٢ — الحذف من السياق ،

٣ — الحشو فى السياق ،

---

(1) Langnage . P. 181 .
(2) Phil. of Gram. PP. 92—5.
(3) Sapir, Lang. PP. 35—9.
(4) Lang . P.

٤ — الإبدال فى السياق ،

٥ — استخدام العلامات الموقعية فى الكلام .

فإذا استخدمنا هذه الوسائل فى تحديد الكلمة العربية ، أمكننا مثلا أن نقول: « هم » تصلح للإفراد عن السياق باعتبار ، ولا تصلح لذلك باعتبار آخر . فهى لاتفرد إلاّ فى حالة الرفع ، وأما فى حالتى النصب والجر ، فلا يمكن إفرادها عن السياق ، لأنها حينئذ ليست كلمة مستقلة ، وإنما تعتبر ملحقة بكلمة هى جزء منها .

وأما من جهة الحذف من السياق ، فدعنا نتأمل جملة مثل « هم أنفُوا منهم » لنجد أن الضمير المرفوع فى البداية يمكن أن يستخرج من الجملة . ولكننا لانستطيع استخراج الضمير الثانى المنصوب ، لأنه مرتبط بعنصر آخر من عناصر الجملة ، لا ينفك عنه ، ومن هذا أيضاً يؤخذ أن الضمير المرفوع كلمة ، وأن المنصوب جزء من كلمة .

ويمكن من ناحية اختبار إمكان الحشو فى الجملة ، أن نرى مسلك الضمير فى حالاته المختلفة فى جملة مثل : « كان المسلمون فى القرن التاسع الميلادى هم أصحاب أكبر ملك الدنيا » بإضافة ضمير الرفع ، مع وجود الفاعل فى الجملة ، فالضمير هنا أمكن حشوه فى الجملة . ولكن هل يمكن أن نضيف الضمير المنصوب فى جملة مثل : « خاف العالم فى القرن التاسع الميلادى المسلمين أصحاب أكبر ملك فى الدنيا » فنجعل الضمير بين كلمتى المسلمين وأصحاب ؟ الجواب لا ، طبعاً . ومن هذا يؤخذ أيضاً أن ضمير الرفع كلمة ، وأن ضمير النصب جزء من كلمة ، ولو اتحد الشكل .

وأما من ناحية تغيير الموقع فى السياق ، فإن جملة مثل : «هم السادة الأخيار» يمكن أن يتغير فيها موقع «هم» ، فتصير « السادة الأخيار هم » ولكننا إذا قلنا : « منهم السادة الأخيار » ثم أردنا تغيير موقع الضمير وحده ، كما فعلنا أولا ، فلن نستطيع ؛ لأن ما يمكن هنا أحد شيئين :

١ — أن تغير موقع حرف الجر تبعاً لتغيير موقع الضمير ، وهذا ينفى أن يكون الضمير كلمة مستقلة .

٢ — وأن تغير موقع الضمير فحسب ، وذلك يغير المعنى المقصود ، لأن الجملة حينئذ تصير : « من السادة الأخيار هم » ؛ وهذا يغاير معنى الجملة الأولى . ويؤخذ من هذا أيضاً أن هم (ضمير الرفع) كلمة مستقلة ، وليس كذلك ضمير النصب .

وأما من جهة الإبدال فى السياق ، فدعنا نختبر مسلك الضمير فى جملة مثل : « المسلمون أخيار ؛ بل هم خير أمة أخرجت للناس » ، حيث يمكن أن نستبدل المسلمين بالضمير ،فتصير الجملةفى صورتها الجديدة : « المسلمون أخيار ؛ بل المسلمون خير أمة أخرجت للناس » .

ولكن ذلك لا يحدث فى حالتى النصب والجر ، قارن مثلا : « يقع بيت محمد على شاطىء النيل » ، بجملة أخرى هى : « يقع بيته على شاطىء النيل » ، وستجد كلمة « بيت » ، وكلمة « محمد » ، مستقلتين فى الجملة الأولى ، وتجد ما سد مسدهما كلمة واحدة فى الجملة الثانية ، هى « بيته » . ومن هذا نستطيع أن نقول إن « محمدا » كلمة بمفردها ، وإن ضمير الجر المضاف إلى البيت فى الجملة الثانية جزء من كلمة « بيته » . واستقلال محمد هنا كاستقلال ضمير الرفع فى الجمل السابقة .

ومن العلامات التى تدل على الموقع فى اللغة العربية واو العطف ؛ فهى دائماً فاصلة بين كلمتين ، أى أنها دليل على نهاية كلمة سابقة ، وبدء كلمة لاحقة ، فتقف حداً معينا لطرفى الكلمتين ، لايمكن أن يخطىء فيه السامع . فإذا علمنا ذلك اتضح لنا أن » هم » فى » نحن وهم » كلمة مستقلة ، وليست كذلك فى « لنا ولهم » ؛ لأننا لا نقول « لنا وهم » . يتضح من هنا جميعه أن الضمير المنفصل كلمة مستقلة كالاسم الصريح سواء بسواء ،وأن الضمير المتصل جزء من كلمة ، ويمكن توضيح ذلك بالجدول الآتى .

ضمـــائر متصـــلة

ضمير منفصل	رفع	نصب	جر
أنا ،	— تُ ،	— ى ،	— ى .
نحن ،	— نا ،	— نا ،	— نا .
أنتَ ،	— تَ ،	— كَ ،	— كَ .
أنتِ ،	— تِ ،	— كِ ،	— كِ .
أنتما ،	— تُمَا ،	— كُمَا ،	— كُمَا .
أنتم ،	— تُم ،	— كُم ،	— كُم .
أنتن ،	— تُنّ ،	— كُنّ ،	— كُنّ .
هو ،	— ،	— ه ،	— هُ أو هِ .
هى ،	— تْ ،	— ها ،	— ها .
هما ،	— ا ،	— هما ،	— هما .
هما ،	— تا ،	— هما ،	— هما .
هم ،	— وا ،	— هُم ،	— هم أو هِم
هن ،	— نَ ،	— هن ،	— هن .

ويمكن تطبيق هذه الأسس الستة فى تحديد كلمة عربية ، لمعرفة أين تبدأو أين تنتهى . ولم يكن واضعو الكتابة العربية مخطئين حين فرقوا عمداً فى الشكل الكتابى بين اللفظين المتجانسين فى البيتين

كلكم قد أخـــذ الجـــام ولا جـــام لنـــا
ما الذى ضر مـــدير الجـــام لوجـــا ملنـــا

فإن وراء الفصل فى الحالة الأولى ، والوصل فى الحالة الثانية ، نظرية لغوية لها وزنها وخطرها ، لا من الناحية المعجمية فحسب ، بل من نواح أخرى كثيرة ، نحوية ، وصرفية ، وتشكيلية ، وأصواتية ، ليس هنا محلّ لذكرها .

وبعد فما الكلمة العربية التى يدور حولها نشاط المعاجم ؟ لست أريد القارىء

أن يتوقع منى التعريف التقليدى : « الكلمة لفظ مفرد » ، لأنى قد نقدته ، ولا أدرى إن كنت قد نقضته أيضاً . ولست أريده أن يتوقع التقسيم التقليدى : « الكلمة اسم ، وفعل ، وحرف » ، ليحل محل التعريف المنقود ؛ لأن هذا التقسيم لا يحل المشكلة من الناحية المعجمية من جهة ، وقاصر عن أن يشمل جميع أقسام الكلام العربى ، كما رأينا منذ قليل . فالتعريف الذى أريد أن أسوقه إذاً تعريف يتصل بوظيفة الكلمة أكثر مما يتصل بتقسيمها ، وسوف لا أبنى هذا التعريف على الشكل الإملائى العربى ؛ لأن الإملاء العربى نظام لغوى قائم بذاته كالنحو ، والصرف ، والمعجم ، ولأن العرف قد وضعه بشكله المعين ، دون رجوع شامل إلى مقتضيات الدراسات اللغوية التى ترتبط به؛ حتى إنك لتجد جملة بأكملها متصلة فى الكتابة ، نحو : « سنستقبلهم » وتجد كلمة واحدة يستقل كل رمز منها عن الآخر ، نحو « داود » ، و « وزارة » .

فالكلمة العربية فى تعريفها « صيغة ذات وظيفة لغوية معينة فى تركيب الجملة تقوم بدور وحدة من وحدات المعجم ، وتصلح لأن تفرد ، أو تحذف ، أو تحشى ، أو يغير موضعها ، أو يستبدل بها غيرها ، فى السياق ؛ وترجع فى مادتها غالباً إلى أصول ثلاثة ، وقد تلحق بها زوائد » .

« ما المعجم »

بعد أن شرحنا الكلمة ، وعرفناها ، ووصفنا كيف يكشف عن حدودها فى السياق ، يلزمنا بعد ذلك أن نقرر ما هية المنهج الذى يتخذها مادة له ، ويدور حولها شرحاً ، وتحليلا تاريخياً ، بطريقة تختلف عن طريقتى النحو والصرف . والواقع أن الدراسات اللغوية كلها تركز اهتمامها على المعنى ، ويأخذ المعنى فى الأصوات صورة القيم الخلافية بين الصوت والصوت ، وفى التشكيل صورة هذه القيم بين الحرف والحرف ، وبين المقطع والمقطع ، وبين النبر والنبر ، وبين النغمة والنغمة ، وأما فى الصرف فيبدو فى صورتها بين الصيغة والصيغة ، وفى النحو

بين الباب والباب . أما فى المعجم ، فالأمر مختلف ، لأن المعنى المعجمى قلما يتم بيانه على نمط سلبى ، وإنما يشرح دائماً بطريقة إيجابية .

ويعترف سويت[1] ويسبرسن[2] بالحد الفاصل بين الجراماطيقا والمعجم ، حيث يدعيان أن الجراماطيقا تعالج الحقائق اللغوية العامة ، على حين يتناول المعجم الحقائق الخاصة . فكلمة "Cat" تدل على الحيوان المعين ، وهى لهذا حقيقة خاصة بهذا الحيوان ، ولكن تكوين الجمع بإضافة 's' إلى هذه الكلمة حقيقة عامة فى اللغة ، لا تخصها وحدها ، وإنما تتناول جمهرة الكلمات الأخرى التى تعامل نفس المعاملة . فإذا خطرت ظاهرة جمع بغير هذه الإضافة ، كما فى "Oxen" ، فهناك ما يبرر أن يتم علاجها فى المنهجين معاً ، منهج الجراماطيقا ومنهج المعجم ، وإلا ضلّ المطلع على أحد المنهجين دون الآخر ، فاستعمل فى الجمع كلمة Oxes قياساً على غيرها .

والصيغ العددية التى تدرس فى النحو يجب أن تدخل فى مجال المعجم أيضاً ، بما فيها من مشتقات ، كثالث ورابع . والأدوات كذلك تدرس على المنهجين كليهما ، ولكل أداة مكان فى المعجم ، لا يقل عن مكان « كان » ، و « ظل » ، و « ظن » وما يسمونه النواسخ فى النحو ، ولهذا جميعه يقول سويت ، كما يقول يسبرسن : إن المعجم والجراماطيقا متداخلان .

والمعجم والجراماطيقا فى الحقيقة متكاملان ، بمعنى أنهما طريقتان لتناول المعنى من وجهتى نظر مختلفتين ؛ فالمعجم قمة الجراماطيقا وتاجها . وكثير مما نسميه «فسيولوجيا الأصوات» يقع خارج نطاق اللغة ، ولكن المرء حين يقارن كلمتى «راح» « ولاح » ، يركز اهتمامه على القيمة الخلافية بين الكلمتين ، وهى تتمثل فى الفرق بين صوتى الراء واللام ؛ فهذه دراسة للمعنى من وجهة النظر الأصواتية .

فجزء معنى « راح » أنها ليست « لاح » ، ولا « ناحْ » ، ولا «فاح » ، ولا« ساح» ، وهلم جرا ، وهذا هو الجزءالسلبى الخلافى من المعنى . فإذا استطعت

(1) New English Grammar, p. 7.
(2) The Philosophy of Grammar, pp. 31 — 5.

أن تقول إن هذه الـكلمة اسم أو فعل أوضمير أو حرف ، فقد اكتشفت أحد عناصر الوضوح الصرفى . والنحو أكثر الدراسات الجراماطيقية أهمية ، لأنه يدرس الـكلام التام كوحدة مترابطة . فإذا انتهت الدراسات الجراماطيقية للمعنى ، بدأت دراسة المعجم للـكلمة ، وعند نهايتها تبدأ دراسة المعنى الدلالى الاجتماعى ، فى ماجرياته الخاصة . ومعنى ذلك أن المعجم يقنع بدراسة المعنى من جهة ، والتحديد الجراماطيقى من جهـة أخرى ، تاركا دراسة المعنى باعتباره نظرية فلسفية للإبيستيمولوجيا « Epistemology » .

والملاحظات الخاصة التى يجب مراعاتها عند كتابة المعجم هى نفس الأهداف التى من أجلها يـكتب المعجم ، فنحن نتوقع أن نتعلم من المعجم أمورا خاصة بالـكلمة المرادة ، ويمكن تلخيص هذه الأمور فيما يأتى

١ — الهجاء :

كلنا يعلم أن أبجديات اللغات المختلفة قد وضعت لتعطى صورا بصرية للكلمات ، تقوم مقام الصور السمعية ، عند تعذر الإسماع . ونحن نعلم كذلك أن التهجى ، فى كثير من الحالات ، لا يراعى تمثيل أصوات الـكلمة ، ولا وحداتها الصوتية التى نسميها الحروف ؛ ولذلك نجـد المعجم مكانا طبيعيا للنظر فى هجاء الـكلمة ، لنرى ما إذا كانت همزتها مفردة ، أو على أحد حروف اللين الثلاثة ، ولنرى ما إذا كانت الألف محذوفة ، كما فى « الرحمن » ، « والله » ، وما إذا كان رسم الألف اللينة فى آخر الـكلمة واوا ، أو ياء ، وهلم جرا .

٢ — النطق :

أما نطق الـكلمات ، فيجب أن يدون بالـكتابة الأصواتية ، التى تستخدم رمزا معينا لـكل صوت . وقد وضع علماء الأصوات فى بعض اللغات معاجم خاصة بنطق الـكلمات فحسب[1] ، والناظر فى معجم أوكسفورد للغة الانجليزية يجد الـكلمة متبوعة بطريقة نطقها . أما واضعو المعاجم العربية ، فقد كانوا يعمدون

(١) أنظر مثلا كتاب دانيال جونز English Pronouncing Dictionary

إلى طريقة أخرى فى الضبط ، لاتبلغ من الدقة مبلغ الكتابة الأصواتية . تلك الطريقة هى ذكر الحركات فى الكلمة ؛ فكانوا يقولون مثلا فى « هزبر » هى بكسر ، ففتح ، فسكون ، وهلم جرا . ولقد كانت هذه الطريقة العربية تهدف إلى تحديد الحروف ، لا إلى تحديد الأصوات ، ولذلك لايمكن أن نسميها بيانا للنطق .

٣ — التحديد الجراماطيقى :

سيقول لك المعجم بعد ذكر الكلمة ما إذا كانت هذه الكلمة اسما ، أوفعلا أو غير ذلك . فإذا كانت الكلمة محايدا صرفيا — كما ذكرنا حين الكلام عن التوزيع الصرفى — فعلى واضع القاموس أن يخالف بين مداخلها المختلفة ؛ فيخصص — مثلا — لكلمة «قاتل» باعتبارها فعل أمر مدخلا خاصا غير مدخلها باعتبارها اسم فاعل . ولقد جرت عادة المعاجم العربية على أن تخصص مدخلا لكل مادة ، لا لكل صيغة . ولعل ذلك هو الذى جعل عدد الكلمات فى المعجم العربى أقل منها فى المعاجم الأجنبية ، التى تعالج كل صيغة . بمدخل خاص بها . والمعروف أن المادة أعم من الصيغة ، وأنها قد تحتوى على عدد كبير من الصيغ .

٤ — الشرح :

ويشتمل ذلك على أمرين :

ا — الأشكال المختلفة للكلمة ، سواء أكانت هذه الأشكال متعددة من وجهة النظر السنكرونية الأفقية ، أى فى مرحلة معينة من مراحل اللغة ، بأن توجد الأشكال المختلفة لها جنبا إلى جنب فى زمن واحد ، أو كانت من وجهة النظر الدياكرونية الرأسية ، أى فى المراحل التاريخية المتعاقبة ، بأن تقول إن هذه الكلمة كانت فى القرن الفلانى كذا ، وأصبحت فيما بعد كذا ، ثم آلت إلى كذا وهذا ما يعرف بالإيتمولوجيا "Etymology" وتلك الناحية الإيتيمولوجية هى الميزة التى امتاز بها معجم أوكسفورد ، واستخدمها على نطاق واسع ، وسماها وجهة النظر التاريخية[1] . وليس فى اللغة العربية إلى الوقت الحاضر أثر لمثل هذه الدراسات ،

---

(١) راجع مقدمة The New English Dictionary

على نفعها وقيمتها فى دراسة المفردات ، وتواريخ النصوص ، ولعل المستقبل كفيل بسد هذا النقص .

ب — تقسيم المادة بحسب تعدد المداخل الفرعية فيها ، والاستشهاد على كل مدخل ، مع الإتيان بتحديد صرفى لكل قسم فرعى ، فيتم ذلك مثلا كما يأتى :

يقول صاحب القاموس(١) ، فى شرح مادة « ردح » ، مايأتى :

(ردح) البيت كمنع وأردحه أدخل شقة فى مؤخره ، أو كاثف عليه الطين ، والردحة — بالضم سترة فى مؤخرة البيت ، أو قطعة تزاد فى البيت . وكسحاب الثقيلة الأوراك ، والجفنة العظيمة ، والكتيبة الثقيلة الجرارة ، والدوحة الواسعة ، والجمل المثقل حملا ، والمخصب ؛ ومن الكباش الضخم الألية ؛ ومن الفتن الثقيلة العظيمة جمعه رُدُحٌ ، ومنه قول على رضى الله عنه : «إن من ورائكم أموراً متماحلة ردحا » ويروى رُدَّحاً ، والرُّدْحُ الوجع الخفيف ، والردحى — بالضم — بقال القرى ولك عنه ردْحة — بالضم — ومرتدح أى سعة .

والرادحة بيت يبنى للضبع ، ويقال ماصنعت فلانة؟فيقال: سدحت ، وردحت؛ سدحت أكثرت من الولد ، وردحت ثبتت وتمكنت ، وكذلك الرجل إذا أصاب حاجته ، والمرأة إذا حظيت عنده . وأقام ردحا من الدهر — محركة — أى طويلا وسموا رديحا كزبير وفرحان » .

ولو ترك لى أن أرتب هذه المادة بحسب المقتضيات المعجمية المذكورة ، لخصصت الصيغ الآتية كلاًّ بمدخلها الخاص :

رَدَحَ — أرْدَحه الرُّدحة — رداح — رُدُح — الرَّدح — الرُّدْحى — ردْحة — مُرْتَدَح — الرادحة رَدَحتْ — رُدَيح — رَدْحان .

ولكان على أن أستشهد — من النصوص العربية ، كلما أمكن ذلك — على استعمال كل صيغة من هذه الصيغ فى مدخلها ، وأن آتى لها بتحديد صرفى ، وأن

---

(١) القاموس المحيط للفيروزبادى ، الجزء الأول ص٢٢٢ .

أوفيها حقها من كل مايتطلبه المطلع على القاموس من شرحها كما بينته فوق هذا الكلام .

لقد كان الصينيون أول واضعى المعاجم فى العالم ؛ وكان ذلك قبل المسيح بقرون عديدة . ومما يثير العجب أنهم ، وقد وضعوا معاجمهم على أساس أشكال الرموز الصينية ، جاء جمعهم للقاموس موضوعيا إلى حد كبير ، فكان المعجم عندهم أسبق من الجراماطيقا . ولقد كانت الكلمات دائما من نتائج الوضع والتعارف ، فهى بطاقات وضعها الإنسان ، ليلصق كلا منها بحقيبة من حقائب المدلولات . أما فى أوربا المسيحية ، فقد كانت الكلمة موضع عناية من الناحية الدينية ، لأن عيسى عليه السلام « كلمة الله » ، (وكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين) ومن هنا لقيت الكلمة بعثها فى الكنيسة وأصبحت الدعاية التى قامت بها الكنيسة propaganda Fide مسئولة عن كثير من المعاجم فى لغات متنوعة .

يقول صاحب المزهر[١] : « أول من صنف فى جمع اللغة الخليل بن أحمد ؛ ألف فى ذلك كتاب العين المشهور . على أن نسبة هذا الكتاب إلى الخليل موضع شك عند بعض النحاة ، ويشك بعضهم فى وضعه ما بعد الغين من الكتاب ، وينسبه إلى الليث بن نصر بن سيار الخراسانى . وترتيب كتاب العين قصد به أن يكون على حسب مخارج الأصوات العربية ، وقد كان الخليل يرى أن العين أقصى هذه الأصوات مخرجا ، وهذا خطأ بالطبع ، لان أقصى الأصوات مخرجا أصوات الهمزة والهاء . قال صاحب المزهر[٢] : «وقال ابن جنى فى الخصائص: أما كتاب العين ففيه من التخليط والخلل والفساد ما لايجوز أن يحمل على أصغر أتباع الخليل، فضلا عن نفسه ، ولا محالة أن هذا التخليط لحق هذا الكتاب من قبل غيره ، فإن كان للخليل فيه عمل ، فلعله أومأ إلى عمل هذا الكتاب إيماء ، ولم يله بنفسه ولا قدره ، ولا حرره » .

---

(١) المزهر ص ٤٧

(٢) المزهر ص ٤٨

ثم كتب ابن دريد بعد ذلك جمهرته ، وهى مرتبة على الحروف الأبجدية ، لا على ترتيب المخارج . وقد قصد بها صاحبها أن يختار الشائع المقبول من كلام العرب ، وأن يترك الحوشى ، والنادر ، والمستهجن ، كما فعل الخليل فى كتاب العين . ويرى ابن دريد أنه إنما اختار الترتيب على حروف الأبجدية لأنها بالقلوب أعلق ، وفى الأسماع أنفذ ، وكان علم العامة بها كعلم الخاصة . ولقد كان خصوم ابن دريد يقدحون فى قيمة الجمهرة من الناحية العلمية ، فيطعنون فى رواياتها ، ويرجعونها بجملتها إلى كتاب العين مثال ذلك قول نفطويه :

ابن دريد بقرة وفيه عىّ وشره
ويدعى من حمقه وضع كتاب الجمهرة
وهو كتاب العين إلاّ أنه قد غيّره

قال السيوطى[1] « وقال ابن جنى فى الخصائص وأما كتاب الجمهرة ففيه أيضا من اضطراب التصنيف وفساد التصريف مما أعذر واضعه فيه لبعده عن معرفة هذا الأمر » .

يقول صاحب المزهر[2] « وأول من التزم الصحيح مقتصرا عليه الإمام أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهرى ، ولهذا سمى كتابه بالصحاح» . ويقول[3] : وأعظم كتاب ألف فى اللغة بعد عصر الصحاح كتاب المحكم والمحيط الأعظم ، لأبى الحسن على بن سيدة الأندلسى الضرير ، ثم كتاب العباب ، للرضى الصغانى» .

ثم ألف من بعد ذلك لسان العرب ، لابن منظور المصرى ، والمصباح للفيومى ، والقاموس المحيط للفيروزبادى . وقد شغل اللغويون بشرح هذه المعاجم ، واختصارها والتعليق عليها ، زمنا طويلا ، حتى خرجت اللغة العربية من ذلك بحظ لا بأس به من دراسات المعجم فإذا أضفنا إلى هذا المجهود مجهودا من نوع آخر ، يمكن أن نطلق عليه اسم المعاجم الخاصة بالموضوعات ، عرفنا مقدار الجهد الذى بذله اللغويون

(١) المزهر ص ٥٧
(٢) المزهر ص ٦٠
(٣) المزهر ص ٦٢

فى هذا السبيل . ومن أمثال هذه المعاجم الخاصة مثلثات قطرب ، والنبات والشجر للأصمعى ، واللبأ واللبن لأبي زيد الأنصارى ، وتهذيب الألفاظ لابن السكيت ، والمطر والسحاب لابن دريد ، والأفعال لابن القوطية ، والمخصص لابن سيدة ، وكشاف اصطلاحات العلوم للتهانوى .

ولكن هذه المعاجم العربية العامة — على جلالها وخطرها — ينقصها الترتيب والتنظيم . وإننا لنطمع فى أن يكون المعجم الذى يزمع المجمع اللغوى إخراجه للناس قد استدرك هذه الأخطاء فى المعاجم القديمة ، حتى يتسنى للطالب العربى أن يجد فى هذا المعجم الأسس الأربعة التى قلنا إن الباحث فى المعجم يتوقع أن يجدها، وهى الهجاء ، والنطق ، والتحديد الجراماطيق ، والشرح .

وعندى أن أولى طرق ترتيب المعاجم بالاعتبار هى طريقة الترتيب على أساس المخارج ؛ فهذه الطريقة تعطى — إلى جانب المعلومات المعجمية — عنصرا من عناصر الدراسة الأصواتية التى لا يمكن أن يستغنى المعجم عنها .

ولعل أوفى معجم فى العالم فى الوقت الحاضر هو معجم أوكسفورد للغة الإنجليزية ، وأوضح ميزة من ميزاته — كما قلنا — هى دراسة الناحية التاريخية للكلمات ، أو ما يسمونه فى الغرب ايتيمولوجيا "Etymology" .

لعلنا الآن قد وضحنا ماهية المعنى المعجمى بعض التوضيح ؛ فهو معنى يقوم على أساس الكلمة ، مختلفاً فى ذلك مع المعنى الوظيفى فى الجراماطيق ، والمعنى الدلالى الاجتماعى ، الذى سنشرحه تحت الكلام عن منهج الدلالة .

منهج الدلالة

١ ـــ النظرة الديناميكية

علم الدلالة ، أو علم المعنى ، أو علم السيمانتيك ، فرع من فروع الدراسات التى تناولها بالبحث أنواع من العلماء تختلف موضوعاتهم ، كالفلاسفة ، واللغويين ، وعلماء النفس ، والأنثربولوجيا ، والأدباء ، والفنانين ، والاقتصاديين ، وعلماء الدراسات الطبيعية[١] . ولهذا كان اسم هذا العلم محل خلاف فى اللغات المختلفة ، حتى إن من الأسماء التى لا تزال تجرى على أقلام بعض الكتاب فى هذا العلم : sematology ، semology ، semasiology ، و semantics ويجرى نفس الخلاف فى الاصطلاحات التى تطلق على بعض الأفكار الداخلة فى نطاق هذا العلم ، فقد سبق أن ذكرنا أن ڤندريس يميز بين ما يسميه المورفيم (morpheme) ، وبين ما يطلق عليه السيمانتيم (semanteme) ؛ وليست هذه هى التسمية الوحيدة للسيمانتيم ، لأن بعضهم يطلق عليه (sememe) ، وآخرون (sème)[٢] ورغم هذا الخلط فى استخدام الاصلاح ، استطاع علم الدلالة أن يشق طريقه فى التطور من أفكاره الأولى التى حددها بريال (Bréal) ، على أساس تاريخى لاوصفى . والواقع أن علم الدلالة التاريخى يدرس تغير المعنى من عصر إلى عصر ، وأن علم الدلالة الوصفى يدرس المعنى فى مرحلة معينة من مراحل تاريخ اللغة . فالأول دياكرونى — على حد تعبير دى سوسور — والثانى سينكرونى ، أى أن الأول يدور حول التغيرات المعنوية ، والثانى حول العلاقات المعنوية . أو بعبارة أخرى يدور الأول حول المعنى المتغير ، والثانى حول المعنى الثابت .

---

(1) Firth : Tichnique of Semantics . Trans. Phil. Soc. 1935.
S. Ulmann, The Prineiples of Semantics, Parface.

(2) Marouzeau, Lexique.

فإذا نظرنا إلى المعنى باعتباره علاقة بين الصيغة والفكرة ، حق لنا أن نقول : إن تغير الدلالة من عصر إلى عصر ليس إلا ربط الفكرة بصيغة جديدة ، أو ربط الصيغة بفكرة جديدة . لقد كانت كلمة « فرج » فيما قبل الإسلام تدل على كل انفتاح . يقول لبيد :

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه   مولى المخافة خلفها وأمامها

ثم جاء الإسلام فخصص عموم هذا المعنى بالمدلول الفقهى للكلمة ، الذى يوضحه أن الصيام هو الإمساك عن شهوتى البطن والفرج . والذى نجى كلمة « مخرج » من التخصيص الفقهى بمعنى « فتحة الإفراز » ، والتخصيص الأصواتى بمعنى « مكان النطق » ، إنما هو استعمالها فى القرآن بالمعنى العام « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » . والعلق الشيء النفيس ؛ والخول الخدم ؛ هكذا كانت دلالتهما الفصيحة، ولكن معنى الكلمتين تغير — على مر العصور — تغيرا مخجلا إلى مفهومهما العامى . وكان الأمى فى مبدأ الإسلام هو الذى ينسب إلى العرب ، فى مقابل النسبة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ثم تطور المعنى حتى أصبح من العرب أميين وغير أميين . ثم أنظر إلى المدلول العربى الضيق لكلمة شعب ، والمدلول الواسع الذى نعطيه لها الآن . كل أولئك تغير فى الدلالة من عصر إلى عصر ، يدرس فى الايتيمولوجيا ، وفى الدلالة التاريخية . ولقد كان العلماء يعتبرون هذا التغير فى المعنى إما نمواً ، أو انحلالا .

ولم يحاول واحد من العلماء أن يضع قاعدة شاملة لكل العوامل الداعية إلى التغير فى المعنى ، ولكنهم حاولوا أن يوضحوا عوامل تغير الأمثلة حين تخطر فى دراساتهم . غير أن « هرمان پول » يدعى أن التغير فى المعنى يلحق اللغة عن طريق الكلام[1] ، ويقول « شترن » إن معظم تغيرات المعنى تنتج عن رغبة المتكلم فى أن يوفق بين الكلام وبين وظيفته التى يستخدم من أجلها[2] .

(1) Ulman, Principles of Semantics. p. 191.

(2) Ibid.

أما مسيّيه[1] فيجعل الأسباب النهائية لتغير المعنى من أنواع ثلاثة : (١) لغوية ، (٢) تاريخية، (٣) طبقية عن طريق الاقتراض . ويقول : إن الكلمات يتسع معناها ويضيق بحسب اتساع أفقها وضيقه بعد الاقتراض من طبقة إلى أخرى. وأما سپربر فإنه يصر على فكرة المعنى المركزى(Central Meaning)، والمعنى السياقى(Contextual Meaning) ، ونغمة الإحساس(Feeling tone)، كما فعل إردمان. والمعنى السياقى ونغمة الإحساس عنده أهم شىء، ولذلك يحرص على أن يذكر فى دراسة الكلمة أوضح المواضع التى تستعمل فيها ، وما يأتى معها ، لأن المعانى الجديدة تتبلور عن هذا الطريق فى مراحل أربع (١) ورود معنى جديد فى موضع خاص ، (٢) مرحلة انتقالية من تكرر الورود والارتباط بين الصيغة والمعنى ، (٣) ظهور معنى جديد مستقل فى مواضع مختلفة ، (٤) إمكان قطع الصلة بين المعنيين القديم والجديد . وهذا لا يحدث بالطبع إلا بقرار من ملايين المتكلمين ، وبالانتفاع بعوامل مثبتة للمعنى الجديد ، هى القوى العاطفية . فطالب الكلية الحربية الذى فصل منها بسبب ما قد يطعّم كلامه العام بقاموس العسكريين ، فيستعمل كلمات مثل التعيين ، والبيادة ، وساعة الصفر ، والتكتيك ، والتواجد ، والضبط والربط ، وهلم جرا ، فى غير معناها العسكرى ، بدافع من عاطفته ، ويرى سپربر أن أثر القوى العاطفية هنا إنما يكون بالتوسع ، عن طريق نقل الكلمات من مجال إلى مجال آخر ، أو بالجذب ، بأن يتطلب المجال عنوناً من مجال آخر[2] . وأما أوجدن وريتشارد[3] ، فإنهما لا يتكلمان عن المعنى إلا بتشقيقه إلى عناصر أربعة هى : (١) القصد ، (٢) والقيمة ، (٣) والمدلول عليه (٤) والعاطفة . وعندهما أن معنى الكلمات لا يرى إلا حيث يتوسع فى الرموز بوضعها فى سياقات مختلفة (Contextualization) . فما يمكن أن يسمى حاصل جمع معنى الكلمة ، أى

---

(1) Linguistique Historique et Linguistique Générale, pp. 241—6 et 252 — 5.

(2) Uman, Principles of Semantics, 191 — 6.

(3) The Meaning of Meanings.

المعنى الـكلى لها ، إنما هو وظيفة مركبة من القصد ونغمة الإحساس والفـكرة .

ولا يغيب عن البال أنه « حتى فى علم الدلالة التاريخى التقليدى الذى نتكلم فيه الآن، يوجد حقل واسع للعمل فى أساس منهج اجتماعى على حسب الماجريات. وإن دراسة كلمات مثل « الشغل »، « العمل » ، « التجارة أو المهنة » ، « الوظيفة »، « الاحتلال » ، « اللعب »، « الإجازة » ، « الوقت » ، «الساعات» ، « الوسائل »، « احترام النفس » بمشتقاتها ومركباتها جميعا فى ظل الظروف ذات المغزى الاجتماعى التى مرّت فى السنين العشرين الأخيرة سيلقى ضوءاً قويا على هذه الناحية وكذلك دراسة الـكلمات التى تتعلق بالملابس ، والمهن ، والمطامح الخاصة بالنساء ، أو لغة الإعلان ، وخصوصاً الإعلان بالخطابة عن الدواء العجيب ، وإعلانات اللهو، والطعام والشراب ، والحركات السياسية والدعاية[1] .

والمعنى الاجتماعى هو الغرض الأسمى الذى يسعى إليه علم الدلالة الوصفى . وهذا المعنى هو الذى أطلقنا عليه فى هذا البحث اسم المعنى الدلالى . وذلك لا يكون إلا فى طور معين من أطوار اللغة . إن تحليل المعنى يتطلب أن ندخل فى اعتبارنا عناصر أربعة .

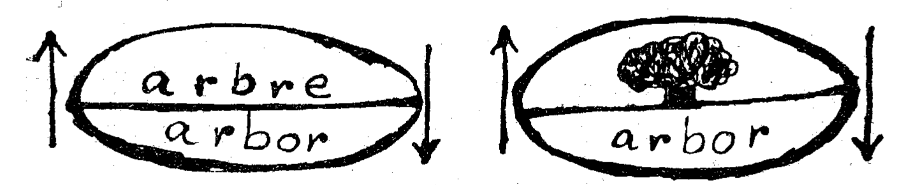
تلك هى (١) المتـكلم ، (٢) السامع (٣)، الرمز ، (٤) المقصود . ولقد ذكرنا فى كلامنا عن رأى السلوكيين من اللغويين فى التفريق بين الـكلام واللغة أن بلومفيلد يتناول المتكلم والسامع بالتحليل ، ويجعل الـكلام بديلا من استجابة عضوية لمثير معين . وإذا كان بلومفيلد قد قصر — بحكم سلوكيته الميكانيكية — عن أن يتكلم فى أمور عقلية نفسية خالصة ، كالعلاقة بين الرمز والمقصود ، فقد تـكفل دى سوسور بالـكلام عن هذه العلاقة وأفاض فيه . والواقع أن ماقاله بلومفيلد ، وماقاله دى سوسور ، ليس بينهما تعارض ؛ بل هما نظريتان متكاملتان ، يمكن أن تقفا جنبا إلى جنب . والذى يعتبر أكثر اتصالا بعلم الدلالة هو نظرية دى سوسور عن الرمز (signifiant) والمقصود (signifié)

---

(1) Firth, Technique of Semanties, .

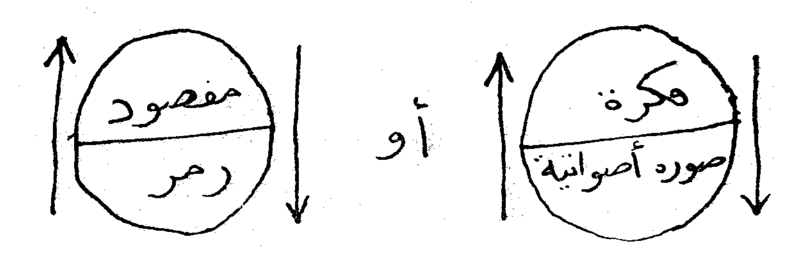
وملخص رأى دى سوسور[1] فى هذا أنه يرى كافيا فى دراسة القيمة اللغوية أن ندرس عنصرين هما : الصوت ، والفكرة ، وقد اتفق الفلاسفة واللغويون على أن الإنسان لايستطيع أن يفرق بين فكرتين تفريقا حقيقيا ، بلا علامات لغوية ، أى كلمات ، فالتفكير بلا كلمات عائم . وليس فى الفكر مايفرض شكلا معينا للرموز الصوتية ، فهذه الرموزموضوعة وضعا اعتباطيا. وليست وظيفة اللغة فى هذا أن تخلق وسطا صوتيا للتعبير عن الأفكار ، ولكن أن تقوم بدور الوسيط بين الفكرة والصوت ، فى حالة تدعو كلا منهما إلى الآخر. والمعنى بهذا الاعتبار علاقة متبادلة بين الاسم والفكرة ، تجعلهما يتداعيان . ويحوّل هذا التعريف المعنى من فكرة استكاتيكية إلى فكرة وظيفية ديناميكية .

حينما نتكلم عن قيمة الكلمة نفكر قبل كل شىء فى ما يجعلها تدل على فكرة، وهذه جهة من جهات القيمة على أى حال . ولكن ما الفرق بين هذه القيمة وبين القصد ، وهل يصح أن تكون هاتان الكلمتان مترادفتين ؟ إن دى سوسور لايعتقد ذلك ؛ فالقيمة من ناحيتها الفكرية عنصر من عناصر القصد بلا شك . ومع هذا ، من الضرورى أن توضح هذه المسألة مع تحمل نتيجة جعل اللغة مجموعة أسماء لمسميات . دعنا نختبر قصدا كالذى يبدو فى المثال الآتى .



فكلمة arbor ، اللاتينية ، تدل على arbre = شجرة . وواضح أن هذه العلاقة التى تباركها اللغة تبدو لنا مؤيدة بعنصر الواقع ، فنطرح أى شىء آخر نستطيع تخيله . فالعلاقات اللغوية حقيقة نفسية ذات وجهين ، يمكن أن نمثلهما كما يأتى .

(1) Cours, p. 155 — 69.



ويمثل السهمان تشابك العلاقات ، والتداعى بين العنصرين . فالعلاقة إنما تكون بين الفكرة والصورة الأصواتية ، فى حدود الكلمة التى تعتبر مجالا مقفلا موجودا بنفسه . ولكن هنا ناحية تناقضية وهمية فى المسألة ؛ فإن الفكرة من ناحية تبدو مقابلة للصورة الأصواتية السمعية فى العلامة ، وهذه العلامة نفسها ، من ناحية أخرى ، مقابلة لبقية العلامات فى اللغة . وإذا كانت اللغة منظمة مترابطة العناصر ، التى تتوقف قيمة الواحد منها على وجود العناصر الأخرى فى نفس الوقت كما يبدو فى الشكل الآتى :

فكيف تكون العلامة ، وهى بهذا التعريف ، ممتزجة بالقصد ، أو بعبارة أخرى بما يقابل الصورة السمعية ؟

للإجابة على هذا السؤال ، يقرر دى سوسور أولا أن كل القيم خارج اللغة خاضعة لهذه القاعدة التناقضية الوهمية ، فهى مركبة دائما مما يأتى : —

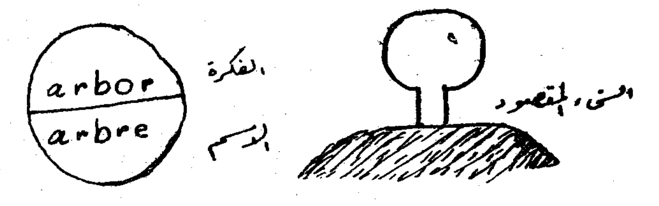
١ — من شىء قابل للتغير مخالف لشىء آخر ثابت القيمة ،

٢ — من أشياء متشابهة ، يستطيع الإنسان أن يقارنها بأشياء أخرى مشتملة على قيمة .

وهذان العاملان ضروريان لوجود القيمة . وهكذا إذا أردنا أن نصرف قطعة من ذات الخمسة فرنكات ، فيجب أن نعرف أولا أن الانسان يستطيع أن يغيرها بكمية محددة من شىء مختلف ، كالخبز مثلا ، وثانيا أن يقارنها بقيمة مماثلة من نفس

نظام العملة ، كقطعة ذات فرنك واحد مثلا ، أو قطعة من عملة أخرى ، كالدولار. ويجرى نفس الشىء مع الكلمة حيث يمكن تغييرها بفكرة ، أو بكلمة أخرى . فقيمة الكلمة غير ثابتة . ويضرب دى سوسور لذلك مثلا بالكلمة الفرنسية « mouton »فى مقابل الكلمة الانجليزية « sheep » ؛ فيمكن أن تؤدى الكلمة الفرنسية نفس القصد الذى تؤديه الكلمة الانجليزية ، ولكنها سوف لاتتفق معها فى القيمة ، وهذا لأسباب متعددة ، أخصها أن الإنجليزى ، حين يتكلم عن قطعة من اللحم الضأن تقدم على مائدته ، يسميها « mutton » ، ولا يسميها « sheep » ، فالفرق فى القيمة بين الكلمتين يتمثل فى أن الكلمة الإنجليزية تستخدم إلى جانبها كلمة ثانوية لاتستخدمها الفرنسية ، ويجب أن نصر على أن هذا فرق فى القيمة لا فى القصد . وإن مايقال عن الكلمات يقال أيضا عن العناصر الجراماطيقية ، كالملحقات والأدوات . ثم إن دى سوسور يقول : « إن العلامة اللغوية لاتخلق وحدة بين اسم وشىء ، ولكن بين فكرة وصورة سمعية »[1] .

ويعتبر « جومبوكز » أكثر إصراراً على هذه النقطة من دى سوسور ، فهو يقول : إن الاسم لا يدل على الشىء ، بل على فكرته التى فى الذهن . ويوضح ذلك بإعادة ترتيب الشكل الإيضاحى الذى جاء به دى سوسور كما يأتى :



وهذا يطابق مطابقة تامة خلق علاقة بين الرمز وبين مايدل عليه . وتعتبر هذه العلاقة حجر الزاوية فى كتاب The Meaning of Meaning لاوجدن وريتشارد ، وتوضح من جهة أخرى حاجتنا إلى الاعتراف بأن المعنى ينقصه

---

(1) Cours, p. 98.

السيمترية ، كما يقول أوربان ، لأن الشجرة ليست علامة ولا رمزا للكلمة ، ولا توجد علامة مباشرة بينهما . وليس للاسم فى الواقع إلا علاقة واحدة ، هى علاقته بالفكرة ، وهذه الصلة التى نسميها « المعنى » متبادلة وسيمترية »[١] .

ويرى أوجدن وريتشارد[٢] أن الرمزية دراسة الدور الذى تلعبه اللغة والرموز فى الحياة الإنسانية ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالفكر . وهى تُفرِد بدراسة خاصة تلك الطرق التى تساعدنا بها الرموز على التفكير فى الأشياء ، أوتعرقلنا عن ذلك . فالرموز توجه ، وتنظم ، وتسجل ، وتوصل .

وفى النص على ماتوجهه وتنظمه وتسجله وتوصله ، يجب أن نفرق بين الأفكار والأشياء . فالفكرة هى التى توجه ، وتنظم ، وتسجل ، وتوصل ؛ ولكننا كما نقول إن البستانى هو الذى يقص الحشيش الذى يغطى أرض الحديقة ، على حين نعرف أن شخصا آخر غيره موكل بهذه المهمة ، نعلم أن العلاقة المباشرة للرموز إنما تكون بالأفكار ، ومع ذلك نقول : إن الرموز تسجل الحوادث وتوصل الحقائق .

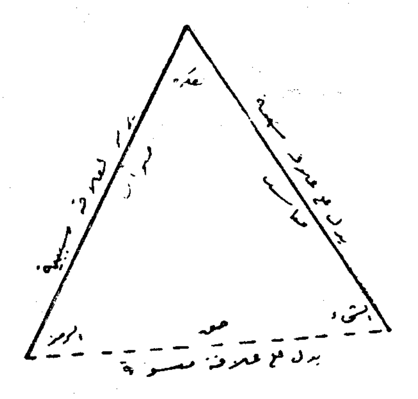
ولا تدل الكلمات بنفسها على شىء ، ولكن المفكر يستعملها فيصبح لها معنى ، إذ يتخذها أدوات . ولكن بجانب هذه الناحية الفكرية جانبا عاطفيا للكلمات ، لا يمكن التقليل من شأنه .

ويجب أن نبدأ حين نحلل المعنى بالعلاقات بين الأفكار والكلمات والأشياء باعتبار الجانب الفكرى للمسألة . وسنبدأ بعدم المباشرة فى العلاقة بين الكلمات والأشياء . ويمكن إيضاح ذلك بشكل إيضاحى مثلث توضع هذه العناصر الثلاثة فى زواياه ، وتمثل أضلاع المثلث العلاقات بين هذه العناصر هكذا

---

(1) Ulman The Principles of Semantics, p. 71.

(2) The Meaning of Meaning, pp. 9 — 23.



وتوجد العلاقات السببيـــة بين الفـكرة والرمز ، فالرمز الذى نستعمله حين الـكلام مسبب من ناحية عن الفـكرة ، ومن ناحية عن عوامل اجتماعية ونفسية ، كالغرض الذى سبب الفـكرة ، وأثر الرمز فى الآخرين ، وموقفنا نحن . وحـين نسمع ما يقال ، تسبب الرموز لنا أن نقوم بعملية تفـكير ، وأن نتخذ موقفا مشابها لموقف المتـكلم ونشاطه .

وبين الفـكرة والشىء علاقة أيضا ، ولـكنها مباشرة (كحين تفـكر فى سطح ملون أو تراه) ، أو غير مباشرة (كحين تفـكر فى نابليون أو تشير إليه) وفى هذه الحالة توجد سلسلة طويلة من المواقف الرمزية تتخلل العمل الفـكرى والشىء مثل: كلمة — مؤرخ — معاصر — سجل — شاهد عيان — الشىء المقصود (نابليون). وليس هناك علاقة تهمنا هنا بين الرمز والشىء ، إلا العلاقة غير المباشرة ، التى تتـكون من استعمال شىء لهذا الرمز ، ليدل على الشىء ، فالرمز والشىء لايتصلان إتصالا مباشرا (وحين نعترف باتصال كهذا لأسباب نحوية فسوف ننسبه باعتباره مقابلا لعلاقة حقيقية) ، ولـكن اتصالا غير مباشر حول جانبى المثلث .

« والعلاقة بين تعريف المعنى على طريقة الوظيفة ، وبين هذا المثلث ومشتقاته لاتحتمل قولين . فهى تقصر نفسها على الضلع الأيسر من هذا المثلث ، باعتباره الوحيد الذى يشتمل مباشرة على عناصر لغوية . فالعلاقة بين الفـكرة والمقصود تقع فى مجال علم النفس ، ولا يعنى ذلك أن اللغة لم يبق لها دور هام تلعبه فى تـكوين

محتويات عقلية ، وخصوصا من التجريدات . وأما العلاقة بين الرمز والمقصود فهى اعتباطية منسوبة . فليس هنالك أى تناقض بين هاتين المدرستين الفكريتين ، لأن البناء الأساسى واحد فيهما ، ولكن اللغوى يجد نفسه فى موقف يقصر فيه نفسه على واحدة من هذه العلاقات الثلاث ، على حين يشغل أصحاب علم النفس والمنطق والإبستيمولوجيا أنفسهم بالعلاقات الثلاث جميعاً »[1] .

وقد جر هذا التوزيع فى العمل بين اللغويين والفلاسفة إلى خلق المزايا السلبية للتحليلات الوظيفية للمعنى ، فهى تتمشى مع طرق التناول المختلفة ، وتتوحى موقفا لاتورط نفسها فيه وهى لاتحتاج مثلا إلى تقرير الطبيعة المضبوطة للصلة بين الاسم والفكرة ، وماإذا كانت هذه الصلة ترابطية ، أوسببية ، أوشيئا آخر ، أى أنها لاتضطر إلى أن تختار بين الطبيعية والمثالية . وأما مسألة دور الصور فى التفكير ، فيمكن أن يتجنب الوظيفيون الكلام فيها ، بالتوسع فى شرح معنى « الفكرة » . وأما إخراج المقصود من الدائرة الداخلية ، فلا يقصد به أكثر أو أقل من أن العلاقة بين الرمز والشىء غير مباشرة

ويرى بلومفيلد[2] أن البدع التى يتغير بها المعنى المعجمى ، لا الوظيفة الجراماطيقية للصيغة ، تعتبر تغيرات دلالية سيمانتيكية . هذه التغيرات الدلالية يمكن النظر إليها باعتبارها صلة بين أمور عملية تلقى ضوءا على حياة العصور الماضية . ويمكن فى هذه الحالة أن نكشف عن التطابق بين التغيرات الدلالية الخاصة ، وبين الآثار الثقافية . وكما أن الملامح اللغوية الشكلية قد تكون نتيجة عوامل خاصة متعددة ، قد يكون المعنى نتيجة مواقف لايمكن أن تستعاد ، ولايمكن أن نعرفها إلا عن طريق المعلومات التاريخية ، كانشعاب اسمى الملك فى ألمانيا وروسيا من اسم القيصر الرومانى . والدراسة السطحية للتغيرات الدلالية تشير إلى أن المعانى الدقيقة التجريدية كثيرا ما تنتج عن معان محسوسة ، كما فى معنى understand الذى كانت دلالته على ما يرى بلومفيلد « يقف بين » . ولكن كل ذلك ، إن

---

(1) Ulman, The Principles of Semantics, p. 72.
(2) Lang. p. 425.

منحنا شيئاً من الإحساس بالاحتمالات الإيتيمولوجية ، فلا يدل على الطريقة التى يتغير بها المعنى من عصر إلى عصر ، ولهذا يجب أن ندخل فى اعتبارنا تباين تردد الـكلمة فى الاستعمال (fluctuation of frequency) وتباين التغير القياسى أيضا (fluctuations of analogic change) والفرق بينهما هنا أن التباين ينتج التحول المعنوى المعجمى، لاالجراماطيقى ولهذا يضلل اللغوى الباحث . وأول لغوى رأى أن التغير الدلالى يتكون من توسع أو بطلان هو هرمان پول، على مايظن بلومفيلد. فقد رأى پول أن معنى الصيغة فى كلام أى متـكلم نتيجة للنطق الذى سمعها فيه ، ولهـذا فإن المتـكلم الذى سمع صيغة مستعملة بمعنى عارض ، أو نسق من المعانى العارضة سوف لا ينطق هذه الصيغة إلا فى ظروف مماثلة . ويسلم پول فى إيضاحه للتغيرات الدلالية بورود المعنى الثانوى أومايسمى(marginal meaning) وورود بطلان الاستعمال . وينظر إلى هذين نظرته إلى مغامرات شخصية من المتـكلم فى استعمال الصيغ ، دون إشارة إلى الصيغ التى يعتدى على حدود معانيها . وقد يقود التوسع فى استخدام الـكلمة إلى عزل بعض الصيغ عنها باستعمالات خاصة ، بعد أن كانت ذات معانى ثانوية ، كما فى كلمة Board التى كان معناها المركزى فى الإنجليزية القديمة لوحة خشبية ، وكان لها بعض المعانى الخاصة الأخرى ، وكان أحد المعانى الخاصة لها « درع » وقد بطل هذا بطلانا تاما . وكان من هذه المعانى أيضا « جانب السفينة » وقد أدى هذا المعنى الأخير إلى بعض الصيغ المنعزلة مثل :

on board a ship
aboard a ship
to board a ship

وقد توسع فى هذه الصيغ ، حتى استعملت مع المركبات الأخرى ، كعربات السكة الحديد ، والسيارات العوامل . ومن التى تساعد على هذا العزل التغيرات الأصواتية والصوغ القياسى فى اللغة أوما يسمى analogic new formation .

ويرى بلو مفيلد أن إيضاح پول للتغيرات الدلالية لم يملل وجود المعانى الثانوية

وبطلان استعمال الصيغ فى مجالاتها الدلالية ، ويرى أن ذلك يرجع إلى النقص فى التردد ، وأن التحول إلى معنى جديد فى الصيغة لا يظهر إلا حين يستتبع تحولا فى العالم العملى ، كتحول معنى قبعة ، سفينة ، جوارب بتغير صور هذه الموضوعات من عصر إلى عصر وأوضح التوسعات الدلالية هى التوسعات الجراماطيقية .

وأما مييه فيضع رأيه فى الكلمات الآتية[1] : «تعرف الكلمة بأنها ربط معنى ما بمجموعة ما من الأصوات صالحة لاستعمال جراماطيقى ما . وليكون للتوافق بين الكلمتين قيمة ، يجب أن يظهر فى الصوت والمعنى والاستعمال الجراماطيقى . وكلما ازداد التوافق من هذه الجهات الثلاث ، زاد احتمال الصواب فى الربط بينهما إيتيمولوجيا » . وهو بهذا يضغط كل القواعد الجوهرية لتغير المعنى فى هاتين الجملتين .

وبعد هذا الكلام عن وجهة النظر الدياكرونية التاريخية فى تغير المعنى سنحاول فى الصفحات الآتية تلخيص نظرية استاذنا ج . ر . فيرث فى منهج الدلالة ، وأن نشرح الظروف التى مر بها أهم اصطلاح من اصطلاحات هذه النظرية وهو « الماجريات » أو (Context of situation)

٢ — النظرة الاستاتيكية

يقول فيرث[2] : إن دى سوسور أول من فرق تفريقا فنيا بين دراسة التغير فى المعنى ، ودراسة المعنى فى حالة سينكرونية ، وأطلق على الأخيرة (Semiologie) ورأى أن هذا النوع من فروع الدراسة يجب أن يستخدم نتائج علم النفس ، والاجتماع ، والأنثروبولوجيا ، ليقرر أبوابه ، ويصف حقائقه ؛ وأن علم اللغة لن يصبح علما بغير اعتبار هذا الفرع .

والآن ننفض أيدينا من وجهة النظر التاريخية ، لننشىء منهجا لدراسة الصيغة والوظيفة فى اللغة فنجعل الفكرة المركزية فى هذا المنهج هى « الماجريات » ،

---

(1) Linguistique Historique et Linguisfique Générale, p. 38.

(2) Technique of Semantics, Trans. Phil. Soc. 1935.

وهى تدل — بأحد معانيها — على مجموع عناصر محيطة بموضوع التحليل ، تشمل حتى التكوين الشخصى ، والتاريخ الثقافى ، للشخص ؛ ويدخل فى حسابها الماضى ، والحاضر ، والمستقبل . وهذا الاصطلاح — بالنسبة لعلم اللغة — قصد به دائماً سياق النص ، أما فى السلوك الكلامى العادى ، فكل وَضْع — مهما كان — يعتبر عنصرا من عناصر الماجريات .

وقد تكون الصيغة أصواتية (ويشمل ذلك التنغيم) ، أو إملائية ، ولكنها يجب أن يقصد بها الشكل الخالص فى الموضع المعين ، مع إخراج الأبواب المنطقية ، والجراماطيقية ، وكما ينبغى أن نؤكد ضرورة الدراسة الصرفية الصحيحة ، باعتبارها ضماناً لدراسة الدلالة ، من الناحية التاريخية ، يجب أن نقول إن أيّة دراسة دلالية وصفية للكلام لا يمكن أن يعتمد عليها إذا لم تأخذ فى اعتبارها الأصوات (والتنغيم داخل هنا) . ونحن لا نستطيع أن نبدأ الصرف بلا دراسة الأصوات ، بل إننا فى بعض الحالات نجد الأصوات دراسة ضرورية للنحو أيضاً . فالأبواب الشكلية أصواتية تنغيمية موقعية ، ولكن هناك أبواباً عامة نحوية فى طبيعتها ، كالجملة المؤكدة ، وغير المؤكدة ، والطلب والتقرير ، والتمنى ، والاستفهامات الخاصة ، وما إلى ذلك .

ويُعتبر الدكتور جاردنر الوحيد من بين علماء اللغة تقريبا الذى خصص مكانا للتنغيم فى الجراماطيقا والدلالة . وقد تبعه فى المنهج الشكلى الخالص الذى يعتبر الماجريات « الدكتور شتراومان » ، فى كتابه (Newspapers Headlines) وحقائق العناوين ذات الحروف الضخمة حقائق منظورة فحسب ، على وجه التقريب ، ولكن هذا المنهج يتجه إلى الصيغ المسموعة كذلك ، فمند فيرث أنه لا دلالة بلا صرف .

ولقد لاحظنا فى الكلام السابق أن المعنى تشقق فأصبح علاقة ، أو منظمة من العلاقات . وهذا هو السبب الذى فضل الكثيرون من أجله أن يكتفوا بدراسة التغير ، لوضوح العلاقة بين المعنى الأصلى والمعنى المنقول . لقد سبق أن

شرحنا وجهة نظر أجدن ريتشارد فى دراسة المعنى . فهم يرونه فى عناصر ثلاثة الرمز والفكرة والمقصود ، ولكن المعنى بالنسبة إليهما علاقة ذهنية بين الحقائق والأحداث من ناحية ، وبين الرموز أو الكلمات من ناحية أخرى . ولنقارن العناوين الآتية لحادثة واحدة ، هى الحكم على أحد اللوردات فى حادث معين :

The Times	:	R. M. S. P. Case.
Daily Herald	:	Lord X sent to Prison for a year.
News Chronicle	:	Lord X sentensed.
Daily Mirror	:	Lord X sent to gaol for 12 months.
Daily Mail	:	Lord X sentence shocks the City.
Daily Worker	:	Lord X gets 12 months serve him right.

فبالنسبة لأوجدن وريتشارد ، هناك مقصود واحد هو الحكم على اللورد ، ورموز مختلفة للحكم فى عناوين مختلفة ، وأما الأفكار فهى العلاقات بين الحكم والرموز .

ولكننا لا نعلم كثيراً عن العقل . وإن دراسة اجتماعية فى جوهرها لا تحب أن تعيد ثنائية الروح والجسد ، والفكرة والكلمة ، ولكنها تقنع بالشخص جميعه مفكراً وعاملا ، مرتبطاً بزملائه ومحيطه . فالمعنى إذاً علاقة جوهرية فى ماجريات ، وفى هذا النوع من اللغة الذى يشوّش الهواء ، وآذان الآخرين ، كنوع من أنواع السلوك ذى علاقة بعناصر أخرى من الماجريات . فالمنهج الذى يجرى على أساس الماجريات لا يؤكد العلاقات بين المفهومات التاريخية ، ولا العقلية ، ولكنه يدخل فى العلاقات التى فى الماجرى الملاحظ نفسه .

فنحن نشقق المعنى إلى نسق من الوظائف المكونة له ، ونحدد كل وظيفة بأنها استعمال شكل لغوى معين ، أو عنصر لغوى معين فى سياق ، ومعنى هذا أننا ننظر إلى المعنى باعتباره مركباً من علاقات الماجريات ، والجراماطيقا (بفروعها) ، والمعجم ، والدلالة ، وكل من هذه الجهات يتناول نصيبه الدراسى من هذا المركب بالبحث فى ماجرياته المناسبة .

ليس هناك علم للدلالة بلا دراسة للصرف ، أى دراسة الصيغ . ويجب هنا

أن نخطط طريقة لوصف الصيغ ، وأن نرى المقصود بالوظيفة الأصواتية ، والوظيفة الصرفية ، والوظيفة النحوية ، كأجزاء من مركب وظيفي يلمح في دراسة أي صيغة لغوية .

وتزداد معارفنا كلما تقدمنا خطوة في تحليل هذه الوظائف . وإن دراسة الصوت الإنساني في وقت عمله لمهمة خطيرة جداً ، لدرجة أننا يجب أن نشقق الكلام باعتباره نمطاً سلوكياً مترابطاً ، وأن نطبق على كل شق منه منهجاً مختصاً بوصف انقسام عناصر الكلام التي نعزلها للتحليل . فنجعل منهجاً للأصوات ، وآخر للتشكيل الصوتي، وللصرف ، وللنحو، وهلم جرا . ويمكننا أن نحدد حدود هذه العناصر ، ونعين ماهية كل منها ، على طريقة الاستبدال. فالكلمة مقابل استبدالي معجمي (lexical substitution counter) ، والصوت مقابل استبدالي أصواتي أو صرفي (phonetic or morphological substitution counter) ، وهلم جرا . ونحن نجد في السياق الأصواتي الذي يبدأ بصوت 'b' وينتهي بصوت 'd' ستة عشر مقابلا استبداليا من أصوات العلة :

biid	=	bead	beid	=	bade
bid	=	bid	boud	=	bawd
bed	=	bed	baud	=	bowed
bæd	=	bad	bɔid	=	buoyed
bɑ:d	=	bard	biəd	=	beard
bɔ:d	=	board	bɛəd	=	bayard
bʌd	=	bud	baid	=	bayed
bə:d	=	bird	buud	=	booed

فالوظيفة الأصواتية لكل صوت من هذه الأصوات العلية الستة عشر بين صوتي (b) و (d) ، هي استخدامه في مقابل الخمسة عشر صوتا الأخرى . وبين (P) و (l) يمكن وجود أحد عشر صوتاً عليا ، وبين (h) و (d) ، يمكن وجود ثلاثة عشر . ويمكن إجراء طريقة الاستبدال أيضاً على (b) و (d) ، ثم (P) و (l) ، ثم (h و (d) ، كل على حدة . فإذا قارنا هذه الأصوات الصحيحة ،

وجدنا وظيفة لصوت(d) في(bɔ : d) مثلا ، فوظيفتها هي استخدامها في مقابل ما يمكن أن يحل محلها من المقابلات الاستبدالية ، مثل (t) في (boat = bɔ : t) و (l) في (ball = bɔ : l) و (n) في (born = bɔ : n) . فهذه المقابلات الاستبدالية الأصواتية محددة في سياقها الأصواتي الخالص ، بلا اعتبار السياق النحوي ، أو الماجريات . وهذا النوع من الاستعمال لعنصر من عناصر الكلام هو البضعة الأولى التي يجب أن نعالجها من المعنى ، في بيئتها الأصواتية الخالصة ، على مستوى الفهم الأصواتي ، ويسميها فيرث : « الوظيفة الصغرى » .

فإذا درسنا توزيع هذه المقابلات الاستبدالية في كل السياقات الممكنة ، وذلك بإجراء توزيع موقعي للمقابلات ، فإننا نحصل على نسبة ورود هذه المقابلات في المواقع المختلفة (frequency of occurrance) ، وعلى مجموع الوحدات الخلافية في صيغة ما من صيغ الكلام ، ووصفها ، وتنظيمها ، حتى يتكون منها النظام التشكيلي للغة .

فالوظيفة الأصواتية لصيغة ، أو صوت ، أو مظهر موقعي ، هي استخدامه في مقابل الوحدات الخلافية الأخرى . والقيمة الأصواتية لأي صوت إنما يقررها مكانه في النظام الأصواتي العام . والوظيفة الصغرى ، أو الأصواتيـة ، لأي صوت تظهر بدراسته بالنسبة للمواقع الأصواتية التي يقع فيها ، وبالنسبة للأصوات الأخرى التي يمكن أن تحل محله في نفس الموقع ، أو بعبارة أخرى ، وبالنسبة لماجريات النظام التشكيلي العام .

ولقد سمى اللغويون المقابل الاستبدالي الأصـواتي « الفونيم » ، وقد استعمله في الإنجليزية لأول مرة « ر . ج . لوبد » ، في استعراضه لرأي بودوان دي كورتيني (Boudoin de Courtenay) ، وكمثال من أمثلته ، نورد أصوات (t) في كلمات مثل :

tik — stik — trik — bete — vɪmoust — biitn — biitl — eit Ø

فأصوات (t) هذه مختلفة فى كل كلمة عنها فى الأخرى ، وكل منها منسوب نسبة خاصة إلى الموقع الذى يقع فيه ، حتى إنه إن صح أن أصواتا أخرى تحل محلها مثل (l) أو (p) ، فإن واحدا من أصوات (t) لا يحل محـل الآخر . فعندنا إذاً ثمانية أصوات (t) محددة تحديدا موقعياً ، ولـكل صوت منها موقعه الخاص به ، فى أسلوب كلام نوع من المتـكلمين ، من مكان أو أمكنة معينة. ولهذا يجب أن يوضع لـكل هذه الأصوات رمز (t) الذى يصبح له معنى أصـواتى خاص فى كل موقع ، وإن اتحد معناه التشـكيلى فى الجميع ، بتسميته رمز (t). ويبدو فى علاج « و . ف . توارل » للفونيم أن هذه النظرية لاتزال فى البوتقة ، وأن عمله ليظهر كأنه تعميد قبل الولادة . وأخيرا نحن مضطرون إلى القول إن مجموعة من الفونيمات ليست إلا مجموعة من الرموز الـكتابية . وإذا رمزنا إلى الأشـكال اللغوية رمزا واضحا بنظام رمزى كتابى ، ورمزنا لما فى هذه الأشكال من ملامح ثانوية موقعية برموز فرعية مصاحبة (diacritic) فلربما يمكن اسـتعمال كلمة « فونيم » لوصف الوحدة الرمزية الـكتابية فى هذا النظام الرمزى .

ولـكن العناصر الاستبدالية فى الـكلام ليست رموزا كتابية ، ولـكنها طرق لأشياء يمكن استخراجها من الصوت الإنسـانى الحى وهو يعمل ، ثم تحليلها . ولسنا نقصد بذلك النطق فحسب ، وإنما نقصد أيضا عددا من الصـفات العامة ، والعلاقات التى ترتبط بالنطق ، كالـكمية ، والنغمة ، والنبر ، والقوة .

وتجمل نظرية الفونيم فى قدرة واصفى الأبجديات أن يضـعوا قواعد للنطق ، ولـكن الـكمية ، والنغمة ، والنبر ، ومثل هذه العناصر الاستبداليـة ، تواجه هؤلاء بصعوبات كثيرة من الناحيتين النظرية والعملية . ولهذا توسعوا فى نظرية الفونيم ، لتشمل هذه العناصر . ومن هنا جاءت الاصـــطلاحات « فونيم » ، و « كرونيم » ، وما أشبهها ، لتدل على وحدات التنغيم ، والنـبر ، والـكمية ، وهلم جرا .

وكما يتشقق المعنى إلى عناصره الأصواتية ، والتشكيلية ، والصرفية، والنحوية وهلم جرا ، يجرى تحليل الـكلام المنطوق إلى عناصره التى يمكن تشقيق بعضها ،

وهو الأصوات ، إلى عناصره أيضاً . فهذه الأصوات يمكن تحليلها بطرق متعددة منهـا :

١ — النطق .

٢ — الصفات العامة أو العلاقات ، كالـكمية ، والنبر والنغمة ، والجهر ، التي ترتبط بالنطق ، لتؤدى وظيفة خاصة .

ففى النظام التشكيلى لأى لغة تتـكون الصلات الأصواتية من حالات النطق ، والعلاقات (أى من المخارج ، والصفات) ، ومن مهمة علم الأصوات أن يختبرها ، ويصفها ، ويخضعها للـكتابة بواسطة الرموز الأصواتية . ومن الحقائق المبدئية أن عددا من الأصوات قد يشترك فى مخرج واحد ، مثل (P) ، (b) ، (m) أو يشترك فى صفة واحدة ، كالجهر ، أو الهمس ، اللذين يسميها فيرث «علاقة الجهر» أو (Voice Correlation) ومن الأصوات المهموسة فى الفرنسية (f)(S) (t)(P) أى أن بينها علاقة الجهر السلبية ولـكن (v)(Z) ، (d) ، (b) تتميز من هؤلاء بعلاقة الجهر الإيجابية .

والفرق بين (tore = tɔ:) و :door = dɔ فى النطق الإنجليزى هو علاقة الجهر الإيجابية والسلبية ، فإذا أضفنا إلى ذلك (nor = nɔ:) فقد جئنا بفرق جديد هو الغنة الأنفية ولـكن الفرق بين : tore = tɔ وبين (pore = pɔ :) فرق فى المخرج وهو كذلك بين (door = dɔ :) وبين : bore = b ɔ و (nor = nɔ: و (more = mɔ :) .

وليست هناك صعوبات نظرية فى الأصوات ، لأن التحليل إلى مجهور ومهموس ليس من الضرورى أن يطابق الرموز الـكتابية الرومانية ، التى وضع نسقها ليعبر عن ذلك . وغالبا ما نتهم علماء التشـكيل المتقدمين بشغلهم بالرمزية ، والنوعية عن اللغة ، وقد تتجه نفس التهمة إلى بعض علماء الأصوات المحدثين أيضا .

وليس تيار الـكلام خيطا من الرموز الرومانية . فهذه الرموز الـكتابية فى العادة تدل على النطق ، وربما دلت على علاقة ، أو علاقتين ، كالجهر ، والهمس

والغنة تاركة بقية العلاقات كالنغمة ، والنبر ، ليرمز لها برموز فرعية مصاحبة (diacritic marks) أولا يرمز لها . فصوت (Z) و (S) يمثلان علاقة الجهر الإيجابية والسلبية ، ولكننا نتكلم أحيانا عن (Z) التى لحقها بعض الإهماس أو (S) التى لحقها بعض الإجهار فى موقع معين . وهكذا تصبح الأبواب أربعة جهر وجهر موقعى (إجهار) ، وهمس وهمس موقعى (إهماس) .

واستعمال علامات طول الكمية مستحسن وعملى فى الإنجليزية ولكن إياك أن تظنه مبنيا على تقسيم علمى فهو يستعمل مع الأصوات (i) (a) (ɔ) (u) (ə).

ولكن لا يجب أن ندعى إطراد الكميتين الطويلة والقصيرة فى كل صوت ، فالطول والقصر ينتج عشرة أشكال من هذه الأصوات الخمسة كل منها مقابل استبدالى ، وإحدى العلاقات الطولية الخمس تستدعى تفكيرا فى علاقة النبر أيضا ؛ تلك هى علاقة (ə — ə:) لأن ə لا يقع عليها النبر ، على حين يمكن أن يقع هذا النبر على الأصوات الأربعة الأخرى فى حالتى الطول والقصر وليس هناك من سبب يمنع اعتبار الصوت علاقة كالكمية ، فهناك مثلا إقفال شفوى واحد ، إذا صحبه جهر كانت نتيجة (b) وإذا صحبه همس كانت (p) ومن هنا توجد العلاقة (b — p) .

وإذا أردنا أن ننشىء دراسة صرفية على أساس سليم ، فسوف لا يمكننا أن نفصل بين النطق وبين الجهر والهمس . ليس هناك علم للدلالة بلا صرف ولا علم للصرف بلا أصوات . ولقد جعل التحليل الأصواتى من الممكن أن ينشأ نحو للكلام الإنجليزى ، وقد يلحق الغموض هذا النحو أيضا من جراء كتابته كتابة أصواتية . ويتضح ذلك فى استخدام علامتى (S) (d) مجهورتين أو مهموستين ، وأولاهما للجمع ، والإضافة والغائب ، وثانيتهما للماضى ولاسم المفعول . قارن :

askt = asked.	peid = paid.
dʌks = ducks.	dɔgz = dogs.

وعلاقة الجهر الإيجابية والسلبية توجد فى جميع الأصوات الشديدة ، والرخوة ، الإنجليزية إلا صوت (r) الذى لا مهموس له .

ونصف العلة 'j' فى الإنجليزية (كما فى كلمة bəjɔnd = beyond) لا تقسمه

علاقة الجهر مع أنه فى (w) يفرق الناس فىالنطق بين (what = wat و hwat) وبين (which = wit∫ و hwit∫) . ولكن التفريق الإنجليزى بين الإيجاب والسلب فى علاقة الجهر لا يأتى فى الأنفيات ، كما فى لغة بورما مثلا ، لأن كل الأنفيات الإنجليزية مجهورة . والصفيريات التى تأتى بعد الأنفيات والجانبيات (m, n, ŋ, l) فى الإنجليزية تجعل للجهر والهمس وظيفة معجمية تتضح فى مقارنة :

wins = (wince).	winz = (wins).
wʌns = (once).	wʌnz = (ones).

ونقول بالاختصار ، إن تحليل تيار الكلام إنما يجرى بتشقيقه إلى عناصر ووحدات على طريقة الاستبدال . والمقابل الاستبدالى الأصواتى يدرس بالنسبة للمواقع الأصواتية ، وفى هيكل النظام الأصواتى للغة . وهذا المقابل إما أن يكون مخرجا ، أو صفة ، أو علاقة ، أو مجموع هؤلاء . ودراسة الاستبدال فى الموقع تساعد على الكشف عن الوظيفة الصغرى ، وتتناول البضعة الأولى من المعنى على مستوى أصواتى من مستويات الفهم .

أما الوظائف الصرفية والنحوية ، فسوف تفسر مكوّنات أخرى للمعنى فى السياقات الجراماطيقية ، على مستوى جراماطيقى من مستويات الفهم . ونعود بالقارىء مرة أخرى إلى الجملة الهرائية التى أوردناها فى الكلام عن منهج النحو ، وسنجد أنها مليئة بالمعنى من الناحيتين الصرفية والنحوية ، ولكنها خلو منه من الناحيتين المعجمية والدلالية . والأبواب الجراماطيقية عامة ، وبخاصة أقسام الكلام ، والزمن ، والحالة ، يجب أن تنبنى على أبواب شكلية لغوية . فالأسماء والأفعال فى العربية يتميز أحدها عن الآخر ، بمجرد النظر إليه أو سماعه .

ولإيضاح التحليل العملى للمعنى على المستويات الأصواتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، يمكن أن نأخذ سياقا أصواتيا صرفيا مثل(board = bɔ : d)مكونا فى(b) فى البداية تتبعها (ɔ :) ثم (d) أخيرة فى الكلمة ، فما وظيفة هذه الكلمة ومعناها ؟ وظيفتها ومعناها فى مرحلة التحليل الأصواتى لا يتعديان أنها تختلف عن خمس

عشرة كلمة أخرى من جهة صوت العلة الذى فيها ، وعن كلمات أخرى مثل :

pɔ : t = port　　　bə : t = bert

pɔ : d = pored

فيمكن استعمال صيغة (bɔ : d) فى مقابل الصيغ الأخرى ، ولها موقعها الشكلى الأصواتى الخالص ، على مستوى أصواتى من مستوياب الفهم . فهى تعتبر مقابلا استبداليا معجميا ، وهى فى حالتها هذه محايد صرفى ، يصلح لأن يدخل فى جدول الأفعال ، وفى جدول الأسماء . فأنت إذا سئلت أن تصنع الصيغة المذكورة فى مواقعها من تجاربك ، فسوف تخلق لها جدولا على نمط :

bɔ : d : board,

bɔ : dəvstudiz : board of studies,

bɔ : dtədeθ : board to death,

وهلم جرا . وسوف يعرف كل إنسان الهجاء الإنجليزى لهذه الكلمات، لأن الهجاء فى هذه الحالة له معنى أكثر من مجرد تعيين الماهية الأصواتية ، وفى هذا حجة ضد الكتابة الأصواتية . فالكتابة الأصواتية تزيل الغموض الأصواتى ، ولكنها تخلق غموضا آخر وظيفيا .

ونستطيع الآن أن نربط صيغا مختلفة بعضها ببعض ، فى توزيع برادجماتى ، ولربما تضع هذه الصيغة المذكورة فى التوزيع الآتى :

(1) bɔ : d — bɔ : dz

(2) bɔ : d — bɔ : dz — bɔ : did — bɔ : diŋ

(3) bɔ : — bɔ : z — bɔ : d — bɔ : riŋ

وبهذا التوزيع تحددها فى الأول اسما مفرداً ، وفى الثانى فعلا بسيطا ، وفى الثالث فعلا ماضيا لحقته علامة المضى ، ومضارعه bore .

وما دامت الصيغة فى الحالتين الأوليين محايداً دلاليا ، فإننا نستطيع أن نمحو هذا الحياد بالاتساع فى التوزيع ، حتى يشمل مشتقات الكلمة ، ومركباتها ، ليتضح تحديدها من هذه الناحية . ويمكن الوصول إلى كل ذلك بالتذكر ، وسؤال المتكلم الأصلى للغة ، وبجمع النصوص .

فإذا حددنا العناصر (b) ، (: ɔ) ، (d) باعتبارها ثلاثة مقابلات استبدالية أصواتية ، فقد كشفنا عن جزء من المعنى ، ولكن هذا الجزء ليست له أية وظيفة دلالية . فنحن لا نستطيع حتى أن نمنح الصيغة تحديداً صرفياً عند هذه النقطة ، دون أن ندخلها فى تحليلات جديدة ، فى توزيعات شكلية ، ومواقع فى السياق . فهى عند هذا الحد صيغة محايدة ، إلا من الناحية الأصواتية . وفى « Not on the board » تدخل فى وضوح سياق جديد ، ويتضح جزء آخر من المعنى ، هو الصرفى ، لوضوح أسميتها ، واتضاح وظيفتها الصرفية ، وأما وظيفتها الدلالية ، فإنها لاتزال غامضة عند هذا الحد ، فالجملة كلها محايدة من الناحية الدلالية ولا تتضح وظيفتها الدلالية إلا بتحليلها فى نطاق الماجريات أولا : إيجابياً باستعمال الكلمات بالنسبة للظروف المحيطة بالحدث الكلامى ، وثانياً : سلبياً باستخدام ما يسمى الاستبعاد من الماجريات . فوجود « Chess board » فى هذا الظرف الذى تم فيه النطق ربما يتسبب فى استبعاد اعتبار « Commercial board » أو « board of studies » فهذه داخلة فيما سميناه من قبل استخدام القيم الخلافية فى تحديد المعنى .

وأما « Not on the board ! » و « Not on the board ? » ، فنوعان مختلفان اختلافا نحويا ، لادلاليا ، لأن إحداهما تقرير ، والأخرى استفهام ، ومن هنا يتضح فيهما الجزء النحوى من أجزاء المعنى .

والفكرة المركزية فى علم الدلالة هى فكرة الماجريات (Context of situation) وأول من استخدم هذا الاصطلاح بالمعنى الذى يستخدمه فيه هذا البحث هو العالم البولندى الإنجليزى (برونسلو مالينوفسكى) ، فى الملحق الذى دبجه فى كتاب « The Meaning of Meaning » ، تأليف أوجدن وريتشارد . وإلا فقد جرى الاصطلاح Context على أقلام الكثيرين من الكتاب فى دراسة المعنى بمعان مختلفة باختلاف فرع المعرفة الذى يستخدم فيه الاصطلاح ، وأحيانا باختلاف الكتاب فى نفس الفرع حتى لقد لحقه بعض الغموض . « ومن المجدى أن نؤكد على أى حال — لا أن الاصطلاح (Context) قد أصبح أخيراً غامضاً جداً كما يرى ذلك حماته الأصليون — بل أن استعمالاته ليست متساوية جميعها فى

الاتصال بهذه المشكلة ، مشكلة استقلال الكلمات »[1] . ويستعمل فيرث هذا الاصطلاح باعتباره دالا على عناصر موقف كلامى كامل ، كالمتكلم ، والسامع ، أو السامعين ، والكلام ، وكل مايحدث فى أثناء الكلام من انفعالات ، واستجابات ، ومسالك ، وكل مايتصل بالموقف ويؤثر فيه ، من قريب أو بعيد .

وفى هذه الماجريات المركبة يجد عالم الأصوات ما جراه ، والنحوى والمعجمى كذلك ما جرياتهم ، وإذا أردت أن تدخل فى ذلك الظروف الثقافية العامة[٢] فسوف تحصل منها على ما جريات التجربة لطرفى التبادل فى الكلام . فكل إنسان يحمل معه ثقافته ، وكثير من حقائقه الاجتماعية ، أينما ذهب . فالإنجليزى فى عزلته فى أفريقيا يحمل معه كثيراً من الطوابع الثقافية ، والاجتماعية الإنجليزية . فربما عبّر عن دهشته (exclaim) باللغة الإنجليزية ، إذا فاجأه شىء ما ، وربما تكلم إلى أفراد الحيوان باللغة الإنجليزية أيضاً ، وكتب مذكرته الخاصة ، وقرأ كتباً إنجليزية . ولكن حتى بعد أن ينتهى الأصواتى ، والنحوى ، والمعجمى ، من مهمتهم ، يبقى بعد ذلك قسط كبير من تحليل المعنى ، يكون بإيجاد الترابط بين نتائج أعمالهم ، فى دراسة دلالية تعتمد على الماجريات والتجارب . ويحتفظ فيرث لهذه الدراسة باسم Semantics ولكن حتى لولم تكن الماجريات نهاية الطريق فى تحليل « The house that Jack built » ، فإن عملية التمييز بين بقية العناصر ستكون من مجال التاريخ الاجتماعى .

وبعد فلسنا نستطيع أن نتنبأ بما يخبئه المستقبل من تطور فى هذا الفرع ، ولكننا نستطيع أن نعين ، ونميز ، ونقترح حلا لتلك المشكلة الصعبة التى نصادفها أولا فى وصف الماجريات النوعية ، وتقسيمها فى نطاق الثقافة ، وثانياً فى وصف أنواع الوظائف اللغوية ، وتقسيمها فى نطاق هذه المجريات . وأكبر صعوبة نقابلها هى عدم وجود وثائق تستخدم فى استقصاء كيفية اكتسابنا للكلام أثناء نمونا .

---

(1) Ulman, Principles of Semantics, p. 60.

(٢) المقصود بالثقافة هنا كيفية التنشئة ، بالمعنى الأنثروبولوجى الذى يشمل العادات ، والتقاليد ، والمعتقدات ، وطرق السلوك المحددة ، وهلم جرا .

ولسنا نلقى اللوم فى هذا على علماء النفس والاجتماع ، ما دام من السهل أن يحصل اللغوى على تمرين كاف فى علمى النفس والاجتماع ، يمكنه من السير بمفرده فى هذا السبيل . ولسنا بهذا نهدف إلى علم اللغة الاجتماعى ، بل نبنى على قواعد من علم اللغة . فبلا وجود الأصوات ، لا يمكن وجود صرف لأى لغة من لغات الكلام ، وبلا وجود التنغيم ، لا يمكن أن يوجد النحو وجوداً كاملا .

خذ منذ مثلا كلمة « set » ، فى قاموس أوكسفورد ، فستجدها تغطى ثمانى عشرة صفحة ، ونهرا واحداً ، فوق ذلك ، وتنقسم إلى ١٥٤ مدخلا آخرها « set up » الذى ينقسم بدوره إلى أقسام فرعية ، تستغرق رموز الأبجدية ترقيما ، فتتكرر الرموز لها إلى 'rr' . وهذا يدعونا إلى التفكير فى أبواب لأنواع الوظائف اللغوية المختلفة فالماجريات المتكاثرة ، والموضحة ، يمكن أن تستمر فى تكاثرها إلى مالا نهاية ، حتى تملأ جزءا كاملا . ولكننا نجد من الناحية العملية أن هذه الماجريات يمكن أن تنتظمها أقسام ، هى أنواع الاستعمال ، وحتى لو استخدمنا الأبواب الاجتماعية القليلة المذكورة فى قاموس أوكسفورد ، مثل عامى colloquial ، وسوقى common وطارىء slang وأدبى literary ، وفنى technical وعلمى scientific وتخاطبى conversational ، وخاص بلهجة dialectal ، ثم تذكرنا قاعدة الورود النسبى فى الاستعمال (relative frequency) ، مهما كان ذلك على وجه التقريب فسوف نحصل عن طريق تلك القاعدة على كلمات لا ترد إلا فى ماجريات نوعية .

ونحن بحاجة فى دراسة الجملة إلى أبواب لغوية محددة تحديداً أكثر فى دقته مما هو الآن ، بأن نحدد أنواع الجملة ، واستعمالاتها فى الأدوار الاجتماعية المختلفة التى يلعبها المتكلم . كلنا يبدأ الحياة بدورين اثنين هما النعاس والتغذى ، ولكننا نبدأ نشاطنا الاجتماعى فى الشهر الثالث ، ومنذ ذلك الوقت نضيف إلى تجاربنا أدواراً اجتماعية أخرى بالتدريج . وفى خلال مرحلة النمو يزداد اندماجنا فى النظام الاجتماعى الذى نعيش فيه ، وأهم الشروط والوسائل لهذا الاندماج هو أن نتعلم كيف نقول ما يتوقع الآخرون منا أن نقول ، فى الظروف الخاصة به . وفى الحق

أن الكلمة إذا تعددت ماجرياتها ، فإن المواقف كذلك تتعدد إلى مالا نهاية . ولكن هناك روتيناً من الأيام ، والليالى ، والشهور ، والأعوام. ومعظم وقتنا ينقضى فى خدمات روتينية ، عائلية ، أو مهنية ، أو اجتماعية ، أو وطنية . وليس الكلام هو الفوضى التى لا حد لها كما ظن « يسبرسن » ، لأنه محدد بالطرق والأدوار الاجتماعية . فإذا سلمنا بهذا ، انتقلنا إلى القول بأن هذه الطرق يمكن تقسيمها ، وإيجاد علاقاتها بالدور ، وبالحوادث ، والمناظر ، والحركات . فالمحادثة طقوس معيارية محددة الطريقة والسلوك ؛ فإذا تكلم إنسان إليك ، فأنت فى مجريات محددة ، ولا تستطيع أن تكون حراً فى قول ما يخطر على بالك ، أو يسرك أن تقوله . لقد خلقنا أفراداً ، ولكننا نصبح اجتماعيين لحاجتنا إلى ذلك ، وإلى أن نقوم بمجموعة من الأدوار ، ونتقمص مجموعة من الشخصيات . ولهذا لا يصعب الفهم والتناول لأبواب المواقف ، والأبواب اللغوية . وقد يُجِدُّ كثير من الأبواب نتيجة الملاحظة المنظمة للحقائق .

وتعلُّمنا الكلام روتين فى الدورة اليومية أيضاً . والكلام عمل صوتى للتحكم فى الأشياء ، والناس ، ومنهم المتكلم نفسه ؛ عمل له علاقة بالماجريات ، والمواقف أو له تكيف بكفيتها. إن ممّا بيننا وبين بيئتنا إباحة الكلام، وتزداد كلماتنا باختلاطنا بما فى هذه البيئة . وإن دراسة الكلمات فى هذا الاختلاط الثقافى[1] التنشيئى ربما تصف هذه الناحية الدلالية .

ونحن قد نولد لنرث تركة ثقافية واسعة ، ولكننا نأمل أن ننجح فى حسن استخدام جزء منها على مراحل ، ولسنا بحاجة إلى أن نؤكد أن لكل مرحلة من مراحل الطفولة ، والشباب ، لكل نوع من الأطفال ، بيئة ، وصيفاً لغوية تتصل بها . وهناك حقل واسع للبحث فى السير الكلامية ، وهناك نصيب لكل فرع من فروع اللغة فى دراسة أجزاء المعنى فى تاريخ حياة المتكلم ، وتاريخ اكتسابه

---

(١) بالمعنى الانثربولوجى لا التربوى

للـكلام ، باعتباره عضواً نشطا فى المجموعة التى فى سنه ، وباعتباره تلميذاً فى طفولته وشبابه .

وهناك إمكانيات عظيمة فى دراسة تاريخ تغير المعنى من الطفولة إلى الـكبر ، فى كلمات مثل : أب ، أم ، حب ، طفل ، لعب ، لعبة ، عمل ، نقود ، ملابس شراب ، وهلم جرا . ويخصص فيرث اسم semasiology لدراسة التغير فى المعنى ، ويقترح أن يجعل الأصوات والدلالة من الدراسات اللغوية العامة ، وما يقابلها فى لغة خاصة كالعربية يسمى Phonology ، و semasiology . ولقد كتب جماعة كتابة تخطيطية عن السير الأصواتية لبعض الأطفال ، وأضافوا إليها شيئاً من السير الجراماطيقية فى عمومها ، ولـكننا لا نعلم الـكثير حتى الآن عن تطور الفرد فى اللغة

ومما له صلة بهذا النوع من السير ما يسميه فيرث تجميع الأدوار الاجتماعية ، فعلى الرجل أن يلعب أدواراً مختلفة ، ووظائف مختلفة ، ويتقمص شخصيات مختلفة ؛ فى حياته العادية اليومية. فإذا لم يعلم كيف يقوم بتمثيل هذه الأدوار ، ويحفظ ما يقال فيها ، أخفق فى تمثيل دوره فى الدراما الاجتماعية الـكبرى ، بل ربما كان سبباً فى اخفاق الممثل الآخر الذى يقف أمامه ، ما دام لا يعطيه مفاتيح جُمَله .

وتعدد الأدوار الاجتماعية ، كعضوية المجموعة الشعبية العربية ، وعضوية الأمة المصرية ، وعضوية طبقة منها ، وعضوية عائلة ، أو مدرسة ، أو ناد ، وكالبنوة ، والأخوة ، والحب ، والأبوة ، وكون صاحب الدور عاملا ، أو مصلياً فى مسجد ، أو كنيسة ، أو لاعباً رياضيًّا فى مجموعة ، أو قارىء جريدة خاصة لهـا قراؤها ، أو خطيباً ، يتطلب قسطا من التخصص الاستعمالى اللغوى .

وتشابك الأدوار ذو نفوذ محافظ ، لأن الـكلمة ربما تستعمل فى أدوار مختلفة، وربما يحدد استعمالها ، ولـكن ما دام الاستعمال الخاص لا يكتسب ضيقا ، بسبب ظروفه الاستعمالية أو توسعاً فى نسبة الورود frequency ، فلن تتأثر الاستعمالات الأخرى . ولصوت الراديو فى المنازل نفس النفوذ ؛ مادامت ظروف السماع تسمح بذلك ، ولـكنه إحدى الأدوات التى جاء بها العصر لـكسر الحواجز ، والسماح

بتشابك الدوائر الاجتماعية ، واللغوية ، ولمنع انقسام لغوى أكثر على ما يبدو ، ولتخفيف القوى المحافظة .

والتصميم التقسيمى المناسب للماجريات يقتضينا أن نوسع من مدى فهمنا اللغوى ، فبعض الأبواب الأولية فى هذا التقسيم واضح مثل التكلم ، والسماع ، والكتابة ، والقراءة ، والمحادثة ، والتخاطب الرسمى ، ولغة المدارس ، والقانون ، والدين ؛ كل أولئك أشكال كلامية خاصة . وربما أضفنا لذلك الكلام الذى يقوله المنفرد ، وهو ما يسمى فى الاصطلاح اللغوى « المونولوج » والمواقف التى تقتضى معونة صوتية كما فى الأدعية العامة ، والهتاف ، والغناء الجمعى ، وما يسميه مالينوفسكى « Phatic communication » ، وهو نوع من المحادثة لخلق صلة اجتماعيا بتبادل الكلمات ، كتبادل التحيات ، والكلام عن الطقس ، وفى السياسة ، وفى التبرم بشىء ما ، أو مدحه ، ويتم ذلك بين شخصين ليس بينهما ما يشتركان فى الحديث فيه مما عدا ذلك ، فيمنعان بالتخاطب السكوت المحرج .

وأصر مالينوفسكى أيضا على نوع من الكلام يقوم التبادل الكلامى فيه بوظيفة هامة ، هى المساعدة على انجاز عمل ، كالصيد ، ورفع الأحمال ، والبناء ، والحفر ؛ ويقول إن معنى هذه الكلمات ليس إلا قيمتها العملية فى إنجاز العمل ، وإلا فأى معنى فى « ياسالمة ياسلامة » مثلا ؟ ومعظم العلامات اللغوية البصرية فى أيامنا هذه ملاحظات وتوجيهات من هذا النوع ، كعلامة « احترس من القطارات » ، و « اتجه إلى اليمين » ، و « ممنوع الجلوس على الحشيش » وهلم جرا .

وكثير من محادثاتنا ومناقشاتنا يدور حول إعداد العمل الجماعى أو المحدد اجتماعيا . فلغة الإدارة والحكومة لغة تخطيط ، وتنظيم ، وقيادة عامة ، وما يتبع ذلك من مناقشة حول النجاح أو الاخفاق فى التخطيط والتنظيم والقيادة إنما هو خلق صلة جماعية ، فى موقف الإخفاق والفشل ، أو النجاح فى العمل .

ولنا أن نلاحظ بعض المواقف العامة مثل .

١ — الخطاب :

اسمع يافلان : ياسيّدى الفاضل . عن إذن سيادتك .

٢ — التحية :

وألفاظ الوداع — التأثر بتوقع الفراق فى هذا الموقف وما يقال فيه، اللقاء وما يقال فيه .

٣ — المواقف الإلزامية :

كما فى الكلمات المحدودة الاستعمال بالعرف أو القانون، حيث تربط الكلمات الإنسان بواجب ، أو تحله منه . فكلمة إرساء المزاد العلنى على شخص تلزمه بالشراء ، ومايقال أمام المحقق ملزم للمتهم ، والتوقيع بالاسم ملزم على أيّة وثيقة . ويمكن أن نقوم بدراسة ممتعة لحيثيات الأحكام ، وما فيها من معلومات دلالية ، واعتراف بالماجريات . ولبعض الكلمات قيمة عرفية خاصة فى خلق الارتباط ، مثل « أنا أعلم أنك لن تخدعنى » ، و « وعد الحر دين عليه » ، و « ما تبقاش جلف » لأن استعمال هذه الكلمات يخلق خوف السامع من الرأى الرقيب أن يرميه بأنه خذول ، أو غير حر ، أو جلف .

ومن الكلمات السحرية فى هذا العصر كلمة « مشروع » التى يمكن أن تكسب احتراما لأى عمل ، لاتصالها بمجريات ذات نفوذ ، وأخيرا نحن بحاجة لى خلق أبواب لهذه الدراسة الاجتماعية .

ولأن نقترح أنواعا من الوظائف اللغوية أسهل من أن نقسم المواقف ، ومن أنواع الوظائف الاتفاق ، والتشجيع ، والمصادقة ، والاختلاف ، والتثبيط ، والشتم . وما دامت اللغة طريقة من طرق المعاملة بين الناس والأشياء ، أى طريقة للسلوك ، وحض الآخرين على السلوك المراد ، فيمكننا أن نضيف إلى ذلك أنواعا أخرى من الوظائف كالتمنى ، والدعاء ، واللعن ، والفخر ، والتحدى ،

والرجاء وعدم الاكتراث، والتحقير، وإثارة الغيظ ، والإيلام ، وإعلان العداوة ، واستعمال الكلمات لمنع عمل عدوانى ، أو تأخيره ، أو تعديله ، ولإخفاء النوايا فتكون من ذلك دراسة ممتعة للمعنى . ويجب ألاّ ننسى فى هذا المقام لغة الملق ، والتحبب ، والغزل ، والمدح ، واللوم ، والدعاية ، والإغراء . إن التقويم والحكم فى المدح والذم الموجه إلى الأفراد ، والأمم ، والكتب، والقصص ، محدود الشكل والصيغة أكثر مما يظن الكثير من الناس . ومعظم المتكلمين بالانجليزية يعرفون نسبة كل تعبير مما يأتى إلى التعبيرات الأخرى :

"a good man", "a good chap", "a good fellow", "a good sort" a good scout.

فلكل واحد من هذه التعبيرات دلالته الاجتماعية . وإن دراسة للتعليق على الكتب الجديدة فى الصحف لتُظهر إلى أى مدى أصبح تقويم هذه الكتب فى أسلوبه محدداً من الناحية الشكلية ، وطرق التعبير ، والمفردات . وليس معنى ذلك أن هذه التقويمات أصبحت لامعنى لها ، ولكنها أصبحت مجموعة بسيطة من العلامات المحشودة ، النافعة من الناحية العملية .

وإن التوسع فى تقسيم الوظائف اللغوية الشكلية ليؤدى إلى ملاحظة أنواع مختلفة من الكلام ، كالكلام التقليدى ، والدينى ، والإلحادى ، والحر ، والمحادثة العادية . ويأسف فيرث لتغلب النمطية والمحدودية على المحادثات اليومية ، وأن النظرة إلى هذه المحادثات ضيقة من وجهة نظر الثقافة ، فكل ما يقال يدل على ماسيقال . وهذا نوع من أنواع الماجريات . فهناك قوة إيجابية فى ماتقوله فى موقف معين ، وقوة سلبية فى استخراج الحوادث والظروف من الموقف الذى تستخدم فيه الكلمات . وسنجد فى المحادثة مفتاح الفهم الحقيقى لطبيعة اللغة ، وكيف تؤدى وظيفتها .

والترجمة من لغة إلى لغة فى الواقع مليئة بمشاكل الدلالات . وهذه النظرية التى جاء بها فيرث تحليلات إمبريكالية عملية ، لانظرية للمعنى ، ويمكن وصفها بأنها نسق من الماجريات ، كل ماجرى منها فى داخل الآخر ، وتتجه جميعها إلى شرح

الحقائق اللغوية ، وكل ما جرى منها وظيفة الماجرى الذى يشتمل عليه ، ولا يزال يشتمل كل من هذه الماجريات على الآخر ، حتى تحتويها جميعا ماجريات الثقافة التنشيئية . فالمعنى فى رأى فيرث كل مركب من وظائف لغوية هى وظائف الصيغة. والعناصر الهامة فى هذا الكل المركب هى الوظيفة الأصواتية (الصغرى) ، ثم الوظائف الكبرى المعجمية ، والصرفية ، والنحوية ، ووظيفة الماجريات الدلالية بصفة عامة . وإليك طريقة من طرق تحليل هذه العناصر :

النص الكلامى	الخصائص اللغوية	الماجريات	نوع الوظيفة	الأثر أو النتيجة
يذكر النص	يحلل النص على المستويات اللغوية المختلفة	المتكلم والسامع والظروف	إغراء ، التزام ، الخ .	أثر الكلام من استجابة سلمية إلى عدوان إلى ضحك إلى غير ذلك

خاتمــــة

وبعد فهذا منهج من مناهج الدراسات اللغوية المختلفة ، مطبق على اللغة العربية لأول مرة ، نرجو أن يكون القارىء قد وجد فيه مايثير اهتمامه أو يدفعه إلى التفكير فيه . ولقد تم لنا فى هذا المنهج أن نعالج مسائل الأصوات ، لنقارن بينها وبين علم التجويد ، وأن نعالج مسائل التشكيل ، لنضيف إلى وسائل الدراسة العربية شيئاً جديداً ، ومسائل الصرف والنحو ، لنرى بعض نقط الضعف فيها ، ونرشد إلى نظرة إليها خير من النظرة القديمة ، وأن نعرف بالمعجم ، ومجال نشاطه ، وأن ننقل إلى القارىء صورا عن النظرات المختلفة إلى منهج الدلالة .

والفائدة التى تعود من تطبيق هذا المنهج هى تخليص الدراسات اللغوية من الشوائب الأخرى ، ليجد الطالب نفسه أمام موضوع مستقل ، لا يعتمد فى أفكاره ولا فى اصطلاحاته على فروع المعرفة الأخرى . ولست أدعى أننى قد أتيت فى هذا الكتاب بشىء لا يقبل المناقشة ، بل على العكس ، إن كل ما أطمع فيه هو أن ينجح هذا الكتاب فى إثارة النقاش حول منهج اللغة ، والحقيقة دائما وليدة البحث . والواقع أن الحقائق العلمية اعتبارية كلها ، فتظل الحقيقة منها حقيقة حتى تظهر أخرى تحل محلها ، وتخضع لنفس المصير المحتمل .

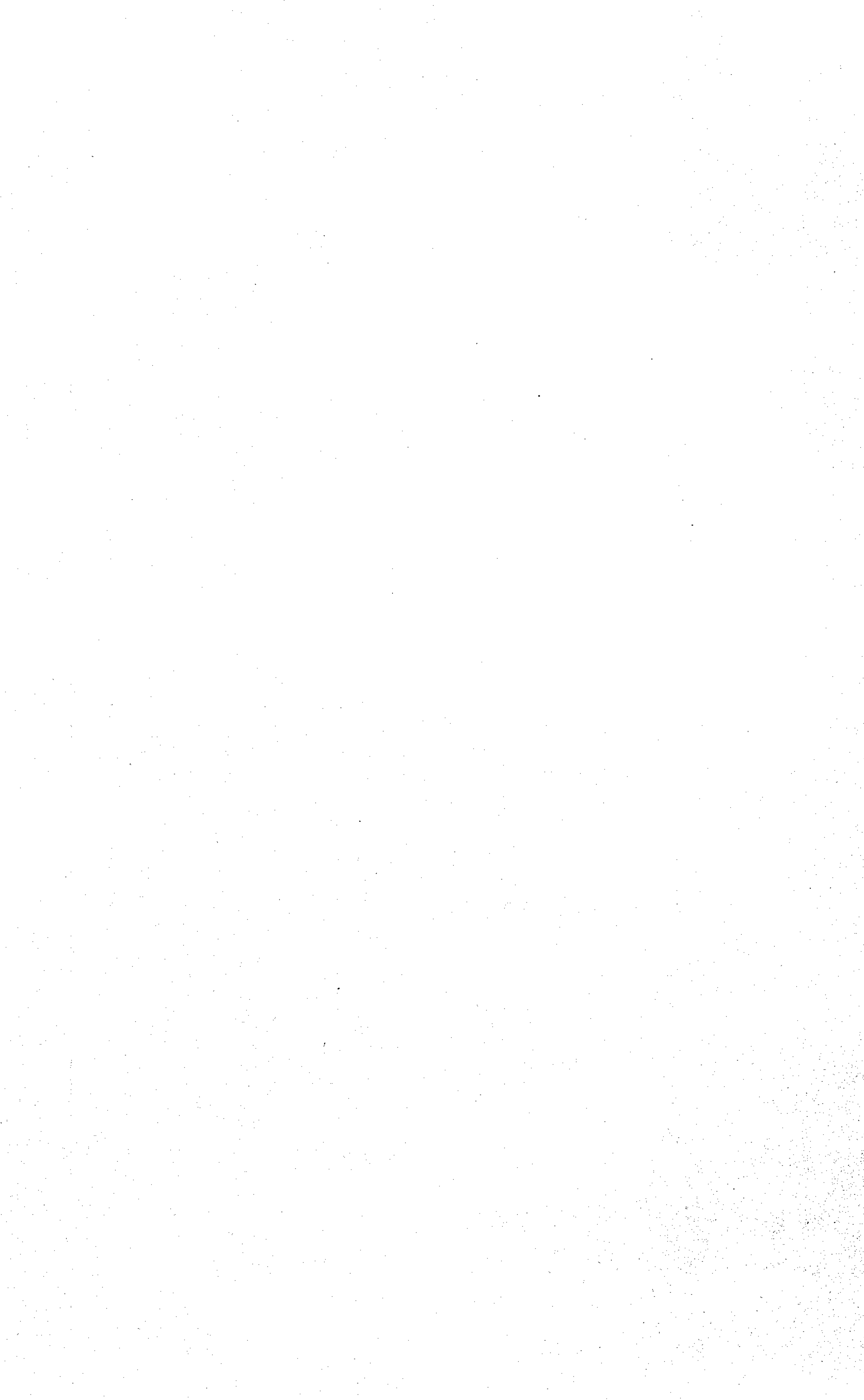
إذاً فليس فى العلم حقيقة مطلقة ، وإنما توجد الحقائق المطلقة فى أذهان المتعصبين والجهلاء .

دعنا إذاً نقل إن المجمع اللغوى ، وهو يضم خلاصة المفكرين اللغويين فى هذا البلد ، قمين بأن يمنح هذه المناهج الحديثة بعض تفكيره . ولئن فعل — وأرجو أن يفعل — فسيجد فيها بعض الغناء ، وشيئا من النفع ، قد لا ينافسها فيهما أى منهج قديم .

وأما طلاب الجامعة فمرجوون أن يحاولوا فهم هذه المناهج ، وأن يقولوا كلمتهم في سهولتها أو صعوبتها ، وفى تيسيرها أو تعسيرها للدراسات اللغوية . فإذا كانت هذه المناهج سهلة الفهم ميسرة للغة ، فأرجو أن يتكفل لنا المستقبل بمن يقيم على أساسها دراسات مفصلة تجريبية لهذه الفروع اللغوية التى شرحنا مناهجها .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يوفقنا إلى الصواب ، وألا يجنبنا حسن القصد ، إنه مجيب الدعاء .

———————





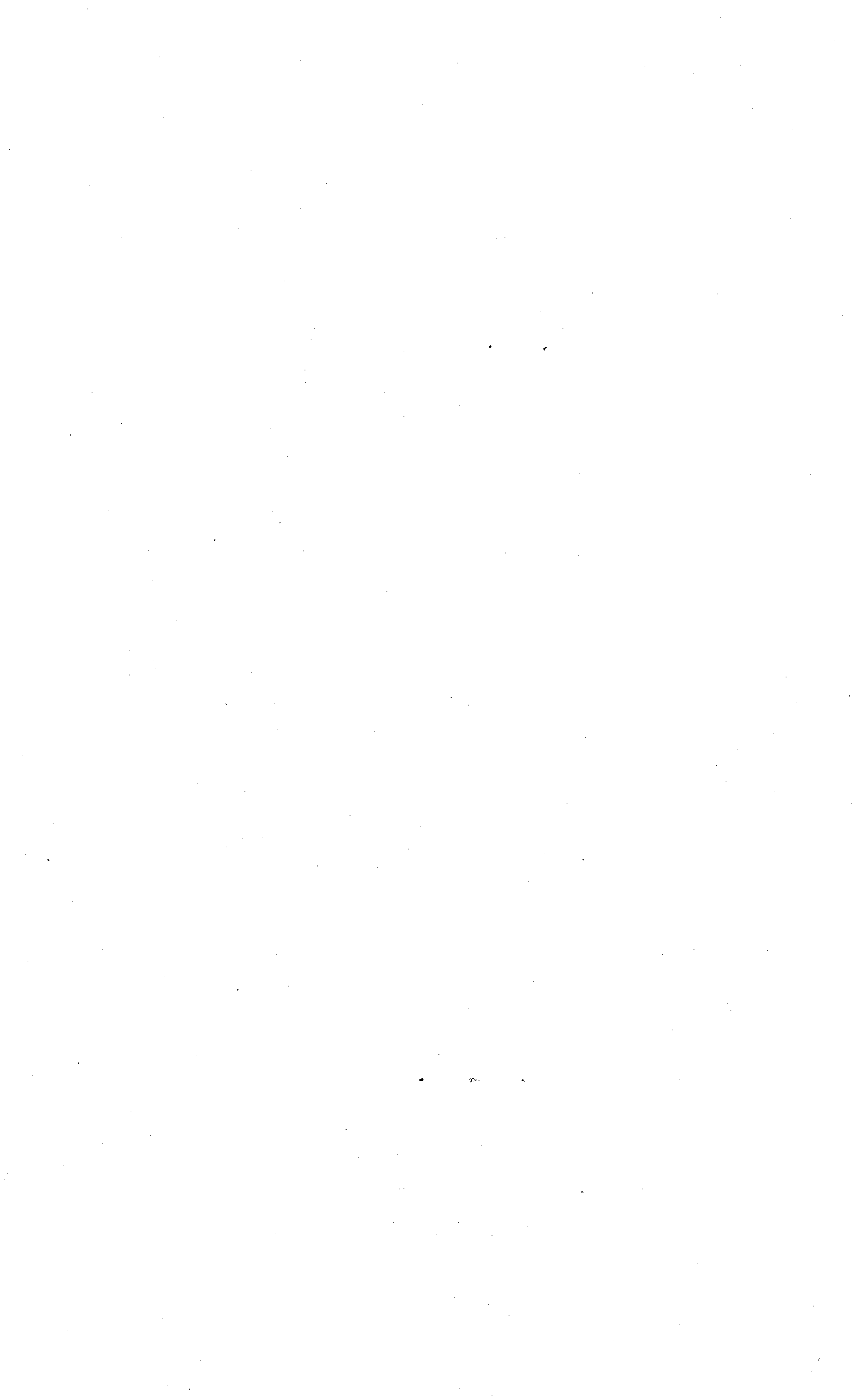


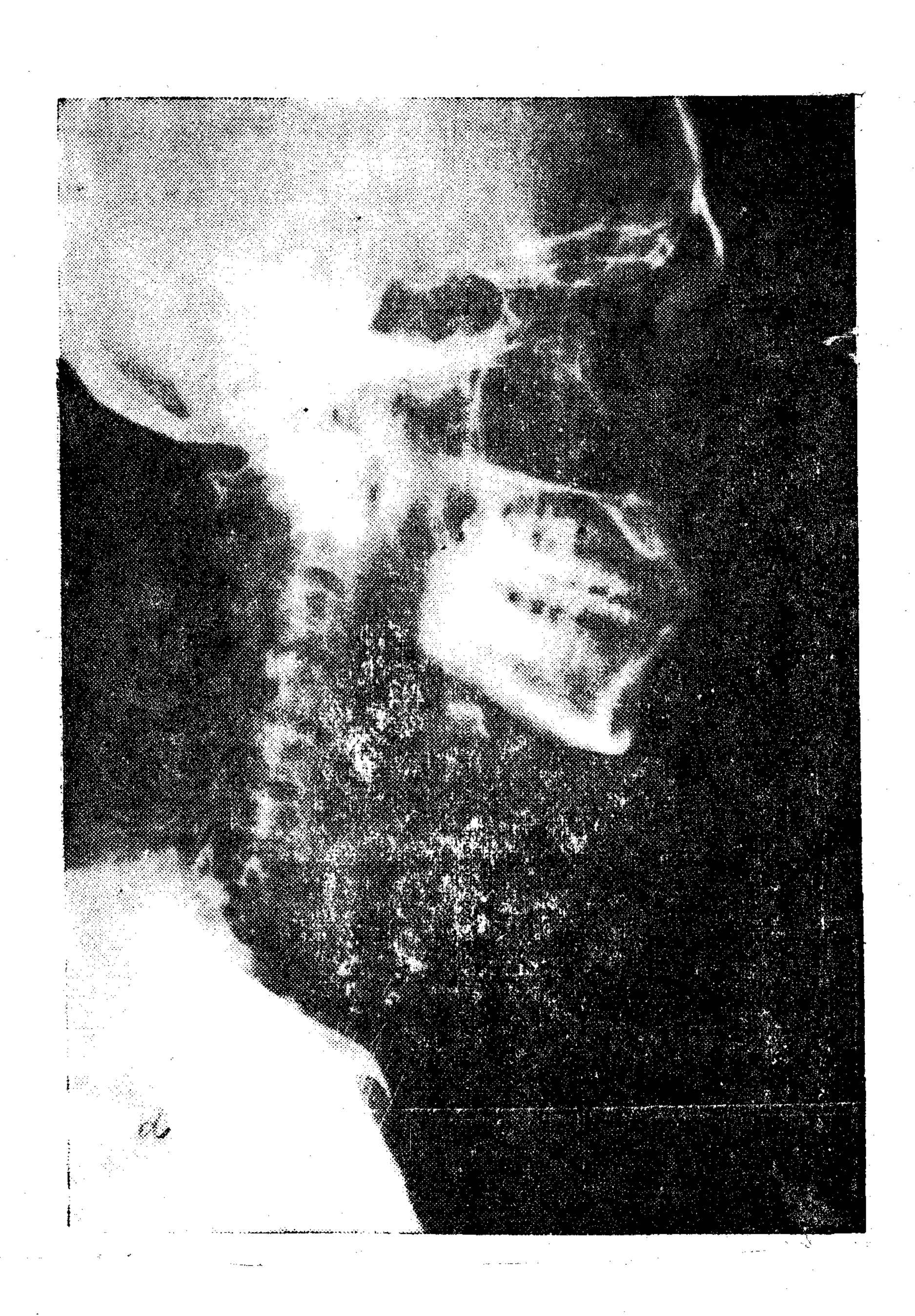


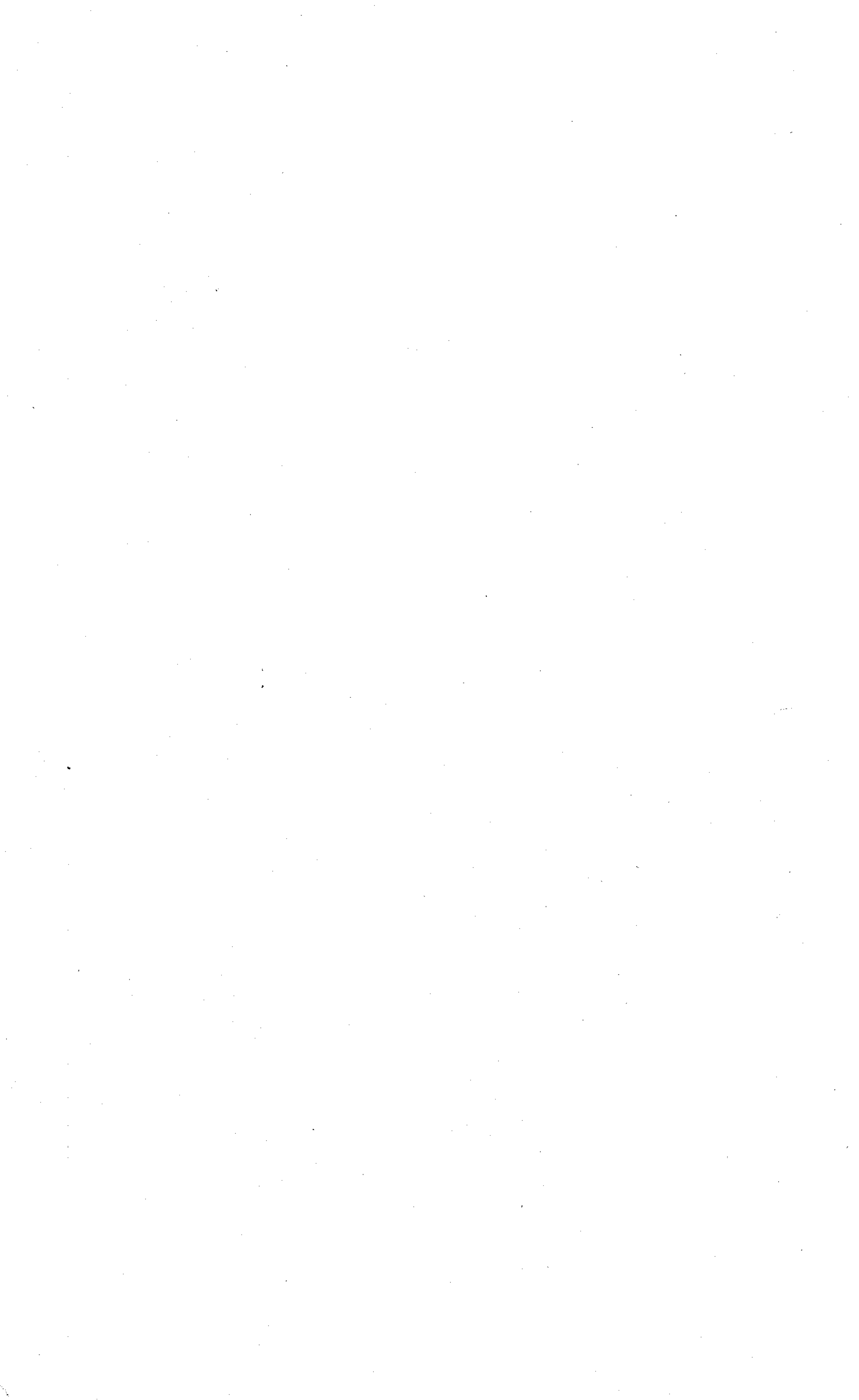












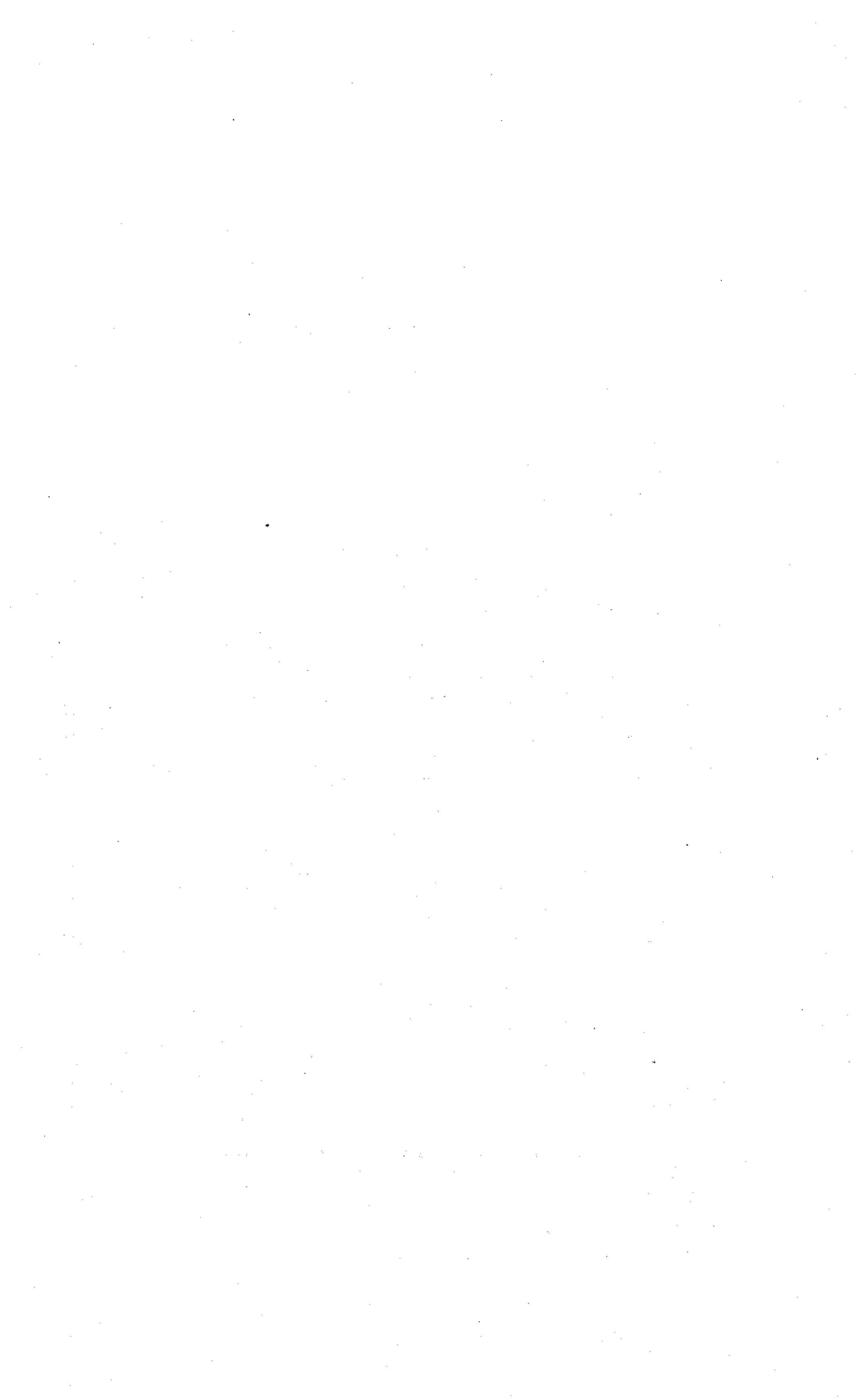










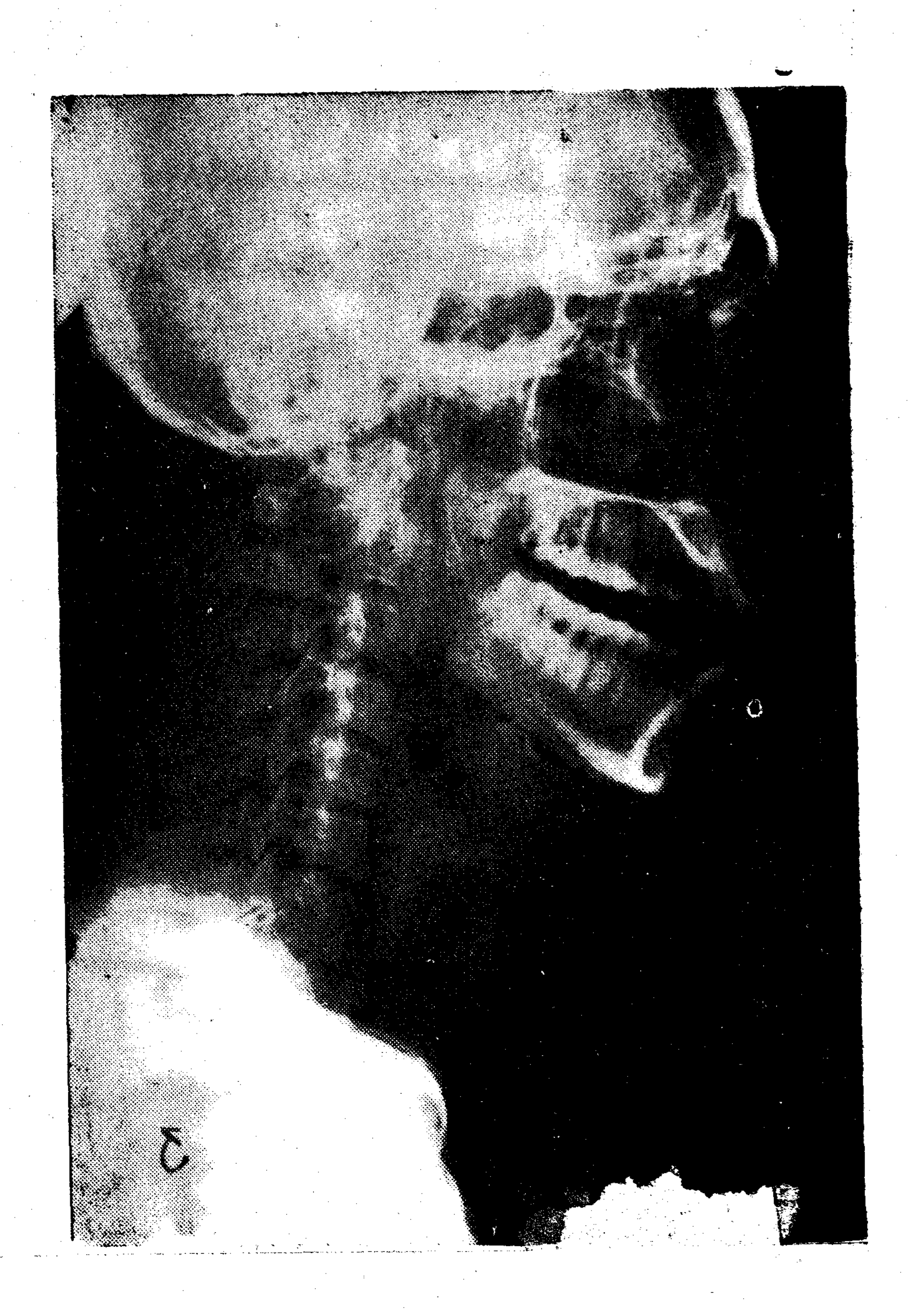








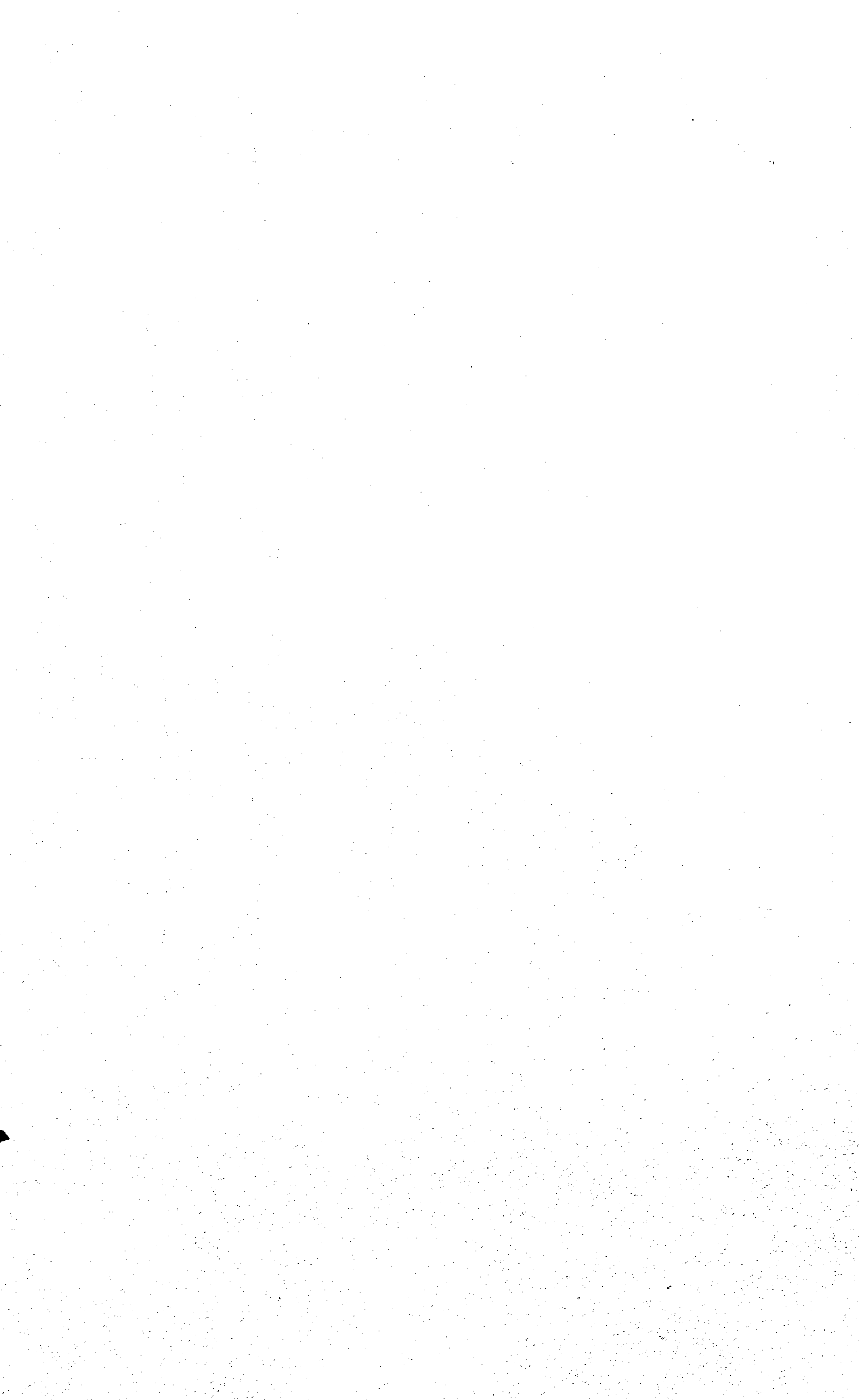






١ — مراجع عربية

اسم المؤلف	اسم الكتاب
١ — ابن الأنبارى . كمال الدين أبى البركات عبد الرحمن	الإنصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين
٢ — ابن جنى . أبو الفتح عثمان	الخصائص
٣ — ابن عقيل . أبو محمد عبد الله	شرح الألفية
٤ — ابن مضاء . أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد	الرد على النحاة
٥ — ابن هشام . عبد الله بن يوسف الأنصارى	شذور الذهب
٦ — الأشمونى . على بن محمد	شرح الأشمونى لألفية بن مالك
٧ — الجاحظ . أبو عثمان عمرو بن بحر	الفصول المختارة (رسالة الرد على النصارى)
٨ — الجرجانى . عبد القاهر	دلائل الإعجاز
٩ — السيوطى . جلال الدين	المزهر
١٠ — » »	همع الهوامع شرح جمع الجوامع
١١ — الصبان . محمد بن على	حاشية الصبان على الأشمونى
١٢ — العطار . الشيخ حسن	حاشية العطار على مقولات السجاعى



٢ — مراجع أجنبية

13) A. F. Watts. — Language & Developement of Children.

14) B. Rusell. — Human Knowledge.

15) Bloch & Trager. — Outline of Linguistic Analysis.

16) Bloomfield. — Language.

17) Carnochan. — A Study in the Phonology of an Igbo Speeker

18) Daniel Jones. — English Pronouncing Dictionary.

19) « « — The Phoneme Theory.

20) Dermestater. — La Vie des Mots

21) De Saussure. — Cours de Linguistique Générale.

22) Firth. — Sounds & Prosodies, an article in The Transactions of the Philological Society, 1948.

23) « — Technique of Semantics, an article in the TPS. 1935.

24) « — Word Palatograms and Articulation, an article in the Bulletin of The School of Oriental and African Studies Vol. XII, Parts 3 and 4, 1948.

25) « — Personality and Language in Society, an article in the Sociological Review, Vol. II. Sect. two, 1950.

26) Firth & Adam — Improved Technique in Palatography and Kymography, an article in the Bulletin of the S.O.A.S., Vol. XII, Part 3, 1950.

27) Ida Word. — Phonetics of English.

28) Gardiner. — Speech and Language.

29) Jespersen. — The Philosophy of Grammer.

30) « — Language.

31) Juluis Fuerst. — A Hebrew and Chaldee Lexicon.

32) Lewis — Language in Society.

33) M. Schlaucher. Early Bchaviourist Psychology and Contemporary Linguistics, Word, Vol. 2. 1946.

34) Marouzeau. Lexique de la Terminologie Linguistique.

35) Martinet. Phonology as Functional Phonetics. Publications of the Philological Society 1949.

36) Meillet. Linguistique Historique et Linguistique Générale.

37) Ogden & Richard. The Meaning of Meaning.

38) O'Leary. How Greek Science Passed to the Arabs.

39) Pike. Phonemics.

40) S. Ulmann. The Principles of Semantics.

41) Sapir. Selected Writings.

42) Sweet. New English Grammer.

43) « Primer of Phonetics.

44) The New English Dictionary.

45) The Works of Aristotle Translated intoEnglish.

46) Troubetzkoy. Principe de Phonologie.

47) « Grundzüge der phonologie.

48) Vendryes. Language (The English translation).

49) Whitney. Language and the Study of Language.

الخطأ والصواب

أرجو أن يضيف القارىء بين السطرين الثانى والثالث فى ص٨٥ ما يأتى :

٥ — لثوى Alveolar وهو ما اتصل فيه طرف اللسان باللثة أثناء النطق .

ثم يحول رقم ٥ إلى ٦ و٦ إلى ٧ وهكذا حتى يحول ٩ إلى ١٠ .

ص	سطر	خطأ	صواب
١	١٥	مما	ما
١١	٩	تنفذ	تنفد
٣١	١٣	Langne	Langue
٣١	١٤	Parale	Parole
٣٢	١٨	ويروى	ويرى
٣٥	١٥	وهى	وهو
٤٧	١٤	بالحرف	بالحرف 'r'
٦٥	١٧	هواء	الهواء
٦٦	٩	مخرجا جهراً	مخرجا أو جهراً
٧٨	٨	الضعيفة	الضيقة
٨٢	١٣	تتكون	تتلون
٨٧	٢١	أصواتى	صوتى
٨٩	١١	الأطباق	الإطباق
٩١	٤	ţ	ṭ
٩٢	٣	بإلقاء	بإبقاء
٩٣	١٩	مثلوا	متلوّا
٩٤	٢	iid	iid
٩٨	٥	yivza ʕ	yivz æ ɩ
٩٨	٥	ʕ æ v ɣ æ æ ɩ ɩ	ʕ æ v ɣ aanii
٩٨	٣	. a v ʒ ā ɩ	ʕ av ʒ a ɩ
٩٩	١٠	ɣ a kr	ɣ æ kar
٩٩	١٢	« »	« ɵ »
١٠٠	١٦	ʕ a ʒ d æ k	ʕ a ʒ d æ k
١٠١	١٢	wizaarittal	wizaaritil
١٠١	١٤	æ jg æ æ r	ʕ æ jg æ æ r
١٠٤	٤	( )	(j)
١٠٥	٢٢	ويسميه	ويسميه

ص	سطر	خطـــأ	صـــواب
١٠٦	٢	وكذلك	ولذلك
١٠٧	٩	قبلها	قبلهما
١٠٧	١٠	i ^{n}k æ æ n	ʕ i ŋ k æ æ n
١٠٨	١	« »	« y »
١٠٨	١٤	) ، والرفعة	) ، والفتحة ، والرفعة
١١٩	٩	فى i	فى شكل i
١٢٣	١٨	أساس فى وحدات	أساس وحدات
١٢٩	١٦	مكان صوت للصوت	مكان للصوت
١٣٠	١	النفس	النفسى
١٣٤	١٨	(ص ع ع)	(ص ع ع ص)
١٣٥	١	(ص ع ص ص)	(ص ع ص ص)
١٣٧	٣	التقييدية	التقليدية
١٣٨	٤	أو ألفه	أو ألفه أو واوه
١٤٥	٩	الذى	التى
١٤٦	٩	و « التحيل »	و «التحليل»
١٥٠	٨	وإلا	ولا
١٥١	١	موقعه	موقعية
١٥٦	٤	(الحروف الطبقة)	(الحروف الطبقية)
١٥٦	١١	أقل	أكثرها
١٦١	٢١	(ص ع ع ص)	(ص ع ص ص)
١٦٨	١٣	بجملة	بفعل
١٧١	١٠	العلامة	العلاقة
١٧٢	٢١	أو	و
١٧٣	٢	باب	بالباب
١٧٤	٣	آخر معناها	آخر من معناها
١٧٥	٣	استقالة	استفالة
١٨٥	٤	وصرص	رصرص

ص	سطر	خطأ	صواب
١٩١	٣	ضربتا	ضربتُ
٢٠٥	٢٣	أو	و
٢٤٠	١٣	الاصلاح	الاصطلاح
٢٤٢	١٧	عنوناً	عوناً
٢٤٧	٢	علامة	علاقة
٢٥٠	٢٣	العوامل . ومن	. ومن العوامل
٢٥١	٧	الـكلمتين قيمة	الـكلمتين ذا قيمة
٢٥٥	٢٣	vtmonst	Atmoust
٢٥٥	٢٣	bete	beter
٢٥٦	٨	(توارل)	(توادل)

رقــم الايــداع بــدار الكــتب
١٩٨٩/٨٨٢٢

مكتب النسر للطباعة
٢٢ أ ميدان بن الحكم - حلمية الزيتون
ص . ب : ٨١ - تليفون : ٢٤٢٠٩٧١

فهـــرس

الموضوع | الصفحة